

قَصَصِ الْقُرَّانِ

تأليف

فؤاد بن سراج عبدالغفار

تقريظ

الشيخ أبي عمير محبى بن عرفات بصري البصري



أمام الباب الأخضر - سيلنا الحسين
٥٩٢٢٤١٠ ٥٩٠٤١٧٥

* عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»^(١).

* قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي^(٢) - رحمه الله تعالى - :
لو صنف كتاباً لجعلت في كل باب منه حديث إنما الأعمال بالنيات.



(١) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١١٠٧)، وغيرهما.
(٢) عبد الرحمن بن مهدي الإمام العَلَم، قال عنه الإمام الشافعي: لا أعرف له نظيراً في الدنيا. ولد سنة ١٣٥هـ. ومات في جمادى الآخرة سنة ١٩٨هـ.

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لمكتبة التوفيقية (القاهرة-مصر) ويحظر طبع
أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً
أو مجزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله
على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية
إلا بموافقة الناشر خطياً .

Copyright ©
All Rights reserved

Exclusive rights by Al Tawfikia Bookshop
(Cairo-Egypt) No part of this publication may
be translated, reproduced, distributed in any
form or by any means, or stored in a data
base or retrieval system, without the prior
written permission of the publisher.

المكتبة التوفيقية

القاهرة - مصر
العنوان: أمام الباب الأخضر - سيدنا الحسين
تليفون: ٥٩٠٤١٧٥ - ٥٩٢٢٤١٠ (٠٠٢٠٢)
فاكس: ٦٨٤٧٩٥٧

Al Tawfikia Bookshop

Cairo-Egypt
Add.: In Front of the Green Door Of El Hussen
Tel : (00202) 5904175 - 5922410
Fax : 6847957

إشراف
توفيق شعلان

الإهداء

- إلى من جعلهما الله تعالى سبباً في وجودي في هذه الحياة.
- إلى من رباني صغيراً.
- إلى أبي .. إلى أُمِّي .
- ومهما فعلت لهما من خير فلا أستطيع أن أوفيتهما حقهما.
- فلا أملك إلا أن أقول ﴿رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤].
- إلى زوجتي وذريتي ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].
- وأسأل الله تعالى أن يجمعني في الفردوس الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ بقلم فضيلة الشيخ / مجدي بن عرفان

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد...

فإن كتاب الله عز وجل ملىء بالفوائد والعبر وخاصة في قصص الأنبياء الذين أرسلهم الله عز وجل ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور فقاموا بذلك حق القيام وجادلوا أقوامهم بالتي هي أحسن ليهدوهم للتي هي أقوم فنصرهم الله عز وجل بإقامة الحجة الواضحة على أقوامهم، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وكثير من القارئ للقرآن والمتوقفين عند قصصه يحكونها على ألسنة حكايات وقصص فحسب، وقليل منهم من يقف ويتدبر هذه القصص وهذا التدبر هو المرجو من تلاوة القرآن ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وممن وقف على هذه الفوائد واستخرج من ثنايا القصص النبوية وغيرها في القرآن أخونا أبو عبد الرحمن فؤاد سراج في كتابه الذي بين يديك ((فتح الرحمن في قصص القرآن)) وقد قرأت بعضه ونظرت فيه فوجدته جديراً بالاعتناء والدراسة، أسأل الله عز وجل أن يكتب له الأجر وينفع بكتابه من قرأه ويجعله في ميزان حسناته، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب أبو حمير
مجدي عرفات
المصري الأثري

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١).
 ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(٢).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾^(٣).

وبعد...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار... ثم أما بعد.

إن القصة في كتاب الله تعالى لم تأت لغوا ولا حشوا -تعالى الله عن ذلك- ولم تأت لمجرد الحكاية والتسلية لقطع الوقت فيما لا يفيد كما هي الحال في غالب حكايات البشر، ولم تأت القصة في كتاب الله لنشر مذاهب هدامة تحارب الفضيلة، وتنشر الرذيلة، كلا بل جاءت القصة في كتاب الله لمقاصد سامية وأهداف عالية أحملها الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا

(١) سورة آل عمران: ١٠٢.

(٢) سورة النساء: ١.

(٣) سورة الأحزاب: ٧٠-٧١.

يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿يوسف: ١١١﴾.

فالقصة القرآنية نبع من الحكمة لا ينضب، وبحر زاخر بالفوائد والدروس والعبر تستحق من أولى الألباب التأمل والنظر، خبرها الصدق، وقولها الحق، تهدي من اعتبر إلى صراط الله المستقيم، وتصدق مسيرة المرسلين من لدن آدم ومروراً بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وتصلهم جميعاً بخاتم النبيين محمد عبد الله ورسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله للعالمين مبشرين ومنذرين ودعاة إلى توحيد رب العالمين، ذلك أنها ليست من نسج خيال البشر، ولا من نتاج عقولهم أو تسطير أعلامهم ولكنها تنزيل من حكيم حميد. قال الله تعالى مخاطباً نبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهُمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وفي محاولة متواضعة نلج هذا الموج تلمس الهداية ونستظل بأسباب الرحمة ونبحث عن الفوائد ومواطن العبرة في القصة القرآنية سائلين الله التوفيق والسداد، والهداية والرشاد في الحياة الدنيا ويوم المعاد.

ولقد جمعت هذا الكتاب من مراجع شتى أذكرها كلها في آخر الكتاب من باب الأمانة العلمية. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه

الراجعي عفو الله ورحمته التي وسعت كل شيء

فؤاد بن سراج عبدالغفار

أبو عبد الرحمن

الفصل الأول

معنى القصص ومنافعها

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى القصص:

● قصص: يقال قصصت الرؤيا على فلان إذا أخبرته بها. وقصصت الحديث: رويته على وجهه. وقص أثره: تتبعه قال تعالى على لسان أم موسى ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] أي تتبعي أثره حتى تنظري من يأخذه والقصة: هي الأمر، والخبر، والحكاية، والشأن، والحال والقصص بالكسر: اسم جمع القصة.

والقصص بالفتح: الاسم، وضع موضع المصدر حتى غلب عليه قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [سورة يوسف: ٣]. أي نبين لك أحسن البيان. والقاص: الذي يأتي بالقصة على وجهها، كأنه يتتبع معانيها وألفاظها.

المبحث الثاني: منافع القصص القرآنية:

● لقد قص الله علينا في كتابه قصصاً طيبة من أخبار أنبيائه، ومن أخبار الأمم السابقة، وليس معنى إيراد القصص القرآنية التسلية والتسرية، والسمو، ولكن لنتفجع ونعتبر بهذا القصص.

● ومن هذه المنافع:

١- العبر وأبلغ العظات ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة يوسف: ١١١].

٢- أن بها يتم ويكمل الإيمان بالأنبياء صلى الله عليهم وسلم. فإننا وإن كنا مؤمنين بجميع الأنبياء على وجه العموم والإجمال، فالإيمان التفصيلي المستفاد من قصصهم، وما وصفهم الله به من الصدق الكامل والأوصاف الكاملة التي هي أعلى الأوصاف، وما لهم من الأفضال والإحسان على جميع نوع الإنسان، بل وصل إحسانهم إلى جميع الحيوانات بما أبدوه للمكلفين في الاعتناء بها والقيام بحقوقها، فهذا الإيمان التفصيلي بالأنبياء يصل به

العبد إلى الإيمان الكامل، وهو من مواد زيادة الإيمان.

٣- تقرير الإيمان بالله وتوحيده وإخلاص العمل له والإيمان باليوم الآخر، وبيان حسن التوحيد ووجوبه، وقبح الشرك وأنه سبب الهلاك في الدنيا والآخرة.

٤- وفي ذكر القصص أيضاً: عبرة للمؤمنين، ودروس في جميع مقامات الدين، في مقام التوحيد والقيام بالعبودية، وفي مقامات الدعوة والصبر والثبات، والصدق والإخلاص لله في جميع الحركات والسكنات، واحتساب الأجر والثواب من الله تعالى.

٥- ومن منافعها: التذكير بأيام الله في الأمم السابقات ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ [سورة القمر: ٤].

٦- ومنها: تثبيت قلوب المؤمنين والمؤمنات والطائعين والطائعات: قال بعض العلماء: «الحكايات جند من جنود الله تعالى، يثبت الله بها قلوب أوليائه» قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [سورة هود: ١٢٠].

٧- ومنها: أن القصص القرآنية اشتملت على فصول في الأخلاق مما يهذب النفوس، ويحمل الطباع، وينشر الحكمة والآداب، وطرق في التربية والتهديب، تساق أحياناً مساق الحوار، وطوراً مسلك الحكمة والاعتبار، وتارة مذهب التخويف والإنذار، كما حوت كثيراً من تاريخ الرسل مع أقوامهم، والشعوب وحكامهم، وشرح أخبار قوم هدوا فمكن الله لهم في الأرض، وأقوام ضلوا، فساءت حالهم، وخربت ديارهم، ووقع عليهم العذاب والنكال، يضرب بسيرهم المثل، وتدعو الناس إلى العظة والتدبير، لتدل الناس على الخلق الكريم وتدعوهم إلى الإيمان الصحيح، وترشدتهم إلى العلم النافع بأحسن بيان، وأقوم سبيل.

٨- بيان أن الذنوب هي سبب هلاك الأمم والأفراد. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [سورة الكهف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [سورة النساء: ١٢٣].

والمعنى أن كل من يعمل سوءاً يلقي جزاءه، لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي

للعمل لا يتخلف عنه، فسنة الله تعالى ثابتة ومطرودة وعامة، ولولا ثباتها واطرادها وعمومها لما كانت معنى في ذكر قصص وأخبار الأمم السابقة وطلب الاعتبار بما حل بهم، ولكن لما كان ما جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم، حسن ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ بها.

٩- توضيح بعض معاني الشريعة الإسلامية للمسلمين ونشرها فيما بينهم لتبصيرهم بها ودعوتهم إلى فحص نفوسهم وصفاتهم وأحوالهم وما هم عليه كأفراد أو أمم أو دول أو جماعات في ضوء سنن الله التي بينها لنا.



الفصل الثاني

قصة آدم عليه الصلاة والسلام

وفيه مباحث:

المبحث الأول: معنى قول الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

• تبدأ قصة خلق آدم، وهو أبو البشر عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بتلك المحاورة بين الله وملائكته قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

• وفي قوله تعالى (خليفة) وجهان من التفسير للعلماء:

• أحدهما: أن المراد بالخليفة أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، لأنه خليفة الله في أرضه في تنفيذ أوامره. وقيل: لأنه صار خلفا من الجن الذين كانوا يسكنون الأرض قبله. وقيل: لأنه إذا مات يخلفه من بعده. وكون الخليفة هو آدم هو الظاهر المتبادر من سياق الآية.

• الثاني: أن المراد بالخليفة: الخلائف من آدم وبنيه لا آدم نفسه وحده.

كقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ الآية [البقرة: ٣٠].

ومعلوم أن آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ليس ممن يفسد فيها. ولا ممن يسفك الدماء. وكقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]. وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢].

• ويمكن الجواب عن هذا بأن المراد بالخليفة آدم، وأن الله أعلم الملائكة أنه يكون ذريته من يفعل ذلك الفساد وسفك الدماء. فقالوا ما قالوا: وأن المراد بخلافة آدم الخلافة الشرعية، وبخلافة ذريته أعم من ذلك، وهو أنهم يذهب منهم قرن ويخلفه قرن آخر.

• أما قوله تعالى: ((جاعل)) وهو اسم فاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل من جعله الخليفة في الأرض وقد صدق وعده، ووقع

ما أخبر به، وهذا ظاهر في أنه من أول الأمر جعله خليفة في الأرض.

• قوله تعالى على لسان ملائكته: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ليس في هذا السؤال اعتراض أو قول على الله بغير علم، والملائكة أتقى الله من أن تقول ما لا تعلم، وهم القائلون: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢].

وفي هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بني آدم سيفسدون في الأرض، وإلا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون، والله تعالى يقول، وقوله الحق ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٧]. والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير، قال الله تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. فكان سؤالهم من باب التعلم والتخوف من أن يكون هذا الخليفة ممن يسفك الدماء ويفسد في الأرض بالكفر والمعاصي، فأعلمهم ربهم أنه يعلم من الحكم والمصالح ما لا يعلمون.

• المحاورة بين الله تعالى وملائكته كانت قبل ابتداء خلق أبي البشر آدم عليه الصلاة والسلام، فلما خلقه الله تعالى وقع كل ما أخبر به سبحانه علام الغيوب.

• فوائد وأحكام الآية الكريمة ذكرها الشيخ ابن العثيمين^(١):

والمقصود بالآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وأما الفوائد والأحكام فهي:

• إثبات القول لله عز وجل، وأنه يقول بصوت مسموع وحروف متتالية، لأن هذا هو الكلام المعروف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم، وعلى هذا جرى السلف الصالح ومن تبعهم من الأئمة بأن الله تعالى يتكلم بكلام مسموع بحروف متتالية، وأنه يقول كذلك قولاً بحروف متتابعة وصوت مسموع والأدلة على ذلك كثيرة جداً.

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة عناية الله - عز وجل - برسوله محمد ﷺ، وذلك بإضافة ربوبيته تعالى إليه أي إلى الرسول ﷺ حيث قال: ((وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ)) والربوبية الخاصة تقتضي عناية أكثر وأتم، وذلك أن ربوبية الله تعالى عامة وخاصة، فالعامة الشاملة لجميع الخلق المقتضية للملك والتدبير، تدبير شئون الخلق عموماً مثل قوله تعالى:

(١) أحكام من القرآن الكريم ص: ١٥٣.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [سورة الناس].

فقال: «قل أعوذ برب الناس» عمومًا الآيات في هذا كثيرة. وأما الربوبية الخاصة فهي التي يضيفها الله - عز وجل - إلى سادات البشر كالأنبياء ونحوهم.

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة إثبات الملائكة لقوله: «وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ وَأَنْ الْمَلَائِكَةُ لَمْ يَقُولُوا، فَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ وَيُحَاجُّونَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لَهُمْ: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا» وفي هذا إبطال لقول من قال: إن الملائكة عبارة عن القوى الخيرية أو الخيرة، وليست أجسامًا تتكلم أو تسمع، فإن هذا قول باطل يرده الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

• ومن فوائد الآية الكريمة إثبات قيام الأفعال بالله عز وجل لقوله: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» فإن الجعل يقتضى إيجادًا بعد عدم، وهو كذلك، والله عز وجل موصوف بصفات الذات اللازمة لذاته وبصفات الأفعال المتعلقة بمشيئته وحكمته، هذا هو مذهب السلف وأئمة الأمة.

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة الإشارة إلى أن للأرض عُمَرًا قبل آدم وذريته لقوله تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» أي يخلفون من سبقهم.

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الأمم السابقة على آدم وذريته كان فيهم من الشر والفساد وسفك الدماء ما اقتضى أن تسأل الملائكة ربها عز وجل، هل يجعل في هذه الخليقة من يكون كمن سبقهم لقولهم «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ».

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة تعظيم شأن الدماء، ولهذا خصتها الملائكة بالذكر في قولهم: «مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ» وإلا فمن المعلوم أن سفك الدماء من الفساد في الأرض، لكن لما عطف على العام وهو خاص دل ذلك على أهميته، وأنه من أعظم الفساد في الأرض.

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن الملائكة عليهم الصلاة والسلام قد شغلوا أوقاتهم في تسبيح الله وتقديسه، وتسبيح الله معناه تنزيهه عن كل عيب ونقص، فهو سبحانه وتعالى منزّه عن العيوب والنقائص سواء أكان النقص في صفة كماله أو كان نقصًا مستقلًا، وكذلك نقول في العيوب، فينزه الله تعالى عن الوصف بالعجز والجهل والعمى والموت وما أشبه ذلك من الصفات الناقصة، وتُنزّه صفاته الكاملة عن أن يلحقها شيء من

النقص، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]. فمع خلق هذه المخلوقات العظيمة في هذه المدة القصيرة لم يلحقه - عز وجل - لغوب وهو التعب والإعياء. وينزه عز وجل عن مشاهة المخلوقين، لأن مشاهة الناقص نقص، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. إذا الذي ينزه الله عنه ثلاثة أشياء: مشاهة المخلوقين، والنقص المجرد، والنقص في صفات كماله، وقولهم أي الملائكة: «نقدس لك» ولم يقولوا: «نقدسك» يستفاد منه إخلاص الملائكة لله عز وجل.

• ومن فوائد هذه الآية الكريمة بيان كمال علم الله لقوله: «إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» وفي ذلك رد على من إذا مروا على مثل هذه الآية التي فيها اسم التفضيل حولوا اسم التفضيل إلى اسم فاعل. وقالوا: «أعلم» أي «عالم»، فإن هذا صرف للكلام عن ظاهره بلا دليل. وفي الوقت نفسه هو تنقيص من المعنى، وعلى هذا فإذا أشكل عليك شيء فكل علمه إلى من هو بكل شيء عليم وهو الله عز وجل انتهى.

• ومن هذه الفوائد التي ذكرها الشيخ محمد رشيد رضا^(١) - رحمه الله تعالى -:

• أحدهما: أن الله تعالى في عظمته وجلاله يرضى لعبيده أن يسألوه عن حكمته في صنعه وما يخفى عليهم من أسرارهِ في خلقه ولا سيما عند الحيرة.

• ثانيها: إذا كان من أسرار الله تعالى وحكمه ما يخفى على الملائكة فنحن أهملنا بأن يخفى علينا، فلا مطمع للإنسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها لأنه لم يؤت من العلم إلا قليلًا.

• ثالثها: أن الله تعالى هدى الملائكة في حيرتهم، وأجابه عن سؤالهم لإقامة الدليل بعد الإرشاد إلى الخضوع والتسليم.

• رابعها: تسليّة النبي ﷺ عن تكذيب الناس، ومحاجتهم في النبوة بغير برهان على إنكار ما أنكروا وبطلان ما جحدوا، فإذا كان الملائكة الأعلى قد مثلوا على أنهم يختصمون ويطلبون البيان والبرهان فيما لا يعلمون، فأجدر بالناس أن يكونوا معذورين. والأنبياء أن يعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين، أي فعليك أيها الرسول أن تصبر على هؤلاء المكذبين وترشد المسترشدين، وتأتي أهل الدعوة بسُلطان مبين انتهى.

المبحث الثاني: من خلق آدم عليه الصلاة والسلام؟

- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].
- وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].
- وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١].
- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].
- وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤].
- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضتها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن^(١) والخبيث والطيب^(٢))».
- لقد أخبر سبحانه أنه خلق آدم من تراب، وأخبر أنه خلقه من طين، وأخبر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون والصلصال، قيل فيه: هو الطين اليابس الذي له صلصلة ما لم يطبخ، فإذا طبخ فهو فخار، وقيل فيه: هو المتغير الرائحة، من قولهم: صل، إذا أتن. والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون، قيل: المصبوب، من أسننت الماء، إذا صببته، وقيل: المنتن المسن. وهذه كلها أطوار للتراب الذي هو مبدؤه الأول.
- إنما اسم آدم مأخوذ من أدم الأرض، وهو: وجهها، أو من: الأدمة، وهي: السمرة، وكلاهما محتمل.
- عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «(خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة)^(٣)».

(١) الحزن: الصعب الذي لا يمكن صحبته ولا تلين أخلاقه كالأرض الحزنة.

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٩٥٥) وأبو داود (٤٦٩٣) وغيرهما.

(٣) رواه مسلم (٨٥٤) وغيره.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «(خلق الله عز وجل، التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيه الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل)^(١)».

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «(لما نفخ في آدم، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال الحمد لله رب العالمين، فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله، فلذلك سبقت رحمته غضبه)^(٢)».



(١) رواه مسلم (٢٧٨٩) وغيره.

(٢) صحيح: رواه ابن حبان (٦١٦٤-٦١٦٥) وغيره.

المبحث الثالث: صفة خلق آدم عليه الصلاة والسلام

● عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً. فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحوونك، فإنما تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله. فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»^(١).

قوله: «على صورته».

قال الحافظ في الفتح^(٢):

اختلف إلى ماذا يعود الضمير؟

- فقيل إلى آدم أي خلقه على صورته التي استمر عليها إلى أن أهبط وإلى أن مات.
- وقيل الضمير لله وتمسك قائل ذلك بما ورد في بعض طرقه (على صورة الرحمن).
- قلت (القائل: فؤاد) قد صح ذلك كما في التوحيد لابن خزيمة^(٣) والسنة لابن أبي عاصم^(٤). وقال القاضي عياض^(٥): وعلى تسليم أن الضمير عائد على الله تعالى فعنه أجوبة فقيل: إن الإضافة لتشريف آدم كقوله تعالى: ﴿ثَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣]. وبيت الله، وإن كان كل بيت لله تعالى.
- وقد اختص آدم عليه السلام بأن خلقه بيده ولم يقلبه في الأرحام ولم يدرجه من حال إلى حال انتهى.

وقال الشيخ ابن عثيمين في شرح العقيدة الواسطية (٢٩٣/١):

إن الله خلق آدم على الصورة التي اختارها واعتنى بها، ولهذا أضافها الله إلى نفسه

(١) رواد البخاري (٢٣٢٦-٦٢٢٧) ومسلم (٢٦١٢).

(٢) انظر فتح الباري (٥/١١).

(٣) حديث رقم (٤١، ٤٢).

(٤) حديث رقم (٥١٧، ٥٢١).

(٥) شرح صحيح مسلم للأبي (٥٧٩/٨).

إضافة تشريف، وتكريم، كإضافة الناقة والبيت إلى الله والمساجد إلى الله.

● عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن آدم كان رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحق، كثير شعر الرأس»^(١).

● عن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به»^(٢)، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف^(٣) عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك^(٤)»^(٥).



(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢٦٢/٢) وابن سعد في الطبقات (٢٧/١)، وقال الحافظ في الفتح (٤٢٣/٦) إسناده حسن.

(٢) يطيف به: أي استدار حواليه.

(٣) أجوف: صاحب الجوف، وقيل: هو الذي داخله خال.

(٤) لا يتمالك: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل: لا يملك الوسواس عنه، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد جنس بني آدم.

(٥) رواه مسلم (٢٦١١).

البحث الرابع: تكريم آدم عليه الصلاة والسلام بسجود الملائكة له

● قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: ٣٤].
وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].
● وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢]. وغير ذلك من الآيات.
● في هذه الآيات ثلاث مكرّمات خص الله بها آدم:

أولاً: خلقه بيده.

ثانياً: نفخ فيه من روحه فإذا هو إنسان من لحم ودم وعصب يتحرك بإرادته ويفكر، والروح من أمر الله.

ثالثاً: أمره سبحانه لملائكته بالسجود له سجود تكريم لا سجود عبادة، لأن الله لا يأمر أحداً أن يتوجه بالعبادة إلى سواه، لأن سجود العبادة لغير الله كفر، والأمر لا يرد بالكفر.



البحث الخامس: الله تبارك وتعالى يُعَلِّمُ آدَمَ عليه الصلاة والسلام الأسماء كلها

● قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَقْبُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

● قال ابن كثير رحمه الله تعالى - في التفسير (١٠٣/١):

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة، بما اختصه به من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له. وإنما قدّم هذا الفصل على ذلك، لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة، حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون. ولهذا ذكر تعالى هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم، فقال تعالى: «(وعلم آدم الأسماء كلها)». قال ابن عباس: عرض عليه أسماء ولده إنساناً إنساناً، والدواب، فقيل هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس.

وقال مجاهد: علمه اسم كل دابة، وكل طير، وكل شيء.

● وقال الشيخ أحمد عقيلات - رحمه الله تعالى - في (الطائف التفسير) (٧٧/١):

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وهنا أراد الله أن يرى الملائكة أعظم موهبة خولها الله للإنسانية، وهي موهبة العقل المؤهل للتعليم، وهي موهبة يبدو أن الله جل وعلا اختص بها الإنسان، لأنه عرض الأسماء على الملائكة فلم يستطيعوا استيعابها واختراؤها، فلما أظهرها عجزهم أمر آدم أن ينبتهم بجميع الأسماء، فاستظهرها، وإذ ذاك قال الله لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

● فوائد هذه الآيات:

● بيان فضل العلم فإنه سبحانه ما أظهر كمال حكمته في خلقه آدم عليه الصلاة والسلام إلا بأن أظهر علمه فلو كان في الإمكان وجود شيء أشرف من العلم لكان من

الواجب إظهار فضله بذلك الشيء لا بالعلم.

وفضل العلم ثابت بالكتاب والسنة والمنقول.

● حكمة الله تعالى في امتحان الملائكة بعرض هذه المسميات التي علم آدم بأسمائها حتى يتبين نقصان علمهم.

● إثبات كلام الله تعالى وأنه بصوت مسموع وحروف متتابعة في قوله: «أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين»، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أما غيرهم فيزعمون أن كلام الله هو المعنى النفسي القائم بالنفس، فإن الكلام بهذا المعنى ليس بكلام ولا يسمع.

● فضل آدم عليه الصلاة والسلام بما علمه سبحانه وتعالى من هذه الأسماء ومسمياتها.

● مئة الله سبحانه وتعالى على الملائكة بما أظهر لهم من علمه، وأنه محيط بكل شيء.

● الواجب على من سئل عن علم أن يقول إن لم يعلم الله أعلم ولا أدري، اقتداءً بالملائكة والأنبياء والفضلاء من العلماء.



المبحث السادس: إبليس يمتنع عن السجود لآدم عليه

الصلاة والسلام ويطل ذلك بالقياس الفاسد

● قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

● وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ. قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١-١٢].

● وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠].

● وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٣].

● قال العلامة الشنقيطي - رحمه الله تعالى - في أضواء البيان (١/١٣٤):

قوله تعالى: «إلا إبليس أبى واستكبر» لم يبين هنا موجب استكباره في زعمه، ولكنه بينه في مواضع أخر كقوله: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١١-١٢].

وقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

تنبيه: مثل قياس إبليس نفسه على عنصره، الذي هو النار وقياسه آدم على عنصره، الذي هو الطين واستنتاجه من ذلك أنه خير من آدم ولا ينبغي أن يؤمر بالسجود لمن هو خير منه، مع وجود النص الصريح الذي هو قوله تعالى: «اسجدوا لآدم» يسمى في اصطلاح الأصوليين فاسد الاعتبار. فكل من رد نصوص الوحي بالأقيسة فسلفه في ذلك إبليس وقياس إبليس هذا لعنه الله باطل من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه فاسد الاعتبار لمخالفة النص الصريح.

الثاني: أننا لا نسلم أن النار خير من الطين، بل الطين خير من النار، لأن طبيعتها الخفة والطيش والإفساد والتفريق، وطبيعته الرزانة والإصلاح فتودعه الحبة فيعطيكها سنبلة والنواة فيعطيكها نخلة وإذا أردت أن تعرف قدر الطين فانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة، والأزهار الجميلة، والروائح الطيبة، نعلم أن الطين خير من النار.

الثالث: أننا لو سلمنا تسليمًا جدليًا أن النار خير من الطين: فإنه لا يلزم من ذلك أن إبليس خير من آدم لأن شرف الأصل لا يقتضى شرف الفرع، بل قد يكون الأصل ربيعًا والفرع ضيعًا، كمال قال الشاعر:

إذا افتخرت بآباء لهم شرف قلنا صدقت ولكن بئس ما ولدوا

• وقال الشيخ ابن العثيمين^(١):

وقوله هنا «إلا إبليس» اختلف أهل العلم في هذا الاستثناء هل هو استثناء متصل أم هو استثناء منفصل؟ فمنهم من قال: إن الاستثناء هنا متصل، لأنه الأصل في الاستثناء، أي أن الأصل في الاستثناء أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه. ومنهم من قال: إن الاستثناء منقطع أي أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.

واستدل هؤلاء بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف: ١٢].

فقال: «إن إبليس كان من الجن»

ويقول النبي ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلقت الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»^(٢).

وهذا القول أرجح، لكنه يشكل عليه كيف يكون إبليس من غير الملائكة ويصح أن يتوجه إليه الخطاب في قوله: «اسجدوا لآدم»؟.

والجواب عن هذا نقول: صح أن يتوجه إليه الخطاب، لأنه كان في عامتهم أي أنه كان معهم يعمل بعملهم، ويتعبد كما يتعبدون، لكن غلب عليه الطبع الخبيث فلما أمر بالسجود لآدم رأى أنه فوق مرتبة آدم، وأن الأعلى لا يمكن أن يعظم الأدنى، فحمله

(١) أحكام من القرآن الكريم ص: ١٦٣.

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٦).

إعجابه بنفسه، واحتقاره لآدم على أن يستكبر عن أمر الله عز وجل، وهذا يزول الإشكال.

• وقال أيضاً الشيخ ابن العثيمين^(١):

ومن فوائد الآية الكريمة إجراء الأحكام على الظاهر، وأن من كان متظاهراً بعمل قوم فهو منهم ظاهراً ولهذا صح توجه الخطاب من الله للملائكة، إلى إبليس مع أنه ليس من جنسهم، لكنه لما كان فيهم يعمل عملهم توجه الخطاب إليه. وهكذا كان الرسول ﷺ يعامل من تلبس بالإسلام ظاهراً معاملة المسلمين، ولهذا لم يقتل المنافقين مع أنهم كفار كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]. لكنه عليه الصلاة والسلام عاملهم معاملة الظاهر.

• وفي هذه الآية الكريمة من الفوائد الحذر من الرجس والسرية الخبيثة حتى استكبر وأبى فرجع إلى أصله، فالواجب على المرء الحذر من مثل هذه السرية التي تكون في القلب، وأن يصقل قلبه دائماً منها حتى لا توقعه في الهلاك: وقد صح عن النبي ﷺ أن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه: «(أن رسول الله ﷺ التقى هو والمشركون فاقتتلوا، فلما مال رسول الله ﷺ إلى عسكره ومال الآخرون إلى عسكرهم، وفي أصحاب رسول الله رجل لا يدع لهم شاذة ولا فاذة^(٢)) إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقالوا: ما أجزأنا اليوم أحد كما أجزأ فلان؛ فقال رسول الله ﷺ: «(أما إنه من أهل النار)» فقال رجل من القوم: أنا صاحبه، قال: فخرج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحاً شديداً، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه^(٣) بين يديه ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه فخرج الرجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: «(وما ذاك؟)» قال: الرجل الذي ذكرت أنفاً أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحاً شديداً فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين يديه ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «(إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار

(١) أحكام من القرآن: ص ١٦٥.

(٢) يقال فلان لا يدع شاذة ولا فاذة إذا كان شجاعاً لا يلقاه أحد إلا قتله.

(٣) ذباب السيف هو طرفه الأسفل.

وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة»^(١).

وهذا يدل على أن في قلب الرجل سريرة أدت به إلى أن يقتل نفسه فالواجب على المرء أن يتفقد قلبه في كل وقت وفي كل حين حتى يظهره ويمحصه، لئلا تسوء خاتمته.

● ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن ترك السجود لله عز وجل كفر.

● ومن فوائد هذه الآية الكريمة أن عبادة الله هي طاعته حتى في الأمر الذي لولا أمره به لكان شركاً، فالسجود لغير الله شرك، ولكن إذا كان بأمر الله كان طاعة، كما أن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب بلاشك ومع ذلك كان امتثال إبراهيم لهذا الأمر من أرفع المقامات لإبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولكن الله عز وجل، ابتلاه واختبره بهذا الأمر العظيم، وعلم - جل وعلا - أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام منفذ لأمره حتى تله للجهنم فنزل الفرج من الله سبحانه وتعالى بنسخ هذا الأمر ﴿وَقَدَّيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧].

● هل كان إبليس من الملائكة؟

● قال ابن كثير - رحمه الله تعالى: في التفسير (١٦٤/٥) قال الحسن البصري: «ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر» رواه ابن جرير بإسناد صحيح^(٢).

● وقال العلامة الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان (١٢٠/٤) والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله شيطانا، أو ليس في الأصل بملك، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبده معهم مشهور عند أهل العلم. وحجة من قال: إن أصله ليس من الملائكة أمران:

● أحدهما: عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس، كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

● والثاني: أن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا وهو نص قرآني في محل النزاع.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨) ومسلم (١١٢).

(٢) انظر تفسير الطبري: الأثر رقم: ٢٣١٢٣.

قلت: المقصود بالآية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]. ثم ذكر الشيخ رحمه الله قول الفريق الثاني، ورجح في النهاية أن إبليس من الجن فقال: وأظهر الحجج في المسألة - حجة من قال: إنه غير ملك، لأن قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ...﴾ الآية، وهو أظهر شيء في الموضوع من نصوص الوحي. والعلم عند الله تعالى.

كيد إبليس:

● قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: فصل في بيان كيد الشيطان لنفسه، قبل كيده للأبوين، ثم لم يقتصر على ذلك، حتى كاد ذرية نفسه، وذرية آدم، فكان مشؤوما على نفسه وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس، أما كيده لنفسه: فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام، كان في امتثال أمره وطاعته سعادته وفلاحه، وعزّه ونجائه. فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه، وهضما لنفسه، إذ يخضع ويقع ساجداً لمن خلق من طين، وهو مخلوق من نار. والنار - بزعمه أشرف من الطين. فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه، وهضم لمنزله. فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم، لما رأي ربّه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة، فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء وميز بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته، فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ، وكان عدو الله يطيف به وهو صلصال كالفخار، فيتعجب منه، ويقول: لأمر عظيم قد خلق هذا، ولئن سلط على لأعصيته، ولئن سلطت عليه لأهلكه، فلما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها، وكملت محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولى ربّه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعاً، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظراً لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجداً له، بأمر ربهم تبارك وتعالى، فشق الحسد قميصه من دبر، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأى الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على معلم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلاً.

فقال: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنُ أَخْرَجَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا مَنَاسِكَ لَكَ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لم

كرمه على؟ وَعَوَّرُ هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضل يخضع للفاضل، فلم خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به فقال: «أنا خير منه».

ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله. فأتت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأى والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعها، وأذلها من حيث أراد عزها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها. ففعل بنفسه مالمو اجتهد أعظم أعدائه في مضرتهم لم يبلغ منه ذلك المبلغ ومن كان هذا غشه لنفسه، فكيف يسمع منه العاقل ويقبل، ويواليه؟

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(١) [الكهف: ٥٠]. انتهى.



المبحث السابع: من خلقت حواء أم البشر عليها السلام

• قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

• وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

• قال ابن كثير رحمه الله تعالى: (في التفسير) (٧٩/٢) يقول تعالى آمرا خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنبها لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام ((وخلق منها زوجها)) وهي حواء عليها السلام، وخلق من ضلعه الأيسر من خلقه، وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه. انتهى.

• وقال ابن عطية - رحمه الله تعالى - في تفسيره (٣/٢):

وقوله: «(زوجها)» حواء والزوج في كلام العرب: امرأة الرجل ويقال زوجة.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خلقت من ضلع (لن تستقيم لك على طريقة) وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإذا ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج فإذا استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج فاستوصوا بالنساء)^(١).

قال القرطبي - رحمه الله تعالى -:

هذا يؤيد ما ذكره المفسرون من أنها خلقت من آخر أضلاع آدم عليه السلام وهي القصيرة. ومعنى خلقت، أي أخرجت كما تخرج النخلة من النواة^(٢). ونحو هذا قاله الحافظ في الفتح^(٣).

• وقال النووي - رحمه الله تعالى -:

وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وبين النبي ﷺ أنها خلقت من ضلع، وفي هذا الحديث ملاطفة النساء والإحسان إليهن، والصبر على عوج أخلاقهن، واحتمال

(١) رواه البخاري (٣٣٣١) ومسلم (١٤٦٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للأبى (١٧٨/٥).

(٣) فتح الباري (٤٢٤/٦).

ضعف عقولهن وكراهة طلاقهن بلا سبب، وأنه لا يطمع باستقامتها. والله أعلم^(١).

● سميت حواء بهذا الاسم لأنها أم كل حي من البشر.

وقيل: لأنها خلقت من حَيّ وهو آدم عليه الصلاة والسلام.



المبحث الثامن: إسمان آدم عليه الصلاة والسلام وحواء

الجنة ووسوسة الشيطان لهما

● قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ. فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].

● وقال تعالى: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٩-٢٢].

● وقال تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى. فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١١٧-١٢١].

● لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة من ضلعه فهي من أب بلا أم، ثم امتن الله عليه هو وزوجه فقال جل وعلا «(اسكن أنت وزوجك الجنة)» والمراد بزوجه هي حواء كما قلنا، والمراد بالجنة: إما جنة الخلد التي هي مأوى المتقين وهذا هو الراجح، وهناك قول آخر للعلماء: أنما جنة في الدنيا في الأرض وهي عبارة عن بستان ذي أشجار كثيرة، والأقرب - والله أعلم - أنما جنة المأوى، جنة الخلد التي وعد المتقون، لأنها هي المعلومة عند الإطلاق. وأذن الله لهما أن يأكلا من هذه الجنة رغدا بطمأنينة وسعة وكثرة حيث شاءا من أي مكان إلا أنه سبحانه وتعالى نهاهما عن قرب شجرة عينها لهما بالإشارة فقال: «(ولا تقربا هذه الشجرة)» ولم يبين الله سبحانه وتعالى جنس هذه

(١) شرح صحيح مسلم (٤/١١٤٨).

الشجرة لأنه ليس هناك ضرورة إلى معرفة جنسها، المهم معرفة القضية ومغزاها وبين سبحانه وتعالى، أهما إذا قربا هذه الشجرة وأكلا منها فإنهما يكونان من الظالمين، الظالمين لأنفسهما لتعرضهما لما حصل، حيث أخرجهما أكلهما من الجنة. ووجه كونه ظلما أن نفس الإنسان عنده وداعة وأمانة فيجب عليه أن يراعاها حق رعايتها، وألا يقدم على شيء يكون فيه مضرها، فإن فعل فقد ظلمها كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

قوله: «(فأزلهما)» أي أوقعهما في الزلل أو أزلهما أي أراحهما وحولهما وزحزحهما عن الجنة.

● والشيطان: إبليس الذي لم يسجد ولم يخضع، وقد وسوس لهما كما سبق ذكره في سورتي الأعراف، وطه حتى أوقعهما في الزلل وحملهما على الأكل من الشجرة فأكلا، أي أن سبب أكلهما هو وسوسة الشيطان المذكورة في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠]، وقوله تعالى: «(فوسوس إليه الشيطان)» الآية [طه: ١٢٠].

● قال ابن تيمية^(١) - رحمه الله تعالى -:

الوسوسة هي ما يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان فإذا كرهه العبد ونفاه كانت كراهته صريح الإيمان، وقد خاف من خوف من الصحابة من العقوبة على ذلك، فقال تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

● وقال ابن القيم^(٢) - رحمه الله تعالى -:

الوسوسة قد تكون كلاماً مسموعاً أو صوتاً ومما يدل على أن وسوسة الشيطان، كانت مخاطبة قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]. فأخبر أنه قال له، ودل ذلك على أنه إنما وسوس إليه مخاطباً، لا أنه أوقع ذلك بنفسه بلا مقابلة، فمن ادعى على الظاهر تأويلاً ولم يقيم عليه دليلاً لم يجب قبول قوله.

(١) دقائق التفسير (١/٢٣٥).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/١٢٩).

● وقال الشيخ الشنقيطي^(١) - رحمه الله تعالى -:

الوسوسة والوسواس: الصوت الخفى. وإذا علمت ذلك فاعلم أن قوله تعالى في هذه الآية الكريمة «(فوسوس إليه الشيطان)» أي كلمة كلاً خفياً فسمعه منه آدم وفهمه. والدليل على أن الوسوسة المذكورة في هذه الآية الكريمة كلام من إبليس سمعه آدم وفهمه أنه فسر الوسوسة في هذه الآية بأنها قول، وذلك في قوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ الآية [طه: ١٢٠].

فالقول المذكور هو الوسوسة المذكورة. وقد أوضح هذا في سورة «(الأعراف)» وبين أنه وسوس إلى حواء أيضاً مع آدم، وذلك في قوله: «(فوسوس لهما الشيطان - إلى قوله وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلأهما بغرور)» [الأعراف: ٢٠-٢٢]. لأن تصريحه تعالى في آية «(الأعراف)» هذه بأن إبليس قاسمهما أي حلف لهما على أنه ناصح لهما فيما ادعاه من الكذب، دليل واضح على أن الوسوسة المذكورة كلام مسموع.

واعلم أن في وسوسة الشيطان إلى آدم إشكالاً معروفاً، وهو أن يقال: إبليس قد أخرج من الجنة صاغراً مذموماً مدحوراً، فكيف أمكنه الرجوع إلى الجنة حتى وسوس لآدم؟ والمفسرون يذكرون في ذلك قصة الحية، وأنه دخل فيها فأدخلته الجنة، والملائكة الموكلون بما لا يشعرون بذلك، وكل ذلك من الإسرائيليات. والواقع أنه لا إشكال في ذلك، لإمكان أن يقف إبليس خارج الجنة قريباً من طرفها بحيث يسمع آدم كلامه وهو في الجنة، وإمكان أن يدخله الله إياها لامتحان آدم وزوجه، لا لكرامة إبليس. فلا محال عقلاً في شيء من ذلك.

وقوله في هذه الآية الكريمة: «(على شجرة الخلد)» أضاف الشجرة إلى الخلد وهو الخلود، لأن من أكل منها يكون في زعمه الكاذب خالد لا يموت ولا يزول، وكذلك يكون له في زعمه ملك لا يبلى أي لا يفنى ولا يتقطع.

والحاصل أن إبليس لعنه الله كان من جملة ماوسوس به إلى آدم وحواء: أهما إن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها نالا الخلود والملك، وصارا ملكين وحلف لهما أنه ناصح لهما في ذلك، يريد لهما الخلود والبقاء والملك فدلأهما بغرور. وفي القصة: أن آدم لما سمعه يحلف بالله اعتقد من شدة تعظيمه لله أنه لا يمكن أن يحلف به أحد على الكذب، فأنساه

(١) أضواء البيان (٤/٥٢٧).

ذلك العهد بالنهي عن الشجرة.

• وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

• وقد دلت الآيات المذكورة سابقا على أن آدم وحواء كانا في ستر من الله يستر به سوءاتهما، وأنها لما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها انكشف ذلك الستر بسبب تلك الزلّة، فبدت سوءاتهما أي عوراتهما. وسميت العورة سوءة لأن انكشافها يسوء صاحبها، وصاروا يحاولان ستر العورة بورق شجر الجنة. فمعنى قوله تعالى: «(وطفقا يَخْصِفَانِ)» أي شرعا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض ليسترا به عوراتهما.

• واعلم أن الستر الذي كان على آدم وحواء، وانكشف عنهما لما ذاقا الشجرة اختلف العلماء في تعيينه على أربعة أقوال:

أحدهما: أنه النور. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثاني: أنه كان كالظفر، فلما أكلا، لم يبق عليهما منه إلا الظفر، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس.

والثالث: أنه التقوى، قاله مجاهد.

والرابع: أنه كان من ثياب الجنة. ذكره القاضي أبو يعلى.

• وقال القرطبي - رحمه الله تعالى في التفسير (١٨١/٢):

وفي الآية دليل على قبح كشف العورة، وأن الله أوجب عليهما الستر، ولذلك ابتدرا إلى سترها، ولا يمتنع أن يؤمرا بذلك في الجنة، كما قيل لهما «(ولا تقربا هذه الشجرة)» وقد حكى صاحب البيان عن الشافعي أن من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أن يستتر بذلك، لأنه سترة ظاهرة يمكنه الاستر بها، كما فعل آدم في الجنة. والله أعلم.

• عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «(ما سكن آدم الجنة إلا ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس)»^(١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک وصححه ووافقه الذهبي (٢٢٢).

المبحث التاسع: هبوط آدم وحواء وإبليس من الجنة بسبب المعصية

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٤-٣٦].

• قال ابن القيم^(١) - رحمه الله تعالى:-

فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

قيل: إما أن يكون الضمير في قوله: «(اهبطا)» راجعا إلى آدم وزوجه، أو يكون راجعا إلى آدم وإبليس، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له.

وعلى هذا فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط وهما آدم وإبليس. وعلى الأول وهو رجوعه إلى آدم وزوجه - تكون الآية قد اشتملت على أمرين:

أحدهما: أمره لآدم وزوجه بالهبوط.

والثاني: جعله العداوة بين آدم وزوجه وإبليس، ولا بد أن يكون إبليس داخلا في حكم هذه العداوة قطعاً. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧].

وقال لذريته: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وأما ذكر الإهباط فتارة يأتي بلفظ ضمير الجمع، وتارة بلفظ التثنية، وتارة يأتي بلفظ الأفراد لإبليس وحده كقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ تَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٢-١٣]. فهذا الإهباط لإبليس وحده. وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجه وإبليس إذ مدار القصة عليهم، وحيث أتى بلفظ التثنية، فإما أن يكون لآدم وزوجه - إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة، وأقدا على المعصية، وإما أن

(١) مفتاح دار السعادة (١٣٥/١) وما بعدها.

يكون لآدم وإبليس إذ هما أبوا الثقلين، فذكر حالهما وما آل إليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما.

وأيضاً، فالذي يوضح أن الضمير في قوله: «أهبطاً منها جميعاً» لآدم وإبليس أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجته، فقال ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى. قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً﴾ [طه: ١٢١-١٢٣]. وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ومن زين له المعصية، ودخلت الزوجة تبعاً، وهذا لأن المقصود إخبار الله تعالى لعباده المكلفين من الجن والإنس بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتدوا بهما في ذلك، انتهى باختصار.

• ومن فوائد هذه القصة:

• إضافة الشيء إلى سببه، وأن للأسباب تأثيراً في مسبباتها لقوله: «فأخرجهما مما كانا فيه» [البقرة: ٣٦] لأن الذي أخرجهما هو الله عز وجل، أمرهما أن يهبطا من الجنة، ولكن السبب في هذا الإخراج هو الشيطان فنسب الإخراج إليه لأنه سببه، ولا ريب أن الأسباب مؤثرة في مسبباتها، ولكن تأثيرها في مسبباتها من الله عز وجل، فهو الذي أودع فيها هذه القوة المؤثرة.

• ومن الفوائد: أن آدم وحواء عوقبا بالإخراج من الجنة بسبب معصية واحدة، فما بالك بمن كان عنده من المعاصي ما لا يعلمه إلا الله؟ أفلا يكون معرضاً نفسه للعقوبة العظيمة؟

• ومن الفوائد: إثبات العداوة بين الشيطان وآدم وبنيه، فيجب على الإنسان أن يحترز غاية الاحتراز من كيد الشيطان ولذلك حذرنا الله تعالى منه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]. وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

• ومن الفوائد: أن الأرض هي مستقر بني آدم بل مستقر آدم وبنيه. لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦].

فهذا المستقر والمتاع لن يدوم، ولن يؤبد لقوله تعالى: «(إلى حين)» وما كان غير دائم ولا مؤبد فهو سريع الانتهاء، لأن هذا المؤجل ينطوي بالساعات، بل بالدقائق، بل باللحظات، ولا يمكن للحظة مرت أن تعود إليك مرة أخرى، ولهذا قيل: كل يوم يمضي

على ابن آدم فإنه يبعده من الدنيا، ويدنيه من الآخرة، فيجب علينا أن نستعد وأن ننتهز الفرصة بعمل ما يقربنا إلى الله عز وجل، لأن الإنسان إذا مات انقطع متاعه من الدنيا، وانتقل منها إلى دار الجزاء.

• ومن الفوائد: أنها عبرة وعظة لبني آدم لينظروا ماذا حدث لأبيهم على فعله واحدة، فكيف بكم يا أرباب الكبائر العظيمة؟ فاعتبروا يا أولى الأبصار، يا أصحاب الذنوب احذروا زلة يقول فيها الحبيب: هذا فراق بيني وبينك، فيإذا العقل السليم، انظر كيف جلس أبوك آدم على سرير المملكة، فمد يده إلى لقمة هي عنها فأخرج من الجنة، فاحذروا يا بنيه عواقب المعاصي فإنها من نزلت به نزلت به (أي خفضته) وحطته عن مرتبته.

• قال القسطلاني: -رحمه الله تعالى في المواهب اللدنية (٧٩/١):

في الحكمة من نزول آدم بسبب معصيته لربه:

يا هذا، انظر كم لله من لطف وحكمة في إهباط آدم من الجنة إلى الأرض، لولا نزوله لما ظهر جهاد المجاهدين، واجتهاد العابدين المجتهدين، ولا صعدت زفرات أنفاس التائبين، ولا نزلت قطرات دموع المذنبين، يا آدم إن كنت أهبطت من دار القرب فإني قريب، أحيب دعوة الداع، إن كان حصل لك بالإخراج من الجنة كسر فأنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، وإن كان فاتك في السماء زجل المسيحين فقد تعوضت في الأرض أنين المذنبين، أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيحهم، وزجل المسيحين ربما يشوبه الافتخار، وأنين المذنبين يزينه الانكسار، «(لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم)»^(١).

سبحان من إذا لطف بعبده في الحن قلبها منحنًا، وإذا خذل عبداً لم ينفعه كثرة اجتتهاده وكان عليه وبالاً، لقن الله آدم صحبته، وألقى عليه ما تقبل به توبته، وطرده إبليس اللعين بعد طول خدتمته، فصار عمله هباءً منثوراً ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِعٌ وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥].

إذا وضع عدله على عبد لم يبق له حسنة، وإذا بسط فضله على عبد لم يبق له سيئة.



(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

المبحث العاشر: الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥-٣٦].
فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ.

• قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].

• قال تعالى: ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

[طه: ١٢١-١٢٢].

• وقال تعالى على لسان آدم وحواء ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

• وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

• إن الفرق بين معصية آدم عليه الصلاة والسلام، ومعصية إبليس -لعنه الله- أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه. ولكن إبليس رد الأمر على الأمر، فيكون آدم قد عصى، وإبليس قد كفر والعياذ بالله.

• من الله على آدم وحواء بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا الله مغفرته فقالا: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].
فغفر الله لهما ذلك.

• وهذا إبليس مستمر على طغيانه غير مقلع عن عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف، وسؤال المغفرة والندم، والإقلاع - إذا صدر - منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا.

• هل خطيئة آدم كبيرة أم صغيرة؟

• قال القسطلاني^(١) - رحمه الله -:

فإن قلت: هذه الفعل التي أبط بها آدم من الجنة، إن كانت كبيرة فالكبيرة لا تجوز

على الأنبياء، وإن كانت صغيرة فلم جرى عليه ما جرى بسببها من نزع اللباس والإخراج من الجنة، وغير ذلك؟

فأجاب الزمخشري: بأنها ما كانت إلا صغيرة، مغمورة بأعمال قلبه من الإخلاص والأفكار الصالحة التي هي أجل الطاعات، وأعظم الأعمال، وإنما جرى عليه ما جرى تعظيماً للخطيئة، وتفضيلاً لشأنها وهويلاً، ليكون ذلك لطفاً له ولذريته في اجتناب الخطايا، واتقاء المآثم. انتهى.

• وقال الشيخ الشعراوي - رحمه الله تعالى -:

إن الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس، أن آدم اعترف بمعصيته وذنبه، ولكن إبليس رد الأمر على الأمر، فيكون آدم قد عصى، وإبليس قد كفر والعياذ بالله.

وأن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار، ولكن من ذنوب الغفلة، بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله، واعترف آدم بذنبه، واعترف بضيقه، واعترف بأن المنهج حق، وطلب التوبة من الله سبحانه وتعالى. ولكن إبليس رد الأمر على الأمر. قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال: ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الأعراف: ١٦].

وقال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢].

وقال: ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فإبليس هنا رد الأمر على الأمر ولم يعترف بذنبه، ويقول يا رب غلبني ضعفي وأنت الحق وقولك الحق. ولكنه رد الأمر على الله تعالى وعاند وقال سأفعل كذا، وسأفعل كذا. وهذا كفر بالله.

إياك أن ترد الأمر على الله سبحانه وتعالى، فإذا كنت لا تصلي، لا تقبل وما فائدة الصلاة، وإذا لم تكن تركي، فلا تقبل تشريع الزكاة ظلم للقادرين، وإذا كنت لا تطبق شرع الله، فلا تقبل إن هذه الشريعة لم تعد تناسب العصر الحديث، فإنك بذلك تكون قد كفرت والعياذ بالله. انتهى باختصار^(١).

• قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: إذا كانت خطيئة الرجل في كبر فلا ترجه، وإن كانت خطيئته في معصية فارجه، وكانت خطيئة آدم عليه السلام معصية، وخطيئة إبليس كبراً.

• مسألة عصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر.

قال الشنقيطي رحمه الله تعالى في تفسيره ما نصه:

وحاصل كلام الأصوليين في هذه المسألة: عصمتهم من الكفر وفي كل ما يتعلق بالتبليغ، ومن الكبائر وصغائر الخسة كسرقة لقمة وتطيف حبة. وأن أكثر أهل الأصول على جواز وقوع الصغائر غير صغائر الخسة منهم، ولكن جماعة كثيرة من متأخري الأصوليين اختاروا أن ذلك وإن جاز عقلاً لم يقع فعلاً، وقالوا إنما جاء في الكتاب والسنة من ذلك أن ما فعلوه بتأويل أو نسياناً، أو سهواً، أو نحو ذلك.

ثم قال: والذي يظهر لنا أن الصواب في هذه المسألة أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لم يقع منهم ما يزرى بمراتبهم العلية، ومناصبهم السامية، ولا يستوجب خطأ منهم ولا نقصاً فيهم صلوات الله وسلامه عليهم، ولو فرضنا أنه وقع منهم بعض الذنوب لأنهم يتداركون ما وقع منهم بالتوبة، والإخلاص، وصدق الإنابة إلى الله حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات، فتكون بذلك درجاتهم أعلى من درجة من لم يرتكب شيئاً من ذلك، ومما يوضح هذا قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١-١٢٢]. فانظر أي أثر يبقى للعصيان والغى بعد توبة الله عليه، واجتباؤه أي اصطفاؤه إياه، وهدايته له، ولا شك أن بعض الزلات ينال صاحبها بالتوبة منها درجة أعلى من درجته قبل ارتكاب تلك الزلة. والعلم عند الله. (١) انتهى.



المبحث الحادي عشر: من خلقت ذرية آدم عليه الصلاة والسلام؟

• قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧-٩].

• وقال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧].

• وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ * ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ * ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ * ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَّئِبِينَ لَّكُمْ وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى * ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا * ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

• وقال تعالى: ﴿أَلَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكْ نُطْفَةٍ مِنْ مَّنًى يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

• وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

• وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

• يتضح من الآيات السابق ذكرها أن الله تعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام أبا البشر من الطين ثم جعل نسله أي ذرية آدم من النطفة وهي مني الرجل ومني المرأة، أي أخلط من ماء الرجل وماء المرأة إذا عرفت معنى ذلك، فاعلم أنه تعالى بين أن ذلك الماء الذي هو النطفة، عنه ما هو خارج من الصلب، أي وهو ماء الرجل، ومنه ما هو خارج من الترائب وهو ماء المرأة، ومعنى الصلب: هو صلب الرجل وهو ظهره، ومعنى الترائب فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه موضع القلادة من المرأة.

(١) أضواء البيان (٤/٥٣٨).

الثاني: أنها اليدان والرجلان والعينان.

الثالث: أنها أربعة أضلاع من يمنة الصدر، وأربعة أضلاع من يسرة الصدر.

• وفي الطب الحديث: أن لكل من الذكر والأنثى صلباً وترائب، فبويضة المرأة تترى في المتصلين بالصلب والترائب منها. والحيوان المنوي في الرجل كذلك. والله أعلم.

• ثم بعد النطفة المهينة الحقيمة، تنتقل إلى مرحلة العلقة وهي الدم ثم المضغة وهي لحمة قليلة قدر ما يمتصغ.

• فاستوعب سبحانه وتعالى ذكر أحوال ابن آدم قبل كونه نطفة بل تراباً وماءً إلى حين بعثه يوم القيامة، فأول مراتب خلقه أنه سلالة من طين، ثم بعد ذلك سلالة من ماء مهين، وهي النطفة التي استلت من جميع البدن، فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم يقبل الله سبحانه تلك النطفة علقة: وهي قطعة سوداء من دم، فتمكث كذلك أربعين يوماً أخرى، ثم يصيرها سبحانه مضغة وهي قطعه لحم - أربعين يوماً، وفي هذا الطور تقدر أعضاؤه وصورته وشكله وهيئته، فتبارك الله أحسن الخالقين.

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله - وهو الصادق المصدوق - «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ووزقه وشقى أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها» ^(١).

• وقال الشيخ ابن العثيمين ^(٢):

والإنسان باعتبار مبدأ خلقه أربعة أقسام:

- قسم خلق بلا أم ولا أب مثل آدم، فإن الله تعالى خلقه من تراب ثم قال له: كن فكان.

- وقسم خلق من أب بلا أم وهي حواء خلقت من ضلع آدم.

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) أحكام من القرآن الكريم ص: ١٦٩.

- وقسم خلق من أم بلا أب وهو عيسى بن مريم.

- والقسم الرابع: مَنْ خلق من أبوين أي من أم وأب وهم سائر البشر، ومع هذا فإن الله تعالى يخلق ما يشاء: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

ففي هذه أيضاً الناس أربعة أصناف من حيث الإنجاب وعدمه، فمنهم من يهبه الله ذكوراً بلا إناث ومنهم من يهبه الله إناثاً بلا ذكور، ومنهم من يزوجه الله أي يجعل نسله صنفين (أي من الذكور والإناث) والصنف الرابع: من يجعله عقيماً لا يولد له، وكل هذا بقدره الله سبحانه وتعالى وحكمته.

• قال ابن القيم ^(١) - رحمه الله تعالى -:

بعد أن ذكر آيات في خلق الإنسان ما نصه:

وهذا كثير في القرآن «أي آيات خلق الإنسان» يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره، إذ نفسه وخلقته من أعظم الدلائل على خالقه وفطره، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، وهو غافل عنه، معرض عن التفكير فيه، ولو فكر في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره، قال الله تعالى: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧-٢٢].



(١) مفتاح دار السعادة (٦/٢).

المبحث الثاني عشر: أخذ العهد على ذرية آدم عليه الصلاة والسلام بتوحيد الربوبية قبل خلق أجسادهم بالمسح على ظهر آدم

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

• عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره يمينه، واستخرج منه ذرية، فقال: خلقت هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون» فقال رجل: يا رسول الله، فقيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله به النار»^(١).

• عن عبد الرحمن بن قتادة السلمي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلق الله آدم، ثم أخذ الخلق من ظهره، فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي» قال قائل: يا رسول الله، فعلى ماذا نعمل؟ قال: «(على مواقع القدس)»^(٢).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق الله آدم، مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة تكون إلى يوم القيامة فعرضهم على آدم فرأى في وجه كل رجل منهم وبيصا (بريقا) من نور، فرأى رجلا منهم له وبيص أعجبه فقال: من هذا يا

(١) صحيح لغيره: رواه أحمد (٤٤/١-٤٥) وأبو داود (٤٧٠٣)، والترمذي (٣٠٧٥)، وابن أبي عاصم في السنة (١١٦) والنسائي في الكبرى (١١١٩٠)، والحاكم في المستدرک (٢٧/١) و (٢/٣٢٤-٣٢٥) وابن حبان (٦١٦٦) وغيرهم.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١٨٦/٤) والحاكم (٣١/١) وغيرهما، انظر الصحيحة (٤٨).

رب؟ قال: هذا من ولدك اسمه داود. قال: وكم عمره يا رب؟ قال: ستون سنة. قال: زده من عمري أربعين سنة قال: إذا يكتب ويحتم ولا يبذل قال: فلما نفذ عمر آدم إلا الأربعين التي وهبها لداود، أتاه ملك الموت فقال آدم: إنه قد بقى من عمري أربعون سنة. قال: ألم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد آدم فجحدت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذرته، ونسى آدم فنسيت ذريته، فرأى فيهم القوى والضعيف والغنى والفقر، والمبتلى، قال: يا رب: ألا سويت بينهم؟ قال: أردت أن أشكر^(١).

• يتضح مما سبق: أن الله تعالى أخرج جميع ذرية آدم من ظهور الآباء في صورة الذر، وأشهدهم على أنفسهم بلسان المقال «ألسنت بربكم قالوا بلى» ثم أرسل بعد ذلك الرسل مذكرة بذلك الميثاق الذي نسيه الكل ولم يولد أحد منهم وهو ذاكر له وإخبار الرسل به يحصل به اليقين بوجوده، والآيات القرآنية مصرحة بكثرة، بأن الله تعالى لا يعذب أحداً حتى يقيم عليه الحجة بإنذار الرسل، وهو دليل على عدم الاكتفاء بما نصب من الأدلة، وما ركز من الفطرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

فإنه قال فيها حتى نبعث رسولا، ولم يقل حتى نخلق عقولا، وننصب أدلة كونية، ونركز فطرة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. فصرح بأن الذي تقوم به الحجة على الناس، وينقطع به عذرهم: هو إنذار الرسل لا نصب الأدلة والخلق على الفطرة.



(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) وأبو يعلى (٦٣٧٧) وغيرهما.

المبحث الثالث عشر: خطئ آدم فخطئت ذريته، ولولا

حواء ما خانت بناتها

سبق ذكر حديث أبي هريرة في المبحث الذي قبله وفيه:

«فجحد آدم فجحدت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته، ونسى آدم فنسيت ذريته»

• قال ابن العربي (١) — رحمه الله تعالى —:

قوله: «فجحد آدم ونسى وخطئ، فجحدت ذريته» بيان أن الصفات موروثه وأخلاق الآباء مكتسبة للأبناء. انتهى.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا بنو إسرائيل لم يخنز اللحم، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها» (٢).

قوله: «يخنز» أي يتنن، والخنز التغير والتنن.

قيل أصله أن بني إسرائيل ادخروا لحم السلوى وكانوا يهاونوا عن ذلك فعوقبوا بذلك حكاية القرطبي وذكره غيره عن قتادة. وقال بعضهم: معناه لولا أن بني إسرائيل سنوا ادخار اللحم حتى أنتم لما ادخروا فلم يتنن.

• وقوله: «لولا حواء لم تخن أنثى زوجها»

قال الحافظ ابن حجر (٣):

فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزينها لآدم الأكل من الشجرة حتى وقع في ذلك، فمعنى خيانتها أنها قبلت ما زين لها إبليس حتى زينته لآدم، ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ونزع العرق فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول، وليس المراد بالخيانة ارتكاب الفواحش حاشا وكلا.

ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة وحسنت ذلك لآدم عد ذلك خيانة له، وأما من جاء بعدها من النساء فخيانة كل واحدة منهن بحسبها.

• وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أمهن الكبري، وأن ذلك من طبعهن فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور، وينبغي لمن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع بل يضبطن أنفسهن ويجاهدن هواهن، والله المستعان.

(١) عارضة الأحوذى (١١/١٤٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٣٠).

(٣) فتح الباري (٦/٤٢٤).

المبحث الرابع عشر: آدم كان نبياً

• عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم قال: «نعم مُكَلَّمٌ» قال فكيف كان بينه وبين نوح؟ قال: «عشرة قرون» (١).

• عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول قال «آدم» قلت يا رسول الله وتبي كان؟ قال: «نعم نبي مُكَلَّمٌ» (٢).

• كان آدم عليه الصلاة والسلام نبياً ولكنه ليس برسول لقوله ﷺ في حديث الشفاعة أن الناس يذهبون إلى نوح فيقولون: «أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض» (٣).

• الفرق بين النبي والرسول (٤):

قد ذكر العلماء فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره، فهو نبي وليس برسول، فالرسول أخص من النبي، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.



(١) صحيح: رواه ابن حبان (٦١٩٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وفيه «نعم مُكَلَّمٌ مُكَلَّمٌ» (٢٦٢/٢).

(٢) رواه أحمد (١٧٨/٥-١٧٩) والبزار (١٦٠) وابن سعد في الطبقات (٢٨/١) وغيرهم وهو صحيح لغيره.

(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٣-١٩٤) وغيرهما.

(٤) راجع العقيدة الطحاوية (١/١٥٥).

المبحث الخامس عشر: آدم على فراش الموت

• عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «إن آدم عليه السلام حضره الموت فقال لبيته: أي بني إني أشتي من ثمار الجنة، فذهبوا يطلبون له، فاستقبلتهم الملائكة معهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحي والمكاتل، فقالوا يا بني آدم ما تريدون؟ وما تطلبون؟ أو ما تريدون؟ وأين تذهبون؟ قالوا: أبونا مريض، فاشتهدى من ثمار الجنة قالوا لهم: ارجعوا فقد قضى قضاء أبيكم فجاءوا، فلما رأهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم، فقال: إليك عني فإنما أتيت من قبلك خلني بيني وبين ملائكة ربي - تبارك وتعالى - فقبضوه، وغسلوه، وكفنوه، وحنطوه، وحفروا له، ولحدوا له، فصلوا عليه، ثم دخلوا قبره، فوضعوه في قبره، ووضعوا عليه اللبن، ثم خرجوا من القبر ثم حثوا عليه ثم قالوا: يا بني آدم هذه سنتكم» ^(١).

• عن أبي بن كعب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء وترا وألحدوا له وقالوا هذه سنة آدم في ولده» ^(٢).

• اختلفوا في موضع دفنه، فقيل في جبل في الهند، وقيل بجبل أبي قبيس بمكة، وقيل ببيت المقدس.

ولكن هذه الأقوال ليس معها الدليل لا من الكتاب ولا من السنة، فالله أعلم بموضع دفنه عليه السلام.



(١) رواه عبد الله بن أحمد في المسند (١٣٦/٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٩/٨) رواه عبد الله بن أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عتي بن ضمرة وهو ثقة. وقال ابن كثير وإسناده صحيح إليه.

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٥٤٥/٢) وانظر صحيح الجامع (٥٢٠٧).

المبحث السادس عشر: حجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما. فحج آدم موسى. قال موسى (يا آدم أنت أبونا. خيبتنا وأخرجتنا من الجنة) وأنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ (فما حملك أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟)»

فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وبكلامه، (وأنت نبي بني إسرائيل الذي كلمك الله من وراء حجاب ولم يجعل بينك وبينه رسولا من خلقه)، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١]. قال: نعم. قال: افتلوئني على أن عملت عملاً كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فحج آدم موسى» ^(١).

• قال ابن القيم ^(٢) - رحمه الله تعالى -

«فموسى أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم على ذنب قد تاب منه فاعله، فاجتبه ربه بعده وهده واصطفاه وآدم أعرف بربه من أن يحتج بقضائه وقدره على معصيته، بل إنما لام موسى آدم على المعصية التي نالت الذرية بخروجهم من الجنة ونزولهم إلى دار الابتلاء والحنة بسبب خطيئة أبيهم، فذكر الخطيئة، تنبيهاً على سبب المصيبة والحنة التي نالت الذرية. ولهذا قال: أخرجتنا ونفسك من الجنة (وفي لفظ: خيبتنا) فاحتج آدم بالقدر على المصيبة وقال: إن هذه المصيبة التي نالت الذرية بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدره قبل خلقي والقدر يحتج به في المصائب دون المعائب، أي أتولموني على مصيبة قدرت عليَّ وعليكم قبل خلقي بكذا وكذا سنة؟ هذا جواب شيخنا - رحمه الله - يعني: شيخ الإسلام ابن تيمية.

ثم قال: وقد يتوجه جواب آخر وهو إن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع

(١) رواه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢) وابن أبي عاصم في السنة (٦٢/١-٦٣) وراجع الصحيحة (١٧٠٢).

(٢) شفاء العليل ص: ٣٥ - ٣٦.

ويضر في موضع، فينفع إذا احتج بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع لأنه لا يدفع بالقدر أمراً ولا نهياً ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة، يوضحه أن آدم قال لموسى: أتلمني على أن عملت عملاً كان مكتوباً عليّ قبل أن أخلق فإنه لم يدفع بالقدر حقاً ولا ذكره حجة له على باطل ولا محذور في الاحتجاج به، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به، ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلاً محرماً أو يترك واجباً، فيلومه عليه لائمه، فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقاً ويرتكب باطلاً كما احتج به المصرون على شركهم وعبادة غير الله، فقال: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠].

فاتحوا به مصوبين لما هم عليه، وأنهم لم يندموا على فعله ولم يعزموا على تركه ولم يقرؤا بفساده... ونكتة المسألة أن اللوم إذا ارتفع صح الاحتجاج بالقدر، وإذا كان اللوم واقعاً فالاحتجاج بالقدر باطل. انتهى.

• وقال ابن كثير^(١) - رحمه الله تعالى -:

من كذب بهذا الحديث فمعاند، لأنه متواتر عن أبي هريرة، وناهيك به عدالة وحفظاً وإتقاناً، ثم هو مروى عن غيره من الصحابة.

وقال العلماء: بأن جواب آدم إنما كان احتجاجاً بالقدر على المصيبة لا المعصية.

وقال ابن كثير: لو كان الجواب على اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد، لا تفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله، فيحتج بالقدر السابق فينسب باب القصص والحدود ولو كان القدر حجة لاحتج به كل أحد على الأمر الذي ارتكبه في الأمور الكبار والصغار، وهذا يقضى إلى لوازم فظيعة. انتهى.

• وقال النووي^(٢) - رحمه الله تعالى -:

معنى كلام آدم، أنك يا موسى تعلم أن هذا كُتب عليّ قبل أن أخلق فلا بد من

(١) قصص الأنبياء ص: ٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم (٧/٧٦٥).

وقوعه، ولو حرصت أنا والخلق أجمعون على رد مثقال ذرة منه لم نقدر، فلا تلمني فإن اللوم على المخالفة شرعي لا عقلي، وإذا تاب الله عليّ وغفر لي زال اللوم، فمن لا مني كان محجوجاً بالشرع، فإن قيل فالعاصي اليوم لو قال هذه المعصية قدرت عليّ فينبغي أن يسقط عني اللوم، قلنا: الفرق أن هذا العاصي، باق في دار التكليف جارية عليه الأحكام من العقوبة واللوم، وفي ذلك له ولغيره زجر وعظة فأما آدم ميت خارج عن دار التكليف مستغن عن الزجر، فلم يكن للومه فائدة بل فيه إيذاء وتحجيل فلذلك كان الغلبة له. انتهى.

• كيف التقى موسى بآدم عليهما السلام^(١)؟

قال القايسي: التقت أرواحهما فتحاجا.

وقال الفضيل بن عياض: ويحتمل أن الله سبحانه وتعالى أحياهما فاجتمعا فتحاجا بأشخاصهما كما جاء في الإسراء.

وقيل: إن هذا كان في حياة موسى عليه السلام وأنه سأل الله تعالى أن يريه آدم عليه السلام فأجابته. وذكر الطبري أثرًا في ذلك وأن موسى عليه السلام قال: رب، أبونا آدم الذي أخرجنا وأخرج نفسه من الجنة أرنيه فأراه إياه، فقال: أنت آدم؟ فقيل: نعم فذكر الكلام... إلخ.



(١) شرح صحيح مسلم للآبي (٩/٢١).

البحث السابع عشر: التقاء النبي ﷺ بآدم عليه الصلاة والسلام في ليلة المعراج في السماء

● جاء في حديث المعراج الطويل عن أنس بن مالك وأبي ذر -رضي الله عنهما-: وفيه قول النبي ﷺ ((... ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء، فلما جاء إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: هذا جبريل، قال: معك أحد؟ قال: معي محمد، قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح، فلما علونا السماء إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى فقال مرحبا بالنبي الصالح، والابن الصالح، قلت: من هذا يا جبريل، قال هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسمة بنيه فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى...))^(١).



البحث الثامن عشر: آدم يخرج بعث النار من ذريته

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((يقول الله تعالى: يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك. فيقول: أخرج بعث النار. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فعنده يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله، وأينا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلا ومن يأجوج ومأجوج ألف. ثم قال: والذي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. فكبرنا. فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. فكبرنا. فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود))^(١).

● قوله: ((أخرج بعث النار)) معناها هنا: ميز أهل النار من غيرهم، وإنما خص بذلك آدم لكونه والد الجميع ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء.



(١) رواه البخاري (٣٤٩-٣٤٢) ومسلم (١٦٣) وغيرهما.

(١) رواه البخاري (٣٣٤٨) ومسلم (٢٢٢).

البحث التاسع عشر: دخول الناس الجنة على هيئة آدم عليه الصلاة والسلام إكراماً له

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال؛ اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحبونك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم فقالوا: السلام عليك ورحمة الله. فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن»^(١).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال: رسول الله ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على أشد كوكب دري، في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتيمخطون ولا يتفلون أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة (وهو العود الذي يتبخر به) وأزواجهم الخور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد. على صورة أبيهم آدم. ستون ذراعاً في السماء»^(٢).

• قوله: «فكل من يدخل الجنة على صورة آدم».

أي على صفته، وهذا يدل على أن صفات النقص من سواد وغيره تنتفي عند دخول الجنة.



(١) رواه البخاري (٣٣٢٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤) وغيرهما.

البحث العشرون: فوائد مستنبطة من قصة آدم عليه الصلاة والسلام

لقد سبق أن ذكرنا بعض الفوائد خلال المباحث السابقة، وتمة لها ما يلي:

• أن هذه القصة العظيمة ذكرها الله في كتابه في مواضع كثيرة صريحة لا ريب فيها ولا شك، وهي من أعظم القصص التي اتفقت عليها الرسل ونزلت بها الكتب السماوية واعتقدها جميع أتباع الأنبياء من الأولين والآخرين، ولا ينكر ذلك إلا الزنادقة.

• إن أصل البشر آدم وحواء، ليس كما زعم بعض الجهال أن هذا الإنسان كان حيواناً قرداً أو شبيهاً بالقرود حتى ارتقى إلى هذه الحال الموجودة.

• فضيلة العلم وأن الملائكة لما تبين لهم فضل آدم بعلمه عرفوا بذلك كماله وأنه يستحق الإجلال والتوقير.

• أن من الله عليه بالعلم: عليه أن يعترف بنعمة الله عليه وأن يقول كما قالت الملائكة والرسول: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٣].

• أن الله جعل هذه القصة لنا معتبراً وأن الحسد والكبر والحرص من أخطر الأخلاق على العبد. فمن وقى شر هذه الثلاثة فقد وقى الشر. فالكفر من «الكبر» والمعاصي من «الحرص» والبغي والظلم من «الحسد».

• أنه ينبغي للعبد إذا وقع في ذنب أن يبادر إلى التوبة والاعتراف، ويقول ما قاله الأبوان في قلب خالص وإنابة صادقة، فما قص الله علينا توبتهما إلا لنقتدى بهما فنفوز بالسعادة وننجو من الهلكة.

• أن الشيطان هو العدو لآدم وذريته، والله يحب منا: أن نقاومه بكل ما نقدر عليه من تجنب طرقه وخطواته، وفعل الأسباب التي يخشى منها الوقوع في شباكه، ومن عمل الحصون من الأوراد الصحيحة والأذكار القلبية والتعوذات المتنوعة، ومن السلاح المهلك له من صدق الإيمان وقوة التوكل على الله ومراغمته في أعمال الخير ومقاومة وساوسه والأفكار الرديئة التي يدفع بها إلى قلب كل وقت بما يضادها ويبطلها من العلوم النافعة والحقائق الصادقة.

• أن فيها دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة المثبتين لله ما أثبتته لنفسه من الأسماء

الحسنى والصفات كلها، من غير تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل.
 • إن المرء ليغضب من أهل القرآن حين يغفلون عن هداية القرآن ويذهبون يستجدون على مواثد اللثام.

• يا بن آدم، هكذا شرفك الله وكرمك ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].
 بأن جعلك خليفة في الأرض، وعلمك ما لم تكن تعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وأمر الملائكة بالسجود لأبيك فسجدوا، أفليق بك أن تقف موقفا لا يرضاه ربك؟ لا بل يجب أن تمثل أمر ربك وأن تعصى الشيطان عدوك وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

لقد كرم الله الإنسان الأول، وذريته من بعده. بستر جسمه، وبخفى عورته، هكذا خلق الله آدم، فالله سبحانه وتعالى قد أنزل على الإنسان اللباس بأن خلقه لهم ودهم على صناعته وذلك ليؤاري به السوءة ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوَآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فلَمْ تخرج النساء كاسيات عاريات كاشفات لما أمر الله بستره ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].



الفصل الثالث: قصة ابني آدم قابيل وهابيل

المبحث الأول: من ابنا آدم؟

• قال تعالى: ﴿وَأَنْثُلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبَلُ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَكِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعْتُ لَهُ نَفْسَهُ لِقَتْلِ أَخِيهِ فَفَقَّطَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سُوَءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سُوَءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨-٣١].

• جمهور العلماء على أن هذين الابنين هما ابنا آدم من صلبه.

• وفي سفر التكوين أنهما أول أولاد آدم اسم أحدهما قايين أو قايين وهو البكر، ويقول علماء التفسير والتاريخ منا أن اسمه قابيل وهو القاتل، واسم الثاني: هابيل بالاتفاق، وذكروا في ذلك روايات غريبة لا يمكن أن يعرف مثلها إلا بوحي من الله.

• هذه التسمية لا بنى آدم (قابيل وهابيل)، إنما هي من نقل العلماء عن أهل الكتاب الذين أسلموا، ولم يرد بها نص من القرآن، ولا جاءت في سنة ثابتة صحيحة فيما نعلم، فلا علينا أن لا نجزم بها ولا نرجحها وإنما هو قول قيل.



البحث الثاني: ابنا آدم وأول جريمة قتل في الحياة

• في قوله تعالى: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾. أمر من الله لرسوله ﷺ أن يقص على قومه هذه القصة الحقيقية التي لا تمت إلى الأساطير. وواضح من لهجة الأمر أن قريشاً لم يكونوا يعلمون هذه القصة ولا غيرها من قصص القرآن، وأن محمداً ﷺ أمر أن يتلوها عليهم. ترى من أين جاء بها محمد ﷺ مع أنه ما كان يعلمها هو ولا قومه؟ لاشك أن الله وحده هو الذي علمه أنباء الغيب، وهذا هو الإعجاز في القرآن.

• المطلب الأول: بداية القصة:

• أنه كان لا يولد لآدم عليه السلام مولود إلا ولد معه جارية، ونهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيعة، وولد له أخرى فبيحة دميعة، فقال أخو الدميعة (هابيل): انكحي أختك وأنكحك أختي. قال: (قابيل): لا، أنا أحتق بأختي. فقربا قربانا فتقبل من هابيل وكان صاحب غنم. ولم يتقبل من قابيل وكان صاحب زرع. فقتل قابيل هابيل^(١).

• لما هدد قابيل وتوعد بالقتل لأخيه هابيل، قال له هابيل: ولم تقتلني يا أخي؟ وما ذنبي في أن الله لم يتقبل منك؟ فأصلح نفسك، وقدم مخلصاً لوجه الله، فإنما يتقبل الله من المتقين، يا أخي: لئن مددت إلى يدك بالسوء، تريد أن تقتلني ظلماً وعدواناً، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك أبداً. وذلك لأني أخاف الله رب العالمين.

• المطلب الثاني: القربان وعلامة قبوله:

• القربان: هو ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح وغيرها. وغلب عندنا في ذبائح النسل كالأضاحي.

• كانت القرابين عند اليهود أنواعاً:

منها: المحرقات للتكفير عن الخطايا وهي ذكور البقر والغنم السالمة من العيوب.

ومنها: ذبائح السلامة لشكر الرب تعالى.

(١) ذكر ذلك في أثر عن ابن عباس وقال عنه ابن كثير في تفسيره (٧٧/٣) رواه ابن أبي حاتم وإسناده جيد، وقال السيوطي في الدر المنثور (٤٨٣/٢) أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر بسند جيد.

ومنها: التقدّمات من الدقيق والزيت.

ومنها: ما يقدم من باكورة الأرض.

• وأما القربان عند النصارى: فهو ما يقدمه الكاهن من الخبز والخمر فيتحول في اعتقادهم إلى لحم المسيح ودمه حقيقة.

• لم يبين لنا الله تعالى في الآيات كيف علما أنه تقبل من أحدهما دون الآخر. ويحتمل أن يكون ذلك بوحى من الله لأبيهما آدم عليه الصلاة والسلام، بناء على قول الجمهور أنهما ابنا آدم لصلبه.

وروى عن بعضهم: أن القربان المقبول كانت تحيء النار فتأكله ولا تأكل غير المقبول، وليس في هذه الأخبار شيء مرفوع إلى النبي ﷺ يعول عليه. بل هذا كان من ادعاء وكذب اليهود كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَافَ نَفْسٍ لَّوْ كُنَّا لَهُمْ بِرُءُوسًا﴾. ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَافَ نَفْسٍ لَّوْ كُنَّا لَهُمْ بِرُءُوسًا﴾. وهذا منهم كذب على التوراة إذ الذي فيها مقيد بغير عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وكان دأب بني إسرائيل أنهم كانوا يقربون القربان فيقوم النبي فيدعو فتنزل نار من السماء فتحرقه، ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلاً على صدق دعوة النبوة.

الذي تعهدنا بالعناية والرعاية، وخلقنا على أتم خلق وأكمل. فمن يتعدى على هذا الخلق السوى فقد استحق العقاب الشديد. يا أخي: إني لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلاً، فإنك إن فعلتها تبوء بإثم قتلى وإثمك الخاص بك، الذي كان من شأنه عدم قبول قربانك، فأرجع عما أنت مقدم عليه، وذكره بالخوف من الله وضرره من ارتكاب جريمة القتل حتى لا يكون من الظالمين أصحاب النار والقاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحب الانتقام والقتل يرى في الإقدام على هذا العمل جرماً وفضاعة فيتردد، ولا يزال كذلك حتى تشجعه نفسه الأمارة بالسوء «فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله»، وهدم ما بناه الله وأتقنه، فأصبح من الخاسرين، وأي خسارة أكبر من هذه الخسارة في الدنيا والآخرة؟

وأصبح قد سن هذه السنة السيئة لكل قاتل وجاء في الحديث الصحيح: «(من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم من شيء)»^(١)

(١) حديث مشهور، مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله.

وقال ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»^(١).

فلما قتل أخاه، لم يدر كيف يصنع به، لأنه أول ميت مات من بني آدم «فبعث الله غراباً يبحث في الأرض» أي: يثيرها ليدفن غراباً آخر ميتاً ليريه بذلك «كيف يورثي سوأة أخيه» أي بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة «فأصبح من النادمين» وهكذا عاقبة المعاصي، الندامة والحسرة.



المبحث الثالث: فوائد وعبر من قصة ابنى آدم

١- مشروعية التقرب إلى الله تعالى بما يجب أن يتقرب به إليه تعالى من الأعمال الصالحة والذبايح والنسك ونحو ذلك.

٢- عظم جريمة الحسد وما يترتب عليها من الآثار السيئة على الأفراد والمجتمعات.

٣- قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها لله تعالى، فرب مؤدٍ للقرابات والطاعات ترد عليه أعماله، كما قال سبحانه: ﴿وَقَدَّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمَلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. وهذا يدل على أن العمل قد يتعرض للمحبطات التي تفسد العمل وتضعفه: كالكفر، والشرك، والرياء، والردة، والنفاق، وبغض ما أنزل الله، وغير ذلك من محبطات الأعمال ومن ثم يجب الاحتراز عنها أملاً في الانتفاع من الأعمال الصالحات بالقبول والرضوان عند الله.

٤- إن أهل الباطل لا ينتفعون بالحق، ولا يتعظون بالمواعظ والآيات، لأنهم في عمى عنها، فقد رد الله على قابيل قربانه، فبدلاً من أن يقبل على نفسه فيلومها على تقصيرها، ويعلم أنه عوقب بسبب نفسه الأمانة بالسوء، فيقبل عليها يهذيها ويطهرها مما علق بها وأفسدها، حتى يغير الله حاله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

بل لم يفعل شيئاً من ذلك، ومن شدة العمى عن الحق بارز أخاه العدا، وكأنه السبب في رد قربانه، تماماً كما فعل إبليس حين طرد من رحمة الله، فبدلاً من أن يتوب ويندم ويلوم نفسه على كبرها وفجورها، أقبل على آدم يناصبه العدا، ومن هنا نعلم: أن المعاصي تُسقى لأهلها من قبل الشيطان الرجيم. ومن ذلك أيضاً نعلم: أن أهل الباطل يكرهون أهل الحق، ويناصبونهم العدا دون ما سبب أو إساءة بدرت منهم، ولذلك أهل الباطل يتآمرون على أهل الحق: فيقتلونهم ويعذبونهم ويسجنونهم، حتى لا يسمعون لهم، فهم يكرهون كلام أهل الحق، فإن سكتوا كرهوا سكوتهم، ويكرهون أفعالهم، ودعوتهم ومنهجهم، بل يكرهون الخير الذي يأتي من قبلهم، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاباً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

فبدلاً من أن يقولوا اهدنا إليه طلبوا العذاب.

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦٧) ومسلم (١٦٧٧) وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود.

فلا يظن أهل الحق أن ما يتهم به أبناء الصوحة الإسلامية الحقبة باهات من تطرف وإرهاب وغيره من الافتراءات كلابل هي طبيعة الصراع بين الحق والباطل. وقد كانت هذه هي سنة الله مع الأنبياء والمرسلين وأقوامهم، قال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فقد أصبحت الطهارة والعفة جريمة يتهم بها الأبطال المؤمنون في مجتمع اللوطية، وما أشبه اليوم بالبارحة فلقد حوربت الفضيلة، وثارَت نائرة العلمانيين على الحجاب والنقاب، فقالوا: أخرجوهما من المدرسة والجامعة في حين أنهم رحبوا بالسافرات المتبرجات المغيرات لخلق الله، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

٥- من أسباب قبول الأعمال تقوي الله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

والمؤمنون الذين يتقون المعاصي أو يتقون الشرك والتقوى هي الأساس في الخير والإيمان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٦- الخوف من الله تعالى يحجز العبد عن الحرام، ويصده عن الغي والباطل وهذا مستفاد من قوله تعالى على لسان الرجل الصالح من ابني آدم ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]. ولذلك لا يوجد حصن للمجتمعات التي تزعم أنها تملك أسباب الأمن إلا بالخوف من الله، لأن الخوف من الله يعني المراقبة لله في السر والعلن.

٧- أيها الظالم لنفسه وغيره، اعلم أن حق العباد لا يترك الله منه شيئاً يوم القيامة، فإنه يحمل من سيئات الذين ظلمهم، فهو يحمل إثمهم وإثم من ظلمهم.

قال تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة: ٢٩].

٨- على أهل الحق النصيح والإرشاد لأهل الباطل، فما زال ابن آدم يزجر أخاه عن المعصية ويحضه على التقوى، ويظهر له التسامح في أبهى صورته، ويخوفه من الله، ومن عقابه في النار، وأن الظالم يستحق النار والنكال والعذاب، كل هذه النصائح الغالية يستجيب لها داعي الفطرة المستقيمة، ولكن القلب المظلم الأعمى عن الحق، المريض

بالشهوات والشبهات، لا يمكن أن يستمع للحق، وإن استمع لا ينتفع كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣].

٩- اعلم يا بن آدم أن نفسك التي بين جنبيك هي أعدى أعدائك قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ [المائدة: ٣٠]. أي حسنت له نفسه وسولت وشجعت ووسوست وهونت وزينت وبررت له قتل أخيه، وهذا يشعر بأن النفس فيها وازع للخير لا ينزوي إلا إذا بررت النفس الخبيثة للإنسان فعل السوء. قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٢]. فمن أراد أن يعق أباه وأمه ويظلم الآخرين ويفعل المنكرات والفواحش ما ظهر منها وما بطن تبرر له نفسه الخبيثة ذلك. فيا عبد الله اجعل نفسك لومة واجعلها مطمئنة وامسك بذمامها وإلا أمرتك بالسوء. فتخسر الدنيا والآخرة.

١٠- إياكم ومحدثات الأمور والبدع فإنه من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة.

١١- في ذلك عبرة لأهل الباطل الذين يفخرون بالاعتداء على الآمنين من أهل الإيمان أن مآلهم إلى الخسار ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]. وسعيهم إلى البوار ودنياهم شقاء وآخرهم دمار.

١٢- مشروعية الدفن، ولقد أكرمنا الله بأن هدانا لسنة الدفن إكراماً ورفعاً لبني آدم.

١٣- خير ابني آدم المقتول ظلماً وشرهما القاتل ظلماً.



الفصل الرابع: قصة نوح عليه الصلاة والسلام

وفيه: مباحث:

المبحث الأول: ما بين آدم ونوح عليهما السلام من القرون

- عن أبي أمامة رضي الله عنه . أن رجلاً قال: يا رسول الله، أنبي كان آدم قال: «نعم مُكَلِّمٌ» قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون ^(١).
- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام» ^(٢).

ففي الحديث الأول يدل على الحصر بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون، وزادنا ابن عباس أنهم كانوا على الإسلام.

● وللمفسرين في المراد بالقرن سبعة أقال:

أحدها: أنه أربعون سنة.

والثاني: ثمانون سنة.

والثالث: مائة سنة.

والرابع: مائة وعشرون سنة.

والخامس: عشرون سنة.

والسادس: سبعون سنة.

والسابع: أن القرن: أهل كل مدة فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قلت السنون أو كثرت بدليل قوله ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» ^(٣).

فالمقصود بالقرن الأول الصحابة -رضي الله عنهم-، ثم الذين يلونهم يعني: التابعين، ثم الذين يلونهم: يعني الذين أخذوا عن التابعين.

فالقرن: مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان، فهو في كل قوم على مقدار أعمارهم.

(١) سبق تخريجه في قصة آدم المبحث «الرابع عشر».

(٢) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤٤٢/٢) وانظر مجمع الزوائد (٣١٨/٦)، والطبقات الكبرى (٣٦/١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣) وغيرهما.

المبحث الثاني: نوح عليه الصلاة والسلام أول ^(١) رسول للبشرية بعد انحرافها عن طريق التوحيد، والفلو في الصالحين

المطلب الأول: الشيطان يزين للناس الفلو في الصالحين:

- مكث البشر بعد آدم عليه الصلاة والسلام قرونًا طويلة وهم أمة واحدة على الهدى، ثم اختلفوا وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة: فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم الشيطان فأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتسلوا بها وليتذكروا بها أحوالهم فكان هذا مبتدأ الشر.

● فلما هلك الذين صوروهم لهذا المعنى جاء من بعدهم وقد اضمحل العلم، فقال لهم الشيطان إن هؤلاء وذا وسواها يغوث ويعوف ونسرا كانوا قومًا صالحين، وقد كان الناس من قبلكم يدعونهم ويستشفعون بهم، وبهم يسقون الغيث وتزول الأمراض، فلم يزل بهم حتى اهتمكوا في عبادتهم على رغم نصح الناصحين.

● عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْرَنَ وَدًا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبادت ^(٢).

● قال ابن القيم -رحمه الله-:

قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

● وقال القرطبي ^(٤) -رحمه الله-:

وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بهم، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدون كاجتهادهم، ويعبدون الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها.

(١) والدليل على أوليته في الرسالة حديث الشفاعة وسبق ذكره في المبحث الرابع عشر في قصة آدم عليه السلام.

(٢) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٣) إغاثة اللهفان (٢٨٧/١).

(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص: ٢٢٣.

المطلب الثاني: نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه لتوحيد الله

• ثم بعث الله فيهم نوحاً عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].
ورغبهم في خير الدنيا والآخرة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا. يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَوِّعْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٢-٤].
فلما بادأهم بالأسر بالإخلاص لله وتسفيه آراءهم وتخويفهم بعقوبات الدنيا والآخرة قالوا: ﴿إِنَّا لَتَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. ﴿وَمَا تَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: ٢٧]، ﴿وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].
وطلبوا منه أن يطرد من كان معه من المؤمنين استكباراً منهم واستتكافاً على الحق وعلى الخلق.

• فبين لهم: أنه ليس به ضلال، وإنما به نزول الضلالة عن الخلق، وأنه رسول أمين على بينة من ربه وبراهين واضحة، وأن المؤمنين لا يحل طردهم، بل حقهم الإكرام والاحترام، وأنه لا يدعى لهم طوراً يراحم فيه الرب فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: ٣١].

• فلم يزل يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يزددهم دعاؤه إلا فراراً ونفوراً وإعراضاً وتوصياً منهم على الإقامة على ما هم عليه من عبادة غير الله والتمسك بها فقال نوح: ﴿رَبِّ إِنَّهُمُ عَصَوْنِي وَأَتَّبِعُوا مِن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكُرُوا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١-٢٣].

المطلب الثالث: نوح عليه الصلاة والسلام يدعو على قومه بالهلاك بعد اليأس من إيمانهم فاستجاب الله له وأمره بصنع السفينة:

• فلما رأى نوح عليه الصلاة والسلام أن التذكير لا ينفع فيهم بوجه من الوجوه، وأنه كلما جاء قرن كان أحدث مما قبله، وأن الله أحيره ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [نوح: ٣٦]. قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [نوح: ٣٦]. قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [نوح: ٣٦]. قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [نوح: ٣٦].

• فأجاب الله دعوته، وأمره أن يصنع الفلك برعاية منه وحسن نظر وتعليم من الله له هذه الصنعة التي امتن الله بها على العباد.

• وصار نوح له الفضل والابتداء بهذه الصناعة التي حصل بها من المنافع الدينية والدنيوية في جميع الأوقات مالا يُعد ولا يحصى، وأحيره الله بتحتهم إغراقهم وأنه لا يخاطب ربه فإنهم ظالمون.

• وجعل يصنع الفلك، وكلما مرَّ عليه ملاً من قومه سخرُوا منه فقال لهم: إن تسخرُوا منا اليوم فإننا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم.

• وأوحى الله إليه: أنه إذا جاء الوقت ﴿وَفَارَ التَّوَرُّ﴾ [هود: ٤٠]، و [المؤمنون: ٢٧].
أي جعلت الأرض كلها تتفجر عيوناً من كل جانب حتى المواضع البعيدة عن الماء عادة، وأمره أن يحمل من البهائم من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى ليبقى نسلها، لأنه يتعذر حملها كلها. والحكمة تقتضي إبقاء هذه الحيوانات التي خلقها الله مسخرة لمصالح البشر، ويحمل معه جميع من آمن من رجال ونساء.

• والحال: أنه ما آمن معه إلا قليل، وأمره أن يحمل أهله إلا من سبق عليه القول بالهلاك، فلما أركب جميع من أمر بهم قال لهم: سَمُّوا الله كلما جرت وكلما رست ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. لأن الأسباب مهما عظمت فهي من لطف الله، ولا تمام لها إلا بالله.

• فحينئذ فجر الله الأرض عيوناً، وأمر السماء أن تصب الماء المنهمر الكثير، فالتقت مياه السماء بمياه الأرض، وساحت على الأماكن المنخفضة، ثم ارتفعت شيئاً فشيئاً على كل المرتفعات حتى خفيت قمم الجبال الشاهقة، والسفينة تجري بهم في موج كالجبال تضرب يمينا وشمالاً.

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثْهِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ الْأَوَّاحِ وَشَرَرِ. تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِّمَن تَان كُنْ﴾ [القمر: ١١-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

المطلب الرابع: نوح عليه الصلاة والسلام وابنه والطوفان:

وفي تلك الحال المزعجة رأى نوح ابنه الكافر الذي كان على دين قومه وقد اعتزل

أباه حتى في هذه الحال فرآه مثل سائر قومه قد فر هارباً من المياه الجارفة فناداه نوح مترقفاً فقال: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]. وكان نوح عليه الصلاة والسلام أراد أن يوجه لولده هذا النداء الأخير في هذه اللحظات الحاسمة علّه يتوب ويرجع ويدخل في دين الإسلام مع أبيه ومع المؤمنين، وهذا الموقف يذكرنا بما فعله الرسول ﷺ مع عمه أبي طالب عندما حضرته الوفاة فكان ﷺ يرجو عمه أن يقول كلمة التوحيد قبل موته علّها تشفع له عند الله. ولكن تمادى ابنه في الغرور ولم يستجب لنداء والده وأجاب والده قائلاً ﴿سَأُورِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصُمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣]. وهذا جواب جاهل بالله لا يعرف ربه ولا يقدره حق قدره، ولم يخطر بباله أن المياه سترفع فوق رعوس الجبال، لذلك صحح له أبوه العلم فقال: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]. فلا يعصم جبل ولا حصن ولا غير ذلك إلا من رحم الله، ورحمته في تلك الحال متعينة في ركوب السفينة مع نوح عليه الصلاة والسلام.

• وتأتي موجة من الماء عالية لتضع حداً لهذا الحوار بين نوح وابنه وليصبح ابنه من المغرقيين ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ. فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]. وهنا يحتاج نفس نوح عليه الصلاة والسلام موجة عاطفية حادة تفيض بحنان الأبوة الدافق لتضمّن قلب نوح ونفسه حزناً وأسى على ابنه الذي صار في عداد المهلكين.

• واشتد حزن نوح عليه الصلاة والسلام على ابنه فقال منادياً ربه مترقفاً متضرعاً ﴿رَبِّ إِنِّي ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ [هود: ٤٥]. أن أحمل معي أهلي وأنت أرحم الراحمين.

• ونوح عليه الصلاة والسلام يوجه هذا النداء متسائلاً مستعلماً لا معترضاً. فقال له ربه ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]. أي الموعود بنجاتهم لأن الله قيد ذلك بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]. ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. أي هذا الدعاء لابنك الذي على دين قومه، أي إنه من الكافرين وإن انتسب إليك من حيث النسب فإنه لم ينتسب إليك من حيث الإيمان ولا قيمة لرباط النسب مهما قرب إن ضاع نسب الإيمان الذي هو أساس النجاة في الدنيا والآخرة.

• وجاء العتاب من رب العالمين لنوح عليه الصلاة والسلام ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]. وهذا عتاب منه سبحانه لنوح عليه الصلاة والسلام وتعليم له وموعظة عن مثل هذا الدعاء الذي إنما حمله عليه

الشفقة الأبوية وإنما الواجب في الدعاء أن يكون الحامل له العلم والإخلاص في طلب رضا الله تعالى.

• فقال نوح ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ. قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٧، ٤٨].

• فهبط وبارك الله في ذريته ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: ٧٧]. فكان أولاده «يافث» ملاً المشرق من الذرية. «وحام» ملاً المغرب من النسل. «وسام» ملاً ما بين ذلك.

ومكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً. ومكث بعد هلاكهم ما شاء الله.

• وكان نوح عليه الصلاة والسلام من أولى العزم من المرسلين الذين خصهم الله تعالى بالذكر في القرآن في موضعين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

الثاني: قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: ١٣].

واستنبط العلماء من ذلك أن هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل، وهم: نوح - وإبراهيم - وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فنوح عليه الصلاة والسلام من أولى العزم الذين صبروا على أذى أقوامهم، فقد تحمل عليه الصلاة والسلام العنت والسفاهة والتطاول والسخرية من قومه وصبر، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً ألف سنة إلا خمسين عاماً.

• وكان نوح عليه الصلاة والسلام من الخمسة الذين تدور عليهم الشفاعة يوم القيامة، وهو أول الرسل للناس، وهو الأب الثاني للبشر. صلى الله عليه وسلم تسليمًا.



المبحث الثالث: نوح عليه الصلاة والسلام ينذر قومه

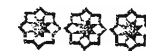
المسيح الدجال

• عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «قام رسول الله ﷺ في الناس فأتى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال: إني لا نذركموه، وما من نبي إلا أنذر قومه، ولقد أنذر نوح قومه، ولكني أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور»^(١).

قوله: «ولقد أنذر نوح قومه»

وخص نوحاً بالذكر لأنه أول من ذكر الدجال، وهو أول الرسل المذكورين في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

• الدجال رجل من بني آدم ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدرات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره، وفهره، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر، فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيتته، ومن صفاته أنه رجل شاب قصير جعد الرأس ممسوح العين اليمنى، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة وهي قطعة لحم تنبت في مقدمة العين، ومكتوب بين عينيه (ك ف ر) أو كافر، يقرأها كل مسلم كاتب وغير كاتب، يمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم، أكثر أتباعه من اليهود والنساء، يخرج من خراسان، ويظهر للمسلمين عندما يصل إلى مكان بين الشام والعراق، لا يدخل مكة ولا المدينة ولكن يخرج الناس إليه، وهو عقيم لا يولد له، ويدعى الربوبية، ولكن الله يبطل أمره ويقتله عيسى عليه الصلاة والسلام عند باب لد قرب بيت المقدس في فلسطين فمذهب أهل الحق أن الدجال حقيقة ومن علامات الساعة الكبرى، خلافاً لمن أنكره^(٢).



(١) رواه البخاري (٣٣٣٧).

(٢) للمزيد انظر رسالة أشراف الساعة «للمؤلف»

المبحث الرابع: وصية نوح عليه الصلاة والسلام قبل

موته لابنه وموضع دفنه

• عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما - قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية، عليه جبة سيجان^(١)، مزرورة بالدياج فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس! قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع: قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبته، وقال: «ألا أرى عليك لباس من لا يعقل» ثم قال: «إن نبي الله نوحاً ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية: أمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، أمرك بـ لا إله إلا الله» فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وضعت في كفة «ووضعت لا إله إلا الله» في كفة، رجحت بمن «لا إله إلا الله» ولو أن السموات السبع والأرضين السبع، كن حلقة مبهمة قصمتهن «لا إله إلا الله»، وسبحان الله، وبحمده، فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق، وأنهاك عن الشرك والكبر: قال: قلت، أو قيل: يارسول الله، هذا الشرك قد عرفناه، فما الكبر؟ قال: الكبر أن يكون لأحدنا نعلان حستان لهما شراكا حسان؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها؟ قال: «لا»، قال: هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: أفهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا» قيل يا رسول الله، فما الكبر؟ قال: «سفه (بطر)»^(٢) الحق، وغمص (غمط)^(٣) الناس^(٤).

• يؤخذ من الحديث عدة فوائد منها:

- ١- الحث على الوصية للأولاد بما ينفعهم والتحذير مما يضرهم.
- ٢- كلمة التوحيد لها فضل عظيم وذلك لما اشتملت عليه من نفى الشرك وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال، وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل

(١) جمع ساج وهو الطيلسان الأخضر.

(٢) أي أنكره ولم يقبله.

(٣) غمط وغمص الناس: احتقارهم والاستهانة بهم.

(٤) صحيح: أخرج أحمد (١٧٠/٢) والبخاري في الأدب المفرد (٥٤٨). وغيرهما وانظر مجمع الزوائد (٢٢٠/٤).

بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك فهذه الحسنة لا يوازئها شيء.

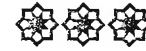
٣- التحذير من الكبر وأن عاقبته الخسران المبين.

٤- النهي عن الشرك بجميع صورته.

٥- الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض.

٦- سعة فضل الله تعالى وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

● ثم انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، واختلفت الأقوال في عمر نوح عليه الصلاة والسلام وكذلك مكان دفنه فقيل دفن في المسجد الحرام وقيل غير ذلك. ولكن هذا كله لا يعنيننا في شيء لخلوه من الدليل الصحيح الثابت من الكتاب أو السنة. فالله أعلم بذلك كله ويبقى هذا الثناء الخالد ما دامت السموات والأرض ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصفات: ٧٩-٨١].



المبحث الخامس: شهادة النبي ﷺ وأُمَّته يوم القيامة بأن نوحاً عليه الصلاة والسلام بلغ الرسالة

● عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ((يحيى نوح وأُمَّته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب. فيقول لأُمَّته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأُمَّته، فنشهد أنه قد بلغ وهو قوله جل ذكره ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ^(١) [البقرة: ١٤٣].

● وفي هذا الحديث فضيلة هذه الأمة أُمَّة محمد ﷺ وأُمَّهم شهداء على الناس يوم القيامة، شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم أن رسلهم بلغتهم، وأَنَّهُم كَذَبُوا رُسُلَهُمْ.



(١) رواه البخاري (٣٣٣٩).

المبحث السادس: فوائد وعبر مستفادة من قصة نوح عليه

الصلاة والسلام

• أن جميع الرسل من نوح إلى محمد ﷺ متفقون على الدعوة إلى التوحيد الخالص والنهي عن الشرك، فنوح وغيره أول ما يقولون لقومهم ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. ويكررون هذا الأصل بطرق كثيرة.

• أولو العزم من الرسل خمسة وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ.

• نوح عليه الصلاة والسلام أول رسول أرسله الله بعد انحراف البشرية عن دين الله الذي جاء به آدم وأبناؤه من بعده.

• آداب الدعوة وتمامها، فإن نوحاً دعا قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاً، بكل وقت وبكل حالة يظن فيها نجاح الدعوة، وأنه رغبهم بالثواب العاجل بالسلامة من العقاب وبالتمتع بالأموال والبنين وإدراك الأرزاق إذا آمنوا وبالثواب الآجل، وحذرهم من ضد ذلك، وصبر على هذا صبراً عظيماً كغيره من الرسل، وخطبهم بالكلام الرقيق والشفقة، وبكل لفظ جاذب للقلوب محصل للمطلوب، وأقام الآيات وبَيَّن البراهين.

• كل انحراف وقعت فيه البشرية سببه ابتعاد الناس عن منهج الأنبياء، وغياب العلم الموروث عنهم بموت العلماء الربانيين وتفشى الجهل بالله واليوم الآخر.

• أولى خطوات الانحراف تبدأ بانحراف في العقيدة، وكلما ازداد انحراف الناس عن العقيدة الصحيحة ازداد بالتالي انحرافهم في العبادات والأخلاق والمعاملات كل دعوة تريد الإصلاح ولا تبدأ بإصلاح العقيدة فقد جانب الصواب وأوقعت نفسها في مخالفة طريق الأنبياء.

• الحذر كل الحذر من التهاون بأمر من أمور العقيدة ولو خَبِلَ للبعض أنه يسير، فقد استدرج الشيطان قوم نوح وبدأ بهم بتعليق صور الصالحين حتى انتهى إلى عبادتهم إياهم.

• لا يتصورن اليوم أحد أن البشرية بلغت سن الرشد، وأنها في مأمن من كيد الشيطان لها. فأمَّن البشرية وأماها في اتباع طريق الأنبياء.

• دعوة الرسل جميعاً واحدة وطريقهم واحد ألا وهو توحيد الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

• الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسل جميع الرسل من أولى العزم ومن غيرهم وأنزل عليهم الكتب هداية، وإنما اختلف الناس من بعدهم بأهوائهم.

• لا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح.

• رابطة الإيمان والتقوى أقوى من رابطة النسب مهما بلغت وذلك على مر التاريخ لا يتغير بتغير الزمان والمكان، ولذلك قاتل أصحاب رسول الله آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم من المشركين في بدر، ونزل في حقهم قرآن يمدحهم بذلك وينثي عليهم ويبشرهم ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

• من خصائص الله سبحانه التي لا ينازعه فيها أحد علمه الغيب، ويُطَّلِع من رسله من يشاء على بعض غيبه بالقدر المناسب في الوقت المناسب.

• معرفة حقيقة ما في القلوب لا يعلمه إلا علام الغيوب.

• عدل الله المطلق في التعامل مع عباده فابن نوح عليه الصلاة والسلام لما كفر لم تنفعه صلته لأبيه.

• إذا أخطأ العبد أو نسي شيئاً أو جهله ثم ذُكِرَ يتذكر ويعود، وهكذا فعل نبي الله نوح كما فعل أبوه آدم من قبل ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

• ضرورة اللجوء إلى الله على كل حال والاحتكام إليه في كل أمر والحذر من تحكيم العاطفة.

• من سنن الله أن أهل الباطل يلصقون التهم بأهل الحق وأهل الدعوة إلى الله، مثل الطعن في شخص الداعي إلى الله وسيرته وسلوكه، ورميه بالسفه والضلالة والجنون والافتراء إلى غير ذلك مما يكون المقصود منه: تنفير الناس منه وعدم الثقة به.

• وإتمام دعوته بالابتداع والخروج عن مألوفات الناس وتقاليدهم ونظامهم الموروث، مما يراد به تنفير الناس من الدعوة إلى الله وصدهم عن سبيله.

• الحق يعرف أنه حق بنفسه لا بمن تبعه، وأن الكبير أكبر مانع للعبد من معرفة الحق

ومن اتباعه.

• من فضائل الأنبياء وأدلة رسالتهم، إخلاصهم التام لله تعالى في عبادتهم لله القاصرة وفي عبادتهم المتعدية لنفع الخلق، كالدعوة والتعليم وتوابع ذلك، ولذلك يدون ذلك ويعيدونه علي أسماع قومهم كل منهم يقول: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]. ولهذا كان من أجل الفضائل لأتباع الرسل أن يكونوا مقتدين بالرسل في هذه الفضيلة، والله تعالى يجعل لهم من فضله من رفعة الدنيا والآخرة أعظم مما يتنافس فيه طلاب الدنيا.

• أن القدر في نيات المؤمنين وفيما من الله عليهم به من الفضائل والتألي على الله أنه لا يؤتيهم من فضله من موارث أعداء الرسل، فلهذا قال نوح لقومه حين تألوا على الله وتوسلوا في ذم المؤمنين به بذلك، فقال: ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١].

• أنه ينبغي الاستعانة بالله وأن يذكروا اسمه عند الركوب والنزول وفي جميع التقلبات والحركات، وحمد الله والإكثار من ذكره عند النعم لاسيما النجاة من الكربات والمشقات كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ فَجَرَّاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أُنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨].

• وأنه ينبغي أيضًا الدعاء بالبركة في نزول المنازل العارضة كالمنازل في إقامات السفر وغيره، والمنازل المستقرة كالمساكين والدور لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وفي ذلك كله من استصحاب ذكر الله، ومن القوة على الحركات والسكنات ومن قوة الثقة بالله ومن نزول بركة الله التي خير ما صحبت العبد في أحواله كلها مالا غنى للعبد عنه طرفة عين.

• إن تقوى الله والاستغفار والقيام بواجبات الإيمان من جملة الأسباب التي تنال بها الدنيا وكثرة الأولاد والرزق وقوة الأبدان، وإن كان لذلك أيضًا أسباب أخر.

وهي السبب الوحيد الذي ليس هناك سبب سواه في نيل خير الآخرة والسلامة من عقابها.

• إن النجاة من العقوبات العامة الدنيوية هي للمؤمنين، وهم الرسل وأتباعهم.

• وأما العقوبات الدنيوية العامة فإنها تختص بالمجرمين ويتبعهم توابعهم من ذرية وحيوان، وإن لم يكن لهم ذنوب، لأن الوقائع التي أوقع الله بأصناف المكذبين شملت الأطفال والبهائم. وذلك مصداق لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

• فضيلة الشكر والثناء على صاحبه:

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]. قيل إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله.

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فِيحْمَدُهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرِبَ الشَّرْبَةَ فِيحْمَدُهُ عَلَيْهَا»^(١).

والظاهر أن الشكور هو الذي يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر:

أَفَادَتَكُمْ النِّعْمَاءُ مَنِي ثَلَاثَةَ يَدَي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرِ الْمُحْجَبِ

• على الآباء النصيح للأبناء لأهم يسألون عنهم يوم القيامة.

• الصبر على البلاء له أجر عظيم عند الله تعالى.

• من الصفات الكريمة التي يتحلى بها الإنسان العزيمة القوية التي يتغلب بها على كل ما يصادفه من عقبات ومشقات.

• الاستعاذة من فتنة المسيح الدجال.

• هذه الأمة هي أوسط الأمم وأعد لها وخصها الله بالشهادة على الأمم يوم القيامة، والشهادة لأنبيائهم ورسولهم بأنهم بلغوا رسالات ربهم.

• أكمل الله دينه وأتمه بالنبي الأمي محمد ﷺ فمن تبعه فقد اتبع طريق الأنبياء والمرسلين، ومن خالفه فقد خالف طريق الأنبياء والمرسلين.

• كل نبي كان يبعث في قومه خاصة، وبعث الله محمدًا للناس كافة.

• هذا والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينا والمسلمين إلى صراطه المستقيم.

(١) رواه مسلم (٢٧٣٤) وأحمد (١٠٠/٣) وغيرهما.

الفصل الخامس: قصة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام

المبحث الأول: من إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولد في العراق، وهاجر إلى الشام وإلى مصر ثم إلى مكة، فانظر كيف بارك الله في سعيه كما بارك في نسله وولده، ونشأ إبراهيم في وسط قوم يعبدون الشمس والقمر والنجوم، وعلى رأسهم أبوه آزر، ولقد آتاه الله رشده وعلمه الحكمة منذ كان صغيراً، وأراه ملكوت السموات والأرض وقد بعثه الله إلى قومه المشركين وهم فلاسفة الصابئة الذين هم من أحبب الطوائف وأعظمهم ضرراً على الخلق، فدعاهم بطرق شتى إلى توحيد الله تعالى، وكان أقرب الناس شبهها برسولنا محمد ﷺ.

عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: ((عرض على الأنبياء، فإذا موسى ضرب^(١) من الرجال، كأنه من رجال شنوءة^(٢)، ورأيت عيسى ابن مريم عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم صلوات الله عليه، فإذا أقرب من رأيت به شبها صاحبكم (يعني نفسه) ورأيت جبريل عليه السلام، فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية^(٣)))^(٤).



(١) سوس. خفيف اللحم أي وسط في اللحم لا بالضخم ولا بالضئيل.

(٢) شنوءة: حى من اليمن سموا بذلك لشنوءتهم أي تنفززهم وبعدهم عن الأقدار.

(٣) دحية هو الكلبي الصحابي.

(٤) رواه مسلم (١٦٧) وغيره.

المبحث الثاني: دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه وقومه بالحكمة والموعظة الحسنة

المطلب الأول: أدب إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوة أبيه:

• قال تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مرم: ٤٢-٤٥].

• تصور لنا هذه الآيات الكريمة من سورة مريم أدب إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوة أبيه وإذ تأملناها نلاحظ ما يلي:

١- لقد سلك إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوته أحسن منهاج، وأقوم سبيل، واحتج عليه أبدع احتجاج بحسن أدب وخلق جميل لئلا يركب من المكابدة والعناد. ولا ينكب بالكلية عن محجة الرشاد.

٢- بدأ إبراهيم عليه الصلاة والسلام ندائه بقوله ((يا أبت)) لإيقاظ عاطفة الأبوة في قلب الرجل رجاء أن يلين قلبه فيستجيب لنداء الحق، ويدخل في دين الله.

٣- يعترف إبراهيم بحق الأبوة لأبيه رغم كفره، ويستشعر إبراهيم عليه السلام واجبه في تقديم النصح لأبيه، ودعوته إلى الإسلام، وهذا من أسنى درجات البر لأبيه.

٤- خاطب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أباه بحكمة الأنبياء وبهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه، وهو يتحجب إليه فيخاطبه ((يا أبت)) ويسأله: لماذا تعبد يا أباي ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً، فهذا إنكار في صورة استفهام فقد عاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام آلهة أباه، ولكن بهذا الأسلوب المهذب، وأوضح له أن من أخص خصائص الإله المعبود أن يسمع ويبصر وينفع ويضر، ولكن هذه الأصنام لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع، فهي لا تستحق العبادة فهذا إنكار في صورة استفهام تأديباً.

٥- أخير إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه بأنه لا يقول هذا من نفسه، إنما هو العلم الذي جاءه من الله فهداه، ولو أنه أصغر من أبيه سنا وأقل تجربة، إنه علم النبوة وهو أشرف العلوم، وكل الناس أمام هذا العلم في الجهل. فهو ينصح أباه الذي لم يتلق هذا العلم لعله يتذكر أو يخشى.

٦- لم يصرح إبراهيم عليه السلام، بجهل أبيه تأدباً وحكمة في الدعوة.

٧- بين إبراهيم لأبيه أن طريقه طريق الشيطان، وهو يريد أن يهديه إلى طريق الرحمن.

٨- اختيار إبراهيم عليه السلام ألفاظه بعناية لمخاطبة أبيه بأسلوب مناسب، ومن ذلك اختيار لفظ «الرحمن» ولم يقل: الجبار أو المنتقم مثلاً. ففي لفظ الرحمن البشري بالرحمة لم أطاع الله وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله وتعلق عليه أبواها، كما أن الطاعة، أكبر الأسباب لنيل رحمته - ولهذا قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ واختار لفظ «المس» عند تكلمه عن العذاب، ولم يذكر ألفاظ آخر تنفره من دعوته.

كل ذلك يشير إلى لطف إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأدبه وحكمته البالغة، وموعظته الحسنة في دعوة أبيه.

٩- وجاء النداء الأخير من إبراهيم لأبيه بتخويفه سوء العاقبة، وبما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال، ولم يخل ذلك من حسن الأدب، حيث لم يصرح بأن العقاب لا حق له، وأن العذاب لاحق به ولكنه قال: «(أخاف أن يمسك عذاب)» فذكر الخوف والمس ونكر العذاب، وجعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه، أكبر من العذاب.

١٠- صَدَّرَ إبراهيم عليه السلام كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله (يا أبت) توسلاً إليه واستعطافاً.

المطلب الثاني: غلظة الكفر وقسوته كانت رد الفعل من آزر لابنه إبراهيم

عليه السلام

• قال تعالى على لسان آزر والد إبراهيم عليه السلام بعد دعوة ابنه له وما فيه من أدب وحكمة وتلطف ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنِ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مرم: ٤٦].

بهذه الجهالة تلقى الرجل الدعوة إلى الهدى، وبهذه القسوة قابل القول المؤدب المهذب، وذلك شأن الإيمان مع الكفر، وشأن القلب الذي هذبه الإيمان والقلب الذي أفسده الكفر، ولم يغضب إبراهيم الحليم ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه فقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [مرم: ٤٧-٤٨].

• في جوابه بقوله عليه السلام (سلام عليك) مقابلة السيئة بالحسنة.

يستعصم إبراهيم عليه السلام بربه سبحانه ويلجأ إليه، فلا ملجأ منه سبحانه إلا إليه، ويعلم مفاصلته لما عليه أبوه وقومه ويخلص الدعاء لله راجياً منه وحده سبحانه العون والتأييد والنصر والتثبيت.

المطلب الثالث: دعوة إبراهيم على الصلاة والسلام لقومه:

• لقد دعا إبراهيم قومه بطريقة لا يمكن صاحب عقل أن ينفر منها فالحمد لله الذي ألهم عباده المرسلين الحكمة وفصل الخطاب قال تعالى: ﴿وَأَنبِئْ عَلَيْهِمُ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِيَةً * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُوكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٦٩-٨٢].

• بعد أن دعا إبراهيم أباه الدعوة الخاصة، انتقل إلى دعوة قومه الدعوة العامة. والله سبحانه وتعالى يقول في الآيات السابقة لرسوله وحبيبه محمد ﷺ: اتل عليهم يا محمد خبر إبراهيم عليه السلام وهو يدعو قومه، ولماذا أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتلو علينا هذه القصة وغيرها من القصص وذلك لتعلم دروساً وعبراً وحكمة وأدباً ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

• **ويؤخذ من هذه الآيات ما يلي:**

١- يسأل إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قومه مستنكراً عليهم متعجباً من حالهم، في اتخاذهم أصناماً لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر، يعكفون على عبادتها.

٢- وتأتي الإجابة أكثر عجباً فهم قد فعلوا ذلك لأنهم وجدوا الآباء والأجداد يفعلون ذلك، وهذا هو التقليد الأعمى، والحجة الواهية التي تعلق بها كل من انحرف عن منهج الرسل، أولو كان الآباء لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون؟ أين عقولكم أيها القوم وقد جاءكم الهدى ورسول مبين؟!

٣- يعلن إبراهيم عليه السلام براءته من هذه الآلهة المزعومة، وعداوته لها، بل ويعلن ضجره وتأففه من صنيع قومه ومن آلهتهم ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧].

٤- وهذا تدرج حكيم في الدعوة فقد بدأ معهم متساهلاً موجهاً ناصحاً ثم بين لهم عجز آلهتهم وضعفها فضلاً عن إمكانية نفعها وضرها، ولكن القوم أصروا على اتباع أهوائهم وتقليد آبائهم فلم يكن هناك بد من تنبيههم إلى ضلالهم وضلال آبائهم من قبلهم ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

٥- بعد أن بين إبراهيم عليه السلام فساد عقيدة القوم، وضلال عبادتهم ومعبوداتهم، أخذ يوضح لهم حقائق التوحيد الخالص فسبحانه هو الذي خلق وهدي، وهو الذي أطعم وسقى، وهو الذي أمرض وشفى، وهو الذي أمات وأحيا، وهو سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعاً، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك هذه الأصنام، التي لا تخلق، ولا تمدي، ولا تمرض ولا تشفى، ولا تطعم ولا تسقى ولا تميت ولا تحيي، ولا تنفع عابديها بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

٦- فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة لا تقدر أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وتركتم طريق الهدى والرشد.

٧- إن دعوة إبراهيم عليه السلام لم تكن كلمات جوفاء يتفوه بها، وإنما هي دعوة العقيدة راسخة في القلب تزداد يقيناً بما في هذا الملكوت الواسع والخلق العجيب، فها هي دعوته ترتقى إلى أعلى في محاولة لانتشال عباد الكواكب من ضلالهم وتزيين الشيطان لهم عبادة هذه الكواكب ليرجعهم إلى فطرتهم السليمة وحتى لا يصرفوا العبادة لمخلوقات لا دوام لها.

قال تعالى: ﴿وإبراهيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ

إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦-١٧].

٨- هذا منهج الأنبياء وأتباع الأنبياء في دعوتهم إلى الله تعالى وكل دعوة تحيد عن هذا النهج لا يكتب لها النجاح.

المطلب الرابع: إبراهيم يحطم الأصنام التي كان يعبدتها قومه:

• فلم يزل إبراهيم عليه السلام مع قومه في دعوة وجدال، وقد أفحمهم وكسر جميع حججهم وشبههم، وأضمر في نفسه الهدم للأصنام التي كان يعبدتها قومه، فأقسم على تخطيطها وهي طريقة عملية أراد إظهارها لقومه ليقيم لهم الحجة على أنها لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع إلحاق الأذى بمن يصيبها بضرر، فالإلهان العملي له في النفس وقع كبير أشد أثراً من الوعظ والإرشاد.

• تحين إبراهيم عليه السلام الفرصة المناسبة لتحقيق مأربه، فلما خرجوا ذات يوم لعيد من أعيادهم وخرج معهم ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ. فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٨-٨٩]. لأنه خشى إن تخلف لغير هذه الوسيلة، لم يدرك مطلوبه لأنه تظاهر بعداوتها والنهي الأكيد عنها وجهاد أهلها فلما برزوا جميعاً إلى الصحراء كر راجعاً إلى بيت أصنامهم فجعلها جذاذاً «(أي قطعاً صغيرة)» إلا صنماً كبيراً أبقى عليه ليلزمهم بالحجة. ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ. مَا لَكُمْ لَا تَنْتَقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩١-٩٣]. وقال ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

• فلما رجعوا من عيدهم بادروا إلى أصنامهم صباية ومحبة فرأوا فيها أفضع منظر رآه أهلها فقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٩]. أي يعيها ويذكرها بأوصاف النقص والسوء ﴿يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

• فإبراهيم بتخطيطه الأصنام أقام دليلاً حسيّاً لقومه على بطلان عبادة الأصنام، فلو كانت آلهة حقيقية لدافعت عن نفسها وأصاب بالضرر من أرادها بسوء.

المطلب الخامس: محاكمة إبراهيم عليه السلام أمام قومه:

• لما يتقن قوم إبراهيم عليه السلام أن الذي قام بتكسير أصنامهم هو إبراهيم عليه السلام فقالوا لجندهم:

﴿فَاتُّوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]. أي بحضرة الخلق العظيم ووجوه أشد التوبيخ ثم نكلوا به.

فقال الله للنار ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]. فلم تضره بشيء، وكانت عليه بردًا وسلامًا^(١).

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ [الأنبياء: ٧٠]. حيث عزموا على إحراقه لينصروا آلهتهم وقيموا لها في قلوبهم وقلوب أتباعهم الخضوع والتعظيم، فكان مكرهم وبالا عليهم، وانتصر الخليل على الخواص والعوام والرؤساء والمرؤسين، وجعل الله على أعدائه الخسران المبين في الدنيا والآخرة.



وهذا الذي أراد إبراهيم عليه السلام، ليظهر الحق بمرأي الخلق ومسمعهم، فلما جمع الناس وحضروا، وجاءوا بإبراهيم فقالوا: ﴿أَأَلَّتْ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٣].

مشيرًا إلى الصنم الذي سلم من تكسيره، وهم في هذه بين أمرين:
- إما أن يعترفوا بالحق وأن هذا لا يدخل عقل أحد أن جمادًا معروفًا أنه مصنوع من مواد معروفة لا يمكن أن يفعل هذا الفعل.

- وإما أن يقولوا نعم هو الذي فعلها وأنت سالم ناج من تبعتها. وقد علم أنهم لا يقولون الاحتمال الأخير قال: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]. وهذا تعليق بالأمر الذي يعترفون أنه محال.

فحينئذ ظهر الحق وبان واعترفوا هم بالحق فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ. ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

أي ما كان اعترافهم ببطان إلهيتها إلا وقتًا قصيرًا ظهرت الحجة مباشرة التي لا يمكن مكابرتها، ولكن ما أسرع ما عادت عليهم عقائدهم الباطلة التي ترسخت في قلوبهم وصارت صفات ملازمة، إن وجد ما ينافيها، فإنه عارض يعرض ثم يزول ﴿ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

أي انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم.

فحينئذ وبخهم بعد إقامة الحجة التي اعترف بها الخصوم على رءوس الأشهاد فقال لهم: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧]. فلو كان لكم عقول صحيحة لم تقيموا على عبادة مالا ينفع ولا يضر ولا يدفع عن نفسه من يريده بسوء.

فلما أعتبهم المقاومة بالبراهين والحجج عدلوا إلى استعمال قوتهم ويطشهم وجبروتهم في عقوبة إبراهيم فقالوا: ﴿ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧]. وقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

فأوقدوا نارًا عظيمة جدًا فألقوه بها.

فقال وهو في تلك الحال «حسبي الله ونعم الوكيل»^(١).

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-. وأما ما يردده بعض

= الخطباء وغيرهم أنه لما جاءه جبريل وقال هل لك حاجة فقال إبراهيم عليه السلام علمه بحالي يغني عن سؤالي فهذا موضوع. وانظر السلسلة الضعيفة للشيخ الألباني رحمه الله.

(١) جاء من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «(إن إبراهيم لما ألقى في النار لم تكن في الأرض دابة إلا أطفأت النار غير الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه فأمر بقتله)» رواه ابن ماجه (٣٢٣١) وغيره انظر الصحيحة (١٥٨١) وأصل الحديث متفق عليه. والوزغ هو البرص.

المبحث الثالث: مناظرات إبراهيم عليه الصلاة والسلام

المطلب الأول: مناظرته لأبيه وقومه من أهل بابل بالعراق وهم عبدة الأوثان والأصنام:

● لقد ألهم الله إبراهيم عليه السلام رشدَه وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وورقه من العلم والبيان ما أقام به الحجة الدامغة على قومه من عبدة الأوثان والأصنام. ولقد كان للمناظرة في دعوة إبراهيم عليه السلام دور كبير أظهر الله به الحق وأبطل الباطل.

● فمن هذه المناظرات مناظرته لأبيه وقومه من عباد الأصنام وقد سبق الكلام على ذلك في المبحث الثاني ونذكر هنا خلاصة هذه المناظرة.

● قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢].

أي ما هذه الصور الحَقيرة التي عكفتم على عبادتها. استفهام تحقير لها وتوبيخ على العكوف على عبادتها، بأنها تماثيل صور بلا روح، مصنوعة لا تضر ولا تنفع، فكيف تعبد؟

● لم يكن لقومه جواب إلا قولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]. ولا شك أن هذا جواب يدل على فقدانهم الحجة، ووقوعهم أسرى للتقليد الأعمى الذي وقع فيه عامة المشركين من قبل ومن بعد.

● وعندما كاد إبراهيم عليه السلام لأصنامهم وحطمها إلا كبيراً لهم، وجاء القوم وقد فرغوا من هول ما شاهدوا أصنامهم وما أصابها من تحطيم وتوجهوا بالسؤال لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا أَأَلَّتْ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٢]. فأجاب إبراهيم عليه السلام إجابة المتهم عليهم الذي يريد إقامة الحجة عليهم من أنفسهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. والكلام هنا من إبراهيم عليه السلام خرج مخرج التعريض بالقوم، ومن باب فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه، فإنه أقطع للشبهة وأقرب للحجة، ومن هنا وقع القوم في حيرة من أمرهم، واعترفوا بعجز أصنامهم، ولكنهم رغم وضوح الحجة وبيان الحق اتكسوا، فانقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطغيان ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا

== فتح الرحمن في قصص القرآن == ٨٩ ==
إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ كَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤-٦٥].

● ومن هنا عاجلهم إبراهيم عليه السلام بحجته البالغة: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

أين عقولكم يا قوم؟ وكيف تعبدون من دون الله هذه الأصنام العاجزة الضعيفة عن حماية نفسها فضلاً عن غيرها.

● وهكذا أقام إبراهيم عليه السلام حجته على قومه.
﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّنَا حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

● لكن هيهات هيهات ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

المطلب الثاني: مناظرته لقومه من أهل حران بالعراق وهم عبدة النجوم والكواكب:

● قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٩].

● بعد أن ناظر إبراهيم عليه الصلاة والسلام أهل بابل عبدة الأصنام، فهو هنا يناظر أهل حران عبدة الكواكب والنجوم والشمس والقمر.

● وبين لهم في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب

السيارة السبعة وهي الشمس والقمر وعطارد... إلخ وأشدّهم إضاءة، وأشرفهم عندهم الشمس ثم القمر ثم الزهرة.

• فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية، فإنها مسخرة مقدرة بسير معين لا تزيف عنه يميناً ولا شمالاً ولا تملك لنفسها تصرفاً بل هي جرم من الأجرام خلقها الله تعالى لما له في ذلك من الحكم العظيمة.

• قال لهم ناظراً ومناظراً: هل يا قوم ننظر هل يستحق منها شيء الإلهية والربوبية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

والمناظرة تخالف غيرها في أمور كثيرة منها: أن المناظر يقول الشيء الذي لا يعتقده لبيبي عليه حجته، وليقم الحجة على خصمه. فهنا يسهل علينا فهم معنى قوله ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦]. أي إن كان يستحق الإلهية بعد النظر في حالته ووصفه فهو ربي مع أنه يعلم العلم اليقيني أنه لا يستحق من الربوبية والإلهية مثقال ذرة، ولكن أراد أن يلزمهم بالحجة ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. أي غاب ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

• فإن من كان له حال وجود وعدم، أو حال حضور وغيبه، قد علم كل عاقل أنه ليس بكامل، فلا يكون إلهاً.

• ثم انتقل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى القمر فلما رآه بازغاً ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧].

• وقد صور نفسه بصورة الموافق لهم، لكن لا على وجه التقليد بل يقصد إقامة البرهان على إلهية النجوم والقمر، فالآن وقد أفلت، وتبين بالبرهان العقلي مع السمعي بطلان إلهيتها فأننا إلى الآن لم يستقر لي قرار على رب وإله عظيم.

• ثم انتقل إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى الشمس ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨]. أي أكبر من الكواكب والنجوم والقمر فإن جرى عليها ما جرى عليهم كانت مثلهم ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ [الأنعام: ٧٨]. وقد تقرر عند

الجميع فيما سبق أن عبادة من يأفل من أبطل الباطل. فحينئذ ألزمهم بهذا الإلزام ووجه عليهم الحجة فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ إِلَى اللَّهِ الَّذِي ظَاهَرِي وَبَاطِنِي﴾ [الأنعام: ٧٨]. أي ظاهري وباطني ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

• وهذه الحجج القرآنية الواضحة تبين لنا أن قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام «هذا

ربي» لم يكن من باب النظر ليكون اعتقاداً، ولا من باب الكذب لأنه لم يكن إخباراً. وإنما هو من باب الفرض في حال المجادلة والمناظرة لإقامة الحجة على الخصم، يوضح ذلك قوله تعالى بعد تلك الآيات السابقة: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ...﴾ [الآيات ٨٠-٨٣].

• فهذا برهان عقلي واضح ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]. أي أن الخالق للعالم العلوي والسفلي هو الذي يتعين أن يقصد بالتوحيد والإخلاص، وأن هذه الكواكب والأفلاك وغيرها مخلوقات مدبرات ليس لها من الأوصاف ما تستحق العبادة لأجلها، فجعلها يخوفونه أهتهم أن تمسه بسوء، وهذا دليل على أن المشركين عندهم من الخيالات الفاسدة والآراء الرديئة ما يعتقدون أن أهتهم تنفع من عبدها وتضر من تركها أو قدح فيها.

• فقال لهم مبيناً لهم أنه ليس عليه شيء من الخوف، وإنما الخوف الحقيقي عليكم فقال ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

• أجاب الله هذا الاستفهام جواباً يعم هذه القصة وغيرها في كل وقت فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾. أي بشرك ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُبْتَلَوْنَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

• فرفع الله خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالعلم وإقامة الحجة وعجزوا عن نصر باطلهم ولكنهم صمموا على الإقامة على ما هم عليه من الباطل، ولم ينفع فيهم الوعظ والتذكير وإقامة الحجج.

• فلم يزل يدعوهم إلى الله وينهاهم عما كانوا يعبدون هنياً عاماً وخاصاً، ولكن ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

الطلب الثالث: مناظرة إبراهيم مع ملك زمانه:

• قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَمَلْنَا إِبْرَاهِيمَ وَاسْمُهُ إِسْمَاعِيلُ إِذْ قَالَا اتَّبِعْنَا الْإِنْسَانَ أَطَاعَ أَشَرًا قَالَ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْفٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

• من الذي حاج إبراهيم في ربه؟

لم يرد في تسميته شيء ثابت عن رسول الله ﷺ ومن العلماء من قال: إنه النمرود بن كوسن بن كعان بن سام بن نوح ملك زمانه، وهو صاحب النار التي أوقدها وألقى فيها إبراهيم عليه السلام، وهو صاحب البعوضة التي دخلت في أنفه فكانوا يضربونه على رأسه سنين طويلة علاجاً له، هذا بالإضافة إلى أقوال أخر^(١). والله أعلم.

• وبدأ الله تعالى هذه الآيات بقول «ألم تر» وهذا استفهام فيه تعجب من هذا الطاغية الذي اغتر بما أعطاه الله من ملك فأخذته العزة بالإثم، وأبطره وأورثه الكبر، فوضع المحاجة التي هي أقبح وجوه الكفر موضع ما يجب عليه من الشكر، والموالة لأجل الإحسان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. وكما يقال: عاداني فلان لأني أحسنت إليه.

• وأخبر تعالى عن خليفه إبراهيم عليه الصلاة والسلام حيث حاج هذا الملك الجبار وهو نمرود البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين.

• وبدأت المناظرة بطلب النمرود من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه. فقال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. أي الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة، لأنها لم تحدث بنفسها، فلا بد لها من موجد أوجدها، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له.

• فعند ذلك قال النمرود ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾.

وذلك أنني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل، فأمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة. والظاهر - والله أعلم - أنه أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة، ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيى ويميت.

(١) أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة (٥٨٦٦) كنا نتحدث أنه ملك يقال له نمرود وهو أول ملك تجير في الأرض، وهو صاحب الصرح ببابل.

• وأخرج الطبري أيضاً (٥٨٧٠) بإسناد صحيح إلى زيد: هو نمرود.

• وقال مجاهد: ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود، وذي القرنين، والكافران نمرود، وبختنصر - والله أعلم (تفسير ابن كثير).

• وذكر في بعض المراجع أنه (نمرود) بالدال المهملة (انظر الدر المنثور).

• فلما رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت، وانتحاله ما ليس من صفاته وتلبسه على عوام الناس بالجدل الباطل، لما رأى إبراهيم عليه الصلاة والسلام منه هذا التمرد، وهذه المكابرة، سلك مسلكاً آخر أراد به إفحام خصمه، وقد كان بفضل الله ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهكذا أفحم إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا الطاغية وأسكنه إلى الأبد، حيث قال له: إن كنت تدعى لنفسك صفات الربوبية لن نناقشك في ذلك، لكن من صفات رب العالمين أنه يأتي بالشمس من المشرق في الصباح كل يوم، فأت بما من المغرب منازعاً لله في ملكه كما تدعى، فأصعقت هذه الحجة الطاغية، وأخرسته عن الجواب، ولا يتيسر للكافر أن يخرج عنها بمخرج المكابرة.

• وقد عبر القرآن عن هذه الحالة بقوله البليغ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

أي سكت وانقطع وتحير في الجواب، وهكذا يلهم الله أوليائه حجتهم على أعدائهم، ويمنع هذه الحجة أعداءه الظالمين، وصدق الله ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

• فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.



المبحث الرابع: الابتلاء في حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

المطلب الأول: ابتلاء إبراهيم عليه السلام في أبيه:

• شب إبراهيم عليه الصلاة والسلام عن طوق الرشد فوجد أباه ليس فقط يعبد الأصنام بل من سدناتها والمتفعين من وجودها، ولذلك كان من الصعب عليه اتباع ما جاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام من علم التوحيد، ولم يقف آزر عند حد رفض الإيمان بما جاء ابنه إبراهيم، بل هدد إبراهيم وتوعده بإخراجه من البيت والهجرة عنه ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مرم: ٤٦]. كل ذلك على الرغم من تلمظ إبراهيم عليه السلام مع أبيه وأدبه الجم معه كما سبق بيانه في مطلب دعوته لأبيه.

• قيام الولد بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه والديه عمل دقيق ومعقد جداً فهو يقتضى كثيراً من الحيلة والتحفظ.

• فعلى الولد إذا كان أبواه يهملان المعروف ويرتكبان المنكر عن جهل أن يعظهما ويلقنهما حكم الشريعة، ولا يجوز له ألته ما وراء ذلك من الزجر والتفريع أو الضرب.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

• وجب على الولد أن يأمر أبويه بالحكمة والموعظة الحسنة إذا رآهما يرتكبان المنكر لأن هذا من البر بهما ويسأل الله عز وجل أن يهديها ويغفر ذنوبهما، كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث أورد لأبيه الدلائل والنصائح وصدر كل منها بالدعاء ((يا أبت)) المتضمن للرفق واللين استمالة لقلبه وامثالاً لأمر ربه.

• قال الشيخ ابن العثيمين^(١) رحمه الله:

من ير الوالدين أن ينههما عن فعل المعاصي ويأمرهما بفعل الطاعات. وقد يقول قائل: أنا إذا نهيت أبي، غضب عليّ، وزعل، وهجرني، فماذا أصنع؟. نقول: اصبر على هذا الذي ينالك بغضب أبيك وهجره، والعاقبة للمتقين، واتبع ملة أبيك إبراهيم عليه السلام حيث عاتب أباه على الشرك.

(١) شرح العقيدة الواسطية (٣٣٥/٢).

المطلب الثاني: ابتلاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقومه:

• لم يكن والد إبراهيم عليه السلام بمعزل عن قومه، بل كان يمثل شريحة من قومه، وهى شريحة الملأ الذين استكبروا، وهم أصحاب النفوذ وأصحاب الجاه والسلطان وأعوان الملك الغاشم الظالم الطاغية ((النمرود)).

• ولذلك كانوا هم قادة الإعراض عن دعوة إبراهيم عليه السلام، وكيف لا يصدون الناس عن دين إبراهيم عليه السلام، وقد نظروا فوجدوا سلطاهم القائم على الباطل مصالحهم المادية تقوم على تجارة الأصنام، وانصياع الناس لهم بعبادتهم للأصنام.

• نظر القوم في الأمر فخافوا على مصالحهم المادية، وتمسكوا بأوضاعهم الاجتماعية حتى ولو كانوا على الباطل وهم كذلك، وإبراهيم عليه السلام على الحق وهو كذلك.

• ومن هنا أضرموا العداوة لإبراهيم عليه السلام بها، إنما نار الغضب الذي تأججت به قلوبهم ترمي بإبراهيم عليه السلام ودعوته. ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨].

• هم أرادوا الكيد بإبراهيم عليه السلام، لكن الله كاد لنبيه وخليله إبراهيم عليه السلام، وجعل كيد القوم في خسران مبين ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

وكانت هذه عاجل البشرى لإبراهيم عليه السلام، وأما الأخرى فوهب الله له الذرية الصالحة، والتي جعل فيها النبوة والكتاب: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ. رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٩٩-١٠١].

والغلام الحليم هنا هو إسماعيل عليه السلام، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اخْتَارَهُمَا وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا لَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

• لما اعتزل إبراهيم عليه السلام أباه وقومه وهاجر بدعوته إلى الشام وهبه الله إسحاق ويعقوب، فأيات سورة الصافات خصت بالذكر إسماعيل عليه السلام، وآيات سورة مريم والأنبياء خصت إسحاق ويعقوب عليهما السلام وكلهم آتاهم الله النبوة والكتاب.

المطلب الثالث: ابتلاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشدة العيش في الشام:

• قال تعالى: ﴿فَإِذْ قَالَ لُوطُ لِرَبِّهِ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

واجه إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة، وابن أخيه لوط عليه السلام واجهوا شدة الحياة في أرض المهجر (الشام) مما اضطر إبراهيم عليه السلام أن يخرج وزوجه سارة متوجها إلى مصر طلبا للرزق، وكانت مصر آنذاك مقصداً للطالبيين.

المطلب الرابع: الابتلاء في الأهل:

بعد أن حدث جذب في أرض الشام، توجه إبراهيم عليه السلام إلى مصر، وكان لفرعون حاكم مصر عيوناً في كل مكان ينقلون له الأخبار والأحوال، فعلم أن وافداً جاء معه امرأة جميلة، وكانت سارة رضي الله عنها، على جانب كبير من الجمال، فأرادها الفرعون لنفسه، وأرسل في استحضارها، واعتصم إبراهيم عليه السلام بربه ولجأ إليه، وكذلك فعلت سارة، فلما كانت عند الملك، وكلما مدَّ يده إليها تصلبت يده، وتوقفت عن الحركة، طلب منها أن تطلق يده ولن يمسه بسوء، وأحسن إليها وأكرم وفادتها ومنحها ((هاجر)) رضي الله عنها، وأعطاهما من المال الكثير، وعادت ((سارة)) إلى إبراهيم عليه السلام، ظافرة غائمة بفضل الله ورحمته، ولم يمسه بسوء، وهكذا يجعل الله لأولياؤه من كل ضيق مخرجاً، ومن كل شدة فرجاً^(١).

المطلب الخامس: الابتلاء بتأخر الإنجاب:

كانت سارة رضي الله عنها عاقراً لا تلد، ولما رأت تطلع إبراهيم عليه السلام للذرية، وقد تقدم به السن وهبته جاريتها هاجر المصرية فوهب الله إبراهيم منها إسماعيل عليهما السلام، ففرح به فرحاً شديداً ولكن سارة -رضي الله عنها- أدركتها الغيرة فحلفت أن لا يسكنها بها، وذلك لما يريد الله، وهذا من جملة الأسباب لذهابه بها إلى موضع البيت الحرام، وإلا فهو متقرر عنده ذلك عليه السلام.

المطلب السادس: الابتلاء بالابتعاد عن الأهل:

رزق الله إبراهيم عليه السلام بعد طول صبر وشوق للولد، بغلام عليم هو إسماعيل عليه السلام، ثم أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يحمل ولده وأمه، ويضعهما في أرض

(١) قصة سارة مع هذا الجبار رواه البخاري (٣٣٥٨) وغيره وسياق ذكر الحديث بتمامه عند التعليق على مبحث كذبات إبراهيم عليه السلام.

صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، لكن عند بيته المحرم ليقضى سبحانه أمراً كان مفعولاً، وامتلأ إبراهيم عليه السلام وامتلأت هاجر رضي الله عنها، لأمر ذي الجلال والإكرام.

فذهب بها وبابنها إسماعيل إلى مكة، وهى في ذلك الوقت ليس فيها ساكن ولا مسكن ولا ماء ولا زرع ولا غيره وزودهما بسقاء فيه ماء وجراب فيه ثمر ووضعهما في مكان قريب من محل بئر زمزم ثم انطلق إبراهيم عليه السلام وتركهما، فتبعته أم إسماعيل. فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم قالت إذا لا يضيعنا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم عليه السلام، ودعا الله تعالى فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهَوي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ثم استسلمت ((هاجر)) لأمر الله تعالى وجعلت تأكل من ذلك التمر وتشرب من ذلك الماء حتى نفدا فعطشت، ثم عطش ولدها فجعل يتلوى من العطش، ثم ذهبت في تلك الحال لعلها ترى أحداً أو تجد مغيثاً، فصعدت أدنى جبل منها وهو الصفا، وتطلعت فلم تر أحداً ثم ذهبت إلى المروة فصعدت عليه فتطلعت فلم تر أحداً، ثم جعلت تتردد في ذلك الموضع وهى مكروبة مضطربة مستغيثة بالله لها ولابنها، وهى تمشي وتلتفت إليه خشية السباع عليه، فإذا هبطت الوادي سعت حتى تصعد من جانبه الآخر لئلا يخفى على بصرها ابنها والفرج مع الكرب، والعسر يتبعه اليسر، فلما تمت سبع مرات تسمعت حس الملك فبحث في الموضع الذي فيه زمزم فنبع الماء.

فاشدد فرح أم إسماعيل به فشربت منه وأرضعت ولدها وحمدت الله على هذه النعمة الكبرى، وحوطت على الماء لئلا يسيح.

قال النبي ﷺ ((رحم الله أم إسماعيل لو تركت ماء زمزم (أي لم تحوطه) لكانت زمزم عيناً))^(١).

ثم عثر بها قبيلة من قبائل العرب يقال لهم جرهم فنزلوا عندها وتمت عليها النعمة.

(١) رواه البخاري (٣٣٦٢) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- ومعنى عينا معينا: أي ظاهراً جارياً على وجه الأرض.

● وشب إسماعيل شاباً حسناً وأعجب القبيلة بأخلاقه وعُلُو همته وكماله، فلما بلغ تزوج منهم امرأة، ففي أثناء هذه المدة ماتت أمه هاجر - رضي الله عنها -.

● وجاء إبراهيم عليه السلام بعد طول غياب عن أهله، وقد ماتت زوجته هاجر - رضي الله عنها -، وسأل عن إسماعيل فعلم أنه تزوج فدخل على امرأته فسألها عن زوجها وعن عيشهم، فأخبرته أن زوجها قد ذهب يتصيد، وأن عيشهم عيش الشدة، فقال لها: إذا جاء زوجك فأقرئه مني السلام وقولي له: يغير عتبة بابه. ورجع من فوره لحكمة أَرادها الله.

● فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً، فسأل امرأته فأخبرته أنه جاءهم شيخ بهذا الوصف وأنه سأل عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا في شدة، وأنه يقرأ عليك السلام، ويقول لك: غير عتبة بابك. فقال ذاك أبي وأنت العتبة الحقى بأهلك، ثم تزوج إسماعيل غيرها ثم جاء إبراهيم مرة أخرى، وإسماعيل أيضاً في الصيد، فدخل على امرأته فسألها عن إسماعيل فأخبرته، وسألها عن عيشهم فأخبرته أنهم في نعمة وخير. وكانت امرأة طيبة شاكرة لله وشاكرة لزوجها. ثم قال لها: إذا جاء زوجك فأقرئي عليه السلام وقولي له يثبت عتبة بابه. ثم رجع أيضاً من فوره قبل مواجهة إسماعيل لحكمة أَرادها الله تعالى.

● فلما رجع إسماعيل من صيده قال: هل جاءكم من أحد؟

فقال: جاءنا شيخ بهذا الوصف.

فقال: هل قال لكم من شيء؟

فقال: سألنا عنك فأخبرته، وسألنا عن عيشنا فأخبرته إننا في نعمة وأنتيت على الله.

فقال: فما قال؟

قالت: هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

فقال: ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك.

● ثم عاد إبراهيم المرة الثالثة فوجد إسماعيل يرى نبلا عند زمزم. فلما رآه بعد طول غياب قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد الشفيق والولد الشفيق. فقال يا إسماعيل إن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً يكون معبداً للخلق إلى يوم القيامة. قال سأعينك على ذلك، فجعلوا يرفعان القواعد من البيت، إبراهيم بيني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ

رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

● فلما تم بنيانه وتم للخليل هذا الأثر الجليل أمره الله أن يدعو الناس ويؤذن فيهم بحج هذا البيت فجعل يدعو الناس وهم يقدون إلى هذا البيت من كل فج عميق ليشهدوا منافع دنياهم وأخراهم ويسعدوا ويزول عنهم شقاؤهم^(١).

المطلب السابع: الابتلاء بذبح إسماعيل عليه السلام:

● لم يقف الابتلاء في إسماعيل عندما تقدم ذكره. وفي هذه الأثناء حين تمكن حب إسماعيل من قلب أبيه وأراد الله أن يمتحن إبراهيم لتقدم محبة ربه وخلته التي لا تقبل المشاركة والمزاحمة فأمره في المقام أن يذبح إسماعيل، ((ورؤيا الأنبياء وحي من الله)). فقال لإسماعيل ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢].

هذا هو الابتلاء حقاً، ابنه الأول الذي رزقه الله إياه بعد أن بلغ من الكبر عتياً، فلما نشأ وترعرع، وأصبح في سن يستطيع ويعمل رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أن الله يأمره بذبح ولده إسماعيل وكان وحيداً آنذاك. وقد وصفه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦].

● فلما استسلما لقضاء الله وعزما على تنفيذ أمره سبحانه وتعالى، وخضعا لأمر الله وانقادا لأمره ووطنا أنفسهما على هذا الأمر المزعج الذي لا تكاد النفوس تصبر على عشر معشاره. فألقاه إبراهيم على وجهه لتنفيذ أمر الله ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣].

نزل الفرج من الرحمن الرحيم.

﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٣]. فحصل توطين النفس على هذه الحنة والبلوى الشاقة المزعجة، وحصلت المقدمات والجزم المصمم وتم لها الأجر والثواب، وحصل لهما الشرف والقرب والرفق من الله، وما ذلك من ألطاف الرب بعزير. قال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤].

(١) وهذه القصة كلها ذكرها الإمام البخاري في الصحيح (٣٣٦٤-٣٣٦٥).

وأي ذبح أعظم من كونه حصل به مقصود هذه العبادة التي لا يشبهها عبادة، وصار سنة في عقبه إلى يوم القيامة يتقرب به إلى الله ويدرك به ثوابه ورضاه ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٤].

• والحاصل أن الابتلاء في حياة إبراهيم عليه السلام كان عظيمًا لأن منزلته عند الله كانت عظيمة. وأعظم الناس بلاء هم الأنبياء كما جاء في الحديث عن الصادق المصدوق عليه السلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»^(١).

• سئل الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-

«أما أفضل للرجل أن يمكن أو يتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكن حتى يتلى، فإن الله ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. فلما صبروا مكنتهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة»^(٢).

• إن المؤمن كلما كان أقوى إيمانًا، ازداد ابتلاءً وامتحانًا، والعكس بالعكس، ففيها رد على ضعفاء العقول والأحلام الذين يظنون أن المؤمن إذا أصيب ببلاء كالحبس أو الطرد أو الإقالة من الوظيفة ونحوها أن ذلك دليل على أن المؤمن غير مرضى عند الله تعالى، وهو ظن باطل، فهذا رسول الله ﷺ وهو أفضل البشر، كان أشد الناس حتى الأنبياء بلاءً، فالبلاء غالبًا دليل خير، وليس نذير شر.



المبحث الخامس: حقيقة كذبات إبراهيم عليه الصلاة

والسلام:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: ننتين منهن في ذات الله عز وجل: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]. وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقال: بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة، فقيل له: إن هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وإن هذا سألني عنك فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ: فقال: ادعى الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأطلق، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعى الله ولا أضرك، فدعت فأطلق. فدعا بعض حجبته فقال: إنكم لم تأتونني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأنته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مَهَيْمٌ^(١)؟ قالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأخدم هاجر. قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء»^(٢).

• وأما إطلاقه الكذب على الأمور الثلاثة فلكونه قال قولاً يعتقد السامع كذبا لكنه إذا حقق لم يكن كذباً لأنه من باب المعارض^(٤) المحتملة للأمرين فليس بكذب محض.

• فقلوه: «إني سقيم» يحتمل أنه أراد أني سقيم بما قدر عليّ من الموت أو سقيم الحجة على الخروج معكم، وقيل سقيم على عرف ابن آدم لا بد أن يسقم ضرورة، وقيل أراد على هذا «إني سقيم» النفس أي من أموركم وكفركم فظهر لهم من كلامه أنه أراد سقما بالجسد حاضراً وهكذا هي المعارض.

(١) منيم: أي ما الخير؟

(٢) تلك أمكم يا بني ماء السماء: قال ابن حبان: كل من كان من ولد إسماعيل يقال له ماء السماء، لأن إسماعيل ولد هاجر وقد ربي بماء زمزم وهي من ماء السماء.

(٣) رواه البخاري (٣٣٥٧-٣٣٥٨) وغيره.

(٤) المعارض: جمع معراض وهو لفظ محتمل يفهم منه السامع خلاف ما يريد المتكلم.

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٤/٤٠٤) وغيره وانظر الصحيحة (١١٦٥).

(٢) الفوائد لابن القيم ص: ٢٠٣.

● أما قوله عليه السلام: «بل فعله كبيرهم هذا» فإنما هو تقرير لهم وتوبيخ، على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر، ولم يقل إبراهيم هذا على أنه محقق لأن كبيرهم فعله، إذ الكذب، إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه، وقصدًا إلى تحقيق ذلك وجليُّ أن مراده عليه السلام، على كل، إنما هو توجيههم نحو التأمل في أحوال أصنامهم كما ينبي عنه قوله ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. أي إن كانوا ممن يمكن أن ينطقوا، وقيل: إنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين كأنه قال بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء ولم يخرج الخبر، على أن الكبير قد فعل ذلك.

وأما قوله على سارة إنما أخته: المقصود أنها أخته في الإسلام. ولجأ إبراهيم عليه السلام إلى ذلك لأن من دين ذلك الملك أن لا يتعرض إلا لذوات الأزواج.

● وذكر الكذبات لأنه قد يقال لها كذب على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر، والكذب الذي هو قصد قول الباطل، والإخبار بضد ما في النفس بغير منفعة شرعية، هو الذي لا يجوز على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

عن أم كلثوم بنت عقبة -رضي الله عنها- قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيمني خيرا أو يقول خيرا»^(١).

● عن أم كلثوم بنت عقبة -رضي الله عنها- قالت: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث كان رسول الله ﷺ يقول: «لا أعده كاذبًا الرجل يصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها»^(٢).

● عن أسماء بنت يزيد -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحل الكذب، إلا في ثلاث: يحدث الرجل امرأته ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليصلح بين الناس»^(٣).

● قال بعض أهل العلم: لا خلاف في جوازه في الثلاث وإنما اختلف في صورته ما يجوز منه فيها فأجاز قوم فيها تصريح الكذب وأن يقول ما لم يكن لما فيه من المصالح ويندفع فيه الفساد. وقالوا: إذا كان يجب لنجاة مسلم من القتل جاز في هذه.

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢) ومسلم (٢٦٠٥) وغيرهما.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٢١) وانظر الصحيحة (٥٤٥).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٣٩) وقال الشيخ الألباني -رحمه الله- صحيح دون قوله (ليرضيها).

● وقال بعضهم: لا يجوز فيها التصريح بالكذب وإنما يجوز فيه التورية بالمعاريض المباحة.

● من فوائد حديث هذا المبحث (وهو حديث الكذبات لإبراهيم عليه السلام).

١- مشروعية أخوة الإسلام.

٢- إباحة المعاريض مثل أن يعد زوجته أن يحسن إليها ويكسوها كذا، وينوى إن قدر الله ذلك. أو يقول لعدوه: مات إمامكم، ويقصد بالموت النوم، أو ينوى إمامهم الذي مات في الأزمان الماضية. وعلى ذلك فقس.

٣- الرخصة في الانقياد للظالم والغاصب.

٤- قبول صلة الملك الظالم.

٥- قبول هدية المشرك.

٦- إجابة الدعاء بإخلاص النية.

٧- كفاية الرب لمن أخلص في الدعاء بعمله الصالح.

٨- من يتق الله يجعل له مخرجا.

٩- إن الله يدافع عن الذين آمنوا ويحفظهم بحفظه.



البحث السادس: خصائص ومناقب وفضائل إبراهيم عليه

الصلاة والسلام:

١- استحقاق إبراهيم عليه الصلاة والسلام للإمامة:

• قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهذه الآية نص في اجتهاد الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، واصطفائه واختياره إماماً لمن يأتي بعده في الدين، وهذه الإمامة في الدين بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهذه الآية نص في اجتهاد الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، واصطفائه واختياره إماماً لمن يأتي بعده في الدين، وهذه الإمامة في الدين بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. وهي تختلف عن إمامة الدنيا التي قد ينالها الكافر أو الظالم بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال: القائل هنا هو الله سبحانه وتعالى رداً على إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي طلب من ربه أن يرزق ذريته من الثمرات من آمن منهم، فرد الله سبحانه عليه بهذا القول بياناً. وتوضيحاً أن الدنيا ينالها المؤمن والكافر، أما الإمامة في الدين فلا ينالها إلا من هو أهل لها صدقاً وإخلاصاً واستقامة.

• استحقاق إبراهيم عليه الصلاة والسلام لإمامة الناس في الدين لقيامه بما أمره الله به من أوامر الدين توحيداً وصدقاً وامراً ونهيًا وهذا مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

• فسنة الله في خلقه الابتلاء، ثم الاجتهاد والاصطفاء، فالله سبحانه أخبر رسوله ﷺ محمداً أنه سبحانه ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام أي: اختبره بكلمات، والكلمات المقصود بها التكليف الشرعية: أوامر الدين ونواهيه، «فأتمهن» أي قام بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام على الوجه الأكمل، ولذا أثني الله عليه في آية أخرى، فقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

٢- صدقه وإخلاصه في القيام بأوامر الدين وسرعة استجابته.

• قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

٣- كان إبراهيم عليه السلام إماماً جامعاً لخصال الخير كلها قدوة يقتدى به في ذلك، مطيعاً لله مائلاً إلى الدين القيم الذي هو الإسلام.

• قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

٤- الأمر باتخاذ مصلى من مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

• قال تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

• والمراد بمقام إبراهيم عليه السلام: هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة.

• عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «(قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت ثم صلى خلف المقام ركعتين وطاف بين الصفا والمروة)»^(١).

٥- إبراهيم عليه السلام يطهر البيت الحرام من الأصنام.

• قال تعالى: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

٦- اتخذ الله تعالى إبراهيم خليلاً وأثنى على من اتبع ملته:

• قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

• المقصود باتباع ملة إبراهيم عليه السلام: هو اتباع دينه وشرعه الحنيف المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق، إلى الإقبال على الخالق.

• والخلة أعلى أنواع المحبة.

• وهذه المرتبة، حصلت للخليلين، محمد، وإبراهيم، عليهما الصلاة والسلام.

(١) رواه البخاري (١٦٢٣).

- وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين.
- وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا، لأنه وفى بما أمر به، وقام بما ابتلى به. فجعله الله إمامًا للناس، واتخذته خليلًا، ونوه بذكره في العالمين.

٧- هذا بالإضافة إلى بعض الآيات الأخرى والأحاديث في الثناء على إبراهيم عليه السلام وبيان فضله وتكرمه منها:

- قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٢-١٢٣].
- وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١].
- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٢].
- وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

• هل هذه القواعد التي رفعها إبراهيم وإسماعيل مبنية قبلهما؟ أم

هما اللذان أسسها؟.

- فريق من أهل العلم يقولون: كانت موجودة قبلهما بناها آدم عليه السلام.
- وقيل: إنما كانت قواعد بيت أهبته الله عز وجل مع آدم عليه السلام.
- وقيل: إنما لم تكن موجودة ولكن إبراهيم عليه السلام بناها، والله أعلم.
- وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الآيات]

- [المتحنة: ٤].
- وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥].
- وقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣].

- وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].
- وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩].

وجعل الله كلمة التوحيد باقية في عقبه. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨].

- وجعل الله عز وجل النبوة في ذريته كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

- قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ تَشَاءٍ﴾ [الأنعام: ٨٣].

- وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

- وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مرم: ٤١].

- وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]. إلى غير ذلك من الآيات.

• أما الأحاديث فمنها:

- قول المسلمين في كل صلاة يصلونها - كما علمهم نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»^(١).

- وفي الصباح كان يقول النبي ﷺ: «أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد ﷺ وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٠) من حديث كعب بن عجرة.
(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٤٠٦/٣) من حديث ابن أبي مرفوعاً.

• ورأى النبي ﷺ الأطفال حول إبراهيم عليه السلام في الجنة. كما في حديث سمرة ابن جندب^(١) .

• وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية: فقال رسول الله ﷺ: ((ذاك إبراهيم عليه السلام))^(٢) .

• وقال ﷺ: ((اختتن إبراهيم النبي عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم))^(٣) .

• وقوله ﷺ: ((أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام))^(٤) .

• وقوله ﷺ: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم. إذ قال: رب أرني كيف تحيي الموتى. قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي))^(٥) .

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

• وسؤال إبراهيم عليه السلام ليترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين، فليس الخبر كالمعاينة، فإبراهيم ﷺ موقن بالبعث، ولكن اليقين يزداد إذا رأى ذلك عياناً.

• وقوله ﷺ: ((نحن أحق بالشك من إبراهيم)) فمعناه: إننا لم نشك في قدرة الله على إحياء الموتى، فإبراهيم أولى أن لا يشك.



(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس بن مالك مرفوعاً.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٦) ومسلم (٢٣٧٠) عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٤٩) من حديث ابن عباس مرفوعاً.

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٧٢) ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة مرفوعاً.

البحث السابع: فوائد مستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام

• إن في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام من الفوائد الكثير فمنها:

• ليعلم أن جميع ما قصه الله علينا من سيرة إبراهيم عليه السلام فإننا مأمورون به أمراً خاصاً:

قال تعالى: ﴿مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]. أي: الزموها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ الآية

[المتحنة: ٤].

فما هو عليه في التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق وجميع ما قص علينا من نبأه، فإن اتبعنا إياه من ديننا. ولهذا لما كان هذا أمراً عاماً لأحواله كلها استثنى الله حالة من أحواله فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [المتحنة: ٤].

أي فلا تقتدروا به في الحال بالاستغفار للمشركين، فإن استغفار إبراهيم لأبيه إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

• ومنها: ما أكرمه الله به من الكرامات المتنوعة، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، وأخرج من صلبه أمتين هما أفضل الأمم العرب وبنو إسرائيل، واختاره الله لبناء بيته الذي هو أشرف بيت وأول بيت وضع للناس، ووهب له الأولاد بعد الكبر والياس، وملاً يذكره ما بين الخافقين، وامتألت قلوب الخالق من محبته وألسنتهم من الثناء عليه.

• ومنها: أن الله رفعه بالعلم واليقين وقوة الحجج، قال جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾

[الأنعام: ٨٣]. ومن شوقه إلى الوصول إلى غاية العلم ونهايته أن سأل ربه ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَالِ بَلَى وَلَكِنْ لَيَطْمَئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

• ومنها: أن من عزم على فعل الطاعات وبذل مقدوره في أسبابها ثم حصل مانع يمنع من إكمالها أن أجره قد وجب على الله، كما قال الله ذلك في المهاجر الذي يموت قبل أن

يصل إلى مهاجره ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وكما ذكره الله في قصة الذبح، وأن الله أتم الأجر لإبراهيم وإسماعيل حين أسلما لله وأذعنا لأمره ثم رفع عنهما المشقة وأوجب لهما الأجر الدنيوي والأخروي.

• ومنها: ما في قصصه من آداب المناظرة وطرقها ومسالكتها النافعة وكيفية إلزام الخصم بالطرق الواضحة التي يعترف بها أهل العقول، وإلجاؤه الخصم الألد إلى الاعتراف ببطلان مذهبه وإقامة الحجة على المعاندين وإرشاد المسترشدين.

• ومنها: أن نعمة الله على العبد هبة الأولاد الصالحين، وأن عليه في ذلك أن يحمد الله ويدعو الله لذريته كما فعل الخليل ﷺ في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقال جل ذكره في الثناء عمومًا على من يدعو الله بصلاح ذريته: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالَّذِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

فإن العبد إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث: ((صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))^(١).

ومنها: أن المشاعر ومواضع الأنساك من جملة الحكم فيها، أن فيها تذكيرات بمقامات الخليل وأهل بيته في عبادات ربهم، وإيمان بالله ورسله، وحث على الاقتداء بهم في كل أحوالهم الدنيوية وكل أحوال الرسل دنيوية. لقوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥].

ومنها: الأمر بتطهير المسجد الحرام من الأنجاس ومن جميع المعاصي القولية والفعلية تعظيمًا لله وإعانة وتنشيطًا للمتعبدين فيه ومثله بقية المساجد لقوله عز وجل: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]. قال سبحانه: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

• ومنها: أن أفضل الوصايا على الإطلاق ما وصى به إبراهيم بنيه ويعقوب، وهو

(١) رواه مسلم (١٦٣١) عن أبي هريرة مرفوعًا.

الوصية بعملازمة القيام بالدين والاجتماع على ذلك، وهى وصيته تعالى للأولين والآخرين، إذ بها السعادة الأبدية والسلامة من شرور الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١-١٣٢].

وقال تعالى في وصيته للأولين والآخرين: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

• ومنها: أن العامل كما عليه أن يتقن عمله ويجتهد في إيقاعه على أكمل الوجوه، فعليه مع ذلك أن يكون بين الخوف والرجاء، وأن يتضرع إلى ربه في قبوله وتكميل نقصه والعفو عما وقع فيه من خلل أو نقص، كما كان إبراهيم وإسماعيل يرفعان القواعد من البيت وهما بهذا الوصف الكامل.

• ومنها: أن الجمع بين الدعاء لله بمصالح الدنيا والدين من سبيل أنبياء الله، وكذلك السعي في تحصيلهما الدين هو الأصل والمقصود الذي خلق له الخلق والدنيا وسيلة ومعونة عليه لدعاء الخليل لأهل البيت الحرام بالأميرين وتعليقه الدعاء بالأمور الدنيوية أنه وسيلة إلى الشكر فقال: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومنها: ما اشتملت عليه قصة إبراهيم من مشروعية الضيافة وأدبها فإن الله أخبر عن ضيفه أنهم مكرمون، يعني أنهم كرماء على الله، وأيضًا إبراهيم أكرمهم بضيافته قولاً وفعلًا، فإكرام الضيف من الإيمان، وأنه خدمهم بنفسه وبادر بضيافتهم قبل كل شيء، وأتى بأطيب ماله عجل حنيد سمين وقربه إليهم، لم يجوجهم إلى الذهاب إلى محل آخر وعرض عليهم الأكل بلفظ رقيق فقال ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرِىَ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٤-٢٧].

• ومنها: الترغيب في أن يكون أهل الإنسان ومن يتولى شئون بيته حازمين مستعدين

لكل ما يراد منهم من الشئون والقيام بمهمات البيت. فإن إبراهيم عليه السلام بادر إلى أهله في الحال فوجد طعام ضيوفه حاضراً لا يحوج إلا إلى تقديمه.

ومنها: ثناء الله على إبراهيم عليه السلام أنه أتى ربه بقلب سليم وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. والجامع لمعناه: أنه سليم من الشرور كلها ومن أسبابها، ملأ من الخير والبر والكرم، سليم من الشبهات القاذحة في العلم واليقين، ومن الشهوات الحائلة بين العبد وبين كماله، سليم من الكبر ومن الرياء والشفاق والنفاق وسوء الأخلاق، وسليم من الغل والحقد، ملأ بالتوحيد والإيمان والتواضع للحق وللخلق، والنصيحة للمسلمين والرغبة في عبودية الله وفي نفع عباد الله.



الفصل السادس: قصة لوط عليه السلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

● هو: لوط بن هاران بن آزر وهكذا إلى آخر نسب إبراهيم عليه السلام، وهو ابن أخيه وإبراهيم عليه السلام عمه. وكان لآزر ثلاثة أولاد وهم إبراهيم، وهاران، وناحور، ولوط هو ابن (هاران) وقد آمن لوط بعمه إبراهيم واهتدى بهديه.

● ذكر اسم لوط عليه السلام في القرآن الكريم في سبع وعشرين آية في أربع عشرة سورة [الأنعام ٨٦ - الأعراف: ٨ - هود: ٧٠، ٧٤، ٧٧، ٨١، ٨٩ - الحجر: ٥٩، ٦١ - الأنبياء: ٧١، ٧٤ - الحج: ٤٣ - الشعراء: ١٦٠، ١٦١، ١٦٧ - النمل: ٥٤، ٥٦ - العنكبوت: ٢٦، ٢٨، ٣٢، ٣٣ - الصافات: ٣٣، ص: ١٣ - ق: ١٣ - القمر: ٣٣، ٣٤ - التحريم: ١٠].

المبحث الثاني: من قوم لوط؟

● كان ولوط عليه السلام قد نزح عن محلة عمه الخليل إبراهيم عليه السلام بأمره وإذنه، فنزل بمدينة «سدوم» في أطراف شرق الأردن، وكان قومها من أكفر الناس وأفجرهم، وأخبثهم طوية، وأقبحهم سيرة، يقطعون السبيل ويأتون في ناديتهم المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، وقد ارتكبوا جريمة الشرك والكفر واتبعوها بجريمة لم يسبقهم إليها أحد من أهل الأرض ألا وهي إتيان الذكران دون النساء، وكانوا لا يستقبحون قبيحاً، ولا يستترون من منكر، قد قست قلوبهم، وفسدت أخلاقهم، حتى كانوا يجاهرون باللواط ولا يستحون، فبعث الله إليهم لوطاً عليه السلام.

المبحث الثالث: رسالة لوط عليه السلام ودعوته لقومه:

المطلب الأول: دعوته لهم إلى التوحيد وترك الفواحش التي ابتدعوها:

● لما بلغ بأهل سدوم ومن حولهم ما بلغ من الكفر والشرك والفسوق والعصيان وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فأرسل الله نبيه لوطاً بالرسالة الإلهية لهدايتهم إلى توحيد الله تعالى والإيمان به وخوفهم عذابه، وحثهم على ترك ما فيه من المعاصي والمنكرات، وقال لهم: إني رسول الله إليكم، آمين على تبليغ رسالته فاحذروا غضب الله وسخطه وعذابه، وامثلوا أمري فيما أدعوكم إليه، وما أطلب منكم أجراً على ما

أدعوكم إليه من الهدى والرشاد، فما جزائي إلا على الله مالك العالمين ومربيهم، فلا ينبغي لكم أن تفسدوا طبائعكم وتحالفوا نظام الحياة الطبيعي فتفعلوا الفاحشة بالذكور من الناس، وتتركوا ما خلق الله لكم من النساء زوجاتكم، لأن الطبيعة تقتضي بأن يتصل الذكر بالأُنثى، فكيف فسدت أمزجتكم ففعلتم ذلك المنكر؟ إنكم قد تجاوزتم الحد بارتكاب هذه المعصية، وابتدعتم فاحشة لم يسبقكم إليها أحد من بني آدم، وهى إتيان الذكران شهوة، مخالفين بذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها، تاركين ما خلق الله لهم من النساء، ولغواية هذا الأمر وشذوذه، اهتم به لوط عليه السلام، وخصه القرآن بالذكر، وإلا فإن لوطا عليه السلام دعاهم بدعوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين ألا وهى عبادة الله وتقواه، وإتباع منهج الرسول: قال تعالى: ﴿كَذَبْتُ قَوْمَ لُوطِ الْمُرْسَلِينَ﴾ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذَّكَرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ [الشعراء: ١٦٠-١٦٦].

• وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ [الأعراف: ٨٠-٨١].

• وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ [النمل: ٥٤-٥٥].

• وبجانب جريمة اللواط هناك جرائم أخرى كانوا يقرفونها، ذلك أنهم كانوا يأتون القبايح علانية فى أنديتهم، ويقطعون الطرق على المسافرين فيسلبونهم أموالهم ثم يعتدون عليهم بالفاحشة، هذه الفواحش استنكرها لوط من قومه وحذرهم من عقاب الله عليها، ولكن القوم تمردوا واستكبروا.

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ * أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ [العنكبوت: ٢٨-٢٩].

• **المطلب الثاني: مقابلة دعوة لوط عليه السلام بالتمرد والاستكبار والتهديد**

بالإخراج من البلاد:

• بعد دعوة لوط عليه السلام لقومه والتي تتلخص فى توحيد الله تعالى وترك المنكرات والفواحش التي كانوا عليها وأفحشها جريمة اللواط

• قوم لوط قابلوا دعوة لوط عليه السلام بالتمرد والاستكبار والعمى والجهل، ومن جهلهم وسكرتهم أنهم استباحوا لأنفسهم ما هم فيه من منكر، بل وعابوا على من أنكر عليهم ذلك، واعتبروا دعوته إلى الطهر جريمة يستحق عليها الطرد والإبعاد كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

• وقال تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ لَّمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

• وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]

• يتبين من الآيات أنهم قرروا طرده وطرده من آمن معه لا لشيء إلا أنهم أناس يتطهرون ولا يرتكبون الجرائم التي كان يرتكبها أولئك القوم الضالون.

• وهذا منتهى السفه وقلة العقل والتفكير، وإنه لأمر عجيب.

• متى كان احتساب الرذائل والقبايح يعتبر جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان بالطرده والإبعاد والحرمان؟

• ومتى كان الشريف الطاهر مجرمًا ينبغي تهجيته وإخراجه من الأوطان حتى يقول المجرمون المعتدون ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢].

• وما السبب فى هذا الطرد والإبعاد؟ أنهم لا يستحون أن يقولوا بملء أفواههم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾. فالعفة والطهارة، وعدم التلوث بالقاذورات، وخاصة (فاحشة اللواط) تعتبر فى نظر أولئك الأشقياء جريمة ينبغي أن يعاقب عليها الإنسان.

• ولا عجب، فذلك منطق الطغيان فى كل عصر وزمان، فإن الناقص يستثقل معاشره الكامل الذي يحتقره.

• وهكذا لم يقبل أهل الفاحشة مجرد مساكنة نبي الله لوط لهم ولا حتى رؤيته.

• وهكذا أهل الباطل فى كل زمان ومكان لا يطيقون رؤية أهل الحق.

• وإن كنت تعجب من منطق قوم لوط فى غابر أيامهم، حيث قلبوا الأمور، وغيروا الحقائق، واستباحوا لأنفسهم الفاحشة واعتبروا الدعوة إلى تركها جريمة فإن عجب الإنسان لا ينتهي اليوم عندما يرى أهل الغرب المظلم من كل قيمة معنوية، قد استباحوا لأنفسهم ما استباحه قوم لوط أتوا الرجال من دون النساء، وقطعوا السبيل، وجاءوا فى ناديهم بكل منكر، ولكن الفارق أن الغرب يعتبر هذه المنكرات حضارة وديمقراطية وحرية، وتلك مقومات النظام العالمي الجديد الذي يريد الغرب حمل الناس عليه فى أفطار الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم.

المبحث الرابع: الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام

• حين أراد الله عز وجل إهلاك أولئك الخبيثاء الأشرار، من قوم لوط، الذين كانوا أرذل وأخبث أمة في ذلك الحين، أرسل إليهم الملائكة ليقبلوا عليها سافلها.

• قبل ذهاب الملائكة إلى لوط عليه السلام، مروا أولاً على الكبير وهو عمه إبراهيم عليه السلام، فبشروه بغلام حليم، وأخبروه أنهم ذاهبون للانتقام من قوم لوط وإهلاك جميع أهل القرى الذين كانوا يعملون الخبائث، فتخوف إبراهيم على ابن أخيه لوط إذا قلبت بهم الأرض أن يكون ضمن الهالكين، فأخذ يناقشهم ويجادلهم، وقال لهم: إن فيها لوطاً، فأخبروه بأن الله سينجيهم وأهله ومن معه إلا امرأته.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١-٣٢].

• خرج الملائكة من عند إبراهيم عليه السلام وجاءوا إلى لوط عليه السلام فدخلوا عليه في صورة شباب مرد حسان، تشرق وجوههم بنضارة الشباب والجمال، ولم يخبروه بحقيقتهم، فظن أنهم ضيوف جاءوا يستضيفونه، فرحب بهم، وخاف عليهم من اعتداء قومه، وواجب الضيافة يحتم عليه أن يحميهم من كل أذى ويرد عنهم كل مكروه، ومرت على خاطره الأخطار التي ستصادفه من جراء استضافتهم له، فقال في نفسه: هذا يوم شديد المكازة والآلام.

• انتشر بين القوم نبأ نزول ضيوف حسان على لوط، فأسرعوا إلى بيته وتجمعوا حوله يبتغون الفاحشة من ضيوفه.

• ووقع ما خاف منه، فجاءه قومه يهرعون إليه يريدون فعل الفاحشة بأضياف لوط، فقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨].

لعلمه أنه لا حق لهم فيهن، كما عرض سليمان للمراتين حين اختصما في الولد فقال: اتئوني بالسكين أشقه بينكما^(١) ومن المعلوم أنه لا يقع ذلك، وهذا مثله.

• ولهذا قال قومه ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

(١) وهذه القصة رواها البخاري (٢٤٦٧) ومسلم (١٧٢٠) وغيرهما عن أبي هريرة.

تريد﴾ [هود: ٧٩]. وأيضاً يريد بعض العذر من أضيافه.

• وعلى هذا التأويل لا حاجة إلى العدول إلى قول بعض المفسرين «هؤلاء بناتي» يعني زوجاتهم، يعني لأن النبي أب لأمته فإن هذا يمنعه أمران:

أحدهما: قوله: «هؤلاء بناتي» يشير إليهن إشارة الحاضر.

ثانياً: هذا الإطلاق على زوجاتهم لا نظير له.

وأيضاً: النبي إنما هو بمنزلة الأب للمؤمنين به، لا للكفار والمخذور الذي توهوه يزول بما ذكرن، وأنه يعلم أنه لا حق لهم فيهن، وإنما يريد مدافعتهن بكل طريق.

• فاشتد الأمر بلوط وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

أي لدافعتكم، فلما رآهم جازمين على مرادهم الخبيث قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨].

• ولكنهم لم يعبأوا بكلام لوط عليه السلام، واستمروا في طغيانهم وسكرهم، فحينئذ أخبرته ملائكة الرحمن بأمرهم، وقالوا هون عليك ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنِ يَصْلَوْا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]. فسر نبي الله سرور الحب حيث وافاه الفرج بغنة على يد الحبيب.

• وحين هجم القوم على بيت لوط ليأخذوا الضيوف بالقوة، فصدم جبريل أو غيره من الملائكة الذين يعالجون الباب ليدخلوا على لوط فطمس الله بهذه الصدمة أعينهم فلم يبصروا ولم يهتدوا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَذُكْرٍ﴾ [القم: ٣٧]. فكان هذا عذاباً معجلاً وأتمودجاً لمن باشروا مراودة لوط على أضيافه، وأمروا لوطاً أن يسرى بأول الليل بأهله ويلج في السير حتى يخلف ديارهم وينجو من معرة العذاب.



المبحث الخامس: عقاب الله تعالى لقوم لوط

● لما انقضت غياهب الحزن عن لوط، واستجاب لأمر الملائكة عندما أمر أن يسرى هو وأهله بقطع من الليل أي آخر الليل، ويتركوا هذه القرية الظالم أهلها التي أذن الله أن ينزل بها العذاب، ويحل بها العقاب، ثم هوه أن يصطحب معه امرأته لخيانتها في الدين حيث لم تؤمن بالله، ولنفاقها، ومشايعتها لقوم لوط الخبيثاء. وقد هلكت زوجة لوط مع الهالكين، ولم ينفعها أمّا زوجة نبي فإن الله قد أوعده بإهلاك الكافرين. قال تعالى: ﴿فَأَخْبَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣].

● فلما خرج لوط عليه السلام بأهله، وهم ابتناه، لم يتبعه منهم رجل واحد.

● فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله مالا يُردّ، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد، فلما أشرقت الشمس نزل بهم العذاب.

● أهلكهم الله بأنواع من العذاب وجعلهم عبرة للمعتبرين.

● فقلب الله بهم القرى فجعل عاليها سافلها.

● أرسل عليهم صيحة من السماء.

● أمطر عليهم حجارة من سجيل أي شديد صلب قوي يتبع بعضها بعضا، معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه.

● قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢-٨٣].

● وقال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٣-٧٧]. أي من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة؟

● وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

● وقال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ. وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤-٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * نُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ * مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ. وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٢-٣٧].

● شاءت إرادة الله تعالى، وحكمته، أن يترك لنا مكان قرى قوم لوط إلى يومنا هذا وهو المكان المسمى «البحر الميت» عظة لنا، فافتضحوا بذلك فضيحة لا يغطيها ذليل ولا يسترها ليل، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]. أي: لعلامات للمتفكرين الناظرين الذين يعتبرون بها ويعلمون، أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون، مصدقون.



البحث السادس: فوائد مستفادة من قصة لوط عليه السلام

● التحذير من مخالفة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

● التحذير من اللواط وأكبر دليل على أن فاحشة اللواط من أشنع القبائح، وأنها توجب العقاب الشديد، وأن من ابتلى بهذه الفاحشة فمع ذهاب دينه قد انقلب عليه الحسن بالقبيح، فاستحسن ما كان قبيحاً ونفر من الطيب، وذلك دليل على انحراف الأخلاق.

● لما كانت مفسدة فعل قوم لوط من أعظم المفاسد كانت عقوبته في الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات ولم يتل الله سبحانه وتعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحداً من العالمين، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أحداً غيرهم، وجمع عليهم من أنواع العقوبات بين الإهلاك، وقلب ديارهم عليهم، والخسف بهم، ورجمهم بالحجارة من السماء، فنكل بهم نكالاً لم ينكله أمة سواهم، وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التي تكاد الأرض تميد من جوانبها إذا عملت عليهم، وتغرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها، خشية نزول العذاب على أهلها، فيصيبهم معهم، وتجع الأرض إلى ربها تبارك وتعالى، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها.

● تدبروا هذا - رحمكم الله - واعقلوا عن الله عز وجل تحذيره إياكم أن تكونوا مثلهم ألم تسمعه جل ذكره قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧]. تدبروا هذا يا مؤمنون واعلموا أن مولاكم الكريم إنما حذركم عمل قوم لوط، وأعلمكم أن الذي عوقب به قوم لوط آية لكم فاحذروا - رحمكم الله - عمل قوم لوط.

● النبي ﷺ يحذر الأمة من فعل قوم لوط.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، أن النبي ﷺ قال: «لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من غير تُخْوَم الأرض، ولعن الله من كتمه الأعمى عن السبيل، ولعن الله من سب والده، ولعن الله من تولى غير مواليه، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط»^(١).

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(إن أخوف ما أخاف على أمتي عمل قوم لوط)»^(٢).

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣٠٩/١) وابن حبان (٤٤١٧) وغيرهما.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (١٤٥٧).

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)»^(١).

● ومن الفوائد أيضاً: إكرام الضيف والزود عنه بكل وسيلة ممكنة.

● ومنها: أن من علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد في أقواله وأفعاله ومن ذلك: أنه ينصر المظلومين ويفرج الكرب عن المكروبين ويأمر بالخير وينهى عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. أي فيأمر بمعروف وينهى عن منكر ويدفع أهل الشر والبغي.

● ومنها: الحث على السعي في الأعوان على أمور الخير ودفع الشر، ولو كان المعاون على ذلك من أهل الشر فإن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم عند الله ولهذا قال لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]. وأكثر الأنبياء يعينهم الله في أشرف قومهم ويحصل بذلك من تأييد الحق وقمع الباطل والتمكن من الدعوة ما لا يحصل لو لم يكن كذلك واعتبر هذا بحال شعيب وقول قومه له: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١].

وكذلك نبينا محمد ﷺ بعث في أشرف بيت في قريش وأعزه، وقد رماه قومه بالعداوة البليغة وعقدوا المجالس المتعددة في إبطال قوله ودينه، بل في كيفية الفتك به.

ومن الأسباب التي أوقفتهم عند حدهم خوفهم من قبيلته، وانظر إلى حالته في تضيقهم عليه بالشعب وانحياز قبيلته معهم - مسلمهم وكافرهم ولم يخطر ببالهم أنه لن يصلوا إلى الفتك بشخصه الكريم حتى مكروا ذلك المكر العظيم، إذا اتفق رأيهم على أن ينتدب لقتله من كل قبيلة رجل ليتفرق دمه في القبائل فيعجز قومه عن الأخذ بثأره ولكنهم يمحرون ويمكرون والله خير الماكرين.

● الشفاعة لا تجوز فيمن حقت عليهم كلمة العذاب.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوط. إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ. يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٤-٧٦].

عن حذيفة رضي الله عنه قال: لما أرسلت الرسل إلى قوم لوط ليهلكوهم: قيل لهم: لا تهلوكوا

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٥٦).

قوم لوط حتى يشهد عليهم لوط ثلاث مرات، وطريقهم على إبراهيم. قال: فأتوا إبراهيم عليه السلام فبشروه بما بشروه ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤].

قال: كان مجادلته إياهم أن قال لهم: إن كان فيهم خمسون أهلكوهم؟ قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيهم أربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟

قالوا: لا: حتى انتهى إلى عشرة، وخمسة.

فأتوا لوطاً عليه السلام وهو في أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفاً، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأمسوا معه، فالتفت إليهم فقال: ما ترون ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: وما يصنعون؟ قال: ما من الناس أحد أشر منهم. قال: فانتهى بهم إلى أهله، فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومها، فقالت: لقد تضيف لوطاً قوم ما رأيت قط أحسن وجوهاً، ولا أطيّب ريحاً منهم، فأقبلوا يهرعون إليه حتى دفعوا الباب، حتى كادوا أن يغلبوه عليهم، فمال ملك بجناحه فصفقه دونهم، ثم أغلق الباب، ثم علوا الجدار فعلموا معه، ثم جعل يخاطبهم: ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾. قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلَوْا إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٧٨-٨١]. فَقَالَ حِينَ عَلِمَ أَنَّهُمْ رُسُلُ اللَّهِ قَالَ: فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَّا عَمِي قَالَ: فباتوا بشر ليلة عمياً ينتظرون العذاب، قال: وسار بأهله واستأذن جبريل عليه السلام في هلكتهم فأذن له فارتفعت الأرض التي كانوا عليها فعلا بها حتى سمع أهل السماء الدنيا كلاهم، وأوقد تحتها ناراً، ثم قلبها بهم، قال: فسمعت امرأته الوجبة وهي معه فالتفت فأصابها العذاب (١).

• اعلم يرحمك الله تعالى أن الجزاء من جنس العمل فلما قلبوا فطرة الله التي فطرهم عليها وتركوا ما أحل الله لهم من النساء، ووجدوا شهواتهم في الرجال دون النساء، فقلب الله عليهم بيوتهم فجعل عاليها سافلها، وما هو عن الظالمين بيعيد، ووقع ذلك في صور شتى.

• جعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة (بحيرة لوط أو البحر الميت) لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاها.

• فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه يمتثل ما أمره الله عز وجل وما أرشده إليه رسول الله ﷺ.

(١) صحيح: أخرجه الآجری في ذم اللواط (٧) وابن جریر في التفسير مختصراً (١٨٣٧٨).

الفصل السابع: قصة إسماعيل عليه السلام

المبحث الأول: اسمه وقصة مولده:

• هو: إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، وأمه هاجر القبطية المصرية.

• وهو البكر من أولاد إبراهيم عليه السلام.

وقصة مولده: إنه عندما عاد إبراهيم عليه السلام من مصر إلى فلسطين ومعه زوجته سارة وجارية لها تدعى هاجر، وكانت نفس إبراهيم ترغب في ولد فدعا الله أن يهبه ولداً صالحاً ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠]. وكان زوجه سارة شعرت بما يجول في خاطره فقالت له: إن الرب حرمني الولد فأرى أن تتزوج جاريتي هاجر لعل الله يرزقك منها ولداً، وكانت سارة قد تقدمت في السن، وكانت عقيماً لا يرجى أن ترزق بولد، فتزوج إبراهيم عليه السلام هاجر فولدت له إسماعيل وهو المعنى في قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

المبحث الثاني: فضائله ومناقبه ﷺ:

• قد أثنى الله عليه في كتابه الكريم في عدة مواضع:

قال تعالى: ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً. وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ [مرم: ٥٤-٥٥].

وقال تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ. وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥-٨٦].

وقال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ١٠١].

ففي الآيات السابقة أثنى الله تعالى: على إسماعيل عليه السلام ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بما لأهله ليقبهم العذاب مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب. ووصفه الله بالنبوة والرسالة.

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهُ السَّعْيُ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات: ١٠١-١٠٢].

فطاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعد به بأن سيصير، فوفى بذلك وصبر على ذلك، وسبق ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام ووصفه الله بالخيرية.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٨].

• طاعته لأبيه في طلاق زوجته وقد سبق تمام قصة ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام.

• قام ببناء الكعبة مع أبيه وسبق ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

• إسماعيل عليه السلام هو جد نبينا محمد ﷺ.

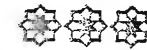
عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).

• كان إسماعيل عليه السلام يجيد الرمي بالسهام والنبال.

عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: «مرَّ النبي ﷺ على نفر من أسلم ينتضلون (يترامون)، فقال النبي ﷺ: ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان، قال فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: ما لكم لا ترمون؟ قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال النبي ﷺ: ارموا فأنا معكم كلكم»^(٢).

• إسماعيل عليه السلام هو أول من نطق باللغة العربية:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من فلق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل، وهو ابن أربع عشرة سنة»^(٣).



(١) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢٨٩٩).

(٣) صحيح: ذكره الديلمي في الفردوس (٤٨) والحاكم (٥٥٣/٢) وغيرهما. وصححه الشيخ الألباني

في صحيح الجامع (٢٥٨١).

البحث الثالث: وفاته عليه السلام

• قيل كان عمره يوم مات مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ودفن نبي الله إسماعيل بالحجر مع أمه هاجر.

• قلت: الروايات في ذلك غير صحيحة.

• وقال الشيخ الألباني -رحمه الله تعالى-:

في تحذير الساجد: إنه لم يثبت في حديث مرفوع أن إسماعيل عليه السلام أو غيره من الأنبياء الكرام دفنوا في المسجد الحرام، ولم يرد شيء من ذلك في كتاب من كتب السنة المعتمدة كالكتب الستة، ومسند أحمد، ومعجم الطبراني الثلاثة وغيرها من الدواوين المعروفة، وذلك من أعظم علامات كون الحديث ضعيفاً بل موضوعاً عند بعض المحققين، وغاية ما روى في ذلك آثار معضلات بأسانيد واهيات وموقوفات، أخرجها الأزرق في «أخبار مكة» (ص: ٣٩-٢١٩-٢٢٠) فلا يلتفت إليها وإن ساقها بعض المبتدعة مساق المسلمات، ونحو ذلك ما أورده السيوطي في الجامع من رواية الحاكم في «الكنى» عن عائشة مرفوعاً بلفظ: «إن قبر إسماعيل في الحجر» اهـ.

• ثم لو كان ثابتاً وجود قبر إسماعيل في «الحجر» أو قبر غيره في المسجد الحرام لنهانا النبي ﷺ عن اتخاذها مساجد، فكيف وقد استحب الصلاة فيها ولا شك أن المسجد الحرام أفضل المساجد والصلاة فيه بمائة ألف صلاة، وكذلك لا يجوز وطء قبورهم للنهي عن ذلك.



الفصل الثامن: قصة إسحاق ويعقوب عليهما السلام

المبحث الأول: نسب إسحاق عليه السلام ومولده:

● هو: إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، وأمّه سارة وهو الولد الثاني لإبراهيم الذي بشرت به الملائكة الأطهار خليل الرحمن.

● وقد جاءت البشرى بإسحاق عقيب فوز إبراهيم عليه السلام في الابتلاء المبين الذي ابتلاه الله به بذبح ولده البكر «إسماعيل» وذكر القصة في سورة الصافات قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ. فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ. فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ. وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ. قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ. وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ. وَتَرَكَنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ. سَلَامٌ عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ. كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ. وَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠١-١١٢].

● وهكذا جاءت البشرى بإسحاق مكافأة لإبراهيم عليه السلام على صدقه مع ربه ووفائه بوعده وتصديقه الرؤيا في ذبح ابنه الحليم (إسماعيل عليه السلام).

● وصف الله إسحاق بالعليم، حيث قال سبحانه على لسان ملائكته: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ. قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٨-٣٠]. فالغلام العليم هنا هو إسحاق عليه السلام، والمرأة العجوز العقيم هي سارة زوج إبراهيم عليه السلام، وابنة عمه.



المبحث الثاني: نسب يعقوب عليه السلام ومولده

● هو: يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

● يعقوب عليه السلام وُلد لإسحاق وقرت به عين إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة.

قال تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَانِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩].

وفي الآيات دليل على أن إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة استمتعا بوجود ولدتهما إسحاق، ثم من بعده بولد ولده يعقوب. أي يولد في حياتهما لتقر أعينهما به كما قرّت بولده، ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحاق فائدة، ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما سرا بمولد أبيه من قبله.



البحث الثالث: ذكرهما في القرآن وثناء الله عليهما ومناقبهما

• قد ورد ذكر إسحاق ويعقوب في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعاً على النحو التالي:

أولاً: ذكر (إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط) ومعهم إسماعيل. والأسباط هم حفدة يعقوب عليه السلام، ذريته من أبنائه، وكانوا اثني عشر سبطاً، وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب.

• وقد جاء ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط في أربعة^(١) مواضع من كتاب الله عز وجل، في موضع منها جاء ذكر الأربعة فقط وذلك لبيان افتراء اليهود والنصارى وكتماهم الحق الذي جاء في كتابهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وجاء ذلك ردّاً على اليهود والنصارى الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] فرد الله عليهم مقولتهم هذه الكاذبة، وقال ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

• وفي موضعين آخرين طالب الله المسلمين أن يعلنوا إيمانهم بجميع النبيين، ومنهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وهذه عقيدة كل مسلم فإن آمن اليهود والنصارى بمثل ذلك فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما هم في شقاق، ومثل هذا الموضع ما جاء في سورة آل عمران الآية (٨٤)، والموضع الرابع ما جاء في سياق إثبات وحدة الأنبياء ووحداية الموحى إليهم سبحانه، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ

(١) الآية (١٣٦) سورة البقرة، والآية (١٤٠) سورة البقرة والآية (٨٤) سورة آل عمران، والآية (١٦٣) سورة النساء.

وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وهكذا أثبت الله وحيه لنبيه محمد ﷺ، كما أوحى لغيره من الأنبياء.

ثانياً: ذكر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام.

• ومن ذلك ما جاء في موضع الاقتداء بهم، كما قال يوسف عليه السلام مخاطباً صاحبيه في السجن: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ. وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧-٣٨].

• ومن ذلك ما جاء في مقام الثناء والتكريم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا عِبَادَآءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. فوصفهم الله بالقوة على عبادته والبصيرة في دينه. فجمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

ثالثاً: ذكر إسحاق ويعقوب عليهما السلام.

• وذلك في خمسة مواضع من كتاب الله عز وجل، قرن فيها بين إسحاق ويعقوب، وجميع هذه المواضع جاءت في مقام البشارة والإنعام على إبراهيم عليه السلام، وقد خص يعقوب، عليه السلام بالذكر مقترناً بأبيه إسحاق، لأن أنبياء بني إسرائيل جميعهم جاءوا من نسل يعقوب وهذا مناط التكريم، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. فهذه الآية واقعة في سياق بيان إكرام الله لإبراهيم ومثله عليه، وذلك بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب، فالنبوة كانت في ذرية إبراهيم عليه السلام من ولديه إسماعيل وإسحاق.

• الأنبياء جميعاً بعد إبراهيم جاءوا من نسل يعقوب بن إسحاق إلا محمد ﷺ فإنه من نسل إسماعيل عليه السلام.

رابعاً: ذكر إسحاق عليه السلام مفرداً:

• وهذا جاء في موضعين فقط، مصرحاً باسمه منفرداً في كتاب الله، وهما في مقام البشارة والتكريم، والموضعان في سورة «الصفافات» قال تعالى: ﴿وَبَشِّرْنَاكَ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفافات: ١١٢].

وقوله تعالى: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ٢١٣]. فهما مقامان، البشارة والتكريم.

خامساً: ذكر يعقوب عليه السلام منفصلاً في سياق مستقل.

● وذلك في مواضع خمسة، ونذكر بأن يعقوب له اسم آخر وهو ((إسرائيل)) وكلاهما ذكر في كتاب الله تعالى.

● ويعقوب أو إسرائيل إليه ينسب بنو إسرائيل، لأنهم جاءوا من نسله صالحهم وطالحهم، ومنافب يعقوب عليه السلام كثيرة، نكتفي منها بذكر أنه الذي أسس بيت المقدس ثاني مسجد وضع للناس في الأرض، كما جاء في حديث البخاري عن أبي ذر قال: ((سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع للناس في الأرض؟ فقال: المسجد الحرام)) قلت: ثم أي؟ قال: ((المسجد الأقصى))، قلت: كم بينهما؟ قال: ((أربعون عاماً))^(١).

● ويظن كثير من الناس أن الذي بنى المسجد الأقصى هو سليمان بن داود، عليهما السلام، وهو خطأ، وإنما كان لسليمان عليه السلام التجديد، أما التأسيس كان ليعقوب عليه السلام، وهذا هو المفهوم من الحديث السابق، وهو الواقع من سيرة يعقوب عليه السلام.

● ونعود إلى حديث القرآن عن يعقوب عليه السلام من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

● والمقام هنا مدح وثناء على إبراهيم عليه السلام، لأنه من الصالحين، ومن علامات صلاحه، تمسكه بالإسلام قولاً وعملاً، وإسلام قلبه ووجهه لله رب العالمين، ووصيته لبنيه من بعده بالتمسك بالإسلام حتى يموت على ذلك.

● وإذا كان المقام مقام مدح لإبراهيم لتمسكه، بدين الله وهو الإسلام، فهو مقام ذم وتسفيه لمن انحرف عن منهج إبراهيم ودين إبراهيم وهم اليهود والنصارى أبناء يعقوب،

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٦-٣٤٢٥) ومسلم (٥٢٠).

لذا خص الله يعقوب بالذكر مرتين هنا، المرة الأولى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة: ١٣٢].

● أي إبراهيم وصى بنيه، وكذلك يعقوب وصى بنيه بماذا؟ بعبارة واحدة، ووصية واحدة ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. هذه الوصية وصى إبراهيم بنيه، إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وبالوصية نفسها وصى يعقوب بنيه وهم بنو إسرائيل، ويؤكد الله سبحانه وتعالى، وصية يعقوب مرة أخرى في مقام الرد على الجاهلدين من أهل الكتاب فيقول سبحانه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

● وهذا مقام الثناء مرة أخرى على يعقوب عليه السلام، وعلى أبنائه الذين حضروا وفاته، واستمعوا وصيته قبل موته، وأجابوا على سؤاله، وأعلنوا استقامتهم على دين الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهو دين الإسلام، وتوحيد الله الذي لا شريك له.

● وذكر في سورة يوسف منفرداً في موضعين، قال تعالى: ﴿وَيَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٦].

أي أن النعمة تشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعاً له فيها.

● وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمَهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]. وذلك لأنه خاف عليهم العين، لكثرةهم وبهاء منظرهم لكونهم أبناء رجل واحد، وهذا من باب الأخذ بالأسباب، ولكن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وليعقوب عليه السلام ذكر في قصة يوسف.

● وذكر في سورة مريم، قال تعالى: ﴿يَرْزُقْنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦١].

● وذكر باسمه إسرائيل في موضعين من كتاب الله:

قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ [مريم: ٥٨].

وذكر مضافاً إلى بنيه (بني إسرائيل) في واحد وأربعين موضعاً من كتاب الله تعالى.

المبحث الرابع: وفاتهما عليهما السلام

- وردت بعض الأخبار أن إسحاق عليه السلام مات عن مائة وثمانين سنة، ودفن مع أبيه إبراهيم الخليل في «مدينة الخليل».
- وأن يعقوب عليه السلام مات بمصر، وكان عمره يوم وفاته مائة وأربعين سنة، ثم استأذن يوسف ملك مصر في الخروج مع أبيه ليدفنه عند أهله، فأذن له، فلما وصلوا دفنوه في المغارة التي دفن فيها إبراهيم وإسحاق عليهما السلام. بمدينة الخليل بفلسطين.
- وليس فيما ذكر دليل صحيح يحتج به، وليس في معرفة قبور الأنبياء بأعيانها فائدة شرعية، وليس حفظ ذلك من الدين، ولو كان من الدين لحفظه الله كما حفظ سائر الدين.



الفصل التاسع: قصة يوسف عليه السلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرّات ذكره في القرآن:

- هو: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.
- عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام»^(١).
- وورد اسم يوسف عليه السلام في (٢٦ آية) من القرآن الكريم: ٢٤ آية في سورة يوسف. وآية في سورة الأنعام (٨٤)، وآية في سورة غافر (٣٤) وقد ذكرت قصته مطولة في السورة التي تحمل اسمه «سورة يوسف».

المبحث الثاني: بين يدي قصة يوسف عليه السلام وتسميتها أحسن القصص:

- كل قصة من قصص الأنبياء كررها ربنا في أكثر من موضع، وذلك لأنه جل جلاله يوزع مواطن العبرة على المواقف، فترى في كل تكرار موقفاً جديداً وعبرة جديدة، لكن قصة يوسف وردت في القرآن مرة واحدة، وقد وردت مفصلة حتى لقد استغرقت السورة كلها، ولم يكررها ربنا جل جلاله، لأنها جاءت مستكملة عجيب التفصيلات، وكانت بحق دليلاً ساطعاً على صدق نبوة محمد ﷺ لأنها اشتملت على أنباء من الغيب ما كان يعلمها محمد رسول الله ﷺ ولا قومه، وهو عليه الصلاة والسلام يقصها على قومه، كأنه شاهدها، وإلى هذا أشار الحق تبارك وتعالى إذ يقول في خاتمة السورة ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]. أي لدى إخوة يوسف عليه السلام ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

- وتتجلى في السورة روعة الأسلوب الجذاب فمطلعها ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. وهو قمة في التشويق وبراعة الاستهلال، وختامها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. نموذج مثالي لحسن الختام.

(١) رواه البخاري (٣٣٨٢) وغيره.

● واختلف العلماء لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الأفاضل؟

قال الإمام القرطبي^(١) رحمه الله:

فقيل: لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم وما تتضمن هذه القصة، وبيانه قوله في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقيل: سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم - بعد الالتقاء بهم - عن ذكر ما تعاطوه، وكرمه في العفو عنهم، حتى قال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْنَا يَوْمَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقيل: لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والإنس والأنعام والطير، وسير الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهال، والرجال والنساء وحيلهن، ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرية وتدبير المعاش، وجل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا. انتهى.

وقيل: إن قصة يوسف عليه السلام تتميز بتنوع الشخصيات الواردة فيها، مما يجعل العبر المستفادة منها عظيمة ومفيدة لأصناف عديدين من الناس، ففي السورة أنبياء وفيها إخوة لأب أكل الحقد قلوبهم، وفيها تجار لا يباليون بكسب المال من حرام أو حلال، وفيها وزير مصر الذي اشتراه، وملك مصر الذي أخرج من السجن، وفيها عدد من النساء يمثلن الشهوة والكيد معاً، ثم إن فيها عبراً تستقى من مواقف الحسد والصبر، والتآمر والكذب، والجشع والعفاف، واحتمال العذاب وحل الأزمات، والإخلاص في المنصب والسياسة الحكيمة، وكتمان السر، والعفو عند المقدرة، والإخلاص في جميع الأحوال لله جل جلاله، ولدعوة الحق، كما تمتاز السورة بأنها تقرأ للتسلية والاعتبار، في حين تقرأ قصص القرآن الأخرى للإنذار والتخويف والاعتبار بمصائر الظالمين، والسبب أن قصص الأنبياء غير يوسف، تنتهي غالباً بدمار القوم، في حين انتهت قصة يوسف باجتماع الشمل وقطاف ثمار الصبر المرير.

● وقال الشيخ السعدي^(٢) - رحمه الله -:

إن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها، لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، من محنة إلى محنة ومن محنة إلى منحة، ومن ذل إلى عز، ومن أمن إلى خوف وبالعكس، ومن ملك إلى رق وبالعكس، ومن فرقة وشتات إلى انضمام واتلاف وبالعكس، ومن سرور إلى حزن وبالعكس، ومن رخاء إلى جدد وبالعكس، ومن ضيق إلى سعة وبالعكس، ومن وصول إلى عواقب حميدة، فتبارك من قصها وجعلها عبرة لأولي الأبواب.

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٢٠/٩).

(٢) قصص الأنبياء ص: ١٧٩.

المبحث الثالث: سورة يوسف وما فيها نزلت على النبي ﷺ

في وقت عصيب فهانت عليه المحن

● نزلت قصة يوسف أو سورة «يوسف» على النبي ﷺ بعد سورة «هود» في مكة المكرمة قبيل الهجرة، في تلك الفترة العصيبة في تاريخ الدعوة، حيث توالى الشدائد والابتلاءات على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، في تلك الفترة التي عرفت في السيرة بـ (عام الحزن).

فكان في قصص السابقين عمومًا عبرة وعظة وتسلية للرسول ﷺ والمؤمنين معه، وتخفيفًا لآلامهم، وفي قصة يوسف على وجه الخصوص عبرة وأي عبرة، وتسرية وأي تسرية. فإن بعد الضيق فرجًا، وإن بعد العسر يسرًا، فهذا يوسف عليه السلام، كيف حدث له صنوف البلاء والمحن؟ محنة حسد إخوته وكيدهم له، ومحنة الحب، وكيف صار رقيقًا بعد عز، ثم فتنة امرأة العزيز، ثم محنة السجن، وكيف صار يوسف بعد ذلك؟ نقله الله من السجن إلى القصر، وجعله عزيزًا في أرض مصر، ومكنه من خزائنها والعزیز المكرم، وكان الله، سبحانه وتعالى، يقول بلسان الحال: وهكذا أفعل بأوليائي ومن صبر على بلائي، فلا بد أن توطد نفسك يا محمد أنت والذين آمنوا معك على تحمل البلاء والشدائد، اقتداء بمن سبق: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وهكذا جاءت قصة يوسف تثبيتًا للرسول ﷺ والمؤمنين وتسلية لهم، وجاءت تحمل في طياتها البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء، وكيف تتحول المحنة في حق الصابرين إلى منحة. وهذه سنة الله في خلقه الاصطفاء بعد الابتلاء، وفي ذلك سلوى لقلب كل من سار على طريق الأنبياء في كل زمان ومكان.

فما أشد حاجة المسلمين إلى الاعتبار بذلك في زمن انتشرت فيه الفتن، وتوالى فيه المحن، وطال ظلام الليل، حتى غمر اليأس قلوب الكثيرين، إلا من رحم ربي، وما أحوجنا إلى عدم اليأس من روح الله، فإنه قرين الكفر، ما أحوجنا إلى تدبر حكمة الله ولطفه وتمكينه لأوليائه من حيث لا يشعرون، ما أحوجنا إلى تدبر قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. ما أحوج الدعوة إلى الله أن يزنوا الأمور بميزان الشرع لا بميزان الواقع، فالفرق بينهما كبير.

البحث الرابع: رؤيا يوسف عليه السلام وتأويله للرؤى والأحلام

المطلب الأول: رؤيا يوسف في صباه:

• قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ. قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ﴾ [يوسف: ٤-٦].

• فوجه مناسبة رؤيا يوسف عليه السلام: أنه رأى الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له، أن هذه زينة للسماء، وفيها منافعها، فكذلك الأنبياء والعلماء والأصفياء زينة الأرض، وهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بالأنوار السماوية، ولأن أباه وأمه أصل، وإخوته فرع عنهما، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نوراً وجرماً من الفرع، ولذلك كانت الشمس أمه أو أباه، والقمر الآخر منهما، والكواكب إخوته، ومن المناسب أن الساجد محترم لمن سجد له، والمسجود له معظم محترم، فدل ذلك على أن يوسف الذي رأى هذه الرؤيا وهو صبي، سوف يصير معظماً محترماً لأبويه وإخوته، ولا يتم هذا إلا بمقامات تقتضى الوصول إلى هذا: من علوم وأعمال واجتهاد من الله، فلهذا قال: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦].

• وصدقت رؤيا يوسف عليه السلام إذ تمت حرفياً فجلس يوسف على عرشه وخر له أبواه وإخوته ساجدين.. على عادة أهل ذلك الزمان وهو سجود تحية لا عبادة، وقيل أن هذه الرؤيا تحققت بعد أربعين سنة.

قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

المطلب الثاني: تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك.

• قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَأْتُ بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

• معلوم أن السجن ظاهره العذاب، لكن الله جعله طريقاً لتمكين يوسف عليه

السلام، وبسط سلطانه على خزائن مصر وأهلها، بل وملكها أيضاً. ذلك لأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

• وكان مع يوسف فتیان أى خادمان كانا يخدمان ملك البلاد بتهمة وجهت إليهما، وكانا قد علما من يوسف أنه يعبر الرؤيا، فقص كل واحد منهما رؤيته التي رآها، وطلبا منه أن يغيرها لهما لما علما منه أنه يعبر الرؤى.

• يوسف عليه السلام لم يؤول لهما مباشرة بل استغل الفرصة وأخذ يحدثهما عن أسباب علمه بتعبير الرؤى، فبدأ بتقديم الأهم لصاحبيه، بل الأهم لأهل الأرض قاطبة، ألا وهو إصلاح الاعتقاد في الله واليوم الآخر، فذلك أصل كل خير، ومصدر كل سعادة في الدنيا والآخرة، فتوحيد الله تعالى هو سبيل النجاة فبعد أن أعطاهما هذا الدرس في العقيدة بترك ملة الكفر وإيمانه بالله وحده وأنه في ذلك متبع ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وأنه لا ينبغي لهم أن يشركوا بالله تعالى.

• ثم شرع بعد ذلك في تأويل ما رأى صاحباه في السجن:

قال تعالى: ﴿يَا صَاحِبِ السَّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

• أخذ يوسف عليه السلام، في تأويل ما رأى صاحباه، فقال: أما أحدكما فسينجو من السجن، ويصبح ساقياً للملك، وأما الآخر فسوف يموت صلباً، وقدم خير الناجي أولاً ثم عقب بعد ذكر خبر الثاني بقوله «قضى الأمر الذي فيه تستفتيان» حتى لا يدع مجالاً للنقاش أو للشك فيما قال.

• أما رؤيا الملك. قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣].

• اعلم يرحمك الله، أن الله إذا أراد أمراً هياً له أسبابه، وهذا أوان خروج يوسف عليه السلام، من السجن قد قرب - بإذن الله تعالى - فهياً له الله السبب المباشر، وهو رؤيا ملك مصر التي رآها في نومه.

• والملك هو الريان بن الوليد، كما ذكر أصحاب السير والتاريخ، وقيل: إنه لم يكن من الفراعنة، ولكن كان من الهكسوس الذين حكموا مصر في تلك الحقبة من الزمن، ولذلك قال بعض المفسرين: إن القرآن لم يذكره بلقب الفرعون، وذكره بلقب الملك.

• والرؤيا كما عرضها السياق القرآني الكريم بإيجاز بليغ معجز هي رؤية الملك في نومه لسبع بقرات سمان تأكلها سبع بقرات عجاف مهازيل، وكذلك رأى سبع سنبلات

خضر تأكلهن سبع سنبلات يابسات، فاندesh الملك لهذه الرؤيا، وتخبر فكره فيها، وأصابه الخوف والهلع بسببها، فدعا أشراف قومه وكبراءهم وعلماءهم، وقص عليهم ما رأى لعله يجد عندهم تأويلاً لها، لكن القوم قالوا جميعاً كما قص علينا ربنا: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]. فازداد همُّ الملك وتضاعف حزنه وخوفه، وهنا تذكر صاحب يوسف عليه السلام، الذي هو الآن ساقى الملك، تذكر ما كان من أمر يوسف في السجن، وماطلبه منه يوسف، وتذكر علم يوسف بتأويل الرؤيا، فقال على الفور ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥].

• أما تأويل رؤيا الملك:

قال تعالى حكاية عن الساقى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعَ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]. وهنا أنتقل المشهد مباشرة من مجلس الملك إلى السجن فهناك مساحة من الزمان، وهناك أحداث كثيرة ما بين قوله: «فأرسلون» وقوله: «يوسف أيها الصديق أفتنا» تتجاوز السياق القرآني هذه الأحداث ولم يبرزها، وأبرز الحدث الرئيسي، وهذا من بلاغة السياق القرآني في القصة عموماً، وفي قصة يوسف على وجه الخصوص. جاء إلى يوسف يستفتيه في رؤيا الملك. فهل قال يوسف: لا، لن أجيئك حتى أعرف لماذا وضعتني في السجن؟ هل قال: لن أجيء حتى تخرجوني من هذا السجن الذي وضعت فيه ظمناً وزوراً؟ لا لم يقل شيئاً من ذلك، ولو قاله لكان محقاً، بل سارع يوسف لهم بالإجابة فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سَنِينَ ذَاباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُخْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصَرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩]. فالبقرات السبع السمان هي سنوات زيادة الخير والنماء، والبقرات العجاف هي سنوات القحط التي ستأتي بعدها فتأتي على كل المدخرات من الحبوب الغذائية، ولن يتبقى منها إلا القليل، ثم يأتي عام يزداد فيه الخير ويعم الرخاء، عبر يوسف لهم الرؤيا وزادهم مما علمه الله، وأرشدهم إلى طريق الوقاية والتحسين، كل ذلك بصدق وإخلاص وتجرد ولم يسألهم أجراً، ولم يطلب منهم منزلة ولا جاهاً، ولم يطلب منهم حقه المهضوم، فهو قد فعل ما فعل رغبة فيما عند الله، وتلمساً لطريق يدعو فيه إلى الله فهو من عباد الله المخلصين، ومن أوليائه المتقين، وهو كذلك من المحسنين كما وصفه رب العالمين.

المبحث الخامس: يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر

المطلب الأول: يوسف في مصر:

• وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلَنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

• قوله تعالى: «(وقال الذي اشتراه من مصر)» لم يذكر القرآن اسمه ولا صناعته ولا مسكنه لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص يعني بهذه الأشياء، بل قصصه لمعنى أعلى وأسمى ولا يهتم بمثل هذا، وقد ذكرت روايات في اسمه ووظيفته كثيرة، فقليل أنه كان رئيس الشرطة، وقيل كان رئيس الوزراء، وقيل كان أحد الوزراء وقيل هو ملك الدولة، المهم أنه رجل له سلطان في دولة مصر.

• قال هذا الرجل لامرأته: أكرمي مقام هذا الغلام، فلا يكن في منزلة العبيد والأرقاء، بل عامله كفرد منا فإني ألح فيه النبل والخلق، وأرى أنه سيكون له شأن، أكرمي رجاء أن ينفعنا في أعمالنا الخاصة أو العامة أو نتخذه ولداً لنا تقر به أعيننا ونرثه ويرثنا. يا سبحان الله أهكذا يكون يوسف الذي ألقى في الحب! وقد وقع في قلب سيده هذا الموقع ولا غرابة فالله حارسه وهاديه، وحافظه، وراعيه ومثل ذلك التدبير والعناية بيوسف مكانه في أرض مصر، وكان هذا العطف من عزيزها فاتحة الخير وإن اعترض سبيله بعض المشاق فتلك حكم الله يعلمها، ثم بعد ذلك كان التمكين في الأرض، وعلمه الله من تأويل الأحاديث وتعبير الرؤيا وهكذا إعداد الأنبياء.

المطلب الثاني: يوسف ومحنته مع امرأة العزيز:

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ قَبْلِ فَصَدَّقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ *

فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ» [يوسف: ٢٣-٢٩].

• ما زال السياق الكريم في الحديث عن يوسف وما جرى له من أحداث في بيت العزيز الذي اشتراه من مصر إنه ما إن أوصى العزيز امرأته بإكرام يوسف حتى بادرت إلى ذلك فأحسنَت طعامه وشرابه ولباسه وفراشه، ونظراً إلى ما تجلبه الخلوة بين الرجل والمرأة من إثارة الغريزة الجنسية لا سيما إذا طالت المدة، وأمن الخوف وقلَّت التقوى حتى راودته بالفعل عن نفسه أي طلبت منه نفسه ليوافقها بعد أن اتخذت الأسباب المؤمَّنة حيث غلقت الأبواب، ثم انتقلت إلى أسلوب التصريح المباشر، ودعت يوسف عليه السلام دعوة صريحة إلى نفسها فقالت: «هيئت لك» أي تعال إلى فقد هيأت لك، وكان رد يوسف عليه السلام على طلبها حازماً قاطعاً للطمع وهذا هو المطلوب في مثل هذا الموقف فقال: «معاذ الله».

• وأما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

• لبعض المفسرين في معنى «الهم» في الآية أقوال وأحاديث وروايات منقولة عن الإسرائيليين وغيرهم كثيرة وتتناقض مع مقام النبوة وشرف الرسالة، أردنا أن نعرض عنها حتى نموت في بطون أصحابها.

• وللعلماء في هذا الموضوع «معنى الهم» آراء واتجاهات كثيرة يجمل بنا أن نذكر الأقرب إلى الصواب الملتئم مع النسق العام للقرآن في نظرنا والله أعلم بحماده.

• قال بعضهم: إن المرأة عندما لم يستسلم لها يوسف عليه السلام همت لتتال منه ما أرادت غتوة، وهم يوسف يدفعها.

• ويرى البعض الآخر: أنها همت بضربه انتقاماً لكبريائها المهذرة، وكرامتها المجروحة، وهم هو بضربها دفاعاً عن نفسه، لكنه رأى أن الأولى أن يهرب منها ففعل.

• وهناك من يرى: أن الهم كان منها فقط، أما يوسف عليه السلام، فلم يهم لأنه رأى برهان ربه، فالكلام من قبيل التقديم والتأخير، والتقدير: «ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها» فقله تعالى: «وههم بها» جواب لولا مقدم عليها ومعروف في العربية: أن لولا حرف امتناع، أي امتناع الجواب لوجود الشرط فيكون الهم ممتنعاً لوجود البرهان.

• لكن جمهور المفسرين: يثبت للمرأة همًا، وليوسف عليه السلام همًا، كما

صرحت الآية بذلك «ولقد همت به وهم بها» لكنهم يفرقون بين همها وهمه، فقد كان همه خطرات نفس، فتركه الله، فأثابه الله عليه، أما همها فكان إصراراً بذلت معه جهدها فلم يستو الهمان وهذا واضح من السياق القرآني، فلقد فرَّق الله بين الهممين فهي راودت وغلقت الأبواب، وقالت «هيئت لك» وهو قال: «معاذ الله» ولذلك قال الله تعالى: «ولقد همت به وهم بها» لاحظ كيف استخدم السياق الكريم أدوات التوكيد والتحقيق معه همها، ولم يستخدم شيئاً من ذلك مع همه. فاهم همان: هم إصرار وعزيمة، وهم خطرات وكان نصيبها الإصرار.

• قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الهم همان: هم خطرات وهم إصرار، وهم الخطرات لا يؤاخذ الله به، وهم الإصرار يؤاخذ به.

• وقال أبو البقاء الكفوي^(١) — رحمه الله تعالى —:

الهم همان: هم ثابت وهو ما إذا كان معه عزم وعقد ورضا مثل هم امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به. وهم عارض وهو الخطرة وحديث النفس من غير اختيار ولا عزم مثل هم يوسف عليه السلام، والعبد غير مأخوذ به ما لم يتكلم أو لم يعمل، لأن تصور المعاصي والأخلاق الذميمة لا يعاقب به عليها ما لم توجد في الأعيان، وأما ما حصل في النفس حصولاً أصلياً ووجد فيها وجوداً عينيّاً فإنه يوجب اتصاف النفس كالكيفيات النفسانية الردية فقد يؤاخذ بها لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

• عن ابن عباس — رضي الله عنهما — عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة»^(٢).

• ويرجح شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣) — رحمه الله — رأى الجمهور فقال: وأما قوله:

(١) الكليات ص: ٩٦١.

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١) ومسلم (١٣١) وغيرهما.

(٣) دقائق التفسير (٢٧٢/٣).

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

فالهم: اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد: الهم همان: هم خطرات وهم إصرار. وقد ثبت في الصحيح^(١). عن النبي ﷺ: إن العبد إذا همَّ بسيئة لم تُكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئة واحدة، وإن تركها من غير أن يتركها لله لم تكتب له حسنة ولا تكتب عليه سيئة ويوسف ﷺ همَّ هماً تركه الله، ولذلك صرف الله عنه السوء والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضى للذنب وهو الهم وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله، فيوسف عليه السلام لم يصدر منه إلا حسنة يثاب عليها وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وأما ما ينقل من أنه حل سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة، وأنه رأى صورة يعقوب عاض على يده، وأمثال ذلك فكله مما لم يخبر الله به ولا رسوله، وما لم يكن كذلك، فإنما هو مأخوذ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذباً على الأنبياء، وقدحاً فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله، لم ينقل من ذلك أحد عن نبينا ﷺ حرفاً واحداً... انتهى.

● وقال ابن القيم رحمه الله تعالى - في كتابه طريق المحترمين بتصرف يسير ما نصه ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق بما فعل به إخوته من الأذى والإلقاء في الحب وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه - كان بين ذلك كله - وابتلائه بمراودة المرأة فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء، فهو أي يوسف عليه السلام، شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها، وهى الداعية إلى ذلك، وإن الشباب داع إلى الشهوة، والشباب قد يستحى من أهله ومعارفه من قضاء وطره، فإذا صار في دار الغربة زال الاستحياء والاحتشام، وإذا كان عزبا كان أشد لشهوته، وإذا كانت المرأة هى الطالبة كان أشد لشهوته، وإذا كانت جميلة كان أعظم، فإن كانت ذات منصب كان أقوى، فإن كان ذلك في دارها وتحت حكمها، بحيث لا يخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ، فإن استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل كان أقوى أيضاً، فإن الرجل كملوكها وهى كالحاكمة عليه الأمرة الناهية كان أبلغ في الداعي، فإن كانت المرأة قد امتلأ قلبها

(١) انظر الحديث قبله.

حبا للرجل، فهذا الابتلاء الذي صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين، ولا ريب أن هذا من جنس ابتلاء الخليل بذبح ولده، إذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعي النفس والشهوة ومفارقة حكم طبعه. انتهى.

● ومن هنا فالذين ينفون عن يوسف مطلق الهم يسلبون الصديق هذه المنزلة العظيمة التي وقعت له بمخالفة دواعي النفس والطبع، وكذلك الذين يقولون: إنه هم بضربها.

أما الذين أثبتوا ليوسف هماً مشابهاً لهم المرأة فهؤلاء لم يفظنوا لأسلوب القرآن وسياقه السابق واللاحق واللاصق الذي يؤكد براءة يوسف عليه السلام من مشابهاة المرأة في ههما بأي حال من الأحوال.

المطلب الثالث: الأدلة على براءة يوسف عليه السلام:

١- أما حزم يوسف عليه السلام بأنه برئ من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: «مَعَاذَ اللَّهِ» [يوسف: ٢٣]. فهذا يوسف عليه السلام، لحظة الفتنة وفي عنفوانها كان قوله «مَعَاذَ اللَّهِ» بعد أن دعتة هى لنفسها دعوة صريحة.

وقوله: «هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي» [يوسف: ٢٦].

وقوله: «قَالَ رَبِّ االسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ» [يوسف: ٣٣].

٢- شهادة واعتراف المرأة نفسها حيث قالت للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢].

وقولها: ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

٣- اعتراف الشاهد في قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦].

٤- وأما اعتراف وشهادة زوج المرأة (العزير) إذا قال لزوجه ما يفيد إدانتها، وقال ليوسف ما يفيد براءته ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ. يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٨-٢٩].

٥- وشهد ببراءته النسوة اللاتي قطعن أيديهن قال تعالى: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

٦- وقد شهد إبليس وأقر بطهارة يوسف ونزاهته ففى قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ

لَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٢-٨٣﴾.

فأقر بأنه لا يمكنه إغواء المخلصين، ولا شك أن يوسف من المخلصين، كما صرح تعالى به في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٧- وهنا تأتي لأكبر شهادة وأشرف شهادة وأعظم شهادة، وهي تكفي عن غيرها وهي شهادة الله جل وعلا ببراءة يوسف عليه السلام. ففي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فهذه أولاً: شهادة الله.

ثانياً: هي شهادة مؤكدة بأدوات التوكيد في قوله تعالى ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾.

ثالثاً: مؤكدة بالمعنى حيث أثبت ليوسف عليه السلام خصوصية العبودية في قوله سبحانه: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾.

رابعاً: التصريح باللفظ الواضح والوصف الصريح في قوله تعالى: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ فهي تدل على وقوع الاصطفاء عليه، فالله سبحانه اصطفاه لحضرته، واستخلصه لنفسه، فهل بعد ذلك قول لقائل. ومع هذا كله لم يبرئه أهل القصص، عفا الله عنهم.

● وخلاصة القول: أنه رغم كثرة الدواعي التي أحاطت به من داخل نفسه ومن خارجها، فإنه صبر على الابتلاء باختياره، واستعصم واستعاذ بالله واستعان به في صرف السوء والفحشاء عن نفسه وهذا هو البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].

ذلك أن يوسف عليه السلام، من قبل آتاه الله العلم والحكمة حيث قال سبحانه ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]. وبذلك لن نختلف على البرهان الذي آتاه الله يوسف عليه السلام، كما أننا لم نختلف أنه من الصديقين ومن المخلصين ومن المحسنين، وأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم صلوات الله وسلامه.

المطلب الرابع: كيد النساء ومكرهن وانتشار الخبر في المدينة:

● قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ. قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ...﴾ [يوسف: ٣٠-٣٢].

● قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: (في إغاثة اللفان):

هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر.

أحدها: قولهن ((امرأة العزيز تراود فتاها)) ولم يسموها باسمها، بل ذكرها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها.

الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها، وتحت كنفها. فحكمه حكم أهل البيت. بخلاف من تطلب ذلك من الأجنيبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أن في ضمن هذا: أنه أعف منها وأبر، وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفاً وكرماً وحياءً. وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهم أتوا بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها وفرق بين قولك: فلان أضاف ضيفاً، وفلان يقرى الضيف ويطعم الطعام، ويحمل الكل، فإن هذا يدل على أن هذا شأنه وعادته.

التاسع: قولهن ((إننا لنراها في ضلال مبين)) أي إننا نستقبح منها ذلك غاية الاستقبح. فنسبنا الاستقبح إليهن ومن شأنهن مساعدة بعضهن بعضاً على الهوى ولا يكدن يرين ذلك قبيحاً، كما يساعد الرجال بعضهم بعضاً على ذلك فحيث استقبحن منها ذلك كان هذا دليلاً على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن يساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهم مجمعون لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم

تقتصد في حبها، ولا في طلبها.

أما العشق فقولهن «قد شغفها حبا» أي وصل حبه إلى شغاف قلبها.

وأما الطلب المفرط فقولهن «تراود فتاها» والمراودة: الطلب مرة بعد مرة فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة.

فلما سمعت بهذا المكر منهن هيأت لهن مكرًا أبلغ منه، فهيأت لهن متكأ، ثم أرسلت إليهن فجمعتهن، وخبأت يوسف عليه السلام عنهن وقيل: إنها جملته، وألبسته أحسن ما تقدر عليه، وأخرجته عليهن فجأة، فلم يرعهن إلا وأحسن خلق الله وأجمله قد طلع عليهن بغتة، فراعهن ذلك المنظر البهي. وفي أيديهن مِدَى يقطعن بها ما يأكلن، فدهش حتى قطعن أيديهن، وهن لا يشعرن.

وقد قيل: إلهن أبى أيديهن، والظاهر خلاف ذلك، وإنما تقطيعهن أيديهن: جرحها وشقها بالمدي لدهشهن بما رأين، فقابلت مكرهن القولي بهذا المكر الفعلي، وكانت هذه في النساء غاية في المكر. انتهى.



المبحث السادس: المكاييد التي تعرض لها يوسف عليه

السلام ومقابلة الله لها بكيد من عنده

• قال ابن القيم^(١) - رحمه الله -:

فيوسف صلوات الله عليه وسلامه أكيد، من وجوه عديدة:

أحدها: إن إخوته كادوه، حيث احتالوا في التفريق بينه وبين أبيه، كما قال له يعقوب عليه السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

وثانيها: أنهم كادوه حيث باعوه بيع العبيد، وقالوا: إنه غلام لنا أبق.

وثالثها: كيد امرأة العزيز له، بتغليق الأبواب، ودعائه إلى نفسها.

ورابعها: كيدها له بقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٤]. فكادته بالمراودة أولاً، وكادته بالكذب عليه ثانياً، ولهذا قال لها الشاهد^(٢) لما تبين له براءة يوسف عليه السلام ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

وخامسها: كيدها له حيث جمعت له النسوة، وأخرجته عليهن، تستعين بهن عليه، وتستعذر إليهن من شغفها به.

وسادسها: كيد النسوة له، حتى استجار بالله تعالى من كيدهن فقال: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤]. ولهذا لما جاء الرسول بالخروج من السجن قال له: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاَسْأَلْهُ مَا بَالُ النَّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

• أما مقابلة الله تعالى لهذه المكاييد بكيد من عنده ففي ذلك يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى -:

وقد دل على هذا نسبة الله سبحانه ذلك الكيد إلى نفسه بقوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا

(١) إغاثة اللفهان (٢/١٥٤).

(٢) الذي يظهر من سياق الآيات أن الذي قال ذلك هو زوجها، لا الشاهد.

لِيُؤْسَفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿يوسف: ٧٦﴾.

وهو سبحانه ينسب إلى نفسه أحسن هذه المعاني، وما هو منها حكمة وحق وصواب، وجزاء للمسيء وذلك غاية العدل والحق، كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [القلم: ١٥-١٦]. وقوله: ﴿وَمَكُرُوا وَكَمَرُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤].

وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقوله: ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فهذا منه سبحانه في أعلى مراتب الحسن، وإن كان من العبد قبيحا سيئا، لأنه ظالم فيه، وموقعه بمن لا يستحقه، والرب تعالى عادل فيه، موقعه بأهله ومن يستحقه، سواء قيل: إنه مجاز للمشكلة الصورية، أو للمقابلة، أو سماه كذلك مشكلة لاسم ما فعلوه، أو قيل: إنه حقيقة، وإن مسمى هذه الأفعال ينقسم إلى مذموم ومحمود، واللفظ حقيقة في هذا وهذا.

● والمقصود: أن الله سبحانه كاد ليوسف عليه السلام، بأن جمع بينه وبين أخيه، وأخرجه من أيدي إخوته بغير اختيارهم، كما أخرجوا يوسف من يد أبيه بغير اختياره. وكاد له بأن أوقفهم بين يديه موقف الدليل الخاضع المستجدي فقالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلْنَا الضَّرَّ وَجِئْنَا بِيضَاعَةَ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨].

فهذا الذل والخضوع في مقابلة ذله وخضوعه لهم يوم إلقائه في الحب وبيعه ببيع العبيد. وكاد له بأن هيا له الأسباب التي سجلوا له، هم وأبوه وخالته، في مقابلة كيدهم له، حذرا من وقوع ذلك، فإن الذي حملهم على إلقائه في الحب خشيتهم أن يرتفع عليهم حتى يسجلوا له كلهم، فكادوه خشية ذلك، فكاد الله تعالى له حتى وقع ذلك، كما رآه في منامه.

● كيد الله سبحانه لا يخرج عن نوعين:

أحدهما: أن يفعل سبحانه فعلا خارجا عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيد قدرا محضاً، ليس من باب الشرع، كما كاد الذين كفروا، بأن انتقم منهم بأنواع العقوبات، وكذلك كانت قصة يوسف عليه السلام.

النوع الثاني: أن يلهمه أمرا مباحا، أو مستحبا، أو واجبا، يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا الهامه يوسف عليه السلام أن يفعل ما فعل هو من كيده سبحانه أيضا، فيكون قد كاد له نوعي الكيد.

البحث السابع: ذكر يوسف عليه السلام في السنة

النبوية المطهرة

● عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «مرض النبي ﷺ فاشتد مرضه، فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، فإنكن صواحب يوسف. فأتاه الرسول فصلى بالناس في حياة النبي ﷺ»^(١).

● قوله ﷺ: «(فإنكن صواحب يوسف)».

قال ابن العربي رحمه الله: (في عارضة الأخوذي: ١١٥/١٣).

يعني في صرفه عن الحق، وإن كانت القضيتان مختلفتين وفي منزلتين متباينتين، ولكن جمعهما وجه الفتنة. انتهى.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه: «(سئل رسول الله ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم الله.» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألونني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

● قال العلماء: وأصل الكرم كثرة الخير، وقد جمع يوسف ﷺ مكارم الأخلاق مع شرف النبوة مع شرف النسب، وكونه نبيا ابن ثلاثة أنبياء متناسلين، أحدهم خليل الله ﷺ، وانضم إليه شرف علم الرؤيا، وتمكنه فيه، ورياسة الدنيا وملكها بالسيرة الجميلة، وحياطته للرعية، وعموم نفعه إياهم، وشفقته عليهم، وإنقاذه إياهم من تلك السنين. والله أعلم^(٣).

● عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «(الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام)»^(٤).

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «(قال رسول الله ﷺ: اللهم انج عباس بن أبي ربيعة،

(١) رواه البخاري (٦٧٨)، ومسلم (٤١٨) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٣) ومسلم (٢٣٧٨) وغيرهما.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٣٦٥/٧).

(٤) رواه البخاري (٣٣٩٠).

اللهم انج سلمة بن هشام، اللهم انج الوليد بن الوليد، اللهم انج المستضعفين من المؤمنين اللهم اشدّد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف^(١).

● قوله: «سنى يوسف» أي: اجعلها عليهم سنين شداداً ذوات قحط وجذب وغلاء، وهى السبع الشداد التي أصابتهم.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوى إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبهته»^(٢).

● قوله: «لو لبثت في السجن ما لبث يوسف ثم أتاني الداعي لأجبهته» تنبيه على أن يوسف خص في تلك النازلة بمزية صبر شديد حيث لم يبادر بالخروج، ومزية جزالة، ومرتبة تثبيت، وإنما قاله ﷺ تواضعاً، والتواضع لا يحط مرتبة الكبير بل يزيده رفعة وجلالاً.

● وفي حديث الإفك الطويل وفيه قول النبي ﷺ لعائشة - رضي الله عنها -: «إن كنت بريئة فسيروك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه. قلت: إني والله لا أجد مثلاً إلا أبا يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. وأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾^(٣) [العشر آيات]. [النور: الآية ١١ وما بعدها].

● لقد ابتليت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بأعظم البلاء، وقالت: إن الأمر لا يخلو من أنه كان أو لم يكن فإن قلت لم يكن لم تقبلوا ذلك مني، فإنه قد تكلم به وداخل القلوب وإن قلت إني قد فعلت ولم أفعل لتصدقوني، ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أن أقتدى بيعقوب في بلائه وقوله: «فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون».

● وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في حديث الإسراء والمعراج وفيه «ثم عرج بي إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيوسف ﷺ إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لي بخير...»^(٤).

● قال بعض العلماء: إن يوسف كان على النصف من حسن آدم عليه السلام وهذا مناسب، فإن الله خلق آدم وصوره بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، فما كان ليخلق إلا أحسن الأشياء.

(١) رواه البخاري (٣٣٨٦) ومسلم (٦٧٥) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٣٣٨٧).

(٣) رواه البخاري (٢٢٦١-٣٣٨٨-٤١٤٣-٤٦٩٠-٤٦٩١-٤٧٥١).

(٤) رواه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٢) وغيرهما.

المبحث الثامن: وفاة يوسف عليه السلام

● عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «أتى النبي ﷺ أعرابياً فأكرمه فقال له: اتنا فأتاه، فقال رسول الله ﷺ: سل حاجتك» فقال: ناقة برحليها وأعززا يجلبها أهلي، فقال رسول الله ﷺ: «أعجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟» فقال أصحابه: يا رسول الله وما عجوز بني إسرائيل؟ قال: «إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق فقال: ما هذا؟ فقال علمائهم «نحن نخذلك» إن يوسف لما حضره الموت أخذ علينا موثقاً من الله أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: فمن يعلم موضع قبره؟ قالوا: ما تدري أين قبر يوسف إلا عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف قالت: لا والله لا أفعل حتى تعطيني حكماً، قال: وما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى الله إليه أن أعطيها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة موضع مستقع ماء. فقالت: انضبوا «جففوا» هذا الماء، فأنضبوا. قالت: احفروا واستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض إذ الطريق مثل ضوء النهار»^(١).

● في الحديث: أن يوسف عليه السلام مات بمصر ودفن وظل مدفوناً بها إلى أن نقله موسى عليه السلام إلى مدافن آبائه بالشام وذلك عند خروجه من أرض مصر.

● عن الحسن قال: ألقى يوسف في الحب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان في العبودية وفي السجن وفي الملك ثمانين سنة، ثم جمع شمله فعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة^(٢).

● فيكون عمره مائة سنة وعشرين سنة.

● وقد طلب من ربه جل وعلا حين دنا أجله أن يميتة على الإيمان وأن يلحقه بعباده الصالحين.

فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فاستجاب الله دعاءه فنقله إلى الرفيق الأعلى، إنه سميع مجيب الدعاء.

اللهم احشرنا مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

(١) صحيح: رواه أبو يعلى (٧٢١٨) والحاكم (٥٧١ و ٤٠٤/٢) وانظر الصحيحة (٣١٣).

(٢) إسناده صحيح إلى الحسن: رواه ابن أبي شيبة (٣١٩٠٨/٦) وغيره، ولكن هذا لا يقال من قبل الرأي. فالحديث لم يثبت مرفوعاً عن النبي ﷺ: فالله أعلم بعمر يوسف عليه السلام.

المبحث التاسع: الفوائد المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام

● منها: بيان الحكمة في نزول القرآن باللغة العربية، وهى أن يعقله العرب ليلغوه إلى غيرهم.

● ومنها: ما فيها من أصول تعبير الرؤيا^(١) المناسبة، وأن علم التعبير علم مهم يعطيه الله من يشاء من عباده، وأن أغلب ما تبني عليه المناسبات وضرب الأمثال والمشاكلة في الصفات.

● ومنها: قد تتأخر الرؤيا فلا يظهر مصداقها إلا بعد السنين العديدة.

● ومنها: ما فيها من الأدلة والبراهين على نبوة محمد ﷺ حيث قص عليه هذه القصة المفصلة المبسوطة الموافقة للواقع التي أتت بالمقصود كله، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً، كما هو معلوم لقومه، وهو بنفسه أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢].

● ومنها: أنه ينبغي للعبد البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخش مضرته لقول يعقوب ليوسف ﴿لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

● ومنها: الحسد سبب لكثير من الكوارث البشرية.

● ومنها: الميل إلى أحد الأبناء بالحُب يورث العداوة بين الإخوة.

● ومنها: ذكر الإنسان بما يكره على وجه الصدق والنصيحة له أو لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

● ومنها: أن العدل مطلوب في جميع الأمور الصغار والكبار، في معاملة السلطان لرعيته، ومعاملة الوالدين للأولاد، والقيام بحقوق الزوجات، وغير ذلك في المحبة والإيثار ونحوها، وأن القيام بالعدل في ذلك تستقيم الأمور صغارها وكبارها به ويحصل للعبد ما أحب، وفي الإخلال بذلك تفسد الأحوال ويحصل للعبد المكروه من حيث لا يشعر.

● ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، فكم من ذنب واحد استتبع ذنوباً كثيرة وتسلسل الشر المؤسس على الذنب الأول، وانظر إلى جرم إخوة يوسف، فإنهم لما أرادوا التفريق

(١) راجع كتابي حول الرؤى والأحلام «طبعة المكتبة الترفيقية».

بينه وبين أبيه الذي هو من أعظم الجرائم، احتالوا على ذلك بعدة حيل، وكذبوا عدة مرات، وزوَّروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه وفي صفة حالهم حين أتوا عشاء ليكون ولا بد أن الكلام في هذه القضية تسلسل وتشعب، بل ربما أنه اتصل إلى الاجتماع بيوسف، وكلما بحث في هذا الموضوع فهو بحث كذب وزور مع استمرار أثر المصيبة على يعقوب، بل وعلى يوسف، فليحذر العبد من الذنوب، خصوصاً الذنوب المتسلسلة.

و ضد ذلك بعض الطاعات تكون طاعة واحدة، ولكن يتسلسل نفعها وبركتها حتى تستتبع طاعات من الفاعل وغيره، وهذا من أعظم آثار بركة الله للعبد في علمه وعمله.

● ومنها: أن العبرة للعبد في حال كمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر من الجرائم المتنوعة ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والاعتراف التام، والعفو التام عنهم من يوسف عليه السلام ومن أبيهم عليه السلام والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة.

● ومنها: ما من الله به على يوسف من العلم والحلم والأخلاق الكاملة والدعوة إلى الله وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به.

● ومنها: فضيلة الصبر الجميل وهو الخالي من الجزع والشكوى.

● ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وإرتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما فإن إخوة يوسف لما قال: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]. وقال قائل منهم ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠]. كان قوله أحسن منهم وأخف وبسيه خف عن إخوته الإثم الأكبر، وهو من جملة الأسباب التي قدر الله ليوسف في وصوله إلى الغاية التي يريد.

● ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبية، وخصوصاً اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب حبها الشديد ليوسف حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه فسجن ذلك السجن الطويل.

● ومنها: أن المهم الذي هم به يوسف ثم تركه الله وليرهان الإيمان الذي وضعه الله في قلبه مما يرقيه إلى الله زلفى، لأن المهم دافع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهى طبيعة طبع عليها آدمي، فإذا حصل المهم بالمعصية ولم يكن عند العبد ما يقاوم ذلك من الإيمان

والخوف من الله وقع الذنب، وإن كان العبد مؤمنا كامل الإيمان، فإن الهم الطبيعي إذا قابله ذلك الإيمان الصحيح القوى منعه من ترتب أثره، ولو كان الداعي قويا، ولهذا كان يوسف من أعلى هذا النوع، قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤].
بدليل قوله: ﴿كَذَلِكَ لَتَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. لاستخلاص الله إياه وقوة إيمانه وإخلاصه، خلصه الله من الوقوع في الذنب، فكان ممن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، ومن أعلى السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر ﷺ منهم «رجلا دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله»^(١). فهمها لما كان لا معارض له استمرت في مراودته، وهمه عارض عرض ثم زال في الحال ببرهان ربه.

● ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه ثم استنار بمعرفة ربه ونور الإيمان به وكان مخلصا لله في كل أحواله، فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه وإخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي.

● ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا ابتلى بالوقوع في محل فيه فتنة وأسباب معصية أن يفر ويهرب غاية ما يمكنه ليتمكن من التخلص من ذلك الشر كما فر يوسف هاربا للباب.

● ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه في الدعاوي، وذلك أن الشاهد الذي شهد، أي حكم على يوسف وعلى المرأة اعتبر القرينة فقال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ﴾ [يوسف: ٢٦]. إلى آخر القضية، وصار حكمه هذا موافقا للصواب.

● ومنها: أن يوسف ﷺ اختار السجن على المعصية، وهذا عنوان الإيمان وعلامة السعادة.

● ومنها: أن الإنسان حين يصدق في علاقته بربه ويخلص في تضحياته من أجل دعوته، يصبح عبدا ربانيا ينشر الهدى والحق أينما توجه، وترعاه العناية الإلهية سواء في غيابة السجن أو على كرسي الوزارة والملك.

● ومنها: أن العلم الصحيح والعقل الراجح يدعوان صاحبهما إلى الخير وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى ضد ذلك لقوله: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

ومعنى الجاهلية: أي الجاهلية بالأمور الدينية، والجاهلية بالحقائق النافعة والحقائق الضارة.

(١) رواد البخاري (٦٦٠-١٤٢٣-٦٨٠٦) ومسلم (١٠٣١) عن أبي هريرة ؓ.

● ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى ربه ويحتسب بحماه عند وجود أسباب المعصية، كما يستعين به عند فعل الطاعات والخيرات والله كافي المتوكلين.

● ومنها: إذا سئل المفتي وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلم ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصيح المعلم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف لما سأله الفتيان عن رؤياهما، وكانت حاجتهما إلى التوحيد والإيمان أعظم من كل شيء قدمها.

● ومنها: جواز الاستعانة بمن هو مظنة كشف الغمة، ولو مشركا، وهذا من باب الأخذ بالأسباب.

● ومنها: أنه لا يلام العبد على دفع التهمة عن نفسه بل ذلك مطلوب كما امتنع يوسف من الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته مع النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

● ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من الصفات الكاملة من العلم وغيره إذا كان في ذلك مصلحة وسلم من الكذب ولم يقصد به الرياء لقول يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

● ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين وإكرام الضيف، لقول يوسف عليه السلام: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩].

● ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب عليه السلام قال لأولاده: ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤].

● ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكروه أو الرافعة لها بعد نزولها غير ممنوع، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء الله وقدره، فإن الأسباب أيضا من القضاء والقدر، لقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بَنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧].

● ومنها: جواز استعمال الحيل والمكائد التي يتوصل بها إلى الحقوق وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وأما الحيل التي يراد بها إسقاط واجب أو فعل محرم فإنها محرمة غير نافذة.

● ومنها: التحذير من شهادة الزور، ولا يجوز للشاهد أن يشهد إلا بما علمه وتحققه برؤية أو سماع لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ [يوسف: ٨١]. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ

شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦].

● ومنها: جواز إخبار العبد بما يجد وما هو فيه من مرض أو فقر أو غيرهما على غير وجه التسخط لقول يعقوب عليه السلام: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يُونُسَ﴾ [يوسف: ٨٤].

وقول إخوة يوسف: ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضُّرَّ﴾ [يوسف: ٨٨].
وأقرهم يوسف عليه السلام.

● ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وإن عاقبة أهلها أحسن العواقب لقوله: ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس.

● ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا أنعم عليه بنعمة بعد ضدها أن يتذكر الحالة السابقة ليعظم وقع هذه النعمة الحاضرة ويكثر شكره لله تعالى، ولهذا قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠].

● ومنها: تقرير الحقيقة الإلهية في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. والحقيقة التي يقرها القرآن هنا هي أنه مهما حرص الأنبياء على هداية الناس فسيظل أكثرهم عازفين عن الإيمان، وهي حقيقة كانت وما زالت غير تاريخ الإنسانية.

● ومنها: التحذير من أنواع الشرك الأكبر والأصغر والخفى، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

● ومنها: على الداعية أن يكون في دعوته على بصيرة وفكر وعلم اقتناع لا عن غوغائية وعقوية وتحيط، وأن يكون هو نفسه قدوة في عبادة الله وتنزيهه ونبد الشرك، لا أن يأمر الناس وينسى نفسه. قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

● ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلح دائما على ربه في تثبيت إيمانه وأن يحسن له الخاتمة وأن يجعل خير أيامه آخرها، وخير أعماله خواتمها فإن الله كريم جواد رحيم وهو أهل التقوى وأهل المغفرة.

● ومنها: ما ذكره ابن القيم^(١) - رحمه الله تعالى - فقال: فيها: التنبيه على أن المؤمن المتوكل على الله إذا كاده الخلق، فإن الله يكيد له وينتصر له بغير حول ولا قوة.

● وفيها: دليل على أن وجود المسروق بيد السارق كاف في إقامة الحد عليه، بل هو بمنزلة إقراره، وهو أقوى من البينة، وغاية البينة أن يستفاد منها ظن، وأما وجود المسروق بيد السارق، فيستفاد منه اليقين، وبهذا جاءت السنة في وجوب الحد بالجلد والرائحة في الخمر كما اتفق عليه الصحابة، والاحتجاج بقصة يوسف على هذا أحسن وأوضح من الاحتجاج بما على الحيل.

● وفيها: تنبيه على أن العلم الخفي الذي يتوصل به إلى المقاصد الحسنة مما يرفع الله به درجات العبد، لقوله بعد ذلك: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: ٧٦]. قال زيد بن أسلم وغيره: بالعلم.

وقد أخبر تعالى عن رفعه درجات أهل العلم في ثلاثة مواضع من كتابه.

● أحدها: قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [الأنعام: ٨٣]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بعلم الحجة.

● وقال في قصة يوسف: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا لْيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ [يوسف: ٧٦]. فأخبر أنه يرفع درجات من يشاء بالعلم الخفى الذي يتوصل به صاحبه إلى المقاصد المحمودة.

● وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. فأخبر أنه يرفع درجات أهل العلم والإيمان.
انتهى.



(١) إعلام الموقعين (٣/٢٨٤).

الفصل العاشر: قصة هود عليه السلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

- هو: هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.
- وكان من قبيلة يقال لهم عاد، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف (وهي جبال الرمل) وكانت بين عمان وحضرموت.
- ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام: العرب العاربة وهم قبائل كثيرة منهم عاد، وثمود، وجهم، وطسم، وجديس، ومدين، وعملاق، وقحطان، وبنو يقطن وغيرهم.
- وأما العرب المستعربة فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام.

• أما ذكره في القرآن، فقد ذكر هود عليه السلام سبع مرات.

قال تعالى: ﴿وَالِىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَالِىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُمْ مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ...﴾ [هود: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

المبحث الثاني: من قوم عاد؟

• أقامت عاد بالأحقاف ما بين اليمن وعمان، وكانوا من المترفين في الحياة الدنيا، وحباهم الله نعمًا وافرة، وخيرات جليلة قال تعالى: ﴿وَأَثَرُنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

• وبوأهم الله أرضا تدر عليهم الخيرات، ففجروا العيون، وزرعوا الأرض، وأنشأوا البساتين، وشادوا القصور الشااخت كما قال الله عنهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

• وأنعم الله عليهم بنعمة الصحة والقوة، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصَاطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩].

فأتاهم الله ما لم يؤت أحدا من العالمين، ولكنهم لم يفكروا في مصدر هذه النعم، وبدلا من استخدام هذه النعم في خدمة المنعم سبحانه وتعالى، استخدموها في الجحود والكفر ومعصية الله جل وعلا، وكانوا كما قال الله تعالى: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

• وغاية ما وصلت إليه عقولهم، وارتاحت إليه طباعهم، أن اتخذوا أصنامًا لهم آلهة يتوجهون إليها بالشكر على النعم ويفزعون إليها بالاستنصار كلما أصابهم ضيق وشدة.

• ثم بعد ذلك عتوا في الأرض بالفساد، فأذل القوى منهم الضعيف، وبطش الكبير بالصغير.

• ورفعوا للحجب التي طمست بصائرهم، أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم، يدعوهم لتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة وحده، ويبين لهم سفاهة عبادتهم من دون الله.



المبحث الثالث: بعث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاداً الأولى ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى

وفيه مطلبان: المطلب الأول: دعوتهم إلى التوحيد:

• بعث الله هوداً عليه الصلاة والسلام إلى قومه عاداً الأولى المقيمين بالأحقاف من رمال حضرموت لما كثر شرهم وتجبروا على عباد الله وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]. مع شركهم بالله وتكذيبهم لرسول الله.

فأرسله الله إليهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده وينهاهم عن الشرك ﴿وَإِلَىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

• ودعوة التوحيد هي دعوة كل الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

• وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

• وكلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله) هي الكلمة الوحيدة التي تخرج قائلها من معسكر الكفر والإلحاد والإشراك، إلى الإيمان، والتوحيد والإخلاص، فهي التي تميز المسلم على الكافر، وعن المشرك والملحد. فهي تتضمن عنصرين هامين هما: الإيمان بوجود الله تعالى. والإيمان بوحدانيته.

• وبذلك أشارت إلى أقسام الناس جميعاً مؤمن موحد، وكافر ملحد، ومؤمن مشرك. فهي تحدد مصير قائلها وذلك لأن معنى هذه الكلمة الطيبة: أنه ليس في هذا الكون أحد جدير بأن يعبده الناس ويسجدوا له بالطاعة ويطأطأوا له رؤوسهم في العبادة، ويركنوا إليه عند الشدة ويستعينوا به عند الحاجة إلا الله تعالى.

• فهي - أي كلمة التوحيد - يتلخص فيها الإيمان الكامل، والخضوع التام، والإقرار الصريح بأن العبودية لا تكون إلا لإله واحد دون سائر الآلهة الباطلة، فيتحقق بها التوحيد الحقيقي وهو توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

• فإذا آمنت بذلك فستعلم أن الله تعالى لم يترك الناس بدون هداية وإرشاد وإنما بعث لهم مبشرين ومنذرين.

• من هؤلاء الرسل هود عليه الصلاة والسلام فقد قام بدعوة قومه إلى توحيد الله تعالى، فردوا دعوته وتكبروا عن إجابته، وجادلوه بالباطل، وحاوروه، وكذبوه، حتى كانت الدائرة عليهم فأصابهم الله بعذاب أليم.

المطلب الثاني: هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه بكل الوسائل ويحاورهم ويجادلهم بالتلي هي أحسن، فاتهموه بالسفاهة والكذب:

• هود عليه السلام يتودد إلى قومه في دعوته:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادَ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

بهذا التودد، والتذكير بالأواصر التي تجمعهم، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول. فالناصح لا يغش قومه. ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ القول الواحد التي جاء بها كل رسول، وكانوا قد انخرفوا عن عبادة الله الواحد التي هبط بها المؤمنون مع نوح عليه السلام من السفينة. إذ الله هو الإله الحق وما عداه فآلهة باطلة، لأنه تعالى يخلق وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً فكيف يكونوا آلهة.

• ثم ذكرهم بتقوى الله.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

أي أفلا تتقون ما يسخطه من الشرك والمعاصي لتنجوا من عقابه؟ بعد أن كان من عقابه تعالى لقوم نوح ما كان.

• قومه يردون عليه:

قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وكأنما كبر على الملأ الكبراء من قومه أن يدعوهم واحد من قومهم إلى الهدى وأن يستنكر منهم قلة التقوى، فاتهموه بالسفاهة وهي خفة العقل، وقلة الإدراك والحلم. أي قالوا إنا لنراك في سفاهة غريبة أو تامة راسخة تحيط بك من كل جانب بأنك لم تثبت على دين أبائك وأجدادك، بل قمت تدعو إلى دين جديد تحتقر فيه الأولياء الصالحين من قومك الذين اتخذت هم الأمة الصبور والتمائيل لتخليد ذكركم، والتقرب إلى الله تعالى بشفاعتهم.

• ومثل قولهم هذا قال ويقول المنافقون والمشركون لدعاة الإصلاح من أتباع الأنبياء: إنكم سفهاء لا ثبات لكم، وإنكم حقرت أولياءكم وأبائكم، وأنتم بدين جديد.

• بعد اتهامه بالسفه اتهموه بالكذب.

قال تعالى على لسانهم ﴿وَأَنَا لَتَنظُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [الاعراف: ٦٦]. اتهموه بالكذب بالإضافة إلى السفاهة في غير تخرج ولا حياء أي أنك يا هود تكذب فيما تدعو إليه من التوحيد ونبد الآلهة غير الله. هكذا جزافاً بلا ترو ولا تدبر ولا دليل.

• فرد عليهم هود عليه السلام رد الخليم فنفى عن نفسه السفاهة دون التطاول عليهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ. أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ. أَوْ عَجَبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الاعراف: ٦٧-٦٩].

أي ليس بي أدنى شيء من ضروب السفاهة وشوائبها، ولكني رسول من رب العالمين، والله أعلم حيث يجعل رسالته وهي أمانة عنه، فلا يختار لها إلا أهل الحصافة برجحان العقل وسعة الحلم وكمال الصدق وإلا لفات ما يقصد بها من الحكمة ولم تقم بها لله الحجة. ثم بين لهم وظيفة الرسول وحاله عليه السلام فيها، أي أبلغكم التكاليف التي أرسلت بها والحال أنني أنا لكم ناصح فيما أبلغكم إياه وأدعوكم إليه لأن فيه سعادتكم، أمين على ما أقول فيه عن الله تعالى فإنني لا أكذب عليكم فكيف أكذب على ربي عز وجل؟ فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول، والانقياد، وطاعة رب العباد ثم يتعجب هود عليه السلام من تعجبهم، فيقول لهم كيف تعجبون من أمر، لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين، وكان الأولى أن تحمدوا الله رب العالمين على ذلك.

• هود عليه السلام يلجأ إلى وسيلة أخرى في الدعوة وهي التذكير بنعم الله عليهم لعلهم يشكرونها.

قال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الاعراف: ٦٩].

وقال لهم: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِإِنْعَامٍ وَنَيْنٍ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٣].

هود عليه السلام يذكر قومه بنعم الله عليهم فيقول لهم: وادكروا فضل الله عليكم ونعمه إذ جعلكم خلفاء الأرض من بعد قوم نوح، وزادكم في المخلوقات بسطة وسعة في الملك والحضارة، وفي خلق أبدانكم إذ كانوا طوال الأجسام أقوياء، وأمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام، فأمدكم بالإبل والبقر والصنم وكثرة النسل، وكثر أموالكم، وكثر أولادكم خصوصاً الذكور، فادكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم، ولن تكونوا كذلك إلا إذا عبدتموه وحده ولم تشركوا بعبادته أحداً.

• وسيلة أخرى لدعوتهم وهي التخويف من عذاب الله تعالى: قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٥].

بعد أن ذكرهم هود عليه السلام بالنعم، ذكرهم حلول عذاب الله لعلهم يرجعون فقال: «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» أي إني من شفتي عليكم وبري بكم أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمررت على كفركم وبغيكم.

• ثم تارة يرغبهم ويرهبهم ويخبرهم بأن دعوته خالصة لله لا يريد منها إلا الأجر من الله تعالى.

• قال تعالى على لسان هود عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ. وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥١-٥٢].

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام أيضاً ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ. وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [الشعراء: ١٢٧-١٣١].

ثم ذكر هود عليه السلام عدم المانع لهم من الانقياد فقال: «يا قوم لا أسألكم عليه أجراً» أي غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أدعوكم وأعلمكم بدون أجر. وإن أجرى إلا على الله تعالى، وأنه موجب لقبوله ثم أمرهم بالاستغفار عما مضى منهم، والتوبة إلى الله فيما يستقبلونه والإنابة إليه سبحانه وتعالى.

وقوله: «أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» ينكر هود على قومه اهماكهم في الدنيا وانشغالهم بما لا يعني وإعراضهم عما يعينهم فيقول لهم كالمنكر عليهم أتبنون بكل ريع؛ أي مكان عال مرتفع آية أي قصراً مشيداً، آية في ارتفاعه وعلوه. تعبثون حيث لا تسكنون فيما تبنون فهو مجرد اللهو والعبث وقوله: «وَتَتَخَلَّدُونَ مَصَانِعَ» وهي مبان عالية كالحصون «لَعَلَّكُمْ تَخَلَّدُونَ» والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد، بل مقامنا في الدنيا قليل.

وقوله: «وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَارِينَ» أي إذا سطوتم على أحد تسطون عليه سطو العتاة الجبارين فتأخذون بعنف وشدة بلا رحمة ولا رفق (فاتقوا الله) يا قوم فخافوا عقابه وأليم عذابه «وَأَطِيعُوا» فيما أَدْعُوكم إليه وأبلغكموه عن ربي فإن ذلك خير لكم من الإعراض والتماذي في الباطل.

• بعد دعوة هود عليه السلام لقومه بالحكمة والموعظة الحسنة ومحاورته لهم بالتي هي أحسن وتحري في ذلك أساليب الدعوة لعل الله يهديهم إلى الصراط المستقيم. فما كان منهم إلا العناد والتكذيب وإليك بعض ردودهم على هود عليه السلام.

• «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [الأعراف: ٧٠].

• «قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» [هود: ٥٤-٥٣].

• «وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَكِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ * أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيَّاهُتْ هَيَّاهُتْ لِمَا تُوْعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ» [المؤمنون: ٣٣-٣٨].

• «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَرَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ. إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ. وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ. فَكَذَّبُوهُ» [الشعراء: ١٣٦-١٣٩].

• «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» [الأحقاف: ٢٢].

• من الآيات يتضح عناد قوم عاد وتجدهم كذبوا هوداً عليه السلام وتحذوه وأبوا أن يؤمنوا بالله وبرسوله وباليوم الآخر، ورفضوا كل وسائل دعوته حتى قالوا له «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ» [الشعراء: ١٣٦].

ولكن هوداً عليه السلام تعقب قولهم هذا فقال في مواضع كثيرة من كتاب الله منها.

• «قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رَجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ» [الأعراف: ٧١].

لم يبين هنا شيئاً من هذا الجدال الواقع بين هود عليه وعلى نبيينا الصلاة والسلام، وبين عاد. ولكنه أشار إليه في مواضع أخر كقوله تعالى: «قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنْ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [هود: ٥٣-٥٦].

• وقد أقام هود عليه السلام عليهم الحجة بتبليغه رسالة ربه.

قال تعالى: «إِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسَلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ» [هود: ٥٧].

• أما قولهم له: «يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» [هود: ٥٣].

فالتوحيد لا يحتاج إلى بيعة، إنما يحتاج إلى التوجيه والتذكير، وإلى استحاشة منطق الفطرة، واستنباء الضمير.

فهم كاذبون في هذا الزعم فإنه «ما من نبي إلا أعطاه الله من الآيات ما على مثله يؤمن البشر»^(١).

• ولو لم يكن من آيات الرسل: إلا أن نفس الدين الذي جاءوا به أكبر دليل أنه من عند الله لإحكامه وانتظامه للمصالح في كل زمان بحسبه وصدق أخباره، وأمره بكل خير ونهيه عن كل شر، وأن كل رسول يصدق من قبله ويشهد له، ويصدق من بعده ويشهد له.



(١) رواه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (٢٣٩) من حديث أبي هريرة ؓ.

المبحث الرابع: من آيات هود ﷺ الخاصة وجزاء من كذب

رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم

● أنه متفرد وحده في دعوته وتسفيه أحلامهم وتضليلهم والقدح في آلهتهم، وهم أهل البطش والقوة والجبروت، وقد خوفوه بآلهتهم إن لم ينته أن تمسه بجنون أو سوء، فتحداهم علنا وقال لهم جهاراً: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿هود: ٥٤-٥٦﴾.

فلما يصلوا إليه بسوء. فأى آية أعظم من هذا التحدي لهؤلاء الأعداء الحريصين على إبطال دعوته بكل طريق؟

● فلما انتهى طغيانهم تولى عنهم وحذرهم نزول العذاب، فجاءهم العذاب معترضا في الأفق، وكان الوقت وقت شدة عظيمة وحاجة شديدة إلى المطر، فلما استبشروا وقالوا: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾ قال الله ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

والذي استعجلوا به صرح به في قوله تعالى: ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢].

فكان العذاب: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ. تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَمَا جَعَلْنَاهُمْ غَنَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المومن: ٤١].
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لَّنُنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [نصت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالْهَرَمِيمِ﴾ [الدَّارِيَات: ٤١-٤٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي. إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ أَعْجَارًا يَخْلِي مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ [القمر: ١٨-٢١].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ

وَتَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَارٌ نَّخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٩].

● فبعد ما كانت الدنيا لهم ضاحكة، والعز بليغ، ومطالب الحياة متوفرة، وقد خضع لهم من حولهم من الأقطار والقبائل، إذا أرسل إليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات ﴿وَأُثْبِتُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠].

● ونجى الله هوداً ومن معه من المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاِبِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

● ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ [الشعراء: ١٣٩].

على كمال قدرة الله وإكرامه الرسل وأتباعهم، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وآية على إبطال الشر، وأن عواقبه شر العواقب وأشنعها، وآية على البعث والنشور.

● عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نصرت بالصبا، وأهلك عاد بالديور»^(١).



(١) رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (٩٠٠).

والصبا: هي ريح يقال لها القبول لأنها تقابل باب الكعبة إذ مهبها من مشرق الشمس، وضدها الديور: وهي التي أهلك بها قوم عاد وهي الريح الغربية.

البحث الخامس: فوائد من قصة هود

- منها: ما تقدم من قصة نوح من الفوائد المشتركة بين الرسل.
- ومنها: أن الله بحكمته يقص علينا نبأ الأمم المجاورين لنا في جزيرة العرب. وما من أمة إلا بعث الله فيهم رسولا، ولكن نفعا بتذكيرنا بما حولنا وما نتناقله جيلا بعد جيل.
- فيؤخذ من هذا: أن تذكير الناس بما هو أقرب إلى عقولهم وأنسب لأجوانهم، وأدخل في مداركهم وأنفع لهم من غيره أولى من التذكيرات بطرق أخرى وإن كانت حقا، لكن الحق يتفاوت.
- ومنها: أن اتخاذ المباني الفخمة للفخر والخيلاء والزينة وقهر العباد بالجبروت من الأمور المذمومة الموروثة عن الأمم الطاغية كما قال الله في قصة عاد وإنكار هود عليهم، قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨].
- ومنها: تنويع أسلوب الدعوة وتذكير الجاحدين بما هو محسوس لديهم مرأى لهم.
- ومنها: التخويف من عذاب الله والتحذير من عاقبة عصيانه من أساليب الدعوة.
- ومنها: بيان سنة الله في التقليد واتباع السالفين وإن كانوا ضلالا جاهلين.
- ومنها: التحذير من معصية الله ورسوله.
- ومنها: أن متاع الدنيا قليل زائل مهما كبر في أعين أصحابه.
- ومنها: استحسان التذكير بالنعم فإن ذلك موجب للشكر والطاعة.
- ومنها: فضيلة النصح وخلق الأمانة.
- ومنها: مشروعية دفع الاتهام، وتبرئة الإنسان نفسه مما يتهم به من الباطل.
- ومنها: التنديد بالكبر والعناد إذ هما من شر الصفات الخلقية في الإنسان.
- ومنها: أن الغني وغيره من زهرة الحياة الدنيا لا تنفع صاحبها إلا إذا قارنها الإيمان بالله ورسوله.

● ومنها: أن الجاحد لآيات الله المكذب لرسول الله، فإنه وإن استدرج في الحياة وأمهل فإن عاقبته وخيمته، وسمعه وبصره وعقله لا يغني عنه شيئا إذا جاء أمر الله، كما قال عن عاد ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا

أَعْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

● ومنها: أن الداعي إلى الله عليه تحمل الأذى في سبيل الله.

● ومنها: أن صاحب الحق يثبت عليه ولا يخاف من وعيد أهل الباطل فإنهم لا يضرونه، ويحفظه الله من شرورهم قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

● ومنها: العبرة بأن تركة عاد من قصور وغيرها تباع بدرهمين:

● وقف أبو الدرداء رضي الله عنه على منبر دمشق لما رأى ما أحدث المسلمون في (الغوطة) من البنیان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنأدى: يا أهل دمشق، فاجتمعوا إليه، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ألا تستحيون؟ تجمعون مالا تأكلون، وتبنون مالا تسكنون، وتأملون ما لا تبلغون، قد كان القرون من قبلكم يجمعون فيوعون، ويأملون فيطيلون، ويبنون فيوثقون، فأصبح جمعهم بورا، وأملهم غرورا، وبيوتهم قبورا، هذه عاد قد ملأت ما بين عدن إلى عمان أموالا وأولادا، فمن يشتري مني تركة آل عاد بدرهمين؟

كانه رضي الله عنه ينادى كل من أخلد إلى الأرض على مر الزمان فيقول: يا من أخلدتم إلى الأرض، واتبعتم أهواءكم، ورضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وتناولتم على الكبير المتعال، ونسيتم العقاب والمآل، يا من وضعتم أصابعكم في آذانكم حتى لا تسمعوا إلى الناصح الأمين، اعلّموا أن ربكم لكم بالمرصدا، وسوف تتركون القصور وتسكنون القبور.

البحث السادس: وفاة هود

اختلف في موضع وفاته وقبره.

● ف قيل إن هودا عليه السلام سكن بلاد حضرموت بعد هلاك عاد إلى أن مات، ودفن بها.

● وقيل إنه دفن في فلسطين.

● وقيل إنه دفن بدمشق.

● والأقرب إلى الصواب أنه مات ودفن في حضرموت لأنها موطن أحداث قصته مع قومه. ولم ينقل إلينا دليل صحيح على أنه انتقل من حضرموت بعد هلاك قومه، وكذلك لم ينقل إلينا بسند صحيح موضع قبره. وهذا من العلم الذي لا ينفع ومن الجهل الذي لا يضر. والعلم عند الله تعالى.

الفصل الحادي عشر: قصة صالح عليه السلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

- هو: صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح.
- ذكر اسم صالح عليه السلام في القرآن تسع مرات.
- قال تعالى: ﴿وَأِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ [الأعراف: ٧٣].
- وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي...﴾ [الأعراف: ٧٥].
- وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ [الأعراف: ٧٧].
- وقال تعالى: ﴿وَأِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا...﴾ [هود: ٦١].
- وقال تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا...﴾ [هود: ٦٢].
- وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ...﴾ [هود: ٦٦].
- وقال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ [هود: ٨٩].
- وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ. إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢].
- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [النمل: ٤٥].



المبحث الثاني: من قوم ثمود؟

- قوم ثمود كانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر، وهو مكان بين الحجاز وتبوك، والذي يمر الآن من المدينة المنورة إلى تبوك يمر بمنطقة (الغلا) وهناك يشاهد آثار ثمود.
- آثار ثمود: القصور التي نحتوها في الجبال، وأقاموها في السهول، ويرى كذلك الموضع الذي خرجت منه الناقة التي جعلها الله آية لهم، فكذبوا بها فأخذهم العذاب ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].
- تشهد على مصيرهم، ومصير كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.
- وثمرود استخلفهم الله في الأرض من بعد «عاد» ولذلك سما «عاد الثانية»، وهيا لهم سبل العيش الكريم، والحياة الرغدة، ومكنهم حتى من الجبال ينحتون منها البيوت، وأجرى لهم العيون، وأنبت لهم الجنات، وكانوا أهل مواش كثيرة.
- فبطروا النعم وكفروها، وعبدوا غير الله، فأرسل الله إليهم أخاهم صالحا من قبيلتهم، يعرفون نسبه وحسبه، وفضله وكماله، وصدقه وأمانته، فدعاهم إلى الله وإلى إخلاص الدين له، وترك ما كانوا يعبدون من دونه، وذكرهم بنعم الله وبأيامه فلم يتبعه إلا القليل.



المبحث الثالث: بعث الله صالحاً عليه الصلاة والسلام إلى

قومه ثمود ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى

المطلب الأول: دعوتهم للتوحيد:

• أرسل الله إلى قبيلة ثمود بعد أن انخرقوا، وعبدوا الأصنام، نبياً من بينهم، هو صالح عليه السلام، فقال لهم في رفق وعطف: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧٣].

• فدعاهم صالح عليه السلام إلى توحيد الله تعالى في ألوهيته وهو أهم جانب من دعوات الرسل، وهو موضوع الصراع الدائر بينهم وبين خصومهم من المستكبرين والمعاندين من كل الأمم.

• وهكذا دعوات كل الأنبياء كلهم ساروا في هذا المنهج في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده أولاً وواجههم أقوامهم - إلا من هدى الله- بالسخرية والتكذيب والاستهزاء كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

• وحين ذكّرهم صالح عليه السلام وأقام الأدلة والبراهين على وجوب توحيد الله اشمأزوا ونفروا واستكبروا ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]. أي: قد كنا قد نخالينا فيك أن تفضلنا جميعاً لكمالك وكمال أخلاقك، وآدابك الطيبة وكان عقلك كاملاً قبل هذه المقالة، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا نعبد من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿أَنْتَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ [هود: ٦٢].

• فما نزل به عن هذه المرتبة عندهم: إلا أن دعاهم إلى عبادة الخالق من عبادة العبيد أو إلى السعادة الأبدية، وما ذنبه إلا أنه خالف آباءهم الضالين، وهم كانوا أضل منهم.

المطلب الثاني: صالح عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم لعلهم يذكرن:

• قال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا

فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

• ولقد ذكرهم الله بهذه النعم على لسان نبيه صالح عليه السلام فذكرهم بنعمة الله عليهم باستخلافهم لقوم عاد الذين أهلكتهم الله تعالى، ومكن لهم في الأرض، وسهل لهم الأسباب الموصلة إلى ما يريدون ويبتغون، وذكرهم بتواصل النعم عليهم فكانوا يتخذون من السهول قصوراً مزخرفة، ومن الجبال بيوتاً منحوتة متقنة. وذكرهم أيضاً بالجنات والعيون والزروع فقال: ﴿أَتُنْكِرُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦-١٤٨].

أي تحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات، والنعم سدى تعمون وتمتعون، كما تتمتع الأنعام، وتتركون سدى، لا تؤمرون، ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصي الله. وطلب منهم أن يشكروا الله تعالى على هذه النعم، بالإصلاح في الأرض، وعدم الإفساد فيها.

• وذكرهم بنعمة خلقهم فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]. أي هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، وهياً لكم أسباب العمران، بما خلق فيها من ماء وهواء، ومعادن ونبات وحيوان، فزرعتم وصنعتم ونحتم من الجبال بيوتاً، وإذا كان الله هو صاحب هذا الفضل العظيم عليكم ﴿فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]. فاستغفروهم عما فرط منكم من سيئات فإنه يغفر الذنب ويقبل التوب.

المطلب الثالث: تلتطف صالح عليه السلام في دعوته لقومه:

• قال تعالى على لسان صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣].

وهذا تلتطف منه لهم في العبارة ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير، أي فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ما عذرکم عند الله؟ وما يخلصكم من بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب عليّ، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجبرني منه ولا ينصرني. فأننا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بيني وبينكم وقالوا له أيضاً: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]. أي من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدري ما

تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد.

● لم يغلظ عليهم صالح في الرد، لأنه لم يفقد الأمل بعد في استجابتهم له.

● عندما اختصموا في دعوته بتوحيد الله تعالى، رد عليهم رد المشفق لأنه يعلم من الله ما لم يعلموا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٥-٤٦].

● لم يبين الله هنا خصومة الفريقين، ولكنه بين ذلك في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِّنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥-٧٦]. فهذه خصومتهم، وأعظم أنواع الخصومة، الخصومة في الكفر والإيمان. وكان الفريق الكافر هو الكثرة.

● إن المكذبين المعرضين استعجلوا عذاب الله الذي أنذرهم به صالح عليه السلام، بدلا من أن يطلبوا هدى الله ورحمته - شأنهم شأن مشركي قريش مع الرسول ﷺ - فأنكر عليهم صالح أن يستعجلوا بالعذاب ولا يطلبوا الهداية، وحاول أن يوجههم إلى الاستغفار لعل الله يدرهم برحمته ﴿قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

ولقد كان يبلغ من فساد القلوب أن يقول المكذبون ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

بدلا من أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إلى الإيمان به والتصديق.

وكذلك كان قوم صالح عليه السلام يقولون، ولا يستجيبون لتوجيه رسولهم إلى طريق الرحمة والتوبة والاستغفار.

● قوم صالح لم يكتفوا بما قالوا، بل تشاءموا بصالح ومن آمن معه، ويتوقعون الشر من ورائهم.

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

قوله: ﴿اطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ أي تشاءمنا بك، وكان قوم صالح إذا نزل بهم قحط أو بلاء أو مصائب قالوا: ما جاءنا هذا إلا من شؤم صالح، ومن آمن به. فقال لهم ((طائركم عند الله)) أي سببكم الذي يجيء منه خيركم وشركم عند الله، فالشر الذي أصابكم بدنوبكم لا بشؤم صالح، ومن آمن به من قومه.

المبحث الرابع: قصة الناقة

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ثمود تطلب من صالح عليه السلام معجزة حسية:

● لما وجدت ثمود استمسك صالح عليه السلام برأيه ودعوته للتوحيد، خاف المستكبرون من قومه أن يكثروا تابعوه، فأرادوا أن يظهروا للناس عجزه، فطلبوا منه أن يأتيهم بآية يتبينون بها صدق دعوته، ومعجزة حسية ظاهرة تصدق رسالته.

● والآية التي طلبوها هي ناقة يخرجها لهم من صخرة من الصخور.

● وقد جاءت الناقة بأمر الله تعالى تأييدا لنبيه صالح عليه السلام ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

● وهذه الناقة نسبها الله إليه، لأنها ناقة غير عادية، فكل ناقة تولد من أمها، لكن هذه الناقة أخرجها الله من الصخر على هيئة عظيمة، آية على صدق نبينهم المبعوث من رب القوي والقدر، ونذير هلاك إن هم كذبوا، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

المطلب الثاني: الناقة كانت وبالا عليهم وقتنة لهم:

● قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

● وقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٥].

● وقال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسَلُونَ بِالنَّاقَةِ فَتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ. وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلَّ شَرِبٍ مُحْتَظَرٍ﴾ [القم: ٢٧-٢٨].

إن الله أرسل لهم هذه الناقة امتحاناً واختباراً، وأهم إن تعرضوا لآية الله هذه، التي هي الناقة بسوء أهلكتهم.

• لم ير الناس قبلاً ناقة تستأثر يوماً بمائهم، ولم يعهدوا غيرها يكف يوماً عن شربهم.
• مكثت الناقة بينهم زمناً تأكل في أرض الله، ترد الماء يوماً، وتصد عنه يوماً، فكهوا لذلك مقامها بينهم، وقد تكون حالت بينهم وبين الماء حين اشتداد الحاجة إليه، إذ كان لها شرب ولهم شرب يوم معلوم.

• لاشك أن قيام الناقة قد استمال إليه كثيراً من قومه، إذ استبانوا بها صدق رسالته، وأيقنوا بصحة نبوته، فأفزع ذلك المستكبرين من قومه، وخافوا على دولتهم أن تبيد، وعلى سلطانهم أن يزول.

• إن ثمود حسبت هذه الناقة خطراً جسيماً، وشراً مستطيراً، ففكروا طويلاً، وأمعنوا كثيراً، وأشفقوا على أنفسهم من إهلاكها، وكلما هموا بها قفلوا راجعين، وبقي القوم يدفعهم الشر، وتمنعهم الرهبة، حتى زين لهم الشيطان أعمالهم.

المطلب الثالث: الملاء من قومه يأثمرون على عقر الناقة وقتل صالح عليه السلام.

• ذكرت طائفة من العلماء: أن سبب عقرهم الناقة أنهم كانوا اقترحوها على صالح عليه السلام فأجابهم إلى ذلك بعد أن تعنتوا في وصفها، فأخرج الله له ناقة من صخرة بالصفة المطلوبة، فأمن بعض وكفر بعض، واتفقوا على أن يتركوا الناقة ترعى حيث شاءت وترد الماء يوماً بعد يوم، وكانت إذا وردت تشرب ماء البئر كله، وكانوا يرفعون حاجتهم من الماء من يومهم للغد ثم ضاق بهم الأمر في ذلك، فاندب تسعة رهط من شياطينهم قد قاوموا ما جاء به صالح أشد المقاومة، وهم الذين قال الله فيهم ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

فقام هؤلاء بهذه المأمرية وهى قتل الناقة وقتل صالح عليه السلام.

• وكان صالح عليه السلام قد حذرهم من عقر الناقة لما رأى من كبرهم وردهم الحق، فأول ما فعل أولئك الملاء الأشرار أن عقدوا مجلساً عاماً ليتفقوا على عقر الناقة.

• كان الرهط التسعة رؤساء في قومهم فاستمالوا القبيلة الكافرة من ثمود بكاملها، فطاوعتهم على ذلك، فانطلقوا فرصدوا الناقة فقتلوها.

• لم تباشر القبيلة بكاملها قتل الناقة بالفعل، بل باشرت بالسكوت والرضى على ذلك الفعل، ومعلوم أن المتماثلين على العقر كلهم عاقرون.

• والذي باشر هؤلاء التسعة، بل الذي باشر قتل الناقة بيده هو واحد من التسعة، وهو أشقى القبيلة: قدار بن سالف، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِذِ ابْتِغَتْ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس: ١٢].

• بعد أن قام هذا الشقي بعقر الناقة، وهم جميعهم راضون بل آمرون، فعقروها، فكان هذا العقر مؤذناً بهلاك القبيلة بأسرها.

• ولقد وصف النبي ﷺ هذا الشقي عندما كان يخطب وذكر الناقة والذي عقر، فقال رسول الله ﷺ: «(إِذِ ابْتِغَتْ أَشْقَاهَا) ابْتِغَتْ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ (١) عَارِمٌ (٢) مَنِيعٌ (٣) فِي رَهْطِهِ مِثْلُ أَبِي زَمْعَةَ (٤)» (٥).

وجاء من حديث عمار بن ياسر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال له هو وعلى بن أبي طالب ﷺ: «(أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَشْقَى النَّاسِ رَجُلَيْنِ؟) قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «(أَحْمِرُ ثُمُودَ الَّذِي عَقَرَ النَّاقَةَ، وَالَّذِي يَضْرِبُكَ يَا عَلِيُّ عَلَى هَذِهِ)» يعني قرنه «(حتى تبل منه هذه)» يعني لحيته (٦).

• فلما شعر صالح بالأمر ورأى منظرًا فظيعًا، علم أن العذاب قد تحتم لا محالة، لأن الجريمة قد تفاقمت، ولم تبق حالة يرجي فيها لهم تقويم فقال لهم صالح ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [مرد: ٦٥].

ونبه بهذا الكلام دانيهم وقاصيهم.

• ففي أثناء هذه المدة اتفق هؤلاء الرهط التسعة على أمر أغلظ من عقر الناقة، على قتل نبيهم صالح عليه السلام، وتعاهدوا وتعقدوا وحلفوا الأيمان المغلظة، وكنموا أمرهم خشيّة من منع أهل بيته، لأنه في بيت عز وشرف ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩].

• تحالفوا بالله على قتله ليلاً حتى يلحقوه بالناقة وكذلك قتل أهله، واتفقوا على أن يقولوا لأوليائه وعصيته بعد قتله أنهم لم يشهدوا قتله ولا قتل أهله، وهذا يدل على أنهم لا يقدرون أن يقتلوه علناً، لنصرة أوليائه له، وإنكارهم شهود مهلك أهله دليل على خوفهم من أوليائه، والظاهر أن هذه النصرة عصبية نسبية لا تمت إلى الدين بصلة، وأن أوليائه

(١) عزيز: أي قليل المثل.

(٢) عارم: كثير الشهامة والشر.

(٣) منيع: أي قوى ذو منعة.

(٤) أبي زمعة: هو الأسود بن عبد المطلب، ومات على كفره.

(٥) رواه البخاري (٣٣٧٧-٤٩٤٢).

(٦) حسن لغيره: رواه أحمد (٢٦٣/٤) وغيره.

ليسوا مسلمين.

● فدبروا هذا المكر العظيم، ولكنهم يمحرون ويمكرون الله لنبيه صالح عليه السلام.

● فحين كمنوا في أصل جبل لينظروا الفرصة في صالح عليه السلام، بدأ الله بعقوبتهم، فكانوا سلفاً مقدماً لقومهم إلى نار جهنم، فأرسل الله صخرة من أعلى الجبل فشذختهم وقتلوا أشنع قتلة فأهلكهم سلفاً وتعجلاً قبل قومهم.



المبحث الخامس: عاقبة مكر ثمود قوم صالح عليه السلام

● بعد أن أقدموا على قتل الناقة التي حذرهم نبيهم من مسها بسوء وحذرهم عاقبة ذلك ﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

● ولكنهم لم يعبأوا بهذا التحذير ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

● ودل فعلهم هذا على غاية كفرهم وعتوهم لأنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

● وأنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه.

● وأنهم كذبوا الرسول الذي قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علماً جازماً، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم، قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا. وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

● ثم كانت نهاية مكرهم. قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٠-٥٣].

● لما مضت الثلاثة أيام التي حددها لهم صالح عليه السلام وهي أيام المتاع ثم بعدها يحل العذاب.

● فتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أي جهة يأتيهم العذاب.

● فلما أشرقت الشمس جاءت صبيحة من السماء من فوقهم ورجفة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين، جثثاً لا أرواح فيها ولا حراك بها.

● ذكر الله جل وعلا في الآيات السابقة من سورة النمل ثلاثة أمور:

الأول: أنه دمر جميع قوم صالح، ومن جملتهم تسعة رهط الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، وذلك في قوله: ﴿أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]. أي وهم قوم صالح ثمود ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ﴾ [النمل: ٥٢]. أي خالية من السكان لهلاك جميع أهلها.

﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢]. أي بسبب ظلمهم الذي هو كفرهم وتمردهم وقتلهم ناقة الله التي جعلها آية لهم.

الثاني: أنه جل وعلا جعل إهلاكه قوم صالح آية أي عبرة يتعظ بها من بعدهم، فيحذر من الكفر، وتكذيب الرسل، لئلا ينزل به ما نزل بهم من التدمير. وذلك في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

الثالث: أنه تعالى أبخى الذين آمنوا وكانوا يتقون من الهلاك والعذاب وهم نبي الله صالح ومن آمن به من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

● أما إنجاؤه نبيه صالحاً عليه السلام، ومن آمن به وإهلاكه ثمود، فقد أوضحه الله جل وعلا في مواضع من كتابه كقوله في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٦-٦٨].

● بينت الآية السابقة أن هلاكهم كان بالصيحة، قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]. والصيحة هي: المرة من الصوت الشديد والمراد بها هنا صيحة الصاعقة التي نزلت بقوم صالح فأحدثت رجفة في القلوب وزلزلة في الأرض وصعق بها جميع القوم ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أي ساقطين على وجوههم مصعوقين لم ينج منهم أحد.

وذكر الله تعالى في سورة الأعراف أنهم أخذوا بالرجفة قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

والرجفة: هي الزلزلة الشديدة في الأرض فأحدثت رجفة في القلوب من الخوف.

ووصفها الله بالصاعقة. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى

الْهَدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٤].

والصاعقة: هي الشرارة الكهربائية التي تتصل بالأرض فتحدث فيها تأثيرات عظيمة بقدرها، كصعق الناس والحيوانات، وموتهم، وهدم المباني أو تصديعها، وإحراق الشجر والمتاع، وغير ذلك.

وسماها الله بالطاغية، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

والطاغية هي: الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطعت قلوبهم وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى، لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم، وذلك بسبب طغيانهم وظلمهم وكفرهم.



المبحث السادس: صالح عليه السلام يخاطب قومه بعد هلاكهم

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

هذا إخبار عن صالح عليه السلام، أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ في الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلاً لهم ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩]. أي جهدت في هدايتكم بكل ما أمكنني وحرصت على ذلك بقولي وفعلي ونيتي. ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾. أي لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم، والمستمركم المتصل إلى الأبد، وليس لي فيكم حيلة ولا لي بالدفع عنكم يدان، والذي وجب على من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم، ولكن الله يفعل ما يريد.

• وهكذا خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال.

• عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ترك قتلى بدر ثلاثاً. ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً».

فسمع عمر قول النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جئفوا؟ قال: «والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم. ولكنهم لا يقدرزون أن يجيبوا»^(١).



المبحث السابع: وفاة صالح عليه السلام وموضع قبره

اختلف في موضع وفاته وقبره:

• وقد قال بعض المفسرين:

• إن صالحاً والذين آمنوا معه ذهبوا بعد هلاك قومهم إلى ناحية الرملة من فلسطين، وماتوا هناك ودفنوا.

• ويقول أهل حضرموت أنهم ذهبوا إلى حضرموت وأقاموا بها لأن أصلهم من تلك الناحية أو هي فصيلة من أهل الأحقاف وهناك قبر يزعمون أنه لصالح عليه السلام.

• وقال آخرون إنهم أقاموا في ديارهم بعد هلاك قومهم.

• وآخرون أنهم ذهبوا إلى مكة وأقاموا بالحرم حتى ماتوا وقبورهم غربي الكعبة.

• ولم يثبت في ذلك كله أية محكمة ولا سنة صحيحة فالعلم عند الله تعالى.



المبحث الثامن: رسول الله ﷺ يمر على ديار ثمود

● عن جابر رضي الله عنه قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات وقد سألتها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا، ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهدم الله من تحت أديم السماء منهم، إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله» قيل من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم، أصابه ما أصاب قومه»^(١).

● عن ابن عمر -رضي الله عنهما- «أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عَجْنَا منها واستقينا، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين، ويهريقوا ذلك الماء»^(٢).

● عن ابن عمر -رضي الله عنهما-: «أن النبي ﷺ لما مرَّ بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم، ثم تَفْنَع بردائه وهو على الرحل»^(٣).



(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢٩٦/٣) والحاكم (٣٢٠/٢) وابن حبان (٦١٩٧) وغيرهم، وقال

الحافظ في الفتح إسناده حسن وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط «حديث قوى».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٨).

(٣) أخرجه البهاري (٣٣٨٠).

المبحث التاسع: فوائد مستفادة من قصة صالح عليه السلام

● منها: أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة وهي دعوة التوحيد.

● ومنها: أن من كَذَّبَ واحدًا منهم فقد كَذَّبَ الجميع، لأنه يُكَذِّب الحق الذي جاء به كل واحد منهم ولهذا يقول في كل قصة: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ» «كَذَّبَتْ غَادَ الْمُرْسَلِينَ» «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ» [الشعراء: ١٠٥، ١٢٣، ١٤١].

● ومنها: أن عقوبات الله للأُمم الطاغية عند تنهاى طغيانها وتفاقم جرائمها، فكفرهم وتكذيبهم موجب للإهلاك، ولكن تحتم الإهلاك عند تنهاى الشرور، ولهذا أرجى ما يكون لوقوع العقوبة بالظالمين المجرمين عند تنهاى إجرامهم، لأن الله تعالى بالمرصاد فيمهل ثم يمهل حتى إذا أخذهم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

● ومنها: أن العقائد الباطلة الراسخة المأخوذة عن يمن يحسن بهم الظن من آباء أو غيرهم من أكبر الموانع لقبول الحق.

● والحال: أنما ليست في العير ولا في النفير، ولا لها مقام في الحجج الصحيحة الدالة على الحقائق، فلهذا أكبر ما رد به قوم صالح لدعوته أن قالوا: «أَتْنَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» [هود: ٦٢]. وقالت جميع الأمم المكذبة رادين لدعوة الرسل: «إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ» [الزخرف: ٢٣].

وهذا سبيل لا يزال مَعْمُورًا بالسالكين من أهل الباطل تُهْجَتُهُ الشياطين ليصدوا به العباد عن سبيل الله، ومن العلوم أن طريق الرسل هي طريق الهدى والحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

● التحذير من فتنة النساء حيث خرجت جماعات من النساء تشجع الرجال وتغريهم بالإقدام على قتل الناقة، وتمت الفتنة.

● ومنها: الاعتبار بمصير الظالمين، والتحذير من مثل مصيرهم، ولذا وجب البكاء، والخوف عند المرور على آثارهم التي ما زالت شاهدة عليهم حتى الآن.

● فيا من تمرؤن على الآيات مصبحين، ويا من تسافرون إليها مشدوهين، وانشغلتم بالبنیان والطين ونسيتم آيات رب العالمين وبطشه وانتقامه من الظالمين، وقدرته التامة، وسلطانه المطلق، وهيمته على مقاليد الأمور.

● إنه سبحانه يُذَكِّر من يعتبر، أن ما حل بمن سبقكم وما وقع على الظالمين منهم من عذاب ليس على الظالمين منكم ببعيد.

● اللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا نخشى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، ولا حول ولا قوة إلا بك.

وذلك من مقتضيات التوحيد ومن هذه الأمور كما سبق في الآيات: أمرهم بالعدل في المعاملة ومن صور ذلك: استيفاء الكيل والميزان، ونهاهم عن الظلم، ومن صورته: بحس الناس أشياءهم.

والعدل أصل من أصول الإصلاح في الأرض، والظلم أصل من أصول الإفساد فيها. ونهاهم عن الصد عن سبيل الله الذي كانوا يمارسونه ضد المؤمنين، فيستخدمون معهم أنواعاً من الفتنة، لصددهم عن الإيمان بالله، والتصديق بالنبي شعيب، وهكذا فعل المكذبون بالرسول من قبل، ويفعلون في كل زمان ومكان، لأنهم يكرهون الاستقامة على الصراط المستقيم، يريدونها معوجة منحرفة عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان، ويجنون أن تشيع الفاحشة في المجتمع، ويدعون الناس إليها، فهل بعد ذلك من فساد؟

• وما زال شعيب عليه السلام يذكرهم لعلهم يؤمنون، فذكرهم بنعمة الله عليهم في تكثيرهم من بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وكما قال لهم في القصة الأخرى ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤].

• فأجابوه ساخرين وردوا عليه متهمين فقالوا: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. فهم لا يدركون - أو لا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هي من مقتضيات العقيدة، ومن صور العبودية، وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله، ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم، كما أنها لا تقوم إلا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وفي تداول الأموال وفي كل شأن من شئون الحياة والتعامل.

• ولكنهم أصروا على ما هم فيه وقالوا نحن جازمون على عبادة ما كان آباؤنا يعبدون، وجازمون على أننا نفعل في أموالنا ما نريد من أي معاملة تكون، فلا تدخل تحت أوامر الله وأوامر رسله، ويقولون هذا على سبيل الاستهزاء والتقصص والتهكم: أصلاتك هذه التي تصلبها، هي الأمرة لك بأن تحجر علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ وترك ما يعبد آباؤنا الأولون؟ أو ألا تتعامل إلا على الوجه الذي ترضيه أنت، وترك المعاملات التي تأباه، وإن كنا نحن نرضاها؟

• ويسخر أهل مدين من شعيب عليه السلام، كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاء التوحيد الحق فيقولون: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. وهم يعنون

عكس معناها، فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تكفير، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق، وكذلك هو عند بعض المثقفين المتحضرين واليوم الذين يعيبون - على زعمهم - المتعصبين الرجعيين.

• فقال لهم: ﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].

فهذا تلميح من شعيب عليه السلام صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه، ويعرض عن تلك السخرية لا يبالها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم، يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه، وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا فهو على أمر بين من الله تعالى أنه أرسله إليهم ثم قال لهم: ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨]. أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني، بالإضافة إلى النبوة والرسالة.

• ثم قال لهم: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالَفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُم عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]. أي: ما هيتكم عن المعاملات الخبيثة وظلم الناس فيها، إلا وأنا أول تارك لها مع أن الله أعطاني ووسع عليّ وأنا محتاج إلى المعاملة ولكني متقيد بطاعة ربي، إن أريد في فعلي وأمري لكم إلا الإصلاح أي أن تصلح أحوالكم الدينية والدنيوية ما استطعت ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

• ثم خوفهم أخذات الأمم التي حولهم في الزمان والمكان فقال: ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩].

• ثم عرض عليهم التوبة ورجبهم فيها فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]. فلم يفد فيهم.

• فقالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١].

وهذا لعنادهم وبغضهم للبليغ للحق، ويعنون بذلك أنه لا قيمة لكلامك. ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَرِيْنٍ﴾ [هود: ٩٢]. أي: ليس لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيَا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢]. أي: كيف ترأوني لأجل رهطي، ولا ترأوني لله،

فصار رهطى أعز عليكم من الله، ونبذتم أمر الله وراء ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه، وهو سبحانه لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء.

• بعد هذا البلاغ المبين من شعيب، وكان بعض السلف يسمى شعيباً (خطيب الأنبياء) وذلك لفصاحته، وعلو عبارته، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته. فما وجد منهم إلا الإعراض والتهديد بالخروج ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُولُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨].

استعملوا قوتهم في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً، ولا حقاً، فشعيب عليه الصلاة والسلام، كان يدعوهم، طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم، حتى توعدوه إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.



المبحث الرابع: هلاك أهل مدين

• صبر شعيب عليه الصلاة والسلام على خشونة قومه وعلى غطرستهم وإيذائهم واستمر في تجمله يسمع منهم قارص القول ويسمعهم لينه حتى استيأس منهم عليه الصلاة والسلام، واعتقد أنه لا خير فيهم ولا أمل في انعطافهم إلى الحق، هنالك دعا عليهم شعيب عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩].

أي افصل بيننا واحكم على الظالم منا بحكمك، وانصر المظلوم وصاحب الحق. فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله خالفوه ﴿ فَأَخَذْتُهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٩١].

أي رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادهم، وصيرت حيوان أرضهم كحمادها، وأصبحت جثثهم هامدة لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.

• وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجة شديدة أسكتت الحركات وصيحة عظيمة أحمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

• قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَانُوا لَمْ يَفْقَهُوا فِيهَا إِلَّا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعْدَتْ ثَمُودُ ﴾ [هود: ٩٤].

• وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩].

• وقال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٨٩-١٩١]. فأرسل الله عليهم حرّاً أخذ بأنفاسهم حتى كادوا يحتنقون من شدته، ثم في أثناء ذلك أرسل سحابة باردة فأظلتهم فتنادوا إلى ظلها غير الظليل، فلما اجتمعوا فيها التهب عليهم ناراً فأحرقتهم وأصبحوا خامدين معذيين مذمرين ملعونين في جميع الأوقات.

المبحث الخامس: الفوائد المستفادة من قصة شعيب عليه

الصلاة والسلام

● منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه، لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيال والميزان وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك.

● ومنها: أن يخس المكايل والموازين خصوصاً، ويخس الناس أشياءهم عموماً من أعظم الجرائم الموجبة لعقوبات الدنيا والآخرة.

● ومنها: أن المعصية الواقعة لمن عدم منه الداعي والحاجة إليها أعظم ولهذا كان الزنا من الشيخ أقبح من الشباب، والكبر من الفقير أقبح من الغني، والسرقة ممن ليس بمحتاج أعظم من وقوعها من المحتاج^(١).

لهذا قال شعيب لقومه ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٦].

أي بنعم كثيرة فأمر أحوجكم إلى الهلع إلى ما بأيدي الناس بطرق محرمة.

● ومنها: قوله: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦].

فيه الحث على الرضا بما أعطى الله والاكتفاء بحلاله عن حرامه، وقصر النظر على الموجود عندك من غير تطلع إلى ما عند الناس.

● ومنها: أنجزاء من جنس العمل، فمن يخس أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم.

● ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان، وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص، أو معدوم.

● ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال،

(١) لهذا جاء في الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان وملك كذاب، وعائل فقير مستكبر» رواه مسلم (١٠٧).

● ثم ذكر تعالى عن نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام لما مر عليهم ورأى حطام جثثهم رفاتا محترقا، أنه نعاهم إلى أنفسهم موجهاً ومؤنباً ومقرعاً، فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَكَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

أي قد أدت ما كان واجباً عليّ من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدي من يضل، وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾. أي أحزن ﴿عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾. أي لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يتلفتون إليه، فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع، ولا يحيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص عنه.



حتى أنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهي عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبقاقتها على وجهها، تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها، تختل أحواله الدينية. وقد علم ذلك الكفار بما قالوا لشعيب عليه السلام: ﴿ أَصْلَاحُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ [هود: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. ومن هنا تعرف حكمة الله ورحمته في أنه فرض علينا الصلوات تتكرر في اليوم واللييلة لعظم وقعها وشدة نفعها وجميل آثارها، فله على ذلك أتم الحمد.

● ومنها: أن العبد في حركات بدنه وتصرفاته وفي معاملاته المالية داخل تحت حجر الشريعة، فما أبيض له منها فعله، وما منعه الشرع تعين عليه تركه، ومن يزعم أنه في ماله حر له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشر الكل مباح، ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا، لأنهم أنكروا على شعيب عليه السلام لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردوا عليه أنهم أحرار في أموالهم لهم أن يفعلوا فيها ما يريدون.

ونظير هذا: قول من قال: ﴿ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ [البقرة: ٢٧٥]. فمن سوى بين ما أباحه وبين ما حرمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعد ما انحرف في دينه.

● ومنها: أن الناصح للخلق الذي يأمرهم وينهاهم من تمام قبول الناس لقوله: إنه إذا أمرهم بشيء أن يكون أول الفاعلين له، وإذا نهاهم عن شيء كان أول التاركين لقول شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨].

وفي ذلك يقول العلامة الشنقيطي - رحمه الله تعالى -:

«إعلم أن كلا من الأمر والمأمور يجب عليه اتباع الحق المأمور به وقد دلت السنة الصحيحة على أن من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله أنه حمار من حمار جهنم يجر أمتعاه فيها وقد دل القرآن العظيم على أن المأمور المعرض عن التذكرة حمار أيضاً أما السنة المذكورة فقوله ﷺ: يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف

ولا آتية وأنهاكم عن المنكر وآتية»^(١). ومعنى تندلق أفتابه: تتدلى أمتعاه أعادنا الله والمسلمين من كل سوء. وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ليلة أسري بي رجلاً تقرض شفاههم بمقارض من نار كلما قرضت رجعت فقلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال هؤلاء خطباء من أمتك كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون»^(٢).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما -: «أنه جاءه رجل فقال له يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف ونهي عن المنكر فقال ابن عباس: أو بلغت ذلك؟ فقال أرجو. قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل، وقال: ما هي؟ قال قوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤] وقوله تعالى: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣]. وقوله تعالى: عن العبد الصالح شعيب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨]^(٣).

واعلم أن التحقيق أن هذا الوعد الشديد الذي ذكرنا من اندلاق الأمتع في النار وقرض الشفاعة بمقاريض النار ليس على الأمر بالمعروف وإنما هو على ارتكابه المنكر علماً بذلك، ولقد أجاد من قال:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وأما الآية الدالة على أن المعرض عن التذكير كالخمار أيضاً هي قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ * كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١]. والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. انتهى باختصار.

● ومنها: أن الأنبياء جميعهم بعثوا بالإصلاح والصلاح، ونهوا عن الشرور والفساد، فكل صلاح وإصلاح ديني ودنيوي فهو من دين الأنبياء، وخصوصاً إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ. وأنه كما أن على العبد السعي والاجتهاد في فعل الصلاح والإصلاح، فعليه أن يستمد العون من ربه على ذلك، وأن يعلم أنه لا يقدر على ذلك ولا على تكميله إلا بالله لقول شعيب عليه السلام: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

(١) رواه البخاري (٣٢٦٧) ومسلم (٧٣٣٩) نووي. قلعي.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٢٠/٣-١٨٠-٢٣١-٢٣٩) وغيره.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٧٥٦٩) وغيره.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [هود: ٨٨].

• ومنها: أن الداعي إلى الله يحتاج إلى الحلم وحسن الخلق ومقابلة المسيئين بأقوالهم وأفعالهم بضد ذلك، وأن لا يمنعه أذى الخلق ولا يصدّه عن شيء من دعوته.

• ومنها: أن العبد، ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيّناً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه إلى الله، ولا يعجب بنفسه.

لقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

• ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه، فإن الله تعالى يحبه ويوده، قال تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

• ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها، وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، وأهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه له بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب، على حسب القدرة والإمكان.

• ومنها: أن قصص الأنبياء التي ساقها القرآن هي إكرام لأمة محمد ﷺ، لأنها تكشف لهم مصائر الكفار ومصارعهم، لكي يلجئوا إلى رحاب الإيمان ويتعدوا عن مسأخط الله التي أوردت من قبلهم موارد الهلاك والخسران، ومن فضل الله على أمة محمد ﷺ أن أطلعها على جرائم الأمم من قبلها كالشرك، والفواحش والتطفيف، لكي يتجنبوا كل تلك الجرائم الموبقة، وليظنوا - كما شاء الله لهم - خير أمة أخرجت للناس، أمة المعروف ناهية عن المنكر عظيمة الإيمان برها.

• ومنها: أن محمد ﷺ قد لقي من قومه أكثر مما لقيه أي نبي قبله ولكنه ﷺ لم يدع عليهم، وصابر يدعو الله لهم بالهداية، ونجت أمته من مصارع الأمم التي سبقتها، اللهم أتمم علينا نعمة الإيمان، واصرف عنا وعن إخواننا همزات الشياطين، واختم لنا بالسعادة والإحسان.



البحث السادس: وفاته ﷺ

• ذكر ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس: أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام. وعن وهب بن منبه: أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومن معه من المؤمنين، وقبورهم غربي الكعبة بين دار الندوة ودار بني سهم. والعلم عند الله تعالى.



الفصل الثالث عشر: قصة موسى عليه السلام

المبحث الأول: نسبه وذكره في القرآن:

● وهو: موسى بن عمران بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام.

● وذكر اسم موسى عليه السلام في القرآن الكريم (١٣٦) مرة في (٣٤) سورة.

● وذكر الله قصته في مواضع متعددة مبسطة وغير مطولة، وأكثرها في سورة البقرة، المائدة، الأعراف، طه، القصص.

المبحث الثاني: الفترة ما بين يوسف وموسى عليهما السلام:

● قال أهل التاريخ: استقر بنو إسرائيل في أرض مصر بعد وفاة يوسف عليه السلام، وأخذوا في الرعي، وتربية الماشية، ومرت عليهم السنوات الكثيرة، فزاد عددهم واتسعت دائرتهم وقويت شوكتهم، وكانوا في ذلك الحين على صلة وثيقة بالحكام الهكسوس، الذين حكموا مصر في تلك الفترة، وكان الهكسوس غرباء عن مصر، وظل بنو إسرائيل تحت حكمهم في نعيم وارف.

● ودار الزمان دورته وثار الشعب ثورته على الهكسوس، الذين كانوا غرباء عن مصر- وتولى الحكم في مصر «أحمس الأول» مؤسس الإمبراطورية المصرية في حينه، وقد شن الحرب على كل رجالات الحكومة السابقة، ومن بينهم الشعب اليهودي، فأذاقهم ألوان الذل والمهانة والتسخير، وقد بلغ ذروته في عهد «رمسيس الثاني» وفي عهد «منفتاح الثاني» أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة.

● ابتداء التنكيل ببني إسرائيل يأخذ مجرى أشد عنفاً وضراوة، بسبب ما كان يتناقله بنو إسرائيل ويتدارسونهم بينهم عن خروج غلام منهم يكون هلاك ملك مصر على يديه. وقيل: إن الفرعون رأى في ذلك رؤيا، وأيما كان السبب، فإن الفرعون أصدر أوامره إلى أعوانه بقتل كل مولود ذكر في بني إسرائيل وأبقى على النساء لا يذبح البنات لأنه لا يخاف منهن.

● وأمره بقتل الذكور من بني إسرائيل، حذرا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر.

وهذا ما قصه الله علينا في صدر سورة القصص فقال سبحانه: ﴿طسم. تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. وتريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ [القصص: ١-٦].



البحث الثالث: تكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن

• ما من نبي تكرر اسمه في القرآن وذكرت قصته في عشرات السور مثل ما تكرر اسم موسى وقصته —عليه السلام— فلقد ذكر اسم موسى في كتاب الله كما سبق (١٣٦ مرة) في (٣٤) سورة.

• التكرار هو إعادة اللفظ نفسه في سياق واحد، فإذا لم يتوفر هذان الشرطان، أي إذا لم يكن المعاد اللفظ نفسه، أو إذا ذكر اللفظ أكثر من مرة، ولكن لكل موضع سياقه الخاص، ومعناه الخاص، فإن ذلك لا نسميه تكراراً أبداً.

• اختلفت المذاهب حول التكرار، فالكثرة الكثيرة من هؤلاء مسلمين كانوا أم غير مسلمين، رأوا أن في هذا التكرار سحر بيان، وتثبيت ببيان، فعدوه بلاغة وإعجازاً، ووجدوا فيه منهجاً قوياً، وهدفاً عظيماً من مناهج التربية وأهدافها، وفئة قليلة عميت أو تعامت، هيمن عليها الحقد، فعدت هذا مثلية ومطعنا في كتاب الله، وهؤلاء لم يظهروا إلا بعد أن فسد الذوق البياني، وضعفت السليقة العربية، واجتمع الطاعنون على دين الله من كل صوب، وتآلبوا حسداً عليه، فبدأ الحديث عن شبهة التكرار. فشمّر العلماء للرد على هؤلاء المبطلين.

• قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعي^(١) —رحمه الله تعالى—:

«وهاهنا معنى دقيق في التحدي، ما نظن العرب إلا وقد بلغوا منه عجباً: وهو التكرار الذي يجيء في بعض آيات القرآن، فتختلف في طرق الأداء، وأصل المعنى واحد في العبارات المختلفة، كالذي يكون في بعض قصصه لتوكيد الزجر، والوعيد وبسط الموعظة وتثبيت الحجة ونحوها، أو في بعض عباراته لتحقيق النعمة وترديد المنّة، والتذكير بالنعمة واقتضاء شكره، إلى ما يكون هذا الباب، وهو مذهب للعرب معروف، ولكنهم لا يذهبون إليه إلا في ضروب من خطابهم: للتهويل، والتوكيد والتخويف والتفجع وما يجرى مجراها من الأمور العظيمة، وقد خفي هذا المعنى «التكرار» على بعض الملحدة وأشباههم ومن لا نفاذ لهم في أسرار العربية ومقاصد الخطاب والتأني بالسياسة البيانية إلى هذه المقاصد، فزعموا به المزاعم السخيفة وأحالوه إلى النقص والوهن، وقالوا إن هذا التكرار

(١) مجلة الشريعة الكويتية العدد السابع ص: ١٩.

ضعف وضيق من قوة وسعة، وهو —أخزاهم الله— كان أروع وأبلغ وأسرى عن الفصحاء، من أهل اللغة والمتصرفين فيها. انتهى باختصار.

• وفي تكرار اسم موسى عليه السلام وسيرته في القرآن الكريم أن حياة موسى عليه السلام ارتبطت بقومه بني إسرائيل، وبني إسرائيل كانوا وما زالوا سوساً ينخر شجرة الحياة، وداء عضالا في جسم الإنسانية، يكدر صفوها، وينغص حياتها، وقد لقي موسى عليه السلام من كفرهم وجدهم وعنادهم ومطالبهم ما لا يصبر عليه إلا عظماء النفوس، فأصبح عليه السلام من أولى العزم، لأن بني إسرائيل ما أراحوه ساعة واحدة.

• ومع أن سيرة موسى تتكرر في القرآن، فإن كل موضع من مواضع تلك السيرة يلقي ضوءاً على موضوع محدد منها.

• وما على القارئ إلا أن يفتح كتاب الله، سائلاً الله أن يفتح له في فهمه، فيتدبر ما فيه، وسيجد أن كل قصة جاءت تناسب وتتسق مع موضوع السورة في شخصيتها.

• فالصفحات الواردة من قصة موسى في سورة البقرة، تلقي ضوءاً على كنود بني إسرائيل وجحودهم لفضل الله وكثرة أسئلتهم على نبيهم وتبديلهم نعمة الله كفراً.

• وفي سورة المائدة تلقي ضوءاً على شدة عذابهم للمؤمنين وعلى تقاعسهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى جنبهم عن التضحيات أو تخاذلهم عن الجهاد وتخليهم عن دروب الكرامة حين يرون شيخ الموت ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

• وفي سورة الأعراف تلقي ضوءاً على كتمان بني إسرائيل للحقائق وتبديلهم للوحي وتحريفهم لكلام الله مما جعلهم ينكرون نبوة محمد ﷺ، ويكتمون ما أوتوا من علمها وبشائرها، فموسى عليه السلام قد بشر بمحمد ﷺ، ومحمد النبي الأمي ﷺ مكتوب عند اليهود في التوراة، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لكنهم —لعنهم الله— يكتمون الحق وهم يعلمون.

• وفي سورة طه، فقد احتلت قصة موسى عليه السلام ثلاثة أرباعها، وقد ابتدأت بنبوة موسى في الواد المقدس طوى، وانتهت بكفر بني إسرائيل واتخاذهم العجل بعد أن أضلهم السامري.

• وفي سورة القصص، ذكرت سيرة موسى عليه السلام ممتعة بالشذا العطر المتدفق من مواقف الأسوة فيها من لدن مولده وإلقائه في اليم إلى أن نصره الله على طاغية عصره.

● وفي سورة الزخرف، ذكر فيها ما يتناسب مع اسم السورة الكريمة، وما بنيت عليه، وما ذكر فيها من إسراف المعرضين، ومن رفع بعض الناس فوق بعض درجات، ليتخذ بعضهم بعضا سخريا، وهى التي ذكر فيها قول فرعون حينما نادى في قومه متباهياً ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

● ويطول بنا الأمر إذا أردنا أن نتتبع قصة موسى عليه السلام في القرآن خلال هذا المبحث، ونختتم ذلك بقول الأستاذ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر السابق - رحمه الله -: «إنه لا تكرار في القصص القرآني وإنما كل قصة في سورة، فيها من المعاني والحكم ما لا يوجد في سورة أخرى، وسياق السورة وظرفها يحددان موضع العبرة من القصة، فليس من السهل أن يقال: في كل سورة جاءت فيها قصة موسى عليه السلام مع فرعون أنها قصة واحدة، بل الواجب أن ندرس القصة في كل سورة، ليتبين السياق الذي جاءت من أجله، والعبرة التي هدفت لها، والحكمة التي قصدت منها».



المبحث الرابع: سيرة موسى عليه السلام قبل الرسالة

المطلب الأول: ولادة موسى وإرضاعه:

● قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

● هذه أم موسى تضع مولودها في خوف وترقب، حيث بث فرعون عيونه ترقب أرجاء البلاد، باحثة عن ذلك الطفل الذي يخشى الفرعون ميلاده.

● في هذه الأجواء التي تحيط بأُم موسى حين وضعت وليدها موسى، تولد عند أم موسى حالة من الخوف الفطري الذي لا تلام عليه، لكن هل تركتها عناية الله ورعايته؟

بل هى معها موجه ومرشدة ومدبرة وقائدة، أوحى الله إليها عن طريق الإلهام بإرضاعه، لأن الله أراد له الحياة، وعسى أن تذهب الرضاعة شيئاً من الخوف الذي يعتريها، فإذا استمر الخوف عليه فألقيه في اليم ((النهر))

● يا سبحان الله!! هذه أم موسى تخاف على وليدها موسى وهو في أحضانها، فيأتيها الأمر بإلقائه في نهر النيل، فكيف يستقيم أمرها وحالها؟

● إذا كنت تعجب من هذا فأليك ما هو أعجب:

﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾. بل إليك الأشد عجباً: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾. هاتين البشارتين أراد الله أن يدفع عن أم موسى ما أصابها من خوف بإزاء الأمرين: «(أرضعيه)» و «(ألقيه)» وقد نفاها سبحانه في ثنايا الآية الكريمة عن الخوف والحزن، فيألها من بلاغة معجزة، وقدرة مقتدرة، فقد اجتمع في الآية الكريمة على وجازتها ستة أساليب بلاغية: أمران، ونهيان، وبشارتان، وأشارت الآية إلى قدرة الله البالغة التي تحيل الضعف قوة، والخوف أمناً، والخطر برداً وسلاماً، واليأس فرحاً ورجاءً، وذلك لأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

● إن عناية الله تعالى ورعايته تحوط بأنبيائه ورسله، وهم في المهد، فتكون لهم إرهاباً بنبوتهم، ودليلاً على أنهم ليسوا بشراً عاديين.

المطلب الثاني: موسى الرضيع في طريقه إلى قصر فرعون مصر:

● قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ * أَنْ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ

فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٣٨-٣٩﴾

• وقال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ * وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩-٨﴾ [القصص: ٩-٨].

• بعد أن ولدت أم موسى - يوكابد، وقيل اسمها غير ذلك وهذا لا يعنينا في شيء - ابنها خافت عليه خوفاً شديداً من فرعون فألمها الله أن تضعه في تابوت أي صندوقاً وإذا خافت أحداً ألقته في اليم وهو نهر النيل.

• فلما ألقته، ذهب الماء بالتابوت الذي في وسطه موسى.

• ومن قدر الله أن وقع في يد آل فرعون.

• ها هو الوليد الذي قتل فرعون من أجل ما قتل حذرا من وجوده يقتحم على فرعون قصره المشيد.

• وجيء به إلى آسية امرأة فرعون، التي جاء مدحها والثناء عليها في الكتاب والسنة، فلما رآته أحبته حباً شديداً، وكان الله قد ألقى عليه المحبة في القلوب.

• وشاع الخبر، ووصل إلى فرعون فطلبه ليقتله، فقالت امرأته لا تقتلوه، قرّة عين لي ولك عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً.

• فاستجاب فرعون لنصيحة زوجته ولرجائها في إبقاء المولود يترى بينهم، وكما ألقى الله محبته لآسية ألقى محبته في قلب فرعون مصر زوجها، فنجا بهذا السبب من قتلهم.

• وكان هذا الأثر الطيب والمقدمة الصالحة من السعي المشكور عند الله، فكان هذا من أسباب هدايتها وإيمانها بموسى بعد ذلك.

• ولم يدر فرعون وأمثاله أن وراء الأسباب الظاهرة قدرة الله القادرة.

• وأختم هذا المطلب بقول ابن كثير^(١) - رحمه الله تعالى -:

﴿والصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً، حذرا من وجود موسى. هذا، والقدر يقول: يأيها الملك الجبار، المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد

حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره، إن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفاده، ولا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأحراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين وتكذيبك ما أوحى إليه، لتعلم أنت وسائر الخلق، أن رب السموات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة، والمشيئة التي لا مرد لها. انتهى»

المطلب الثالث: أمر موسى في حزن شديد على فراق ابنها فردّه الله إليها:

• قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ. فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠-١٣﴾ [القصص: ١٠-١٣].

• وقال تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠].

• حين وصل الخبر لأم موسى بوقوع ولدها في يد فرعون طار صواها، وفرغ قلبها من الصبر، وانتابها الهواجس والظنون واعتراها ما يعترى البشر من الهلع والجزع عند فقد الحبيب، إنها أوشكت أن تخبر أن الذي وجدتموه هو ابني، من شدة وجدها عليه، كادت تفعل ذلك لولا أن ربط الله على قلبها وألمها الصبر، كما يربط على الشيء ليسكن ويستقر لأمر الله، ولتكون من المؤمنين حقاً بقضاء الله وقدره، المصدقين بوعدده، وتزداد إيماناً بوعد الله وثقة في عنايته، فتحولت أم موسى من اليأس والجزع إلى الرجاء والأمل.

• وكان من أمرها أنها أمرت أختها أن تقتفي أثره، وتقف على خبره، فأبصرته من مكان بعيد، وهو في بيت فرعون، تعرض عليه المراضعات فيأبى أن يرضع من إحداهن لأن الله حرم عليه المراضع.

• فحانت من أختها نظرة إليه وبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بشأنها فلما أقبلت عليه وفهمت منهم أنهم يطلبون له مرضعاً، فقالت لهم: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم، ويقومون بخدمته وإرضاعه والعناية به ونظافته؟

• انظر إلى تدبير الله - جل وعلا- الرحمن الرحيم بخلقه وخاصة أوليائه وأحبابه، حيث أعاد لأم موسى ابنها ترضعه وتربيته، وتتقاضى على ذلك كله أجرًا، وهي آمنة من كيد الكائدين، وسعى الساعين.

• والله الذي أخرج اللبن من بين الفرث والدم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، أخرج موسى من بين فرعون وهامان وجنودهما، ولا حرج على فضل الله.

• إذا أراد الله تعالى أمرًا هبًا له أسبابه، وهنا جعل الله موسى عليه السلام يمتنع عن كل مرضعة حتى يكون ذلك سببًا في عودته لأمه.

• ورد الله موسى إلى أمه كي تفر عينها، وتسكن نفسها، ولا تحزن عليه، ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

• وتحقق وعد الله تعالى لأم موسى، فعاد إليها ولدها مع كفالة أجراها فرعون عليها، لأنها المرضعة التي حظيت برضا الوليد الذي يرجو فرعون بقاءه؛ ولو علم لذبحه من فوره، ولكن الله غالب على أمره، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

المطلب الرابع: سبب خروج موسى من مصر بعد أن بلغ أشده.

• قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ * فَلَمَّا أَنِ ارَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتُ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ. فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ١٦-٢١].

• لقد بدأت التربية البدنية لموسى منذ دخوله إلى بيت فرعون تحت عين الله ومراقبته، وتزامنت معها التربية العقلية منذ ألهم الله موسى الامتناع عن الرضاع من أي ثدى غير

ثدي أمه.

• وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ﴾ أي بلوغ موسى مرحلة القوة والفتوة البدنية، وفي قوله تعالى ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ إلى تكامل عقله وحزمه، وقد آتاه الله معرفة بدين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ودين الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعًا، وتلك هي مقدمات النبوة.

• وبهذه الإشارة القرآنية البليغة طوى القرآن الكريم أحداثًا كثيرة من القصة، ونقلنا نقلة كاملة من مرحلة الرضاعة والرعاية إلى مرحلة الكمال البدني والعقلي، ونحن نسكت عما سكنت عنه القرآن، ويسعنا ما وسع القرآن، ولا داعي لتلمس ذلك في أخبار بني إسرائيل، فلو فيه خير لأرشدنا القرآن إليه.

• نشأ موسى في بيت فرعون وتربى فيه. ولكنه إسرائيلي أي من نسل إسرائيل (يعقوب) عليه السلام يجمعه معهم صلة القربى واللغة والعادة والدين، وكان الإسرائيليون مضطهدين من فرعون وآله يسومونهم سوء العذاب لهذا وذاك كان موسى ساخطا على معاملة القبط لبني جنسه وكان يدافع عنهم بشدة حتى عرف عنه ذلك، وأصبحوا يتشيعون له.

• وفي ذات يوم غادر موسى قصر فرعون ودخل المدينة التي يسكنها فرعون وهي عاصمة مصر في ذلك الوقت، على حين غفلة من أهلها لأنهم كانوا في القيلولة، بينما خلعت الشوارع من الناس إلا قليلاً، فوجد رجلاً مصرياً يأخذ بتلابيب رجل إسرائيلي، يقال لهما: هذا من شيعته، وهذا من عدوه، فاستغاث الإسرائيلي بموسى ليخلصه من ظلم المصري فجاءه موسى، وهو مغضب، ووكز القبطي وكزة كانت القاضية، وما كان موسى يريد قتل القبطي، وإنما كان يريد فقط دفع ظلمه عن الإسرائيلي.

• لقد ندم موسى عليه السلام على فعلته، لأن الله قد آتاه الحكم والعلم فعلم أن الذي وقع منه من عمل الشيطان واعترف بخطئه، واستغفر ربه مما بدر منه وإن كان لم يقصده، وتضرع إليه أن يتوب عليه، وألا يجعله مساعداً للمجرمين فغفر له وتاب عليه.

• فلما كان اليوم الثاني خرج موسى إلى المدينة وهو يخاف افتضاح أمره، فوجد ذلك الإسرائيلي الذي نصره بالأمس يقاتل فرعونياً آخر، فاستغاثه ذلك الإسرائيلي على الفرعوني وطلب نصرته، فغضب موسى من مشاكسته وميله للخصام وأنبه على ذلك، ثم تدخل بينهما لفض النزاع فخاف الإسرائيلي وظن أن موسى يقصد قتله فخاطبه قائلاً

«أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسك بالأمس» فلم يكذب الفرعوني يسمع هذا الإقرار الصريح وقد كان قومه في حيرة من أمر قاتل الأمس لا يعرفون قاتله حتى وافاهم وأخبرهم بخبر موسى، فتألب عندئذ القوم وراحوا يبحثون عن موسى للفتك به امتثالاً لأوامر فرعون.

• سمع بالأمر رجل مخلص لموسى فجاه من أقصى المدينة مسرعاً وأعلمه بما يدبر له القوم، ونصحه بأن ينحو بنفسه ويخرج من مصر حتى لا تمتد إليه أيديهم بسوء، فقبل منه موسى نصيحته، وفر هارباً متوجساً خيفة داعياً ربه أن ينجيه من القوم الظالمين ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠].

المطلب الخامس: خروج موسى من مصر متجهاً إلى مدين:

• قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٢-٢٥].

• خرج موسى عليه السلام من مصر في حالة من الخوف والترقب لا يدري أين يتوجه، ولكنه توجه إلى الله قائلاً: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]. أي من فرعون وقومه وقد وقعوا في الظلم بأنواعه، ومن أشد أنواع ظلمهم شركهم بالله رب العالمين، استجاب الله دعاء موسى عليه السلام وهذه منة من الله امتن بها على موسى فقال سبحانه: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٠].

• وقد ألهم الله سبحانه موسى أن يتوجه لتقاء مدين، ومدين هي بلاد واقعة حول خليج العقبة من عند نهايته الشمالية، وشمال الحجاز وجنوب فلسطين تنسب إلى مدين.

• وقد شبه بعض أهل العلم توجه موسى لتقاء مدين بهجرة إبراهيم عليه السلام من قبل.

• ولما وصل أرض مدين، رأى جماعات كثيرة من الناس على الماء يسقون ماشيتهم،

ووجد دوهم امرأتين تمنعان وتطردان غنمهما عن ورود الماء انتظاراً حتى يسقى أولو القوة من الرعاة ويصدرون ماشيتهم فإذا فرغوا من سقيهم جاءتوا واستقتا لغنمهما وماشيتهما، وهذا شأن الضعيف مع القوى، يشرب القوى أولاً من الماء الصافي ويشرب الضعيف البقية الباقية من الماء الكدر.

ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدراً وطيناً.

• موسى رجل جد وعمل، وإباء وبطولة، لم يعجبه أن يتعد النسوة عن الماء لضعفهن، ويتقدم للورود الرجال لقوتهم، وكيف يقبل هذا؟ وهو رجل ثار على الظلم ولم يعجبه جبروت فرعون وطغيانه.

• فسأل المرأتين عن شأنهما، ولماذا يحبسان ماشيتهما عن الورود، فقالتا لا نسقى حتى يسقى هؤلاء الرعاة ماشيتهم، فهم أولو قوة ونحن ضعيفات كما ترى، وأبونا شيخ كبير مسن، لا يقدر على مزاولة أمر الرعي والسقى.

• فعلم موسى من الإجابة أنهما من بيت فضل وأدب، وأنهما لم يخرجوا إلا لضرورة والتمس موسى أيضاً أنهما في حاجة إلى مساعدة، حيث يمنعهما الحياء من مزاحمة الرعاة.

• «فسقى لهما» أي رأفة بهما وغوثاً لهما، وذلك من قوته ومروءته، قام موسى واقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من التعب والإعياء عند الوصول.

• فلما سقى لهما وكان ذلك وقت شدة حر، وسط النهار، بدليل قوله (ثم تولى إلى الظل) مستريحاً لتلك الظلال بعد تعب.

• وجد موسى برد الظل فتذكر بهذه النعمة نعماً كثيرة أسداها الله إليه، منها نجاته من القتل، وتربيته على عين الله، وإتيانه الحكمة والعلم، وتخليصه من تبعة قتل القبطي، وإيصاله إلى أرض معمورة بعد أن قطع فيافي ومفازات، وناهيك عما في ذلك من مخاطر، تذكر ذلك كله، فنهتف من أعماقه: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص-٢٤]. فجاء بهذه الجملة الجامعة للشكر والثناء والدعاء، واعترف لربه بالفضل ولنفسه بالحاجة إلى فضل الله والفقر إليه.

• بعد هذا اللجوء الصادق وإظهار الفقر الذاتي جاءت الإجابة سريعة من الغني الحميد المثقلة في قوله تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

• وعقب انتهاء دعاء موسى مباشرة: جاءت إحدى البنتين قد أرسلها أبوها في طلب

موسى بعد علمه بما حدث ليجازى موسى بما فعل من خير، فقالت له في حياء إن أبي يدعوك ليعطيك أجر ما سقيت لنا.

● رأى موسى الفرج في ذلك، وأن الله قد استجاب دعاءه بسرعة، وهل ينساه ربه! كلا، فإن ذلك لا يكون، وماذا يريد الغريب في مثل هذه الحالة غير مكان يأوى إليه، وطعام يرد جوعته. وهكذا ساق الله لموسى ما يريد، وفوق ما يريد، فسبحان الفعال لما يريد.

● وهل يُنتظر من موسى إلا أن يجيب على هذه الدعوة بلهفة؟ فهو الغريب الفقير، إذا فليطو معها الطريق وليلق الشيخ، وهكذا فعل، واجتمع به وأفضى إليه بمكنون سره، فوقف منه الشيخ موقف الشهم الكريم وطمأنه على نجاته من القوم الظالمين الطغاة المتجبرين فرعون وقومه.

● اختلف في هذا الشيخ فقيل هو شعيب نبي الله، وقيل هو ابن أخيه، وقيل غير ذلك، وفي ذلك يقول العلامة السعدي -رحمه الله- «وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل».

وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام قد كانت بلده مدين، وهذه القضية، جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟ وأيضاً، فإنه غير معلوم، أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، أيضاً فإن شعيباً، عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه. ولم يبق إلا من آمن به. وقد أعاد الله المؤمنين به، أن يرضوا لبنتي نبيهم، ومنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقى ماشيتهما. وما كان شعيب، ليرضى أن يرعى موسى عنده، ويكون خادماً له، وهو أفضل منه، وأعلى درجة، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى، فلا منافاة. وعلى كل حال، لا يعتمد على أنه شعيب النبي، بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ. والله أعلم. انتهى.

المطلب السادس: زواج موسى ورعيه للغنم:

● قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبْتَ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَّاجٍ فَإِنْ أَثْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ

اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٥-٢٨].

● لما جاء موسى إلى العبد الصالح وكلمه، فطمأنه وأزال عنه الخوف بقوله: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

والمقصود بالقوم الظالمين فرعون وقومه، وقد نجا موسى منهم بخروجه من سلطاتهم، حيث وصل إلى مدين، وهي بعيدة مكاناً عن مصر من جهة، ومن جهة أخرى فهي لا تخضع لسلطان فرعون وقومه، ومن جهة ثالثة فإن موسى وجد في مدين من يلتقون معه في النسب لأبيه إبراهيم عليه السلام، ومن يلتقون معه في الصلة الإيمانية من صالحى مدين رجالاً ونساءً.

● وقد هبأ الله سبحانه وتعالى لعبده ومصطفاه موسى إقامة آمنة في مدين، رزق فيها الزوجة الصالحة والصحبة الطيبة والعيش الرغيد.

● وتبدأ قصة زواجه كما في الآيات السابقة بأن قالت إحدى بنات العبد الصالح: ياأبت استأجره يرعى غنمنا فهو الرجل القوي الأمين: وهما الصفتان الممدوحتان في العامل، ولقد رأت قوته في سقيه لهما، وأمانته في طلبه لها أن تسير خلفه، وتنعت له الطريق، فقبل العبد الصالح رأى ابنته، واقتنع بأن موسى نعم الرجل القوي الأمين، وطلب من موسى أن يخدمه برعى غنمه ثماني سنين فإن أتمها عشراً فمن عنده ولا حرج عليه، وهذا في نظير أن يزوجه إحدى بناته، فقبل موسى طلب الشيخ الصالح، على أنه بالخيار في أي الأجلين يخدم، وتم الاتفاق بينهما على ذلك، وكفى بالله وكيلاً على هذا الاتفاق.



المبحث الخامس: سيرة موسى عليه السلام بعد الرسالة

المطلب الأول: بدء رسالة موسى عليه السلام:

• قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى. إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى. فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طَوًى. وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ٩-١٦].

• وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٧-١٠].

• وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

• لما قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما وأكملهما وهو العشر سنين، سار بأهله أي زوجته، ((وقيل كان معه ولدان من زوجته، وغنم قد استفادها من مدة إقامته))

• المهم أنه خرج مع زوجته من مدين متجهًا إلى مصر، واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف.

• فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تتأجج في جانب الطور، وهو الجبل الغربي منه عن يمينه، فحينئذ ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠].

قال ابن كثير^(١) - رحمه الله -:

وكأنه - والله أعلم - رآها دونهم لأن هذه النار هي نور في الحقيقة، ولا يصلح رؤيتها

(١) قصص الأنبياء: ص: ٣٥٤.

لكل أحد: ﴿لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]. أي لعلّي أستعلم من عندها عن الطريق وفي سورة النمل ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧].

وذلك هو المراد بالجذوة في قوله تعالى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]. وقوله: ﴿أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]. أي من يهديني إلى الطريق ويدليني، لأنهم كانوا ضلوا الطريق، والزمن زمن برد، وكان من عادات أهل البادية إشعال النار فوق الجبال لكي يراها من ضل طريقه فيتجه إليها فيجد عندها من يدلوه على الطريق الصحيح.

• واتجه موسى نحو هذه النار التي رآها من بعيد لعله يأتي يقبس يستضيئ به هو وأهله، أو جذوة أي جرة ملتهبة ليستدفئوا بها، أو يسأل من عندهم النار عن الطريق فيهدوه إليه.

• فلما وصل موسى إلى هذه النار كانت المفاجأة، يا لها من لحظات يعجز عن وصفها القلم مهما أوتى من بلاغة، بل أقلام الأرض جميعًا.

• أراد موسى الدفء المادي والهداية المادية في متاهة الصحراء، فجاءه من الله النداء الذي يبعث الدفء في الروح والبدن، وجاءته هداية الدنيا والآخرة.

• نودى: يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس الذي اسمه طوى، ثم استمع إلى هذا النداء الذي هو سر السعادة الأبدية:

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣].

هذه لحظة الاختيار والاصطفاء والاجتباء التي صار بها موسى نبيا ورسولا.

• قال ابن كثير^(١) - رحمه الله -:

أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء، لا إله غيره، ولا رب سواه، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه. انتهى.

• قال تعالى: ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وقال تعالى لموسى في سورة طه ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١٢]. أي الذي يخاطبك ربك.

(١) تفسير ابن كثير (٦/٢٤٤).

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [طه: ١٣].

كقوله تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]. أي: على جميع الناس من الموجودين في زمانه.

● وقبل أن يوحى الله لموسى ما أراد أن يوحىه طلب منه التهيؤ لذلك بأمرين:

الأول: خلع نعليه، احتراماً وتقديساً، وإجلالاً، وتعظيماً.

والثاني: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣].

● قال القرطبي^(١) - رحمه الله تعالى -:

في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾. لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

رؤى عن وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح وغيض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يجب الله تعالى، وهو أن يكف العبد جوارحه، ولا يشغلها. فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم. وقال سفيان بن عيينة: أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل ثم النشر، فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يجب الله أفهمه كما يجب، وجعل له في قلبه نوراً.

● بهذا التمهيد هياً الله موسى ظاهراً وباطناً لتلقى ما يوحى إليه.

● قال صاحب الظلال^(٢) - رحمه الله تعالى -:

(ويلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة: الاعتقاد بالوحدانية، والتوجه بالعبادة، والإيمان بالساعة، وهى أسس رسالة الله الواحدة)

● قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي. إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ. فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٤-١٦].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١١/١٧٦).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٣٣١).

● قال ابن كثير^(١) - رحمه الله تعالى -:

في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾. هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. وقوله: «(فاعبدني)» أي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك. انتهى.

● أوحى الله لموسى عليه السلام بأول واجب على المكلفين وهو العلم بكلمة التوحيد «(لا إله إلا الله)»، ثم في المرتبة الثانية توحيد العمل، وهو قوله تعالى «(فاعبدني)» فهو سبحانه رب العالمين الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له.

● قال ابن القيم^(٢) - رحمه الله تعالى -:

وجميع الرسل إنما دعوا إلى ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فأنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته، من أولهم إلى آخرهم، فقال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وكذلك قال هود وصالح، وشعيب وإبراهيم عليهم السلام، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

● ذكر العلماء أن دلالة الاستقراء للنصوص تفيد أن التوحيد ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية.

٢- توحيد الألوهية.

٣- توحيد الأسماء والصفات.

● ومن العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم من جعل التوحيد قسمين:

١- توحيد في المعرفة والإثبات: وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

٢- توحيد في الطلب والقصد: وهو توحيد الألوهية.

● والمقصود بتوحيد الربوبية: هو أفراد الله بالخلق، والملك، والتدبير، وهو أيضاً

(١) تفسير ابن كثير (٥/٢٧١).

(٢) مدارج السالكين (١/١١٤).

توحيد الله بأفعاله.

وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصوله الإسلام، بل لابد أن يأتي مع ذلك بلازمه من توحيد الألوهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد وحده.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فتبين أن الكفار يعرفون الله ويعرفون ربوبيته، وملكه، وقهره، ولم تدخلهم تلك المعرفة في الإسلام.

● وأما توحيد الألوهية: فهو إفراد الله بالعبادة ومبناه على إخلاص التآله لله تعالى في العبادات كلها ظاهرها وباطنها، لا يجعل فيها شيء لغيره، لا لملك مقرب، ولا لنبي مرسل، فضلاً عن غيرهما، وهذا التوحيد هو الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: هـ]. وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[هود: ١٢٣].

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى لا إله إلا الله ولأجل هذا التوحيد خلقت الخليقة وأرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار. ولا بد مع توحيد الألوهية من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

● وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله بما سمي به نفسه ووصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، وذلك بإثبات ما أثبتته من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكليف ولا تمثيل.

وهذا التوحيد لا يكفي في حصول الإسلام، بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه من توحيد الربوبية والألوهية.

● بعد توحيد الله تعالى خص الله الصلاة بالذكر من بين العبادات فقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]. وذلك لبيان أهمية الصلاة ومكانتها وعظم منزلتها، ولأنها أكمل صور العبادة، واجتمعت فيها جميع صور العبادات الأخرى.

● ثم أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَاعَةَ آتِيَةٍ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥].

ففي هذا اليوم يعود كل مخلوق إلى ربه فيحاسبه ويجازيه بما عمل، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن من ينكر الساعة وقيامها والبعث، وما فيه فقد عرض نفسه للهلاك والبوراء،

والخسران في الدنيا والآخرة.

● وبهذه الأسس خاطب الله موسى عليه السلام بالتوحيد العلمي والعملية وبالإيمان باليوم الآخر في أول لقاء لبيان أهمية هذه الأمور ومنزلتها من الدين، فهي أسس التوحيد والإيمان، كما قال الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ. فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفَرَ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَاكُمُ﴾ [محمد: ١٨-١٩].

المطلب الثاني: الله سبحانه وتعالى يمنح موسى عليه السلام المعجزات التي تؤيد رسالته

● بعد أن حدد الله سبحانه لرسوله قواعد التوحيد التي هي أصل الرسالة، توالى بعد ذلك التحليلات الإلهية والهبات الربانية بمنح موسى عليه السلام المعجزات التي تؤيد رسالته، ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١٧]. يسأل الله موسى وهو أعلم بما في يده.

● لكن هذا السؤال جاء بمثابة التمهيد لأمر عظيم لم يألّفه موسى من قبل، ولم يألّفه أحد من البشر على الحقيقة التي جاء عليها.

● ويحجب موسى قائلاً: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨].

● هذه حدود علم موسى بعصاه وعمله بها، وقد أسهب موسى عليه السلام في الإجابة إيناساً ورغبة وكان يكفي أن يقول: هي عصا.

● لكن بعد ذلك يأتي موسى الأمر من الله: ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى [طه: ١٩-٢٠].

● وهنا أدهشت المفاجأة موسى عليه السلام وأصابته بالخوف ولاذ بالفرار رغم جلال الموقف، وسكتت السورة هنا عما أظهرته سورة أخرى مثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢].

● اكتفت سورة «طه» بالإشارة إلى هذا الموقف في قوله تعالى: ﴿خَذُّهَا وَلَا تَخَفْ﴾

سَعِيدُهَا سِرَّتَهَا الْأُولَى» [طه: ٢١]. وقال سبحانه في سورة النمل: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠].

وقال الله في سورة القصص: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

● ففى الله تعالى موسى عليه السلام عن الخوف الذي أصابه بقوله تعالى: «(لا تخف)» لأن الله سبحانه سيعيد الحياة الضخمة إلى عصا مرة أخرى، وستكون العصا في يد موسى «عصا» فإذا أراد لها أن تتحول بقدرة الله إلى حية تحولت. وهكذا وهذه هى المعجزة الأولى.

● أما المعجزة الثانية: ففى قوله تعالى: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢].

● ووضع موسى يده تحت إبطه فخرجت بيضاء ناصعة البياض بغير مرض ولا آفة من برص أو خلافه.

● وكان الله تعالى يقول لموسى: هذا الذي رأيت يا موسى من تحول العصا حية ثم عودتها إلى عصا، ومن خروج يدك بيضاء من تحت إبطك ما هو إلا مثال لآياتنا الكبرى التي سترها.

المطلب الثالث: الأمر من الله إلى موسى بالذهاب إلى فرعون مصر لدعوته للإسلام، وما طلبه موسى من ربه:

● لم يكن يعلم موسى عليه السلام بالمهمة الكبرى المنتدب إليها، وبعد التمهيد السابق من المعجزات جاءه الأمر واضحاً ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤].

● هنا أدرك موسى عليه السلام عظم المهمة الملقاة على عاتقه وضخامة المسؤولية المنوط به حملها، إنه ليعرف من هو فرعون، فقد روى في قصره، وشهد طغيانه وجبروته، وشاهد ما يصبه على قومه من نكال وعذاب، ويعلم كيف أثر الحياة الدنيا ونسى الرب الأعلى، وقد فرّ موسى من قبل هارباً من بطش فرعون وظلمه، وبفطنة النبوة وذكاء الفطرة الذي تمتع به موسى عليه السلام أدرك صعوبة مهمته وثقلها، فلجأ إلى ربه متضرعاً خاشعاً أن يمدّه بما يعينه على هذا الأمر فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٥-٢٦]. فانشراح الصدر يحول مشقة التكليف إلى متعة، ويجعل عناء لذة، ويجعله دافعاً للحياة لا عبئاً يثقل خطاها.

● وتيسير الأمر من الله لعبده هو ضمان النجاح، وإلا فماذا يملك الإنسان بقواه المحدودة وعلمه القاصر، وهذا هو توكل الأنبياء الذين يعلمون أن مقاليد الأمور بيد الله سبحانه، وأن الأسباب مهما اجتمعت لا تعمل إلا بتيسيره عز وجل.

● وطلب موسى من ربه أيضاً أن يحلل عقدة لسانه فقال: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧-٢٨].

وهذا الطلب له علاقة بانسراح الصدر وتيسير الأمر، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العلاقة في موضع آخر، في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون. وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ﴾ [الشعراء: ١٢-١٣]. فالعلاقة واضحة بين ضيق الصدر وانطلاق اللسان، فإذا انشرح الصدر وتيسر الأمر انطلق اللسان وانحلت عقده، وإذا ضاق الصدر حبس اللسان عن الكلام.

● وقد كان في طبع موسى عليه السلام نوع من الحدة في الغضب عند انتهاك محارم الله لذا طلب من الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدره ويسر أمره ويحل عقدة من لسانه، وتلك من أفضل الوسائل المعينة على الدعوة إلى الله، ولم يقف موسى عند هذا الحد، بل طلب من الله أن يعينه بأخيه وزيراً معه وردءاً أي معيماً يصدقه، ويساعده بما يتمتع به من هدوء الطبع وفصاحة القول فقال: ﴿وَاجْعَلْ لِّي زَوْجاً مِّنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي. كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً. وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً. إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ [طه: ٢٩-٣٥].

وقال: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون﴾ [القصص: ٣٤].

● والتسبيح والذكر من أهم أسباب النصر والتأييد وهما زاد الداعية.

● وبعد أن انتهى موسى في هذا الموقف من بسط حاجته وإعلان فقره لربه، وإظهار كمال عبوديته لخالقه وولى نعمته، أجابه المولى الكريم لكل ما سأل فقال سبحانه: ﴿قَدْ أَوْثَقْتُكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦].

● وتأمل هذه العبارة القرآنية وهذا الخطاب الإلهي لعبده الفقير موسى، ففيها إجمال يغني عن التفصيل: أن الله قد أجاب كل ما سأل موسى، وقد تحقق ذلك فعلاً بلا تأجيل، وهذا حرف «قد» عند ما يدخل على الماضي يفيد التحقيق.

● وكيف لا والرب القادر هو الذي يتولى أمر موسى قبل أن يولد وبعد أن ولد، وقد

أعطاه الله وهو صغير قبل أن ينطق ويسأل، فهل يمنعه بعد أن سأل وتذلل وأظهر فقر العبودية.

المطلب الرابع: توجيهات ربانية إلى موسى وهارون عليهما السلام قبل توجيههما إلى فرعون:

• بعد أن تمياً موسى للأمر وأمدّه الله بالعون باطنا وظاهراً، حانت لحظة التوجه إلى فرعون، فجاء الأمر من الله تبارك وتعالى موجها ومرشداً موسى وأخاه في مهمتهما المقبلة فقال سبحانه: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي * اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ * قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٢-٤٦].

• الأمر الإلهي هنا لموسى وأخيه هارون بالتوجه إلى فرعون، وقد أمدّهما الله بالآيات الدالة على صدقهما في دعوتهما وفي إثبات وحدانية الله وكمال قدرته، وهذه الآيات تشمل الحجج والبراهين العقلية، وكذلك المعجزات المادية مثل: «العصا» و «اليد» وغيرها.

ومع هذه الآيات أوصاهما الله سبحانه وتعالى بمداومة ذكر الله سبحانه، فالذكر هو سلاحكما وسندكما والركن الشديد الذي تأويان إليه في مواجهة عدوكما، وذكر الله من أكبر عوامل النصر على الأعداء وخاصة إذا كانت المواجهة مع هذا الفرعون الذي تجاوز كل حد في طغيانه.

• وأوصاهما الله تعالى أيضاً باللين مع فرعون ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]. والحاصل أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رقيق ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجح.

• وإذا كان هذا مع فرعون فمع غيره أولى، ولا شك أن القول اللين لا يثير العزة بالإثم ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة والجبابرة.

• ومن شأن هذا الأسلوب في الدعوة أن يوقظ القلب فيتذكر أو يخشى الطغيان، ولذا قال الله تعالى معللاً ذلك الأمر: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

• وإن الله ليعلم ما يكون من فرعون، ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه.

• قال الله تعالى على لسان موسى وهارون ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ﴾ [طه: ٤٥].

والمعنى: أن موسى وهارون قالوا: يا ربنا، إننا نخاف أن يبادرنا فرعون بالعقوبة ويطنخي، والخوف من الظالم الجبار لا ينافي التوكل على الواحد القهار، والأخذ بالأسباب والمسالك، على أن الخوف من طبيعة البشر.

• فقال الله لهما ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. لا تخافا من شيء إنني معكما أسمع كل شيء أسمع، وأبصر كل شيء يبصر، وأرى كل شيء يرى، فهو سبحانه يسمع جميع الأصوات مع تعدد اللغات، ويرى جميع الأشياء مهما دق حجمها واختلف مكانها.

• في الآية الكريمة إثبات المعية الخاصة — معية النصر والتأييد والتي تكون لأنبيائه وأوليائه، هي التي كانت لموسى وهارون، وهي كذلك التي كانت لنوح وهود وصالح وإبراهيم عليهم السلام، وهي التي كانت من بعد ذلك لمحمد ﷺ وصاحبه إذ هما في الغار، وهي التي تكون لأوليائه المؤمنين المتقين الذين ينصرون دينه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

• وهذه غير المعية العامة التي لا يخفى فيها عن الله شيء من أمور جميع المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

• فمن اتقى الله في معيته العامة تحققت له معية الله الخاصة. أسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من المتقين الذين يتولاهم الله في الدنيا والآخرة.

المطلب الخامس: موسى وهارون عليهما السلام في مواجهة فرعون:

• لما أمر الله سبحانه موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون فخاف موسى من هذه المهمة الصعبة فطمأنه الله تعالى بقوله ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

• وذهب موسى وأخوه هارون إلى فرعون فقالا له ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧].

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا

أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٤-١٠٥﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥].

● لقد أمر الله موسى وهارون عليهما السلام أن يقولوا لفرعون: إننا رسولان من عند الله الذي أنت عبد من عبيده ولست أنت إلها كما تدعى، وما عليك إلا أن تسلم لرب العالمين وحده لا شريك له، والأمر الثاني أن يقولوا له: فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تحجزهم وخل عنهم، ولا تعذبهم.

● وقول موسى عليه السلام لفرعون: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ... الْآيَاتِ﴾ [طه: ١٠٤-١٠٥].

أي: إني رسول من مرسل عظيم وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية، التي من جملتها أنه لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعى أنه أرسله، ولم يرسله.

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته، فحقيق وجدير على أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز مقتدر، فهذا موجب لأن يتقادوا له ويتبعوه، خصوصا وقد جاءهم ببينة من الله سبحانه على صدق وصحة ما جاء به من الحق.

المطلب السادس: مناظرة ومحاورة بين فرعون وموسى عليه السلام:

● استغرب فرعون كلام موسى ربيبه السابق، وشرع بمن ويظهر فضله عليه وأنه تربي في بيته ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

● تربية فرعون لموسى هذه التي ذكرها له هي التي ذكر مبدؤها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الفصص: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلَتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

● فقال له موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَن عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

رد موسى عليه السلام على فرعون امتنانه عليه بالتربية بقوله: تعبيدك لقومي، وإهانتك لهم لا يعتبر معه إحسانك إلي لأنني رجل واحد منهم، وقد لاقى قومي منك الدل والهوان فإني أتألم لآلامهم، وأشفق لحالهم.

● ثم انتقل فرعون فذكر موسى بما اقترفه من قتل الرجل الفرعوني فقال: ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩].

وكان فرعون يقول له: أنعمنا عليك بتربيتنا إياك صغيراً، وإحساننا إليك تتقلب في نعمتنا فكفرت نعمتنا، وقابلت إحساننا بالإساءة لقتلك نفسك منا.

● فرد عليه موسى ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

أي قال موسى عليه السلام محبباً لفرعون: فعلتها إذا: أي إذ فعلتها وأنا في ذلك الحين من الضالين: أي قبل أن يوحى الله إلي، ويبعثني رسولا.

وقد خرجت من دياركم، وفرت منكم لما خفتكم، فوهب لي ربي من عنده حكماً وعلماً، وجعلني من الأنبياء والمرسلين ﴿فَفَرَرْتُ مِّنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١].

● ثم انتقل فرعون إلى سؤال آخر حول رب العالمين: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣].

ظاهر هذه الآية أن فرعون لا يعلم شيئاً عن رب العالمين، وكذلك قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩].

وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [الفصص: ٣٨].

وقوله: ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتُ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

ولكن الله -جل وعلا- بين أن سؤال فرعون في قوله: «وما رب العالمين» بقوله: «فمن ربكما يا موسى» تجاهل عارف أنه عبد مربوب لرب العالمين بقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقوله تعالى في فرعون وقومه ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

● ومع هذا أجابه موسى عليه السلام قائلاً: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنتُمْ مِّثْلَهُ مَثْبُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

يعني رب العالمين خالق هذه السموات والأرض المشاهدة، وما بينهما من المخلوقات المتعددة، من السحاب والرياح والمطر والنبات والحيوانات التي يعلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، ولا بد لها من موجد ومحدث وخالق، وهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين.

وقال موسى في موضع آخر: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

أي أنه لاشك أن الله أعطى الخلائق كل شيء يحتاجون إليه في الدنيا، ثم هداهم إلى طريق الانتفاع به. ولا شك أنه أعطى كل صنف شكله وصورته المناسبة له، وأعطى كل ذكر وأنثى الشكل المناسب له من جنسه في المناكحة والألفة والاجتماع، وأعطى كل عضو شكله الملائم للمنفعة المنوطة به، فسيحانه جل وعلا، ما أعظم شأنه وأكمل قدرته؟

● قام فرعون بعد أن سمع كلام موسى هذا ونادى في قومه متعجباً ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٥].

أي ألا تسمعون لهذا التخريف واستمر موسى في كلامه قائلاً ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

لفت نظرهم إلى شيء هام، وهو أن الرب الحقيقي الذي خلقكم وخلق آباءكم الأولين، فأنتم محدثون، كنتم بعد العدم، وآباؤكم ذهبوا وماتوا بعد أن كانوا موجودين، وفرعون أمره كذلك، كان بعد العدم، وسيبقى بعد الوجود، وأما الإله الحق فهو الباقي بعد فناء خلقه، فهو الأول الذي لا شيء قبله وهو الآخر الذي لا شيء بعده.

● فما كان من فرعون إلا أن قال لقومه: ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء: ٢٧].

حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السموات والأرض، ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم بأنفسهم، خلقوا من غير خالق، والعقل عنده، أن يعبد المخلوق الناقص، من جميع الوجوه، والجنون عنده، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، المنعم بالنعيم الظاهرة والباطنة ويدعى إلى عبادته. وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤].

● فقال موسى عليه السلام، محيياً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨].

فقد أدبت لكم من البيان والتبيين، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه دأؤكم فرميتم أركى الخلق عقلاً، وأكملهم علماً، والحال أنكم، أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم إلى إنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسموات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأى شيء تثبتون؟ إذا جهلتموه، فأى شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فأى شيء بعد الله وآياته تؤمنون؟

المبحث السادس: موسى عليه السلام بعد هلاك فرعون وجنوده

المطلب الأول: فضل الله على موسى وبني إسرائيل:

● سيحانك ربنا تؤتي الملك من تشاء وتنزعه ممن تشاء تعز من تشاء، وتذل من تشاء، ترفع من تشاء وتخفض من تشاء، تعذب من تشاء وتغفر لمن تشاء، سيحانك لا تسأل عما تفعل، ولا معقب لحكمك، فلك الأمر من قبل ومن بعد، وأنت على كل شيء قدير.

● قال تعالى في فضله على بني إسرائيل: ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥].

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْثَرْنَا قَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

● أي أهلك ذلك جميعه، وسلبهم عزهم العزيز العريض في الدنيا، وهلك الملك وحاشيته وأمرأوه وجنوده، ولم يبق بمصر سوى العامة والرعايا.

● قال ابن كثير^(١) — رحمه الله —:

ذكر ابن عبد الحكم في تاريخ مصر: أنه من ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها، بسبب أن نساء الأمراء والكبراء تزوجن بمن دونهم من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم واستمرت هذه سنة نساء مصر إلى يومنا هذا!

المطلب الثاني: رواسب الشرك في بني إسرائيل:

● قال تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرٍ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩].

● قالوا هذا الجهل والضلال، وقد عاينوا من آيات الله وقدرته التي أيد بها موسى كافية لأن تنزع منهم كافة رواسب الشرك والرثية. وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون

أصناماً، فزعموا أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضروريات فسألوا نبيهم موسى عليه السلام، أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة. فلامهم موسى على جهلهم، وأكد لهم أن هؤلاء القوم الذين يعبدون الأصنام دينهم باطل وأعمالهم خاسرة ولذا فإن مصيرهم الهلاك، ثم أبدى عجبه كيف أنهم يطلبون معبوداً غير رب العالمين الذي خصهم بإكرامه وفضلهم على الأمم التي كانت في زمانهم بوحيه ورعايته ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

• ولقد لقي موسى عليه السلام الأهوال من بني إسرائيل في سبيل دعوتهم إلى توحيد الله وخلع الأنداد، وهذه دعوة الرسل جميعاً صلوات الله وسلامه عليهم.

• المطلب الثالث: مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ:

• وتابع بنو إسرائيل مسيرهم مع موسى في الصحراء وجاءوا إلى الشاطئ الشرقي فلم يجدوا ماء لشربهم وسقيا لدوابهم، فشكوا أمرهم إلى موسى وطلبوا منه الماء، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلما ضربه تفجرت منه اثنتا عشرة عينا^(١)، لكل قبيلة منهم عين ترويه.

• ولما وصلوا إلى سهول شبه جزيرة سيناء، والشمس فيها شديدة، فلا مساكن يأوون إليها، ولا شجر يلتمسون تحته الظل، شكوا إلى موسى إلى ما يلقون من عناء فدعا موسى ربه فساق لهم الغمام يقيهم حرارة الشمس.

• ولما كان زادهم عرضة للنفاذ، سأل موسى ربه مرة أخرى الطعام فأنزل الله عليهم المن والسلوى. والمن مادة تنزل من الجو كما ينزل الطل، تنزل على الحجر وورق الشجر طعمها حلو كالعسل. والسلوى طائر السمانى يأتي إليهم أسراباً متلاحقة فيكاد يغطي الأرض بكثرتة.

• ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

(١) هذه العيون بالر الشرقي من قناة السويس قريبة من مدينة السويس وهى شهيرة باسم ((عيون موسى)) وقل اليوم ماء هذه العيون وبعضها طمست آثاره.

• نعمة من الله عظيمة، فما رعوها حق رعايتها، ولا قاموا بشكرها، ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها. وسألوا أن يستبدلوا منها بديلها مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها، ففرعهم موسى ووبخهم وأبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلاً: ﴿أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١].

المطلب الرابع: طلب رؤية الله ونزول التوراة:

• قال تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فَتَمِّ مِيقَاتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا أفاق قَالَ سُبْحَانَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَا حِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢-١٤٥].

• هذه الآيات نزلت في بيان بدء وحي الشريعة لموسى عليه السلام، وقد بدأ الوحي المطلق إليه في جانب الطور الأيمن من سيناء منصرفه من مدين إلى مصر، وإنما المذكور هنا بدء وحي كتاب التوراة بعد أن أنجى الله قومه بني إسرائيل من العبودية وجعلهم أمة حرة مستقلة قادرة على القيام بما يشرعه الله لها من العبادات وأحكام المعاملات والأمة المستعبدة للأجنبي لا تقدر على ذلك، ألم تر أن جميع أحكام المعاملات الدنيوية من شريعتنا المطهرة، وأكثر أحكام العبادات لم تشرع إلا بعد الهجرة؟ وأن الصلاة التي هى عبادة بدنية لما شرعت في مكة كان النبي ﷺ يصلي هو ومن آمن به في البيوت سرا اتقاء أذى المشركين الذين كانوا يمنعونهم من الصلاة في المسجد الحرام.

• لما أتم الله نعمته على بني إسرائيل، بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد

تبارك وتعالى، أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. فواعد موسى ثلاثين ليلة، ثم أممها الله بعشر لحكمة أرادها سبحانه حتى صارت أربعين ليلة ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة: ٥١].

● واستعد موسى عليه السلام وهياً لوعده الله، ويكون لنزولها، موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

● ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له علي بن إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: كن خليفتي فيهم واعمل فيهم بما كنت تعمل وأتبع طريق الصلاح ولا تتبع سبيل الذي يعملون المعاصي من أهل الفساد والضلال.

● ولما جاء موسى للوقت المحدود لإنزال التوراة، وكلمه ربه بما كلمه، من وحيه، وأمره، ونهيه.

● ومذهب أهل السنة والجماعة في كلام الله عز وجل، أنه حق على حقيقته، وأنه تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء، يتكلم بحرف وصوت يسمعه من كلمه الله عز وجل ولهذا تجد أن الله سبحانه وتعالى - في هذه القصة لما كلم موسى قال له موسى ﴿رَبِّ أَرْنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

● استشرفت نفس موسى عليه السلام للجمع بين فضيلة الكلام والرؤية. فقال: رب أرني ذاتك المقدسة واجعلني متمكناً منها بأن تتجلى لي فأنظر إليك. فقال الله له: لن تراني الآن ولا في المستقبل إذ ليس لبشر ما أن يطبق النظر إلى في الدنيا. وذلك لأنه سبحانه «حجابيه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

● ثم أراد الله تعالى أن يخفف على موسى الأمر وأنه لا يطبقها فقال مستدركاً ولكن

(١) صحيح: رواه مسلم (١٧٩) وابن ماجه (١٩٥) وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري ؓ.

انظر إلى الجبل الذي يرجف بك، ويضطرب كيف أفعل به؟ وكيف أجعله مذكوفاً، فإن استقر مكانه وثبت عند التحلي الأعظم عليه فسوف تراني إذ هو مشارك لك في الوجود، وإذا كان الجبل في قوته وثباته، لم يقو على الثبات فكيف بك يا موسى؟

● فلما تجلى ربه للجبل، جعله دكاً مذكوفاً، وخر موسى من هول ما رأى مصعوقاً، فلما أفاق وصحا من رقدته قال: سبحانك يا رب وتنزيها لك وتقديساً إلي تبت إليك من سؤالي وأنا أول المؤمنين بعظمتك وجلالك.

● ثم أراد الله سبحانه وتعالى أن يطيب خاطره ويبين له مكانته فقال: يا موسى إني اصطفتك على الناس الموجودين معك برسالتى ونبوتى، وخصصتك بكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين القانعين، ولا تطلب ما ليس لك.

● وكتبنا له في الألواح من كل شيء مما يحتاجون له من أمور دينهم، موعظة مؤثرة وهداية نافعة، وتفصيلاً لأحكام الشريعة.

● وهل هذه الألواح هي كل ما أوتيته أو بعضه، وهل كان عددها عشراً أو أقل؟ الله أعلم بذلك. لعدم وجود الدليل الصحيح.

● فخذها بجد واجتهاد على إقامتها، وأمر قومك أن يأخذوا بأحسنها فلكل درجات مما عملوا، وفي هذا دليل على أن أوامر الله في كل شريعة كاملة عادلة حسنة.

● سأريكم دار الفاسقين كعاد وثمود أو قوم فرعون، وقيل سترون عاقبة من يخرج من طاعتي.

● ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن رؤية الله في الدنيا مستحيلة، وأما في الآخرة فهي جائزة لعموم الأدلة في ذلك.

المطلب الخامس: قصة عبادة بني إسرائيل للعجل:

● قال تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ. ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٥١].

● وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

● وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

• وقال تعالى عن بني إسرائيل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣].

وقال: ﴿ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [النساء: ١٩٧].

وقال تعالى: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

• وقال تعالى عن السامري ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمُ وَإِلَهُ مُوسَى فَتَسِي ﴾ [طه: ٨٨].

• في الآيات السابقة يُذكر الله تعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم بهذا الغفو العظيم، وذلك أن الله تعالى واعد موسى ﷺ ثلاثين ليلة، فأتمها بعشر فصارت أربعين ليلة، فلما تأخر موسى ﷺ عن الموعد الذي ذكره لبني إسرائيل فتنوا بعبادة العجل، وذلك أنهم صنعوا من الحلبي من الذهب تمثالاً على هيئة العجل، وهو ولد البقر الصغير، وجعلوه على شكل يكون له خوار كخوار العجل، وأضلهم السامري فقال لهم: إن ربكم هذا العجل، وهو إلهكم وإله موسى، فعبدوا العجل من دون الله، وذكرهم هارون أخو موسى ﷺ بأن إلههم هو الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴾ [طه: ٩٠]. ولكنهم أصرّوا وأبوا وقالوا: ﴿ لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [طه: ٩١].

• فبقوا يعبدون هذا العجل حتى رجع إليهم موسى عليه الصلاة والسلام.

• ولما رجع موسى ﷺ إليهم قال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ٥٤].

• فجعل الله تعالى من توبتهم أن يجتمعوا جميعاً يأخذوا السكاكين والخناجر ويقتلوا بعضهم بعضاً، ويصيروا على هذه الحنة العظيمة، فلما فعلوا ذلك تاب الله عليهم.

• وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [البقرة: ٥١].

وصفهم الله باتخاذهم العجل وعبادته بأنهم ظالمون وقال لهم موسى أيضاً ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأي ظلم أشد من أن يتخذ الإنسان مع بارئه وخالقه إلهاً يعبد، فإن هذا أظلم الظلم كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

فأعظم الظلم أن يجحد الإنسان حق ربه حتى يجعل حقه لغيره، فيعبد غير الله مثلما يعبد الله عز وجل.

• وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩].

بين الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة سخافة عقول الذين عبدوا العجل وكيف عبدوا ما لا يقدر على رد الجواب لمن سأل، ولا يملك نفعاً لمن عبده، ولا ضراً لمن عصاه، وهذا يدل على أن المعبود لا يمكن أن يكون عاجزاً عن النفع والضرر ورد الجواب، وقال أيضاً في القصة بعينها ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. ولا شك أن من اتخذ من لا يكلمه ولا يهديه سبيلاً إلهاً أنه من أظلم الظالمين.

• ثم توجه موسى عليه السلام باللوم على أخيه هارون فقال: ﴿ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَأْخُذْ بِهَلْخِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ [طه: ٩٢-٩٤].

والحقيقة أن هارون عليه السلام بلغ معهم غاية جهده وطاقته وأهم استضعفوه وتمردوا عليه ولم يطيعوه. وقد أوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

• قال هارون يا ابن أم إن القوم استضعفوني ولم يسمعوا كلامي وهما يقتلي، فلا تجعلهم يشمتون بي من كثرة اللوم والتقريع ولا تجعلني في عداد الظالمين.

• وبعد أن علم موسى الحقيقة دعا ربه فقال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقد دعا موسى بهذا ليظهر لمن شمت في أخيه أنه راض عنه وليرضى أخوه عنه ويزيل ما في نفسه إن كان.

• والآية صريحة في أن هارون برئ من اتخاذ العجل إلهاً، وأنه لم يقصر في وعظهم، وقد غفر الله له، وهذا بخلاف ما في التوراة من أن هارون هو الذي صنع العجل لهم.

واتخذها لها. فلعنة الله على الذين يفترون على الله الكذب، ويجرفون الكلم عن مواضعه.

المطلب السادس: عناد بني إسرائيل وإحسان الله إليهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٥-٥٧].

● في هذه الآيات يُذكر الله تعالى بني إسرائيل بما جرى منهم، وبما كان من إحسان الله تعالى إليهم فأما الذي جرى منهم فإنهم قالوا لموسى وهو يكلم الله عز وجل بما شاء من الوحي «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» أي لن نؤمن لك أنك تكلم الله حتى نرى الله جهرة أي عياناً، وهذا غاية في العناد والاستكبار والتكذيب.

● فلما قالوا هذه المقالة العظيمة صعقوا، أخذهم الموت فماتوا جميعاً، ولكن الله سبحانه وتعالى، مَنْ عليهم فبعثهم أي أحياهم من بعد موت، لأن موسى عليه السلام دعا الله عز وجل ففرج الله عنهم ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَبَائِي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَتَتْ وَلَيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

● فبعثهم الله من بعد الموت لعلهم يشكرون هذه النعمة إذا ذكروها، والشكر هو القيام بطاعة المنعم، وليس الشكر مجرد قول القائل أشكر الله، لأن القول باللسان إن لم يصدق العمل والاعتقاد قول لا فائدة منه.

● قال أهل العلم: والشكر يكون في القلب واللسان وبالجوارح، فأما شكر القلب فإن يعترف الإنسان بقلبه أن هذه النعمة من فضل الله وحده، وليست بحول المرء وقوته. وأما شكر الله باللسان فالتحدث بهذه النعمة إظهاراً لفضل الله لا افتخاراً على عباد الله، ويشمل أيضاً جميع ما يتكلم به العبد مما يقرب إلى الله عز وجل، وأما الشكر بالجوارح فإن يقوم الإنسان بالعمل الصالح بجوارحه: اليدين والرجلين والعينين وغير ذلك من أعضائه وجوارحه.

● ثم يذكرهم الله تعالى نعمة ثانية بعد أن أحياهم من تلك الصعقة، وهي أنه ظلل عليهم الغمام من حر الشمس، فصاروا في ظل بارد، والغمام - كما قال أهل العلم - هو السحاب الأبيض الحاجب من حر الشمس، وأنزل عليهم المن والسلوى فالمن طعام

يجدونه منتشراً على رعوس الشجر كأنه العسل فيأكلونه، والسلوى هو الطائر المعروف بالسمنة، وهو ألد الطيور لحماً، وسمى المن مناً، لأنه يحصل بدون تعب ولا مشقة، ومنه الكمأة وهي الفقع^(١) لقول النبي ﷺ: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»^(٢). وهي إن لم تكن من المن الذي نزل على بني إسرائيل لكنها من المن بالمعنى العام، لأنها توجد في الأرض بدون غرس ولا بذر ولا تعب في سقى وغيره.

● ثم امتن الله عليهم بأن يسر لهم أكل هذه الطيبات، فقال تعالى: «كلوا من طيبات ما رزقناكم» وهذه منة ثالثة، لأن الإنسان ربما يتيسر له الطعام والشراب، ولكن لا يتمكن من أكله وشربه لعلّة فيه فلا يحصل به كمال المنّة، وربما يحرم من الطعام والشراب لقلتهما، المهم أن إيجاد الطعّم والشراب نعمة من الله عز وجل.

● ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

أي ما ظلمونا بمعاصيهم، لأن الله سبحانه وتعالى لن يعبأ بأحد، ولن يتضرر بمعصية العاصين، ولن ينتفع بطاعة الطائعين «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فالإنسان المفرط في حق الله قد ظلم نفسه وهضمها ونقصها حقها، لأن النفس أمانة عند الإنسان يجب عليه أن يراعها حق رعايتها، وألا يوقعها في المهالك.

تالله إن المجانين الذين بمنزلة البهائم، أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة، أهدى منكم.

● ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥١].

أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟

● فقال موسى: ﴿عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢]. أي قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتابه، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموه، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك، يا فرعون، عنهم، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم.

(١) نبات يشبه ثمرته ثمرة البطاطس إلا أنه صغير الحجم وطعمه طيب وهو ينبت في الصحراء في أوقات معينة في السنة

(٢) رواه البخاري (٥٧٠٨).

● فلما خنقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة استغل سلطانه وطغيانه ﴿قَالَ لَنْ اتَّخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. زعم - قبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلها غيره، وإلا فقد تقرر أنه، هو ومن معه على بصيرة من أمرهم.

● فقال له موسى: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]. أي: آية ظاهرة جلية، على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

المطلب السابع: معجزات موسى وإيمان السحرة:

● لقد طلب فرعون من موسى بينة تدل على صدقه وأن يجيء بالشيء المبين الذي قال عنه ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ٣١].

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ. وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢-٣٣].

● لما قال فرعون لموسى عليه السلام إن كنت من الصادقين فأت بآية تشهد لك، فألقى موسى عصاه من يده، فإذا هي ثعبان ظاهر، لاشك فيه، يتحرك ويسعى، ووضع يده في جيبه ثم نزعها فإذا هي بيضاء للناظرين والبياض خال من المرض كما قال تعالى: ﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]. أي من غير برص.

● فماذا قال فرعون وملئه عندما رأوا هذه المعجزات ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]. بين هنا أن موسى لما جاء بآية العصا واليد قال الملأ من قوم فرعون إنه ساحر، ولم يبين ماذا قال فرعون، ولكنه بين في ((سورة الشعراء)) أن فرعون قال: مثل ما قال الملأ من قومه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤].

● ولما رأى فرعون وقومه تلك الآيتين الحسيتين اللتين تشهدان لموسى بالصدق قالوا هذا سحر مبين، وهذا ساحر ماهر بموه علينا، ويقلب الحقائق، فهو كبقية السحرة، وليس رسولا لرب العالمين كما يدعى، هذا الذي يريد أن يخرجكم من أرضكم، ويتغلب عليكم بسحره، ويأخذ بني إسرائيل من تحت أيديكم. وتشاوروا فيما بينهم: ماذا يفعلون؟ قال بعضهم لفرعون: الرأى أننا نرجى أمر موسى وأخيه ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧].

● فأخذ فرعون برأيهم وأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له السحرة من كل حذب

وصوب، وكان السحرة في القديم هم الطبقة المثقفة، ولهم مكانتهم عند الملوك والجبابة وجاعوا واثقين من أنفسهم وتغلبهم على موسى، وطالبوا بأجرهم: ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ * قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لِمَنِ الْمَقْرِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

● ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨].

● وجاء اليوم الموعود لالتقاء السحرة بموسى، وتدفقت جماهير غفيرة على ساحة العرض وكان ذلك في يوم الزينة: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحًى﴾ [طه: ٥٩]. ويظن أن يوم الزينة هو يوم وفاء النيل، وكان أعظم أعيادهم، وكان يوم عطلة رسمية في البلاد، ويقال إنه يوم عاشوراء، أو يوم النيروز، المهم أنه يوم عيد عندهم.

● ونودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعود. فقال المصريون ﴿لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠].

فلم يقولوا لعلنا تتبع الحق أينما كان، ولكنه التعصب الأعمى لحزب الدولة حزب فرعون حتى إن كان هو حزب الشيطان.

● بعد أن اتفق على المكان وهو ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]. وهو الوسط بين أطراف البلد، ليتمكن جميع الناس أن يحضروا، وعلى الزمان وهو يوم الزينة وهو يوم عيد يتزينون فيه بأنواع الزينة.

● وجاءت ساعة الصفر للمناظرة والمغالبة في السحر بعد أن تولى فرعون ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠].

● وبدأ سحرة فرعون بقولهم: ﴿يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥].

● فرد عليهم موسى عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ أُلْقُوا﴾ [طه: ٦٦]. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن نبه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما خيره سحرة فرعون أن يلقي قبلهم أو يلقوا قبله قال لهم: ((ألقوا)) يعني ألقوا ما أنتم ملقون. كما صرح به في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣].

وهذا أيضًا هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

● قول موسى عليه السلام للسحرة: ((ألقوا)) المذكور في سور ((الأعراف))، و ((الشعراء)) فيه سؤال معروف، وهو أن يقال: كيف قال هذا النبي الكريم

للسحرة: «ألقوا» أي ألقوا حبالكم وعصيكم، يعني اعملوا السحر وعارضوا به معجزة الله التي آيد بها رسوله، وهذا أمر منكرو؟ والجواب: هو أن قصد موسى بذلك قصد حسن يستوجهه المقام، لأن إلقاءهم قبله يستلزم إبراز ما معهم من مكائد السحر، واستنفاد أقصى طرقهم ومجهودهم، فإذا فعلوا ذلك كان في إلقاءهم عصاه بعد ذلك وابتلاعها لجميع ما ألقوا من إظهار الحق وإبطال الباطل ما لا جدال بعده في الحق لأدنى عاقل، ولأجل هذا قال لهم، «ألقوا» فلو ألقى قبلهم وألقوا بعده لم يحصل ما ذكرنا. والعلم عند الله.

﴿فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فَرَعُونَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤].

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعَصِيَهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه: ٦٦].

• وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ يدل على أن السحر الذي جاء به سحرة فرعون تخييل لا حقيقة له في نفس الأمر. وهذا الذي دلت عليه آية «طه» هذه.. دلت عليه آية «الأعراف» وهي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف: ١١٦].

يدل على أنهم خيلوا لأعين الناظرين أمراً لا حقيقة له: وهاتين الآيتين احتج المعتزلة ومن قال بقولهم على أن السحر خيال لا حقيقة له. والتحقيق الذي عليه جماهير العلماء من المسلمين: أن السحر منه ما هو أمر له حقيقة لا مطلق تخييل لا حقيقة له، وما يدل على أن منه ماله حقيقة قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فهذه الآية تدل على أنه شيء موجود له حقيقة تكون سبباً للتفريق بين الرجل وامرأته. وما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [العلق: ٤].

فلولا أن السحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه. والخلاصة أن السحر أنواع^(١): منها ما هو أمر له حقيقة، ومنها ما هو تخييل لا حقيقة له.

وكان سحر سحرة فرعون من نوع التخيل لا حقيقة له. أما وصف الله له بأنه سحر عظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦].

ليس معناه أنه غير خيال، ولكنهم أخذوا كثيراً من الحبال والعصي، وخيلوا بسحرهم لأعين الناس أن الحبال والعصي تسعى وهي كثيرة. فظن الناظر أن الأرض ملئت حيات تسعى، لكثرة ما ألقوا من الحبال والعصي فخافوا من كثرتها، وبتهييل سعى ذلك

(١) راجع كتاب: قرة العين لمن سأل عن المس والسحر والحسد والعين «للمؤلف».

العدد الكثير وصف سحرهم بالعظم. وقد قال غير واحد: إنهم جعلوا الزئبق على الحبال والعصي، فلما أصابها حر الشمس تحرك الزئبق فحرك الحبال والعصي، فخيّل للناظرين أنها تسعى.

• فلما خيل إلى موسى ذلك ﴿فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ [طه: ٧٠]. فهذا خوف طبيعي كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره، وجاءه التثبيت من الله تعالى ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]. أي ستعلوا عليهم وتقهرهم، ويدلوا لك ويخضعوا.

• وجاء موسى الأمر من الله تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ [طه: ٦٩].

فلما ألقى موسى عصاه ابتلعت كل ما زوروه وافتعلوه من الحبال والعصي التي خيلوا للناس أنها تسعى وصنعهم في قوله تعالى: «ما صنعوا» واقع في الحقيقة على تخيلهم إلى الناس بسحرهم أن الحبال والعصي تسعى، لا على نفس الحبال والعصي لأنها من صنع الله تعالى. ومن المعلوم أن كل شيء كائناً ما كان بمشيئته تعالى الكونية القدرية.

• وهذا المعنى الذي ذكره جل وعلا هنا في هذه الآية الكريمة: من كونه أمر نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام أن يلقى ما في يمينه أي يده اليمنى، وهو عصاه فإذا هي تتلع ما يافكون من الحبال والعصي التي خيلوا إليه أنها تسعى أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥]. ومعنى «ما يافكون» أي يختلقونه ويفترونه من الكذب، وهو زعمهم أن الحبال والعصي تسعى حقيقة.

• وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

يعم نفى جميع أنواع الفلاح عن الساحر، وأكد ذلك بالتعميم في الأمكنة بقوله «حيث أتى» وذلك دليل على كفره لأن الفلاح لا ينفي بالكلية نفياً عاماً إلا عمن لا خير فيه وهو الكافر.

• وبعد أن ألقى موسى عليه السلام عصاه، فتلقفت ما صنعوا كله، وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع، فعلم السحرة علمًا يقينًا، أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠].

• ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما عاينوا عصا موسى تبتلع جميع حبالهم وعصيتهم خروا سجدا لله تعالى قائلين: آمنا بالله الذي هو رب هارون وموسى. فهداهم الله بذلك البرهان الإلهي، هذه الهداية العظيمة. وقد أوضح الله تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَوَقَّعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ. وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢].

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ. فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ. قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٥-٤٨].

• وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾. يدل على قوة البرهان الذي عاينوه، كأهم أمسكهم، إنسان وألقاهم ساجدين بالقوة لعظم المعجزة التي عاينوها، لأهم لمعرفةهم بالسحر عرفوا معجزة العصا خارجة عن طور السحر، وأنها أمر إلهي فلم يداخلهم شك في ذلك، فكان ذلك سببًا لإيمانهم الراسخ الذي لا يزعزعه الوعيد والتهديد.

• استغرب فرعون لإيمان السحرة فقال لهم ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي أَنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن سحرة فرعون لما آمنوا برب هارون وموسى قال لهم فرعون منكر عليهم ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ أي صدقتموه في أنه نبي مرسل من الله، و آمنتم بالله قبل أن آذن لكم. يعني أنهم لم يكفوا عن الإيمان حتى يأذن لهم، لأنه يزعم أنهم لا يحق لهم أن يفعلوا شيئًا إلا بعد إذنه هو لهم. وقال لهم أيضًا: إن موسى هو كبيرهم، أي كبير السحرة وأستاذهم الذي علمهم السحر، مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل عقل، فإن موسى، أتى من مدين وحيدًا، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم بل بادر بدعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات.

• ثم هددهم فرعون مقسمًا على أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف. ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل، ما يدركون به الحقائق أجابوا بقولهم ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]. أي لن نختار أتباعك وكوننا من حزبك، وسلامتنا من عذابك على ما جاءنا من البينات ولا على الذي خلقنا وأبرزنا من العدم إلى الوجود. ﴿فاقض ما أنت قاض﴾ أي اصنع ما أنت صانع فلسنا راجعين عما نحن عليه. ﴿إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾.

أي إنما ينفذ أمرك فيها ويحول ولا يضرنا وعيدك، بخلاف عذاب الله، لمن استمر على كفره، فإنه دائم عظيم.

وقالوا في موضع آخر ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]. وقالوا أيضًا عندما هددهم فرعون بالقتل ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ. وَمَا نُنْقِمُ مِمَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. وقولهم: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣].

• ونقف بعد ذلك أمام إدراك السحرة، بعد أن أشرق نور الإيمان في قلوبهم، وجعل لهم فرقًا في تصورهم، أن المعركة بينهم وبين فرعون وملئه هي معركة العقيدة، وأنه لا ينقم منهم إلا إيمانهم برب العالمين، فهو إذن من الكافرين، وما يمكن أن يحصى المؤمنون في طريق الدعوة إلى رب العالمين، على ما ينتظرهم فيها من التعذيب والتكيل إلا بمثل هذا اليقين بشقيه: أنهم هم المؤمنون، وأن أعداءهم هم الكافرون، وأنهم إنما يحاربونهم على الدين، ولا ينقمون منهم إلا الدين.

• قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة. ويؤيد هذا قولهم: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦].

المطلب الثامن: بطانة فرعون تحرضه على إعلان الحرب على موسى وأتباعه:

• لما وقع ما وقع من الأمر من العظيم، وأسلم السحرة الذين استنصروا بهم، فحينئذ أحس فرعون وملئه بالخطر العظيم وبدأ الملأ يحرضون فرعون على قتال موسى عليه السلام ومن معه ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي

الْأَرْضَ وَيَذْرُكَ وَالْهَتِكَ قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ. قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ [الأعراف: ١٢٧-١٢٩].

• يخبر تعالى عن الملائكة من قوم فرعون، وهم الأمراء والكبراء، أنهم عرضوا ملكهم فرعون على أذية نبي الله موسى عليه السلام، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به، بالكفر والردة والأذى. قالوا: «أتأذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهتك» يعنون- قبحهم الله- أن دعوته إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم الله. «ويذرك وآهتك» أي يتركك موسى مع آهتك فلا يعبدونك ولا يعبدونها، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك، وفي هذا فساد للأرض، وذهاب للملك.

• فرد عليهم فرعون: ﴿قَالَ سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

أي لئلا يكثر مقاتلتهم، وليعلموا أنا على هذا قادرون غالبون.

• ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨].

أي إذا هم هموا بأذيتكم والفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم واصبروا على بليتكم ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أي فكونوا أنتم المتقين تكن لكم العاقبة، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَتَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦].

• وقولهم: ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمَنْ بَعْدَ مَا جِئْتَنَا﴾ أي قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك وبعد مجيئك إلينا ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

• وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]. وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وكان

قارون إسرائيلي من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون وملته، وكان ذا مال جزيل جداً.

• ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٢٥].

وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة والإذلال، والتقليل للمؤمنين إسرائيل لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، ولم يرد عنهم قدر الذي يقول للشيء كن فيكون.

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

• ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

• توجه موسى عليه السلام إلى الله سبحانه ليدفع عنه كيد الكائدين، فتبض الله له من الأسباب، ما اندفع به عنه شر فرعون وملته.

• ومن جملة الأسباب هذا الرجل المؤمن الذي من آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ. يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَاسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ. مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلَمًا لِلْعِبَادِ. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مَذْزَبِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ غَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٢٨-٣٣].

• وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملته بلا تردد ولا تلثم، بعد ما كان يكتُم إيمانه.

• وهذه مقالة الرجل الذي امتلأ قلبه بنور الإيمان، ولا يخشى في الله لومة لائم، وصدع بالحق عند سلطان جائر وهذا أفضل الجهاد، فكان مما قاله لهم: أتقتلون يا قوم رجلاً لأنه يقول: ربي الله، فتارة يحذرهم من قتله، وتارة يزهدهم في الدنيا وأن ملكهم الظاهري سيزول، وتارة يحذرهم من بأس الله.

• قال فرعون بعد سماعه لهذا الكلام: ما أريكم إلا ما أرى، ولا أشير عليكم إلا بقتله حتى نستريح، وما أهداكم بهذا الرأي إلا سبيل الرشاد وطريق الصواب.

• وقال الذي آمن: يا قوم إني أخاف عليكم يوماً يجعل الولدان شيباً، يا قوم إني

أخاف عليكم من تكذيب موسى والتعرض له بسوء أن يحل بكم مثل ما حل بالذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم الماضية فقد أخذهم ربكم أخذ عزيز مقتدر، وحل بهم الخسف والإغراق والهلاك، وما الله بهذا يريد ظلماً للعباد، ولكن الناس أنفسهم يظلمون بتكذيبهم الأنبياء، وتعرضهم لهم بالسوء، هذا الذي أخافه عليكم في الدنيا أما في الآخرة فإني أخاف عليكم يوم التنادى الذي هو يوم القيامة، وما أكثر النداء فيه، فيه ينادى أصحاب الجنة أصحاب النار، وفيه ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة، وينادى أصحاب الأعراف، وينادى المنادى بالشقوة لأهل الشقاء، وبالسعادة لأهل السعادة. يا قوم إني أخاف عليكم يوم التنادى يوم تولون مدبرين هارين ما لكم من الله من عاصم، وليس لكم من دونه ملجأ، ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل.

وما زال الرجل المؤمن يخاطب في فرعون وملئه، فأخذ يذكرهم بما حدث في زمن يوسف عليه السلام وتكذيبهم إياه فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ * الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٤-٣٥].

ولما سمع فرعون قول الرجل المؤمن وخاف أن يذاع ضره، ويصل إلى قلوب الناس، فقام وأنكر وجود الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَآمَانُ ابْنُ لِي صَرِّحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأُظَنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

أي إن كيد فرعون الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل إلا في خسران وبوار لا يفيد إلا الشقاء، في الدنيا والآخرة.

ثم استأنف الرجل المؤمن نصيحته لقومه وكانت موعظة بليغة جامعة شاملة فبدأها بدعوتهم إلى اتباعه لأنه على الحق المبين ثم زهدهم في الحياة الدنيا وأنها متاع زائل، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار والبقاء، ثم حثهم على العمل الصالح الذي جزاؤه الجنة وحذرهم من العمل السيئ لأن جزاءه النار. وحذرهم من الشرك بالله ورغبتهم في توحيد الله وهو دعوة الرسل جميعاً، وأخبرهم بأن المصير والمرجع والمنتهى إلى الله تعالى وهددهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى والأمر كله لله، إليه الجأ

وأعتصم ألا هل بلغت اللهم فاشهد ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ * تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْرُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٨-٤٤].

بعد سماع فرعون وملئه هذه الموعظة الجامعة، أرادوا أن يمحروا به ويقتلوه حتى لا تكون لهذا الرجل المؤمن دعوة إلى العزيز الغفار، ولكن الله تعالى يعلم ما يبيتون ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّا مَكُرُوا وَحَاقَ بِالْفِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥].

المطلب التاسع: تكذيب فرعون وقومه بآيات الله كلها:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].
وقال تعالى: ﴿وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعَ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].
قال بعض أهل العلم: هذه الآيات التسع هي: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. آيات مفصلات.

وقد بين جل وعلا هذه الآيات في مواضع كقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ. وَنَرَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧-١٠٨].
وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِّنَ الشَّجَرَاتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠].
وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].
وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

يخبر الله تعالى أنه ابتلى فرعون وقومه بالسنين وهي أعوام الجذب والقحط فلا يستغل فيها زرع ولا ينتفع بضرع. والثمار قليلة جداً.

وأما الطوفان: فهو كثرة الأمطار المغرقة وفيضان الماء الذي هلك الحرث والنسل.

● وأما الجراد: فمعروف. والمقصود أن الله سلطه على زرعهم وثمارهم فأكلها.
● وأما القمل: فهو المعروف فقد سلطه الله عليه فلم يهتؤوا على عيش ولا يستمتعوا بنوم.

● والضفادع: فمعروفة أيضاً، فكانت تسقط في أوعيتهم وأطعمتهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فاه لطعام أو شراب سقطت فيه ضفدعة من تلك الضفادع.
● والدم: سلطه الله عليهم حتى مزج ماءهم كله فإذا تناول الواحد منهم إناء ليشرب فيه الماء تحول هذا الماء في الحال دمًا فيتركه.

● فلما وقع بهم هذا البلاء العظيم طلبوا الشفاعة من موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرَّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، ولكنهم لم يصدقوا في وعدهم ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرَّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْعُودِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٥-١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤١-٤٢].

● هذا، والعظيم الحليم القدير، ينظرهم ولا يعجل عليهم، ويؤخرهم ويتقدم بالوعد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم، والإعذار إليهم، أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة ونكالا وسلفا لمن أشبههم من الكافرين، ومثالا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين.

المطلب العاشر: نهاية فرعون وجنوده:

● عندما أصر فرعون وجنوده على تكذيب موسى عليه السلام، ومخالفته أقام الله عليهم الحجج العظيمة والقاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحوير العقول، وهم مع ذلك لا ينتهون، وفي غيهم يعمهون، ولم يؤمن منهم إلا القليل كما قال الله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَرَأْسِهِمْ أَن يُقَتِّلَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

● ثم أوحى الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتا مميزة عن بيوت القبط ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به، ليعرف بعضهم بيوت بعض.
قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا

بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]. وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قيل: مساجد والمعنى المراد هو: الاستعانة على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

● ثم جاء الأمر من الله تعالى لموسى عليه السلام بالخروج من مصر ليلاً فانطلق بقومه بني إسرائيل سراً من أرض مصر قاصداً فلسطين قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣].

● علم فرعون بذلك فأرسل أعوانه في الأقاليم يجمعون الناس لتجهيز جيش كبير ليقتنوا أثر بني إسرائيل وليدركوهم قبل أن يهربوا إلى فلسطين، ولم يرغب فرعون أن يظهر الخوف فأذاع في مصر أن الفارين شرذمة ضئيلة لا يخشى شرها، وقد أغاظونا بهرمهم وأخذهم أموالنا وحلى نساءنا، وقد كنا دائماً متيقظين لهم نتبع حركاتهم. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبِعُونَ * فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِن هَؤُلَاءِ لَشَرِذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢-٥٦].

● وصل بنو إسرائيل إلى ساحل البحر الأحمر على خليج السويس فأدركهم فرعون وجنوده مع شروق الشمس عندئذ أيقنوا بالهلاك، واستولى الذعر على نفوسهم، وقالوا لموسى: لقد لحق بنا فرعون ولا طاقة لنا به، فماذا نفعل والبحر أمامنا وفرعون وجنوده من خلفنا؟ قال لهم موسى: لا تخافوا إن معي ربي سيهدين ويرشدني إلى طريق النجاة، عندئذ أوحى الله إليه بأن يضرب البحر بعصاه، ففعل، فانشق الماء وصار فيه اثنا عشر طريقاً يساً على عدد أسباط بني إسرائيل في الطرق المفتحة لهم في البحر، وأشرف في ذلك الحين فرعون على الموضع الذي عبوه فرأى طريقاً في البحر فاقتحم هو وجنوده هذا الطريق خلف بني إسرائيل فانطبق الماء على فرعون وجنوده وأغرقهم جميعاً وأنجى الله موسى ومن معه من بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُّشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزَلَفْنَا ثَمَ الْآخَرِينَ * وَأَجَبْنَا مُوسَى وَمَنْ مَّعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَن أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي

الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تُخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴿طه: ٧٧-٧٩﴾.

• وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

• يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفره القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم. فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وياشكر سكرات الموت أتاب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥].

• وهكذا دعا موسى على فرعون وقومه، أن يطمس على أمواتهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، أي حين لا ينفعهم ذلك.

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «(قال لي جبريل: لو رأيته وأنا آخذ من حال البحر^(١) فأدسه في فم فرعون مخافة أن تناله الرحمة^(٢))».

• وذهب فرعون وجنوده ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ. وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ. كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥-٢٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

• يا عبد الله تفكر وتدبر وسل نفسك أين ذهب فرعون وجنوده، وأين ملكهم، وأين ذهب فرعون وجنوده، وأين ملكهم، وأين قصورهم، وأين، وأين؟ وهكذا الدنيا: لا تدوم أحوالها: عزها لا يدوم، ورخاؤها لا يبقى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ

(١) حال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/٣٤٠) وغيره.

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. فيا أيها المسلم: اتق الله وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، وزن أعمالك قبل أن توزن عليك، وراقب مولاك الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء واعلم أنك مهما عشت فإنك ميت وأن إلى ربك الرجعى وأن إلى ربك المنتهى.



البحث السابع: قصص وقعت في عهد موسى ﷺ

المطلب الأول: قصة التيه:

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُدْخِلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٠-٢٦].

• لما امتن الله على موسى وقومه، بنجاحهم من فرعون وقومه، وأسرهم واستعبادهم، ذهبوا قاصدين، لأوطانهم ومساكنهم، وهى بيت المقدس، وما حوله وقاربوا وصول بيت المقدس. وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم.

• فوعظهم موسى عليه السلام وذكرهم ليقوموا على الجهاد، فذكرهم بنعم الله عليهم الدينية والدنيوية، فإن الله جعلكم ملوكاً أحراراً عندكم ما يكفيكم ويقيمكم ذلك السؤال، وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من عالمي زمانكم، يا قوم ادخلوا الأرض الطاهرة من عبادة الأوثان لكثرة الأنبياء فيها، وقد كتب الله لكم دخولها وانتصاركم على عدوكم، فلا ترجعوا ولا تولوا مدبرين، قد خسرت دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء، وفتح بلادكم. وأخرتكم، بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم بمعصيتكم من العقاب.

• فقالوا قولاً يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾. شديدي القوة والشجاعة وأولى بأس شديد وهذا من جنبهم وقلة يقينهم، وإننا لا ندخلها أبداً ما داموا فيها، ولو كان معهم رشدهم لعلموا أن القوة لله جميعاً.

• ولا غرابة في إحجامهم عن الدخول فيها وقتالهم الجبارين، فكل قوم تربوا في

أحضان الذل والاستعمار يألّفونه، ولا يألّفون الحرية والكرامة ولذلك قالوا معتذرين لن ندخلها أبداً حتى يخرجوا منها فإننا داخلون.

• قال رجلان من الذين يخافون الله وقد أنعم عليهما بالإيمان والتوفيق والسداد: ادخلوا يا قوم عليهم الباب فإنكم إذا دخلتموه كان الله معكم وناصركم عليهم وعلى الله وحده فتوكلوا إن كنتم مؤمنين.

• فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَنُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٥].

فما أشنع هذا الكلام منهم ومواجهتهم به لنبيهم في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة فيه إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

• وبهذا وأمثاله، يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ حين شاورهم في القتال يوم ((بدر)) مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر، لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد، ما تخلف عنك أحد، ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: «اذهب أنت وربك فقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ»

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلَا إِنَّا معكما مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك، وعن يسارك.

• فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم وسوء نواياهم وخشى أن يفتنوا الرجلين الصالحين قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي هارون الذي عرفت فيه الامتثال والطاعة، يا رب فافصل بيننا وبين هؤلاء القوم الفاسقين.

• واستجاب الله لموسى عليه السلام وأصابهم بالتيه أربعين سنة يتيهون في البلاء ولا يهتدون إلى طريق، ولا ييقون مطمئنين، ولا يعرفون لهم قراراً، وتلك المدة أيضاً يحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتب الله لهم.

وهكذا ينزل الله عذابه على كل من يخالف أمره، وهؤلاء هم اليهود، وهذه أعمالهم من قسّم مع أنبيائهم.

• ولما علم الله تعالى، أن عبده موسى، في غاية الرحمة على الخلق، خصوصاً قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها فقال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم، لا ظلما منّا.

المطلب الثاني: قصة البقرة:

• قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالِ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَّانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوُثُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولَ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِئَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ * وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُخَيِّمُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِن مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٤].

• في هذه الآيات الكريمة يُذكر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل، وذلك أنهم قتلوا نفساً فاختصموا فيها وتدارعوا فيها وكل قبيلة تدعى أن القبيلة الأخرى هي التي قتلت هذه النفس، واشتبه عليهم الأمر فارتفعوا إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فقال لهم موسى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾. ولكن لطغيانهم وعتوهم واستبعادهم ما عند الله عز وجل سخرهم بموسى وقالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾. فقال لهم موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين يجهلون حق البشر، أو الذين يعتدون على البشر، وذلك لأن الجاهل قد يراى به عدم العلم، وقد يراى به العدوان وهو الجهالة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

ومن ذلك أيضاً قول النبي ﷺ: «(من لم يدع قول الزور والجهل والعمل به، فلا

حاجة لله في أن يدع طعامه وشرابه»^(١). يعني بالصوم، فالجهالة قد تكون بمعنى السفاهة وسوء التصرف والعدوان على الغير، وقد تكون بمعنى عدم العلم، فقول موسى: «أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين» يحتمل المعنيين جميعاً.

• فلما رأوا أن موسى جادٌ فيما قال لم يمتثلوا أيضاً امتثالاً فورياً يدل على الانقياد التام، ولكنهم عاندوا بالاستفسار فقالوا: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي» أي ما سنها؟ وما عمرها؟ وهل هي كبيرة أم صغيرة؟ فقال: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضَ وَلَا بَكْرٌ عَوَّانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا﴾. أي أنهم لم يمتثلوا ولم يفعلوا ما أمروا به، بل ذهبوا يستفسرون استفساراً آخر عن اللون فقال موسى عليه الصلاة والسلام: «(إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين)» فبين الله عز وجل أنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين، والمراد بقوله فاقع لونها أي واضح الصفار، وهي تسر الناظرين بحسنها وجمالها.

• ولم يقتصروا على ذلك، بل طلبوا تفصيلاً آخر فقالوا: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنْ الْبَقَرُ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾. يعني أنه تشابهت عليهم البقر الصفر، لأنهم يشاهدون بقرات صفراء فقالوا: فماذا يراد منا أن نذبح من هذه البقرات؟

قال موسى: «(إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث)» أي أنها بقرة لا تستعمل في الحرث لا سقيا ولا إثارة لا تثير الأرض بحرثها ولا تسقى الزرع القائم «(مسلمة لاشية فيها)» بعد قوله: «(لا تثير الأرض ولا تسقى الحرث)» لئلا يقولوا إنها بقرة هزيلة عجفاء ليس بها حراك فقال: «(مسلمة لاشية فيها)» أي ليس فيها عيب، وحينئذ قالوا: «(الآن جئت بالحق)» تأمل ماذا تدل عليه هذه الكلمة من الاستخفاف بموسى عليه الصلاة والسلام. وبيان أنهم لم يقبلوا من أمره إلا ما ظنوا أنه الحق، حيث قالوا: «(الآن جئت بالحق فذبحوها)» على الوصف الذي بينه الله عز وجل على لسان موسى ﷺ.

• ومع ذلك ذبحوها وهم لم يقاربوا فعل الذبح أي من أجل تأخيرهم وتوانيهم وتكاسلهم عن تنفيذ ما أمر الله عز وجل، ولهذا قال: «(وما كادوا يفعلون)» أي ذبحوها بعد أن كادوا أي قاربوا ألا يفعلوا، لأنهم قوم عندهم من الطغيان والعتو على شرع الله ما لا نعلمه صدر عن أمة سواهم اللهم إلا ما ذكر الله عن قوم نوح حين قال نوح عليه

(١) رواه البخاري (١٩٠٣) وابن ماجه واللفظ له (١٦٨٩) وغيرهما.

السلام ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧].

• ثم بين الله تعالى بعد ذكر أوصاف هذه البقرة وهمايتها، وغايتها بين سبب هذه القصة فقال: ﴿وَإِذ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي قتلتم نفساً محرمة فاختلقتم فيها فبين الله سبحانه وتعالى ما حصل بواسطة هذه البقرة التي ذبحت وذلك بأن هذا القتل يضرب ببعضها، فضرَبوا بعضُ منها ولا ضرورة لتعيينه، ثم نطق القتل وقال: إن الذي قتلتني فلان فبين الله تعالى ما كانوا يكتُمون.

• ثم بين الله تعالى أن بني إسرائيل بعد أن أنعم الله عليهم ببيان قاتل القتل الذي اختصموا فيه، وكادت تحصل فتنة عظيمة لولا أن الله منَّ عليهم بما ذكر.

• بعد هذا، أي بعد ما حصل من هذه النعمة الكبيرة قست قلوبهم أي صلبت وعظم استكبارهم فكانت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، وإنما ضرب الله المثل بالحجارة دون الحديد، لأن الحديد قد يلين مع النار، لكن الحجارة لا تلين، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل إن الحجارة خير من قلوبهم، لأن الحجارة يخرج منها ما فيه منافع للناس، ويهبط منها ما يهبط من خشية الله، فمن الحجارة ما تتفجر منه الأنهار، ومن الحجارة ما يشقق: أي يتشقق فيخرج منه الماء، ومن الحجارة ما يهبط من خشية الله.

• ثم ختم الله الآيات في نهاية القصة فقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وهذا يدل على عموم رقابة الله عز وجل، وأنه على كل شيء رقيب، ولا يفوته شيء، ولا يخفى عليه شيء، وقد أحاط بكل شيء علماً.

• إن بني إسرائيل لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، ولكنهم قابلوا أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، فشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم.



• قال ابن القيم^(١) - رحمه الله - وفي هذه القصة أنواع من العبر:

- منها: أن الإخبار بما من أعلام نبوة رسول الله ﷺ.
- ومنها: الدلالة على نبوة موسى، وأنه رسول رب العالمين.
- ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان، وقيام الموتى من قبورهم.
- ومنها: إثبات الفاعل المختار، وأنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، عدل لا يجوز عليه الظلم والجور، حكيم لا يجوز عليه العبث.
- ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطرق المتنوعات، زيادة في هداية المهتدي، وإعذاراً وإنذاراً للضال.

• ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله تعالى بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يبادر إلى الامتثال، فأثم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت فإن الأمر بذلك لا إجمال فيه ولا إشكال، بل هو بمنزلة قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكيناً، وصم يوماً، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، فإن الآية غنية عن البيان المنفصل، مبينة بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا شدد عليهم.

قال أبو جعفر بن جرير عن الربيع عن أبي العالية ((لو أن القوم حين أمروا أن يذبحوا بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها. ولكنها شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم)).

• ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمر الله الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه بالإنكار، وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]. قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ [البقرة: ٦٧]. فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط هذا الأمر بما سأله عنه، قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن هو الأمر به. ولو كان هو الأمر به لم يجوز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]. وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك

(١) إغائة اللفهان (٢/٤٣٦).

أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أخبروا عن ذلك رجعوا إلى السؤال مرة ثالثة عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال، توقفوا في الامتثال، ولم يكادوا يفعلون.

• ثم من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم ﴿الآن جئت بالحق﴾ [البقرة: ٧١]. فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فذلك ردة وكفر ظاهر. وإن أرادوا: أنك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها. فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]. فإنه لا إجمال في الأمر، ولا في الفعل. ولا في المذبح. فقد جاء رسول الله بالحق من أول مرة قال محمد بن جرير: وقد كان بعض من سلف يزعم أن القوم ارتدوا عن دينهم، وكفروا بقولهم لموسى ﴿الآن جئت بالحق﴾ وزعم أن ذلك نفى منهم أن يكون موسى عليه السلام أتاها بالحق في أمر البقرة قبل ذلك، وأن ذلك كفر منهم، قال: وليس الأمر كما قال عندنا، لأنهم قد أذعنوا بالطاعة بذبحها، وإن كان قولهم الذي قالوا لموسى جهلاً منهم، وهفوة من هفواتهم.

• ومن الأخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغلظها، وعدم تمكن الإيمان فيها.

قال عبد الصمد بن معقل عن وهب: كان ابن عباس يقول: ((إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى الميت فأخبرهم بقاتله، أنكروا قتله. وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق)) قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

• ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعاً وقدرًا. فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفع القتل عن نفسه، ففضحه الله تعالى وهتكه وحرمه ميراث المقتول.

• ومنها: أن بني إسرائيل فتنوا بالبقرة مرتين من بين سائر الدواب، ففتنوا بعبادة العجل وفتنوا بالأمر بذبح البقرة، والبقر من أبلد الحيوان، حتى ليضرب به المثل.

والظاهر: أن هذه القصة كانت بعد قصة العجل، ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه على أن هذا النوع من الحيوان الذي لا يمتنع من الذبح والحرق والسقي، ولا يصلح أن يكون إلهًا معبودًا من دون الله تعالى، وأنه إنما يصلح للذبح والحرق والسقي والعمل. انتهى.

المطلب الثالث: قصة أحد علماء بني إسرائيل الذي انسلخ من آيات الله واتبع هواه:

• قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ. سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧].

• قد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتلوه على قومه الذين كانت تنزل عليهم آيات الله، كي لا ينسلخوا منها وقد أوتوها، وقيل الضمير في ((عليهم)) لليهود، لأن المثل تابع لقصة موسى في السورة.

• والذي انسلخ من آيات الله هو عالم من علماء بني إسرائيل وقيل اسمه ((بلعام بن باعوراء)) والصحيح أن هذا الذي آتاه الله آياته من مبهمات القرآن، لم يبين الله ولا رسوله في حديث صحيح عنه اسمه.

• والمهم أن نأخذ من النبأ ما وراءه. فهذا العالم الذي آتاه الله من آياته وعلمه ما لم يكن يعلم، لم يحافظ على هذه النعمة، بل انسلخ من الاتصاف الحقيقي، بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فترك هذا، كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق، التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

• فلما انسلخ منها، أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه، حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين فأزاه إلى المعاصي أزا فغوى بعد أن كان من الراشدين المرشدين.

• يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. والمعنى: ولو شئنا لرفعناه بالآيات وجعلناه في عداد الأبرار والصالحين ولكنه أخلد إلى الأرض وجعل كل همه التمتع بلذائذها الفانية، وانحرف عن الهدى واتبع هواه، وران على قلبه ما كان يكسب حتى صار حيوانيًا شهوانيًا ظلمانيًا.

• هذا الذي أوتي علما بالكتاب ولم يعمل به، بل صارت روحه مدنسة، وقلبه مظلمًا صفته العجيبة التي كالمثل في الغرابة كصفة الكلب يلهث دائما سواء حملت عليه وكلفته أم لا؟.

• قال ابن القيم^(١) - رحمه الله تعالى -:

فشبه سبحانه من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره فترك العمل به، واتبع هواه وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أحببت الحيوانات وأوضعها قدرًا وأحسها نفسًا وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدّها شرها وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم ويتروح حرصًا وشرها، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه وإذا رميت له بحجر رجع إليه ليعضه من فرط غمّه، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان وأرضاه بالدنايا والحييف القدرة والمروحة أحب إليه من اللحم الطري، والمقدرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب لم يدع كلبًا يتناول معه منه شيئًا إلا هَرَّ عليه وقهره لحرصه وبخله وشره ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأى ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبجه وحمل عليه كأنه يتصور مشاركته له ومنازعته في قوته وإذا رأى ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له ولم يرفع إليه رأسه وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله، والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في لهته سر بديع وهو أن هذا الذي حالته ما ذكره الله من انسلخه من آياته واتباعه هواه إنما كان لشدة لهفه على الدنيا لانقطاع قلبه عن الله تعالى، والدار الآخرة فهو شديد اللهف عليها ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه واللهف والشقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، ولا فؤاد له إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فهو مثل الذي يترك الهدى، ولا فؤاد له إنما فؤاده ينقطع، قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهت وهكذا الذي انسلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهث على الدنيا من قلة صبره عليها، وهذا يلهث من قلة صبره على الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرًا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان فيه صبر على الجوع، وعلى كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثًا يلهث قائمًا وقاعدًا وماشيًا وواقفًا، ذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهت، فهكذا شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهت، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث وإن تركته، ولم تعظه فهو يلهث. وقال محمد بن قتيبة: كل شيء يلهث، إنما يلهث من أعباء أو عطش

(١) إعلام الموقعين (١/٢١٦) والأمثال في القرآن ص: ٢١٤.

إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الصحة وحال المرض، والعطش فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ... انتهى كلام ابن القيم باختصار.

• لقد ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آتاه الله آياته ضربه الله مثلاً للعباد وتحذيراً لكل من آتاه الله آياته، فانسلخ منها.

• وكمن من عالم دين رأيناه يعلم حقيقة دين الله ثم يزيغ عنها ويعلم غيرها، ويستخدم علمه في التحريفات المقصودة، والفتاوى المطلوبة لسلطان الأرض الزائل، يحاول أن يثبت بها هذا السلطان المعتدى على سلطان الله وحرماته في الأرض جميعاً.

المطلب الرابع: قصة قارون:

• قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَعَرَّاهُ عَنْ ثَمَنِهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧].

• كان قارون من قوم موسى ومن عشيرته المقريين وقد آتاه الله سعة في الرزق وكثرة في الأموال حتى إن مفاتيح الكنوز التي عنده ليثقل حملها على جماعة ذات قوة، ولقد كان بطراً فرحاً بما أوتى من مال وولد، فبغى على قومه وفرض سلطانه عليهم.

• حاول قومه أن يبينوا له طريق الرشاد فقالوا له: لا تفرح فإنه لا يفرح بالدنيا إلا من رضى بها واطمأن إليها ونسى الآخرة، والله لا يحب الفرحين الذين يغترون بهذه الدنيا، ونصحوه بأن يفعل الخير وأن يحسن إلى العباد كما أحسن الله إليه، وأن يتبني الدار الآخرة فيما أنعم الله عليه، وأن يستمتع من الدنيا بما أحله الله له ولا يكون مفسداً في الأرض.

• ماذا كان جواب قارون أمام هذا النص؟

قال تعالى عن جوابه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

• لقد أجاب على هذا النص بما ينم عن فساد طبيعته وغرور في نفسه، لقد قال: نلت هذه النعم بجدى وبما لدى من علم لم يقدر لغيري، وقد غفل بأن غناه من نعم الله عليه. وما أكثر ما يقع في ذلك من المسلمين كأن يقول أحدهم: لقد كونت ثروتي بذراعي، ونميت مالي بشطارتي ونحو ذلك ناسياً أن الله هو الرزاق الذي منحه ذلك بلاءً له ليشكر أم يكفر.

• قال تعالى رداً على قارون ومثله: ﴿أَوْ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

• يبين الله تعالى أن كثيراً من أمثال قارون ممن عاشوا في الأجيال الماضية وكانوا أشد قوة وأكثر غنى، قد أهلكهم الله بسبب طغيانهم وبطهرهم النعمة.

• ما زال قارون في كبره وغروره، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآئُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٩-٨٣].

• خرج قارون يوماً على قومه في زينته تحف به مظاهر الثراء التي تغرى وتفتن قاصري النظر، فقال فئة من الناس ممن فتنوا بهذه المظاهر: ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال آخرون ممن يعلمون حقيقة هذه المظاهر الخلابية الكاذبة الزائلة وذلك بما آتاهم الله من علم نافع فقالوا لهم: ويلكم ثواب الله خير مما أوتي قارون وأبقى من كل ما ترون من مظاهر لا ينبغي للعاقل أن يقيم لها وزناً.

• ولكن ما حصل عليه قارون من جاه وسلطان لم يدفع عنه عذاب الله حين جاءه، فحسف الله به وبداره الأرض فلم يجد له فئة من الناس تنصره من عذاب الله، وهكذا أصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون: لو مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا بِالثَّرَةِ الْعَظِيمَةِ لَأَضَلَّتْنَا وَخَسَفَ اللَّهُ بَنَّا الْأَرْضَ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ.

• لم يقص الله علينا هذه القصة للتسلية والتسرية ولكن قصها سبحانه للاعتبار وليعلم الناس أن الدنيا دار امتحان واختبار، فهي متاع الغرور، فما الجاه والغنى ليردا ما قدر الله، ولا يمنعان من عذاب الله إن فرط صاحبهما وتعدى حدود الله، وليست الدنيا بدار اطمئنان فلا يركن إليها إلا جاهل بحقيقتها.

• كما أن في هذه القصة دعوة لتأدية حق الله وذلك بإعطاء المستحقين المحتاجين

حقهم في الحياة والتحذير من البغي والطغيان والبطر والنعمة، لأن عاقبة ذلك زوالها والعقاب الشديد من الله في الدنيا والآخرة.

• المطلب الخامس: قصة الخضر مع موسى عليهما السلام:

• وذلك أن موسى عليه السلام قام ذات يوم في بني إسرائيل مقاماً عظيماً، علمهم فيه علوماً جمّة، وأعجب الناس بكمال علمه. فقال له قائل: يا نبي الله، هل يوجد أو هل تعلم في الأرض أحداً أعلم منك؟ فقال: لا.

بناءً على ما يعرفه، وترغيباً لهم في الأخذ عنه.

• فأخبره الله أن له عبداً في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى وإلهامات خارجة عن الطور المعهود، فاشتاق موسى إلى لقيه رغبة في الازدياد من العلم، فطلب من الله أن يأذن له في ذلك وأخبره بموضعه وتزودا حوثاً.

• وقيل له: إن فقدت الحوت فهو في ذلك المكان، فذهب فوجده، وكان ما قص الله من نبأهما في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا. قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٠-٦٤].

• التقى موسى بالعبد الصالح وزحّب به وطلب منه أن يأذن له بمرافقته ليستزيد من علمه فأجاب العبد الصالح بأنه لا يستطيع الصبر على ملازمته إذ كيف يصبر على شيء يخالف ظاهره شريعته، فرد موسى عليه قائلاً:

ستجدني إن شاء الله صابراً على تصرفاتك ولا أعصى لك أمراً، فأجاب العبد الصالح: إن اتبعني فسأشترط عليك شرطاً أن لا تسألني عن شيء من تصرفاتي لأنني سأبين لك أخيراً سرها وتعليلها. وبين الله تعالى هذا الحوار فقال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا. قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا. قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا. قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا. قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [٦٥-٧٠].

• سار موسى والعبد الصالح على ساحل البحر فمرت بقرهما سفينة فطلبها من أصحابها أن يحملوها معهم فقبلوا، وركبا في السفينة، وفي غفلة من أصحابها عمد العبد الصالح إلى جدار السفينة الخشبي فثقبه، فهاهنا موسى هذا الصنيع ونسى العهد الذي أخذه على نفسه من عدم الاعتراض على فعل العبد الصالح فقال أتحرق سفينة القوم لتغرقهم بعد أن أكرموا وفادتنا؟ لقد علمت شيئاً معيباً. ولكن العبد الصالح ذكره بالشرط الذي بينهما، فأدرك موسى خطأه وطلب منه أن لا يؤاخذه على نسيانه.

• تابعا المسير فوجدا غلاماً يلعب مع أقرانه فاحتال العبد الصالح حتى أخذه بعيداً عن رفاقه وقتله، فانفطر قلب موسى من هذه الجريمة النكراء واعترض ثائراً: أقتلت نفساً طاهرة بريئة بغير ذنب اقترفته؟ فهي لم تقتل نفساً حتى تستحق إهدار دمها، لقد صنعت شيئاً منكراً فما كان من العبد الصالح إلا أن قال له بلهجة العاتب المؤنب: ألم أقل لك إنك لن تستطيع صبراً على ما تراه في صحبتي؟ فأجابه موسى مظهراً ندمه: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني فقد وجدت لك عذراً — من جهتي — في مفارقتك إياي.

• ثم تابعا سيرهما حتى أعياهما التعب والجوع فدخلا قرية، وطلبا من أهلها طعاماً لهما فرفض أهل هذه القرية أن يضيفوهما وردوهما ردّاً غير لطيف، وفيما هما عائدان وجدا جداراً يوشك أن ينهار فأصلحه العبد الصالح وأقام بنيانه، فما وسع موسى إلا أن قال: أتمازى قوما طردونا بإصلاح جدارهم؟ لو شئت لاتخذت على عملك هذا أجراً يكفى لطعامنا. وبعد هذا الاعتراض حصلت الفرقة بين موسى والعبد الصالح.

• وقد بين الله ذلك بقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغَرَّقَ أَهْلُهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتِكُ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَبَّحْ بِكُ بِنَاءِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

• وقبل أن يفارق العبد الصالح موسى شرع يبين له الأسرار التي اكتنفت الأعمال التي قام بها قائلاً:

• أما السفينة فكانت لمساكين ليس لهم مال سواها وقد علمت أن ملكاً غاصباً كان يتعقب كل سفينة صالحة ويسلبها من أهلها فأردت أن أجعل فيها عيباً يمكن إصلاحه فيما بعد حتى إذا رآها الملك ظنها غير صالحة فيتركها لأصحابها وتسلم لهم.

• وأما الغلام فقد كانت تظهر عليه علامات الفساد منذ الصغر وكان أبواه مؤمنين صالحين فخشيت بما فطر عليه الآباء من حب الأبناء أن يطغى فسادهم على صلاحهم فيجرحهما إلى الكفر والطغيان، فقتلته لأريح هذين الأبوين المؤمنين من مثل هذا الغلام الشرير ويرزقهما بدلاً منه مولوداً أظهر وأرحم.

• وأما الجدار الذي أقمته وتعبت في بنائه فقد كان لغلامين يتيمين في المدينة وتحت كَنْزٍ لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك الكريم أن يحفظ لهما الكنز حتى يكبرا ويستخرجاه وهذا كله ليس من اجتهدادي بل كان وحياً من الله وهو تفسير ما لم تستطع عليه صبراً.

• وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا. وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٩-٨٢].

• وقد ذكر النبي ﷺ قصة موسى مع الخضر في حديث طويل جمع فأوعى هذه القصة وإليك نص الحديث:

• عن سعيد بن جبيرة قال: قلت لابن عباس أن نوحاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى بن إسرائيل، إنما هو موسى آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا

أبي بن كعب عن النبي ﷺ: «أن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا. فعتب الله عليه إذ لم يرُدَّ العلم إليه فقال له: بلى، لي عبد بمجمع البحرين هو أعلم منك قال: أي رب ومن لي به؟ وربما قال سفيان: أي رب وكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً فتجعله في مكنل حيثما فقدت الحوت فهو ثم وربما قال: فهو ثمه - وأخذ حوتاً فجعله في مكنل ثم انطلق هو وفتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما، فرقد موسى، واضطرب الحوت فخرج فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سرباً، فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق فانطلقا يمشيان بقية ليلتهما ويومهما، حتى إذا كان من الغد قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا. ولم يجد موسى النصب حتى جاوز حيث أمره الله. قال له فتاه: أرايت إذ أويانا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً، فكان للحوت سرباً ولهما عجباً. قال له موسى ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً - رجعا يقصان آثارهما - حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم موسى، فرد عليه فقال: وأنى بأرضك السلام قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً، قال: يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. قال: هل أتبعك؟ قال: (إنك لن تستطيع معي صبراً وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً - إلى قوله ... إمرأ) فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة كملوهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول. فلما ركبا في السفينة جاء عصفور فوق على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، قال له الخضر: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر. إذ أخذ الفأس فنزع لوحاً، قال: فلم يفجأ موسى إلا وقد قلع لوحاً - بالقدوم، فقال له موسى: ما صنعت؟ قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهما فخرقتهما لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً. فكان الأولى من موسى نسياناً فلما خرجا من البحر مروا بغلام يلعب مع الصبيان فأخذ الخضر برأسه فقلعه بيده فقال له موسى: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً. قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لديني عذراً فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها

جداراً يريد أن ينقض مائلاً. قال: قوم أتيناكم فلم يطعمونا ولم يضيفونا عمدت إلى حائطهم لو شئت لاتخذت عليه أجراً. قال هذا فراق بيني وبينك، سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً قال النبي ﷺ: وددنا أن موسى كان صبر يقص علينا من أمرهما»^(١).

• الراجح من قول أهل العلم أن الخضر كان نبياً من الأنبياء وأنه ليس بحجى الآن كما يزعم البعض ولكنه توفى لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. فالخضر إن كان بشراً فقد دخل في هذا العموم لا محالة، ولا يجوز تخصيصه منه إلا بدليل صحيح، والأصل عدمه حتى يثبت، ولم يذكر فيه دليل على التخصيص عن معصوم يجب قبوله.

• في هذه القصة من الفوائد والأحكام والقواعد شيء كثير ننبه على بعضه بعون الله ونذكر المهم منه:

• فمنها: ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه، ومشروعية الرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور.

• ومنها: البداية في العلم بالأهم فالأهم، فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالاً بالتعليم فقط، بل يتعلم ليعلم.

• ومنها: جواز أخذ الخادم في السفر والخضر لكفاية المؤن وطلب الراحة، كما فعل موسى ﷺ.

• ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان لقول فتى موسى ﴿وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣].

• ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله.

• ومنها: أن العلم الذي يعلمه الله للعبد نوعان: علم مكتسب يدركه العبد بطلبه وجهه.

وعلم إلهي لدي يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٦]. فالخضر أعطى من هذا النوع الحظ الأوفر.

● ومنها: التأدب مع المعلم والتلطف في خطابه.

● ومنها: أن طلب العلم يحتاج إلى صبر جميل.

● ومنها: جواز ركوب البحر إذا لم يكن في ذلك خطر.

● ومنها: أن الناسى غير مؤاخذ، لا في حق الله ولا في حق العباد، إلا إن ترتب على ذلك إتلاف مال، ففيه الضمان حتى على الناس لقوله ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: ٧٣].

● ومنها: أن الأمور تجري على ظاهرها، وتعلق بها الأحكام الدنيوية.

● ومنها: فيه تنبيه على القاعدة المشهورة الكبيرة، وهو: أنه يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الخفيف، ويراعى أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما فإن قتل الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويفتن أبويه عن دينهما أعظم شر. فلذلك قتله الخضر بعدما ألهمه الله الحقيقة، فكان إلهامه الباطني بمنزلة البينات الظاهرة في حق غيره.

● ومنها: القاعدة الكبيرة الأخرى، وهي: أن عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة يجوز بلا إذن حتى لو ترتب عليه إتلاف بعض المال، كما حرق الخضر السفينة لتعيب فتسلم من غضب الملك الظالم، وتحت هاتين القاعدتين من الفوائد ما لا حصر له.

● ومنها: أن العمل يجوز في البحر كما يجوز في البر، لقوله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩].

● ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب.

● ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه وفي ذريته وما يتعلق به، لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢].

● ومنها: استعمال الأدب مع الله حتى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَارَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]. مع أنها بأمر الله وقضائه وقدره.



البحث الثامن: طرف من فضائل موسى عليه السلام من الكتاب والسنة

المطلب الأول: طرف من فضائله من القرآن الكريم:

- أثنى الله تعالى على نبيه موسى عليه السلام في القرآن في مواضع كثيرة نذكر منها:
- قال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا * وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١-٥٣].
- وقال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].
- وقال تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].
- وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣].
- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].
- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

المطلب الثاني: طرف من فضائله من السنة النبوية المطهرة:

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «(الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أما جوزي بصعقه الطور)»^(١).
- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(إن موسى كان رجلاً حياً ستيرا لا يرى من جلده شيء استحياء منه، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص وإما أذرة)»^(٢) وإما آفة وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل. فلما فرغ أقبل

(١) رواه البخاري (٣٣٩٨) ومسلم (٢٣٧٤) وغيرهما.

(٢) الآدر: هو عظيم الخصيتين.

إلى ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وأبراه مما يقولون. وقام الحجر، فأخذ ثوبه فلبسه، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه. فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً فذلك قوله [الأحزاب: ٦٩] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾^(١).

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قسم النبي ﷺ قسمًا، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله. فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: يرحم الله موسى، قد أودى بأكثر من هذا فصبر»^(٢).

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «خرج علينا النبي ﷺ يوماً فقال: عرضت عليّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقليل هذا موسى وقومه»^(٣).



(١) رواه البخاري (٣٤٠٤) ومسلم (٦٠٣١-٦٠٣٢) نروي. قلعي.

(٢) رواه البخاري (٣١٥٠) ومسلم (١٠٦٢).

(٣) رواه البخاري (٣٤١٠) ومسلم (٣٧٥).

المبحث التاسع: وفاة هارون وموسى عليهما السلام

• جاء في بعض كتب التاريخ قصة وفاة هارون عليه السلام فأعرضت عنها. والخلاصة: أنه مات قبل أخيه موسى بأحد عشر شهراً، وكانت وفاته في أرض التيه قبل دخول بني إسرائيل أرض فلسطين. والله أعلم.

• وأما وفاة موسى عليه السلام وقصته مع ملك الموت فيها أحاديث صحيحة ذكرها البخاري وغيره.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام، فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه فقال: أرسلني إلى عبد لا يريد الموت. قال: فردّ الله إليه عينه وقال ارجع إليه. فقل له: يضع يده على متن ثور، فله، بما غطت يده بكل شعرة، سنة. قال: أي ربّ ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن فسأل الله أن يدينه من الأرض المقدسة رميةً بحجر. فقال رسول الله ﷺ: فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، تحت الكثيب الأحمر»^(١).

• قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥١٠/٦):

قال ابن خزيمة: أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا إن كان موسى عرفه فقد استخف به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص له من فقأ عينه؟

والجواب: أن الله لم يبعث ملك الموت لموسى وهو يريد قبض روحه حينئذ، وإنما بعثه إليه اختياراً وإنما لطم موسى ملك الموت لأنه رأى آدمياً دخل داره بغير إذنه ولم يعلم أنه ملك الموت، وقد أباح الشارع فقأ عين الناظر في دار المسلم بغير إذن. وعلى تقدير أن يكون عرفه فمن أي لهذا المبتدع مشروعية القصاص بين الملائكة والبشر؟ ثم من أين له أن ملك الموت طلب القصاص من موسى فلم يقتص له؟ انتهى باختصار.

• وتوفي موسى عليه السلام بعد أخيه هارون عليه السلام في أرض التيه ولم يدخل الأرض المقدسة ببني إسرائيل وإنما دخلها بهم يوشع بن نون.

وقيل إنه عاش مائة وعشرين سنة، وقد اختلف العلماء في موضع قبره، وذلك في اختلافهم حول قوله ﷺ: «قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر» والكثيب الأحمر: الرمل المجتمع.

وقد اشتهر عن قبر بأريحا عنده كثيب أحمر أنه قبر موسى. والله أعلم.

(١) رواه البخاري (١٣٣٩-٣٤٠٧) ومسلم (٢٣٧٢).

المبحث العاشر: فوائد مستنبطة من قصة موسى ﷺ

- منها: لطف الله بعباده كما لطف بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلم ابنها.
- ومنها: العبرة من الأمم السابقة، إنما يستفيد منها ويستنير بها المؤمنون.
- ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تطالب بحقوقها لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها.
- ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.
- ومنها: أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق، وأن وعد الله نافذ لا بد منه، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله تعالى، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال.
- ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال إذا انتفى المحذور، كما صنعت أخت موسى وابنتا صاحب مدين.
- ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع.
- ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عرف لا يجوز، فإن موسى ندم على قتله القبطي واستغفر الله منه وتاب إليه.
- ومنها: أن النصيحة للغير وتحذيره من الشر ليست نعمة، كما ساق الله خبر ذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى محذرا لموسى ﷺ.
- ومنها: أن الرحمة والإحسان على الخلق من أخلاق الأنبياء.
- ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنْ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].
- هذان الوصفان هما تمام الأعمال كلها، أن يكون العامل قويا على ذلك العمل، وأن يكون مؤتمنا عليه، وبالتالي يحصل مقصود العمل وثمرته. والخلل والنقص سببه الإخلال بهما أو بأحدهما.
- ومنها: يجوز للإنسان أن يخاطب لابنته ونحوها من هو ولي عليها، الرجل الصالح.
- ومنها: أن الفصاحة والبيان مما يعين على التعليم وعلى إقامة الدعوة، لهذا طلب موسى من ربه أن يحل عقده من لسانه ليفقهوا قوله.
- ومنها: أن الذي ينبغي في مخاطبة الملوك والرؤساء ودعوتهم وموعظتهم: الفرق والكلام اللين الذي يحصل به الإفهام بلا تشويش ولا غلظة، وهذا يحتاج إليه في كل مقام، لكن هذا أهم المواضع.
- ولنكتف من قصة موسى بهذه الفوائد مع أن فيها فوائد كثيرة للمتأملين.

الفصل الرابع عشر: قصة يونس ﷺ

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

- لم يعلم من نسبه في كتب التفسير والحديث إلا أنه: يونس بن متى.
- وذكر يونس عليه السلام باسمه في القرآن الكريم أربع مرات:
- ١- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ وَدَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].
- ٢- وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكَأَلَّا فَضْلَنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].
- ٣- وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨].
- ٤- وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧].
- وذكر في القرآن بوصفه في موضعين:
- الأول: قال تعالى: ﴿وَذَا الثُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧].
- الثاني: قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].



المبحث الثاني: رسالته ﷺ

المطلب الأول: يونس يدعو قومه:

• يونس عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل العظام، بعثه الله إلى أهل نينوى - من أرض الموصل بالعراق - فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته فأبوا عليه، ثم كرر عليهم الدعوة فأبوا.

• فوعدهم العذاب وخرج من بين أظهرهم ولم يصبر الصبر الذي ينبغي، وخرج من مدينتهم مغاضبا لهم بسبب عصيانهم وإصرارهم على الكفر، وكان تركه للمدينة بدون إذن ربه اعتقاداً منه أن الله لن يؤاخذه على ما فعل.

• وظل سائراً حتى أتى إلى ساحل البحر.

المطلب الثاني: يونس في السفينة ومنها إلى بطن الحوت:

• لما وصل يونس عليه السلام إلى ساحل البحر، وجد سفينة موقرة من الركاب والأحمال، فطلب من أصحابها أن يركبوه في السفينة معهم ففعلوا.

• أقلعت السفينة وسارعت في عرض البحر، فلما توسطوا البحر شارفت على الغرق ودار الأمر بين أن يبقوا جميعاً فيها فيهلكوا وبين أن يلقوا بعضهم بمقدار ما تحف السفينة فيسلم الباقون.

• وبعد التشاور اختاروا الأخير لعدولهم وتوفيقهم.

• فاقترعوا فأصاب القرعة أناساً منهم، ومنهم يونس ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُوسُفُ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ^(١) إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ^(٢) * فَسَاهَمَ^(٣) فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ^(٤) * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ^(٥)﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٢].

(١) أبق: هرب.

(٢) المشحون: المملوء.

(٣) ساهم: اقترع.

(٤) المدحضين: المغلوبين.

(٥) ملِيم: أي أتى بما يلام عليه.

• فمن وقعت عليه القرعة ألقى في البحر بدلا من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هيا أسبابه.

• وكان ممن ألقى يونس عليه السلام فابتلعه حوت في البحر ابتلاءً، لم يكسر له عظماً ولم يعضغ له لحماً.

المطلب الثالث: يونس يخرج من بطن الحوت ويذهب إلى قومه لدعوتهم مرة ثانية:

• فلما صار في جوف الحوت، في تلك الظلمات نادى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. فأمر الله الحوت أن يلقيه بالعراء.

• فخرج من بطن الحوت كالفرخ المبعوط من البيضة في غاية الضعف والوهن فلفظ الله به وأنبث عليه شجرة من يقطين^(١) فأظلمت بظلمها الظليل حتى قوى واشتد قال تعالى: ﴿فَبَدَّلْنَا بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٥-١٤٧].

• وأمره الله أن يرجع إلى قومه فيعلمهم ويدعوهم، فاستجاب له أهل بلده مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فممتعناهم إلى حين.

• قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّوسُسُ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

والمعنى: لو أن كل قرية من القرى تؤمن لنفعها إيمانها لكنها لم تؤمن إلا قوم يونس فإنهم لما آمنوا كشف الله عنهم عذاب الذل والهوان في الحياة الدنيا ومتعهم بمتع هذه الحياة إلى نهاية أعمارهم.

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَأَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧-١٤٨].



(١) اليقطين: كل شجرة لا تقوم على ساق نحو الدباء والخنظل والبطيخ والمشهور أنه القرع وقيل التين وقيل الموز.

المبحث الثالث: ذكر يونس عليه السلام في السنة

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى»^(١).

• عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لأحد أن يكون خيرا من ابن متى»^(٢).

• عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة ذي النون إذا دعا وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»^(٣).



١

(١) رواه البخاري (٣٤١٦) ومسلم (٢٣٧٦) وغيرهما.

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٤).

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٠٥).

المبحث الرابع: وفاته والفوائد المستنبطة من قصته عليه السلام

• لم يثبت نقل صحيح عن متى توفى وأين دفن.

• وأما الفوائد المستنبطة:

• فمنها: عتاب الله ليونس عليه السلام اللطيف وحبه في بطن الحوت ليكون كفارة وآية عظيمة ومعجزة ليونس عليه السلام.

• ومنها: استعمال القرعة عند الاشتباه في مسائل الاستحقاق والحرمان إذا لم يكن مرجح سواها، وفي عمل أهل السفينة هذا العمل دليل على القاعدة المشهورة أنه يرتكب أخف الضررين لدفع الضرر الذي هو أكبر منه، ولا ريب أن إلقاء بعضهم وإن كان فيه ضرر ولكنه أخف من هلاك الجميع.

• ومنها: أن العبد إذا كانت له مقدمة صالحة مع ربه وقد تعرف إلى ربه في حال الرخاء، أن الله يشكر له ذلك ويعرفه في حالة الشدة بكشفها بالكلية، أو تخفيفها. ولهذا قال سبحانه في قصة يونس: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤].

• ومنها: استحباب الدعاء بدعوة يونس عليه السلام لكل مكروب أو مهموم إلا فرج الله عنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

• ومنها: أن الإيمان ينجي من الأهوال والشدائد لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]. أي إذا وقعوا فيها لإيمانهم.

• ومنها: الصبر في مجال الدعوة إلى الله تعالى، ولهذا يدعو الله نبيه محمدا ﷺ إلى الثبات في مجال الدعوة إلى الله وعدم الفرار من قومه ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

اللهم احشرونا في زمرة الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.



الفصل الخامس عشر: قصة أيوب عليه السلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

• قال الحافظ ابن حجر في الفتح: (٤٨٤/٦)

يقال: هو أيوب بن سارى بن رغوال بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم.

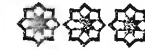
• وذكر في القرآن الكريم أربع مرات.

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

٢- وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

٣- وقال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

٤- وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا لَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١].



المبحث الثاني: رسالته وابتلاء الله له

• كان أيوب عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل ومن الأصفياء الكرام، وقد ذكره الله في كتابه وأثنى عليه بالخصال الحميدة عمومًا، والصبر على البلاء خصوصًا.

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((إن أيوب نبي الله صلى الله عليه وسلم لبث في بلانه ثمان عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تعلم، والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، قال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه الله، فيكشف ما به، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده فلما كان ذات يوم، أبطأ عليها، فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. فاستبطأته فبلغته فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء فهو أحسن ما كان، فلما رآته، قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى والله على ذلك ما رأيت أحدًا كان أشبه به منك إذ كان صحيحًا قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداها على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاضت وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورق (الفضة) حتى فاضت^(١).

• وقال العلامة الشنقيطي^(٢) - رحمه الله -:

وغاية ما دل عليه القرآن: أن الله ابتلى نبيه أيوب عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضر، ووهبه أهله ومثلهم معهم، وأن أيوب نسب ذلك في «ص» إلى الشيطان، ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله، ابتلاء ليظهر صبره الجميل وتكون له العافية الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند الله تعالى. وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب،

(١) صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده (٣٦١٧) وابن حبان (٢٨٩٨)، والحاكم (٥٨١/٢-٥٨٢) وانظر الصحيحة (١٧).

(٢) أضواء البيان (٦٨١/٤).

لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء، فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء. انتهى.

● بعد هذا الصبر الجميل أعاد الله له أهله وماله وأعطاه من النعم والخيرات شيئاً كثيراً، وصار بهذا الصبر قدوة للصابرين وسلوة للمبتلين وعبرة للمعتبرين. ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

● وكان في مرضه قد وجد على زوجته المرأة البارة الرحيمة في بعض شيء، فحلف أن يجلدها مائة جلدة فخفف الله عنه وعنهما، وقيل له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ﴾ [ص: ٤٤]. أي خذ حزمة من حشيش أو علف أو ریحان ونحو ذلك فيها مائة عود فيضربها به ضربة واحدة فيخرج بذلك من يمينه. انتهى.



البحث الثالث: وفاته والفوائد المستنبطة من قصته

- لم يثبت نقل صحيح عن وفاته وعمره وموضع قبره.
- روى الطبري أن مدة عمره كان ثلاثاً وتسعين سنة والله أعلم.
- أما الفوائد المستنبطة من القصة:
- فمنها: الصبر الجميل على البلاء فيه الفوز في الدنيا والآخرة.
- ومنها: قد يتلى الله تعالى من يحبه من عباده ليزيد في علو مقامه ورفعة شأنه.
- ومنها: علو مقام الصبر ومثله الشكر فالأول على البأساء والثاني على النعماء.
- ومنها: وجوب الكفارة على من حنث في يمينه.
- ومنها: أن كفارة اليمين لم تشرع لأحد قبل شريعتنا، وأن اليمين عندهم بمنزلة، النذر لا بد من وفائه، وكالحدود موجبة، ولو كان في شرعهم كفارة لعدل إلى التكفير؟
- ومنها: أن من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه ونحوه أنه يقام عليه مسمى ذلك، لأن الغرض التنكيل ليس الإتلاف والإهلاك.
- ومنها: رحمة الله بعباده المؤمنين، فقد كانت امرأة أيوب عليه السلام ضعيفة عن احتمال مائة ضربة التي حلف أن يضربها إياها وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفتاه بجمع الضربات بالضغث كما خفف عن المريض.
- ومنها: فضل رعاية الزوجة لزوجها المبتلى والصبر عليه.
- ومنها: أهمية الدعاء، وكما قال ابن القيم -رحمه الله-: الدعاء إذا سلم من الموانع من أنفع الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، فهو من أنفع الأدوية، وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله، أو يخففه إذا نزل. ولقد ظهر أثره في قول أيوب عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ مَسْنِي الضَّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].
- ومنها: أن أيوب عليه السلام جمع في هذا الدعاء ((ألي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين)) بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه ووجود طعم الحبة في التملق له والإقرار له بصفة الرحمة وأنه أرحم الراحمين والتوسل إليه بصفاته سبحانه وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه.
- ومنها: مشروعية التداوي وأنه من الأسباب التي يرفع الله بها البلاء، لأن الله تعالى

أمر أيوب عليه السلام أن يشرب ويغتسل من الماء الذي نبع تحت رجله، وكان بإمكانه تعالى أن يشفيه دون أن يدعوه لاتخاذ هذه الوسيلة للتداوى.

● ومنها: الحث على حسن معاملة الزوجة والرفق بها.

● ومنها: جواز الحرص على الاستكثار من الحلال في حق من وثق من نفسه بالشكر عليه.

وهذا مستفاد من قوله ﷺ: «(بينما أيوب يغتسل عرياناً خراً عليه رجل^(١) جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيك عما ترى؟

قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»^(٢).

وفي الحديث: تسمية المال الذي يكون من هذه الجهة بركة.

وفيه: فضل الغنى الشاكر.



الفصل السادس عشر: قصة داود عليه الصلاة والسلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

● هو: داود بن إيشا بن عويد بن عابد بن سلمون بن نحشون بن عوينا دب بن إرم ابن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، عليه السلام.

● ورد اسم داود عليه السلام في القرآن الكريم في ستة عشرة موضعاً [سورة البقرة: ٢٥١، النساء: ١٦٣، المائدة: ٧٨، الأنعام: ٨٤، الإسراء: ٥٥، الأنبياء: ٧٨-٧٩، النمل: ١٥-١٦، سبأ: ١٠-١٢، ص: ٢٠-٢٢-٢٤-٢٦-٣٠].

المبحث الثاني: مناقبه وفضائله عليه السلام:

● شجاعته عليه السلام، كان من جملة العسكر الذين كانوا مع طالوت الذي اختاره أحد أنبياء إسرائيل ملكاً على بني إسرائيل لشجاعته وقوته، وعلمه في السياسة ونظام الجيوش، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ولما برزوا لجالوت وجنوده وصبر عسكر طالوت، واستعانوا بالله تفوق داود عليه الصلاة والسلام على الجميع بالشجاعة العظيمة فباشر بنفسه قتل ملكهم جالوت وحصلت الهزيمة على بقيتهم ونصر الله بني إسرائيل ذلك النصر ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

قال ابن كثير^(١) - رحمه الله -:

فيه دلالة على شجاعة داود عليه السلام، وأنه قتل جالوت قتلاً أذل الله تعالى به جنده وكسر جيشه، ولا أعظم من غزوة يقتل فيها قائد الجيش، فتغنم بسبب ذلك الأموال الجزيلة، ويؤسر الأبطال والشجعان والأقران، وتعلو كلمة الإيمان على الأوثان، ويظهر الدين الحق على الباطل وأوليائه. انتهى. وبعد موت طالوت تولى الملك بعده داود عليه الصلاة والسلام.

● لقد آتاه الله الملك والحكمة والعلم، والفضل العظيم.

● قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فالمراد بالملك: السلطان، والمراد بالحكمة هنا: النبوة، أما العلم الذي علمه الله نبيه

(١) قصص الأنبياء (ص: ٥٢٩).

(١) رجل جراد: أي جماعة جراد.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩١).

داود عليه السلام فمُنه ما ذكره الله في كتابه حيث قال: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لَتَحْمِلَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

فعلمه الله صناعة الدروع، وكما قال تعالى: ﴿أَنْ اَعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [سبا: ١١].

أي اجعل الدروع طويلة تستر المقاتل وتقيه ضرب السيف ((وقدر في السرد)) أي اجعل المسمار مناسباً للحلقة، فلا يكن غليظاً ولا دقيقاً، إلى غير ذلك من أنواع العلوم الدينية والدنيوية وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥].

• وقال الله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

والزبور: اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سباء: ١٠].

أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والنعم الدينية والدنيوية، ومن نعمه عليه، ما خصه من أمره تعالى الجمادات، كالجبال وكذلك الطير أن تزوب معه، وترجع التسبيح بحمد ربها، بمحاوie له. وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده.

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، وهو تسخير الحديد له وتليينه حتى لكأنه عجينة يتصرف فيها كما شاء.

• وقال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابَ﴾ [ص: ١٧-٢٠]. ومن أعظم العابدin، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ((ذا الأيد)) أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه ((إنه أواب)) أي رجّاع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه، بالحب، والخوف، والتأله، والرجاء، وكثرة التضرع، والدعاء، رجّاع إليه، عندما يقع منه بعض الخلل بالإقلاع والتوبة النصوح. ثم ذكر الله منته عليه بفصل الخطاب: أي الخصومات بين الناس، وكان معروفاً بذلك، ومقصوداً.

• ومن الله عليه بحسن الصوت ما لم يؤت أحداً من العالمين.

• ثناء النبي ﷺ على عبادة داود عليه السلام.

• عن عبد الله بن عمرو قال: ((قال لي رسول الله ﷺ: أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه))^(١).

• عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ((قال لي رسول الله ﷺ: ألم أنبا أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ فقلت نعم فقال: فإنك إذا فعلت ذلك هجمت العين، وتفهمت النفس، صم من كل شهر ثلاثة أيام، فذلك صوم الدهر، أو كصوم الدهر، قلت: إني أجدي قوة، قال: فصم صوم داود عليه السلام وهو (أعدل الصيام) وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى قلت: إني أطيق أفضل منه يا رسول الله، قال: لا أفضل من ذلك))^(٢).

• عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال ((خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقُرْآنُ))^(٣)، فكان يأمر بدوابه، فتسرج، فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يده))^(٤).

• عن أبي موسى ؓ: ((أن النبي ﷺ قال له: يا أبا موسى، لقد أوتيت مِزْمَارًا من مزامير آل داود))^(٥).

• ونقل الإجماع على استحباب سماع القرآن من ذي الصوت الحسن، وكان عمر بن الخطاب ؓ يقدم الشاب الحسن الصوت لحسن صوته بين يدي القوم.

• وقال ﷺ عن داود عليه السلام: ((كان أعبد الناس)) وفي رواية: ((أعبد البشر))^(٦).



(١) أخرجه البخاري (١١٣١-٣٤٢٠) ومسلم (١١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٨-٣٤١٩).

(٣) المراد بالقرآن هنا: مصدر القراءة لا القرآن المعهود لهذه الأمة، والمراد ((الزبور)) الذي أنزل على داود عليه السلام.

(٤) أخرجه البخاري (٣٤١٧).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٤٨).

(٦) رواه مسلم (١١٥٩) عن عبد الله بن عمرو، والترمذي (٣٤٩٠) وانظر الصحيحة (٧٠٧).

المبحث الثالث: فتنة داود عليه السلام بين الحقيقة والإسرائيليات

• قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغِي بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ. قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَى نَعَاجِهِ وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتْنَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ. فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ [ص: ٢١-٢٥].

• لما مدح الله داود وأثنى عليه أتبع ذلك بذكر حادثة له. وبدأها باستفهام «وهل أتاك نبأ الخصم» للتنبيه على علو القصد وسمو الغرض ولفتا للنظر ألا ترى إلى قوله: «(نبأ)» والنبأ هو الخبر المهم. وهذه القصة كانت مثار نقاش كثير من قديم الزمن، وخب فيها ووضع القصص ونقله الأخبار، وقد ساعدهم على ذلك أن في التوراة والإنجيل ما يثبت لبعض الأنبياء، كداود ما يترفع عنه عامة الناس فكيف الحال مع الأنبياء المرسلين؟ ونحن -المسلمين- نقول بعصمة الأنبياء أي ترفعهم عن الدنيا وبعدهم عن سفاسف الأمور، وهم قوم اصطفاهم الله واختارهم، ونفوسهم عالية يستحيل عليهم ما قاله الإسرائيليون في حقهم ونقله بعض علماء المسلمين ودونوه في كتبهم، وكثيراً منهم من نفي مثل هذه الأقوال.

• ونسوق القصة على أساس أن داود نبي الله وهو معصوم من الزنا والقتل والدس والوقعة. فإن ذلك غير مقبول بحال من الأحوال، وسياق القصة يثبت ذلك فالقرآن قد ذكر لداود صفات كلها مدح وثناء فإنه تواب أواب وله زلفى ومكانة عند ربه، وصاحب قوة وفضل في عمله ثم ذكر القصة وأردفها بذكر مدائح له وهذا كله يتنافى مع وصفه بالفعل المنكر والعمل القبيح.

• وفي الواقع تتلخص الحادثة أن داود كان ملكاً له سلطان، وله أتباع وخدم، وله مصالح مادية مع الناس، وهذا كله يوجد له أعداء، واتفق أن جماعة من الأعداء طمعوا في أن ينالوا من نبي الله داود، وكان له يوم يخلو فيه للعبادة، وانتهزوا الفرصة وتسوروا عليه المحراب فلما دخلوا عليه ووجدوا عنده ما يمنعهم من ذلك، اختلقوا كذبا وزورا سبوا

لدخولهم فقالوا: نحن خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق، ولا تظلم، واهدنا إلى سواء السبيل، ويجوز أن يكونا متخاصمين حقيقة، ولما دخلا على داود بلا إذن، وتوجس منهم خيفة وظن بهم الظنون، وهَمَّ بذلك أن يصيبهم بسوء كانت هذه الواقعة فتنة وابتلاء لداود ثم إنه استغفر ربه مما هَمَّ به من الانتقام، وتاب عما دار بخلد من ظن، وخر راکعاً فتاب الله عليه وغفر له.

• أما قصتهما كما أخبر فهي: إن هذا أخى أي في الدين والإنسانية له تسع وتسعون نعجة «هى الواحدة من الغنم» ولي نعجة واحدة. فقال صاحب الغنم الكثيرة. أعطني نعجتك أكفلها لك وأضمرها لغنمي، وغلبني في المخاصمة والمجادلة. قال داود متسرعاً قبل أن يسمع جواب الخصم الثاني - ولعل هذا هو الذنب الذي ألم به داود -: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخلطاء والشركاء ليبغي بعضهم على بعض حبا في الدنيا، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلا يبغي بعضهم على بعض وقليل ما هم.

• وظن داود أنما فتناه بهذه الحادثة فاستغفر ربه مما ألم به وتاب وخر راکعاً، وصلى لله قائماً وساجداً وأناب، فغفر له ربه ذنبه، وإن لداود عند ربه لقربى ومنزلة كريمة، وحسن مآب، أليس وصف داود بعد القصة بأن له زلفى وحسن مآب يدل على أنه عبد صالح أواب يستحيل عليه الإلمام بمعصية تغضب الله.

قال ابن القيم (١) - رحمه الله -:

قال غير واحد من السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة. قالوا: ولهذا قال سبحانه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَّآبٍ﴾ [ص: ٢٥]. فزاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهى درجة القرب منه.

والثاني: حسن المآب وهو حسن القلب وطيب المأوى عند الله.

• قال الإمام القاسمي - رحمه الله تعالى - في تفسيره (٢):

• قال السيوطي في الإكليل:

القصة التي يحكوها «أي في شأن نبي الله داود عليه السلام» في شأن المرأة، وأما أعجبته، وأنه أرسل زوجها مع البعث حتى قتل، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس

(١) طريق المخرجين ص: ٢٢٣.

(٢) (٢٤٨/٨) وما بعدها.

مرفوعاً، وفي إسناده ابن لهيعة، وحاله معروفة، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي وهو ضعيف، وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفاً. انتهى.

• أقول: أما المرفوع إلى النبي ﷺ، فلم يأت من طريق صحيح، وأما الموقوف من ذلك على الصحب والأتباع - رضي الله عنهم -، فمعهولهم في ذلك ما ذكر - في التوراة من هذا النبأ.

• وقال ابن حزم - رحمه الله تعالى - (في الفصل):

ما حكاه تعالى عن داود عليه السلام قوله صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصم قومًا من بني آدم، بلا شك، مختصمين في نجاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية. ومن قال إنهم كانوا ملائكة مُعْرِضِينَ بأمر النساء، فقد كذب على الله عز وجل، وقوله ما لم يقل، وزاد في القرآن ما ليس فيه، وكذب الله عز وجل وأقر على نفسه الخبيثة، أنه كذب الملائكة. لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾. فقال هو: لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة ولا كان للآخر نعجة واحدة ولا قال له أكفلنيها فاعجبوا، لِمَ يقيمون فيه الباطل أنفسهم؟ ونعوذ بالله من الخذلان، ثم كل ذلك بلا دليل، بل الدعوى المجردة. وتالله إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره، ثم يعرض زوجها للقتل عمداً، ليتزوجها. وعن أن يترك صلاته لطائر يراه. هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين. لا أفعال أهل البر والتقوى. فكيف برسول الله ﷺ الذي أوحى إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه؟

لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمر مثل هذا الفحش بباله. فكيف أن يستضيف إلى أفعاله؟ وأما استغفاره وحروره ساجداً، ومغفرة الله له، فالأنبياء عليهم السلام أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة. والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا من نبي ولا من مذهب ولا من غير مذهب، فالنبي يستغفر الله للمذنب أهل الأرض والملائكة كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وأما قوله تعالى عن داود عليه السلام «وظن داود أنما فتناه» وقوله تعالى: ﴿فَفَقَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾. فقد ظن داود عليه السلام أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك

العظيم فتنة. فقد كان رسول الله ﷺ يدعو في أن يثبت الله قلبه على دينه^(١)، فاستغفر الله تعالى من هذا الظن، فغفر الله تعالى له هذا الظن إذ لم يكن ما آتاه الله من ذلك فتنة. انتهى.

• وقال البرهان البقاعي في «تفسيره»: وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود. ثم قال: وأخبرني بعض من أسلم منهم أنهم يتعمدون ذلك في حق داود عليه السلام. لأن عيسى عليه السلام من ذريته، ليجدوا سبيلاً إلى الطعن فيه. انتهى.

ثم قال: وقوله تعالى: «فغفرنا له ذلك» أي الوقوع في الحديث عن إسناد الظلم إلى أحد بدون سماع كلامه؛ وهذه الدعوى تدريب لداود عليه السلام في الأحكام وذكرها للنبي ﷺ تدريب له في الأناة في جميع أموره على الدوام. ولما ذكر هذا، ربما أوهم شيئاً في مقامه ﷺ فدفعه بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ﴾. فالقصة لم يجر ذكرها إلا للترقية في رتب الكمال. وأدل دليل على ما ذكرته أن هذه الفتنة إنما هي بالتدريب في الحكم، لا بامرأة ولا غيرها، وأن ما ذكروه من قصة المرأة باطل وإن اشتهر، فكم من باطل مشهور، ومذكور هو عين الزور. انتهى.

• وقال ابن كثير^(٢) - رحمه الله -:

قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه. فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يرد علمها إلى الله عز وجل، فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً. انتهى.

• وقال الإمام الشنقيطي^(٣) - رحمه الله تعالى -:

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ﴾ * فَفَقَّرْنَا لَهُ ذَلِكَ [ص: ٢٤-٢٥].

اعلم أن ما يذكره كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية الكريمة، مما لا يليق بمنصب داود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، كله راجع إلى الإسرائيليات، فلا ثقة به، ولا معول عليه، وما جاء منه مرفوعاً إلى النبي ﷺ لا يصح منه شيء. انتهى.

• إلى غير ذلك من أقوال العلماء لنفي هذه القصة.

(١) الحديث أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (٢٨٣٤) وهو صحيح: عن أنس.

(٢) تفسير ابن كثير (٥١/٧) طبعه الشعب.

(٣) أضواء البيان (٢٤/٧).

المبحث الرابع: من أقوال ومواظ داود عليه السلام

• قال داود عليه السلام: «كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد، ما أقبح الفقر بعد الغنى، وأكثر من ذلك أو أقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى، وإذا وعدت صاحبك فأنجز له ما وعدته، فإن لا تفعل يورث بينك وبينه عداوة، وتعوذ بالله من صاحب إن ذكرت لم يعنك، وإن نسيت لم يذكرك»^(١).



المبحث الخامس: الله يأمر داود عليه السلام بالحكم بين

الناس بالحق

• قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

• قال ابن كثير^(١) - رحمه الله تعالى -:

هذا خطاب من الله تعالى مع داود والمراد ولاية الأمور وحكام الناس، وأمرهم بالعدل واتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود عليه السلام هو المقتدي به في ذلك الزمان في العدل وكثرة العبادة وأنواع القربات، حتى إنه كان لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣]. انتهى.

وقال العلامة الشنقيطي^(٢) - رحمه الله - :

قد أمر الله نبيه داود، بالحكم بين الناس بالحق، ونهاه عن اتباع الهوى، وأن اتباع الهوى، علة للضلال عن سبيل الله، وأتبع ذلك بالتهديد الشديد لمن اتبع الهوى، فأضله ربنا عن سبيل الله. ومعلوم أن نبي الله داود، لا يحكم بغير الحق، ولا يتبع الهوى، فيضله عن سبيل الله، ولكن الله تعالى، يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم ليشرع لأممهم. انتهى باختصار.



(١) قصص الأنبياء (٥٤٢).

(٢) أضواء البيان (٢٥/٧).

(١) صحيح الإسناد: أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١٣٨).

المبحث السادس: بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود

عليه السلام

● فمنها: أن الله يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من قبله لتثبيت فؤاده وتطمين نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم ما يشوق إلى منافستهم والتقرب إلى الله الذي تنافسوا في قربهِ والصبر على أذى قومه، ولهذا ذكر تعالى في أول سورة (ص) ما قاله المكذبون لمحمد ﷺ وما آذوه به، قال بعدها ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧].

● ومنها: أن قوله ﴿ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]. مدح عظيم من الله لهذين الوصفين، قوة القلب والبدن على طاعة الله والإنابة باطنًا وظاهرًا إلى الله المستلزمة لمحبة وكمال معرفته، وأن هذين الوصفين للأنبياء على وجه الكمال ولمن بعدهم من أتباعهم على حسب أتباعهم والثناء من الله عليهما يقتضى الحث على جميع الأسباب التي تعين على القوة والإنابة، وأن يكون العبد رجاءًا إلى الله في حال السراء والضراء، وفي جميع الأحوال.

● ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود ﷺ من حسن الصوت ورخامته وأن الجبال والطيور تسبح الله معه وتجاوبه، وذلك من زيادة درجاته ومقاماته العالية.

● ومنها: أن من أكبر نعم الله على عبده أن يرزقه العلم النافع ويعرف الحكم بين الناس في المقالات والمذاهب، وفي الخصومات والمشاحنات، كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾ [ص: ٢٠].

● ومنها: كمال اعتناء الله جل جلاله بأنبيائه وأصفياه عند ما يقع منهم بعض الهفوات بفتنته إياهم وابتلائهم بما يزيل عنهم الخذور حتى يعودوا أكمل من أحوالهم الأولى كما جرى لداود عليه السلام.

● ومنها: أن الأنبياء معصومون فيما يبلغون عن الله، فإن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، ومقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وقد يجري منهم أحيانًا بعض مقتضيات الطبيعة من الأشياء خلاف الأولى، ولكن الله تعالى يبادرهم بلطفه ويتداركهم بالتوبة والإنابة.

● ومنها: أن داود عليه السلام في أغلب أوقاته ملازمًا محرابه لعبادة ربه، وله وقت

يجلس فيه لحوائج الخلق فقد أتم القيام بحق الله وحق عباده.

● ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الناس، خصوصًا الحكام والرؤساء، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة، ومن غير الباب فزع منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

● ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

● ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب منهما حين جاءه بغير استئذان ولا انتهرهما ولا وبخهما.

● ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه أنت ظلمتني أو يا ظالم ونحوه أو يا باغي لقوله: ﴿بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢].

● ومنها: أن المنصوح ولو كان كبيرًا كثير العلم عليه أن لا يغضب ولا يشتمز، بل يبادر بقبول النصيحة والشكر لمن نصحه، ويحمد الله إذا قيض له النصيحة على يد الناصح، فإن داود لم يشتمز من قول الخصمين ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢٢]. بل حكم بالحق الصرف.

● ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب وكثرة التعلقات الدنيوية المالية موجبة للتعادي، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن هذا الداء العضال إلا التقوى والصبر بالإيمان والعمل الصالح، وهذا قليل في الناس.

● ومنها: أن مرتبة الحكم بين الناس مرتبة دينية توليها رسل الله وخواص خلقه، وأن على القائم بها الحكم بالحق وأن لا يتبع الهوى.



المبحث السابع: وفاة داود عليه السلام

● سبق في قصة آدم عليه السلام في المبحث الثاني عشر في حديث خلق آدم وفيه «فرأى رجلاً منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: أي رب من هذا؟ فقال: هذا رجل آخر الأمم من ذريتك يقال له داود فقال: رب كم جعلت عمرة، قال ستين سنة، قال أي رب زده من عمري أربعون سنة، فلما قضى عمر آدم جاءه ملك الموت، فقال: أو لم يبق من عمري أربعين سنة؟ قال: أو لم تعطها ابنك داود؟»^(١) الحديث

● عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «كان داود النبي فيه غيرة شديدة، وكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع، قال: فخرج ذات يوم وأغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمن في البيت: من أين دخل هذا الرجل الدار، والدار مغلقة؟ والله لنفتضن بداود، فجاء داود، فإذا الرجل قائم وسط الدار، فقال له داود: من أنت؟ قال: أنا الذي لا أهاب الملوكة، ولا يمتنع مني الحجاب. فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله. فرمل^(٢) داود مكانه حيث قبضت روحه حتى فرغ من شأنه، وطلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلي علي داود، فأظلت عليه الطير حتى أظلمت عليهم الأرض، فقال لها سليمان أقبضي جناحاً جناحاً» قال أبو هريرة يرينا رسول الله ﷺ كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ يده وغلبت عليه يومئذ المصريحة^(٣)»^(٤).

● من الحديث يتضح أن داود عليه السلام عاش مائة سنة ودفن في أرض فلسطين، ولا يوجد نص صريح في موضع قبره. وصل اللهم عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.



(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠٧٦-٣٣٦٨) وغيره.

(٢) فرمل: أي، أسرع في المشي إلى المكان الذي قبضت روحه فيه.

(٣) المصريحة: هي التصريح والإيضاح في الكلام، وقيل: هي الصقور الطوال الأجنحة.

(٤) أخرجه أحمد (٤٠٩/٢) وقال الهيثمي: فيه المطلب بن عبد الله بن حنطب، وثقه أبو زرعة وغيره وبقية رجاله. رجال الصحيح. وقال ابن كثير: إسناده جيد قوي رجاله ثقات.

قلت: اختلف في سماع المطلب بن عبد الله من أبي هريرة (انظر جامع التحصيل ٧٤٤) وتمذيب الكمال.

الفصل السابع عشر: قصة سليمان عليه الصلاة والسلام

المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن:

● هو: سليمان بن داود..... بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

● ورد اسم (سليمان عليه السلام) في القرآن الكريم سبع عشرة مرة في سبع سور: في سورة: البقرة: ١٠٢ مرتان، والنساء: ١٦٣، والأنعام: ٨٤، الأنبياء: ٧٨، ٧٩، ٨١، والنمل: ١٥-١٦-١٧-١٨-٣٠-٣٦-٤٤، وسبأ: ١٢، ص: ٣٠-٣٤.

المبحث الثاني: مناقبه وفضائله عليه السلام:

● لقد آتاه الله العلم:

● قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

والمعنى: ولقد آتينا داود نبي الله وسليمان ابنه عليهما الصلاة والسلام، آتاهما ربهما علماً من لدنه، علماً شريفاً يتعلق بذاته تعالى، وبوصفه بصفات الجلال والكمال، وتنزهه عن كل نقص وما هو في حقه من المحال، علماً هو أشرف العلوم والمعارف، علماً جامعاً لخيري الدنيا والآخرة.

● أعطى الله تعالى النبوة لسليمان عليه السلام:-

● قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦].

أي ورثه في النبوة والملك والحكم، وليس المراد ورثه في المال، لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «(لا تورث ما تركنا صدقة)»^(١).

● زاد الله سليمان ملكاً عظيماً لم يحصل لأحد قبله ولا بعده -

سخر الله له الريح تجرى بأمر وتديره برحاء، أي بسهولة حيث أراد، غدوها شهر، أي جريها وسرعتها تقطع في الغداة ما يقطعه المسافر النشيط في شهر وتقطع في الرواح ما

(١) رواه البخاري (٣٠٩٣-٣٠٩٤) ومسلم (١٧٥٨) وغيرهما.

يقطعه المسافر في شهر فعدوها شهر، ورواحها شهر والله على كل شيء قدير.

• وأجرى الله له عينا تخرج نحاساً مذاباً بلا نار ولا فحم يستخدمه في أغراضه، وتكون له معجزة أمام بني إسرائيل.

• قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوَهَا شَهْرًا وَرَوَّاحَهَا شَهْرًا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ [سبا: ١٢].

• وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١].

• وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

• وصف الله الريح أنها عاصفة في بعض الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة، كأن تعصف ويشند هبوبها عن أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب: أي حيث أراد من أقطار الأرض وذلك في حالة الذهاب، أما حالة الإياب فتكون إلى مسكنه بالشام وهذا معنى قوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

• وسخر الله له الجن والشياطين والعفاريت يعملون له الأعمال الفخمة بحسب إرادته يعملون له ما يشاء من بناء المدائن والقصور والمساجد، والتمائيل وهي كانت مباحة في شريعتهم، والجفان وهي جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة والمراد إناء للأكل كبير يشبه الحفرة الكبيرة التي يتجمع فيها الماء وهي ثابتة لا ترتحرك لعظمتها - وتذهب وتجيء هذه الشياطين والعفاريت بأمره إلى حيث أراد ولا يستطيعون أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، ومنهم من يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ، والمرجان، هذا بالإضافة إلى أعمال أخرى دون ذلك، وهذه المعاني جاءت في القرآن قال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ. يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبَ وَكَمَا تِلْ وَجَفَانِ كَالْجَوَابِ وَقُدُورِ رَأْسِيَاتٍ﴾ [سبا: ١٢-١٣].

• وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

• وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٧-٣٨].

• وسخر الله له من الجنود من الإنس والجن والطيور فهم يوزعون بتدبير عجيب ونظام غريب.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧].

• وعلمه الله منطق الطير وسائر الحيوانات، فكانت مخاطبه ويفهم ما تكلم به، ولهذا خاطب الهدهد وراجعه تلك المراجعة، وسمع النملة إذ نادى في قومها ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]. فحذرت وأمرت بما يقى من الخطر واعتذرت عن سليمان وجنوده، فلماذا ابتسم سليمان ضاحكاً من قولها وقال ﴿رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

• ومن حسن نظامه وحزمه أنه يتفقد الجنود بنفسه، مع أنه قد جعل لهم مدبرين، فإن قوله «فهم يوزعون». دليل على ذلك، حتى أنه تفقد الطيور لينظر هل هي لازمة لمراكزها فقال: ﴿مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠]. وليس الأمر كما يقول كثير من المفسرين أنه طلبه لينظر له الأرض وبعد مائها، فإن هذا خلاف اللفظ القرآني، فإن الله لم يقل وطلب بل قال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠]. ثم توعدده لمخالفة أمره ولما كان ملكه مبنياً على كمال العدل استثنى فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذِيقَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبين * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بَنِيَّ يَقِين * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢١-٢٦].

ففي هذه المدة القصيرة جاء الهدهد بهذه المعلومات العظيمة.

• سليمان -عليه السلام - يدعو ملكة سبأ للإسلام فأسلمت:

• أخبر سليمان عن ملك الديار اليمنية وأن ملكهم امرأة، وأنها قد أعطيت من كل شيء يحتاج الملك إليه وأن لها عرشاً عظيماً، ومع فهمه لملكهم وقوتهم فهم أيضاً دينهم، وأنهم مشركون يعبدون الشمس، وأنكر الهدهد عليهم غاية الإنكار، هذا من الأدلة على

أن الطيور والحيوانات تعرف ربها وتسبحه وتوحده، وتحب المؤمنين وتدين ربها بذلك، وتبغض الكفار المكذبين، وتدين الله بذلك فقال له سليمان عليه السلام ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٧].

● فذهب الهدهد بالكتاب فألقاه على ملكة سبأ، فلما قرأته، جمعت الملائكة من قومها ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٩-٣٠]. فوصفت هذا الكتاب بأنه كريم حسن لما فيه من لين القول والموعظة في الدعوة إلى الله من غير أن يتضمن سباً أو لعناً، وهذا الكتاب يستحق أن يعرض على الملائكة حتى تخرج بقرار يكون معبراً عن الجميع، وهذا يدل على رجاحة عقل تلك المرأة وأنها مع بعدها عن الله وعن دينه، ومع عبادتها للشمس من دون الله، فهي تنشئ قوماً معينة - وإن كانت عندنا ليست قوماً - إلا أنها تحترم نفسها وتقدر قومها بل حريصة عليهم.

● لقد بعث نبي الله سليمان عليه السلام بهذه الرسالة يدعوهم فيها إلى الإسلام، فالإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله سبحانه لخلقهم فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

فالإسلام هو الدين الحق الذي أمر الله به كل الخلق، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه فيقول لهم كما قال سبحانه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يدعوان الله سبحانه كما قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقال جل ذكره: ﴿وَوَعَىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ. أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لَبْنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢-١٣٣]. وموسى عليه السلام دعا قومه للإسلام قال سبحانه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وعيسى عليه السلام دعا أتباعه إلى الإسلام. قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

ونفى الله عن إبراهيم عليه السلام أن يكون يهودياً أو نصرانياً فقال سبحانه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]. ولقد اعترف الجن بذلك فقال الله تعالى: ﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤].

ولما آمن السحرة برب العالمين وهددهم فرعون بالقتل والتكيد قالوا كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. ويوسف عليه السلام يقول عنه سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

● فسليمان عليه السلام يدعو المرأة وقومها للإسلام حتى يفوزوا في الدنيا والآخرة، وبدأ رسالته بأنه من سليمان قبل البسطة لاحتمال أن ييدر من المرأة ما لا يليق إذ كانت كافرة، وكان من عادة أهل الكفر أن إذا دعاهم أحد قابله بالسب والشتن واللعن، ولذلك جعل سليمان عليه السلام اسمه وقاية لاسم الله عز وجل، والخطاب مختصر جامع للمقصود كله. قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: ٣٢]. أي أشيروا عليّ، وهذا من حزمها وحسن تدبيرها استعملت المشورة مع رؤساء قومها: ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون﴾ [النمل: ٣٣].

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣].

أي مستعدون لما تقولين حرباً وسلماً، وأرجعنا الأمر إلى ما تختارين، فمن عزمها وحزمها وبعد نظر عدلت عن الحرب واختارت السلم، لكن بصورة حازمة، فقالت سأهدى له هدية حاضرة ﴿فَتَاطَرَعُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]. إن كان من الملوك الذين ليس لهم هم إلا الدنيا، فربما أن الهدية كسرت سورته وقلت عزيمته وسالمتنا

وسلمناه من بعيد، وإن كان غير ذلك بان لنا الأمر. فأرسلت أناساً ذوي عقل وحزم وخبرة ومعرفة، فلما جاءوا لسليمان بالهدية قال: ﴿أَتُمَدُّوْنَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]. فبين لهم أنه لا غرض له في الدنيا، وإنما غرضه إقامة الدين ودخول عباد الله في الإسلام، ثم وصى الرسل واستغنى بذلك عن الكتاب وقال للرسول ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]. وذلك كي يعلمها سليمان عليه السلام أنه نبي، والنبوة لا تقارن بالمال، وهذا لزيادة حرصه عليه السلام على هدايتهم وأجابه بما يطمنئتها ويأتي بها مسلمة لله رب العالمين، وعلم سليمان أنهم سيتقادون ويسلمون، فقال لأهل مجلسه ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بَعْرُشَهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عَفَرْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٨-٣٩].

وسليمان بالديار الشامية وبينه وبينها مسافة شهرين ذهاباً وشهرين إياباً، ثم قال الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]. يحتمل أنه كما قال أكثر المفسرين أنه رجل صالح قد أعطى الاسم الأعظم الذي إذا دعى الله به أجاب، وأنه دعا الله فأتى به قبل أن يرتد إليه طرفه، ويحتمل أن الذي عنده علم من الكتاب عنده من الأسباب التي سخرها الله لسليمان عليه السلام، أسباب يحصل بها تقريب المواصلات وجلب الأشياء البعيدة.

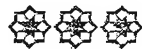
• وعلى كل: فهذا ملك عظيم بلحظة يحضر له هذا العرش العظيم ولهذا لما رآه مستقراً عنده حمد الله على ذلك. قال: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠]. فقال لمن حوله: ﴿تَكْبَرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [النمل: ٤١]. أي غيروا فيه وزيدوا وأنقصوا ﴿نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]. وكان قد مدح له رأيها وعقلها فأحب أن يقف على الحقيقة، فلما جاءت قيل ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ [النمل: ٤٢]. وعرض عليها، فلما رآته عرفته ورأت ما فيه من التنكير فأنكرته فقالت مرددة للاحتمالية ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]. لم تقل هو لما فيه من التغيير، ولم تنف أنه هو لما كانت تعرفه، فأنت بلفظ صالح للأمرين.

• فعرف سليمان رجاحة عقلها ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤١]. أي أخبرنا عن عقلها وعلمنا بذلك قبل هذه الحالة فتحققناها، وأوتينا العلم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكنا مسلمين لله.

• قوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]. أي العقائد التي نشأت عليها والمذاهب الفاسدة تسيطر على عقل العاقل وتذهب لب اللبيب حتى يقيض له من الأسباب المباركة ما يبين له الحق ويمن عليه باتباعه. • وكان له صرح من قوارير أجرى تحت الأنهار، فكان من ينظر إليه يظنه ماء يجري، لأن الزجاج شفاف، فلما أمرها سليمان أن تدخل هذا الصرح أي المجلس فكشفت عن ساقها لتخوضه، وهذا أيضاً من عقلها، وأدبها، فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل، الذي أمرت بدخوله، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام وأن ملك سليمان وتنظيمه، قد بناه على الحكمة، ولم يكن في قلبها أدنى شك، من حالة السوء بعد ما رأت، ما رأت، وعلمت نبوته ورسالته فرجعت عن كفرها ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

• لقد وفق الله تلك المرأة لطريق الهداية فتبقت أن نبي الله لا يريد إلا الحق ولا يقول إلا الصدق، أما ملوك الدنيا الذين حرفتهم الزينة المؤقتة والملابس المزينة والمساكن العالية، والمراكب الفارهة، والأطعمة المتعددة، فقد ظلموا أنفسهم بأنفسهم في الشهوات، وارتكبهم الموبقات، وابتعادهم عن طريق الله، لقد ظلموا أنفسهم حين عبدوا غير الله، لقد ظلموا أنفسهم حين جاءوا في الأحكام وتسلطوا على خلق الله، فأكلوا أموال اليتامى ظلماً، ولم يرحموا الصغير، ولم يوقروا الكبير، أهانوا المرأة حين تركت بيتها وزوجها وأولادها وخرجت للطرق استشرفها الشيطان فزينها للرجال، فانتشر الزنا وكثرت الخيانة وعم البلاء.

• لقد ظلم ملوك الدنيا أنفسهم حينما ابتعدوا عن شرع الله المحكم وحكموا بغيره ظلماً وعلواً، ولذلك فإن هذه المرأة انتفعت بعقلها ووفقها الله لطريق الهداية لأنها أرادت أن وسلكته فاعترفت ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤]. ما أحوج الحكام أن يقولوها ليتقبل منهم، خاصة وأن الدنيا مهما طالت فلا بد من الموت، ثم دخلت هذه المرأة في الإسلام، فأسلمت لله واتبعتها قومها، ويقال إن سليمان تزوجها. فالله أعلم.



• ومن مناقبه أيضاً ثناء الله تعالى عليه:

فقال سبحانه: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

أي إنه اتصف بما يوجب المدح، وهو رجاء إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والبدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كل شيء ولهذا لما عرضت الخيل الجياد الصافنات أي: التي وصفها الواصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظر رائع، وجمال معجب، وخصوصاً للمحتاج إليها كالمملوك. فما زالت تعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألته عن صلاة المساء وذكر الله.

قال تعالى: ﴿إِذْ غُرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣١-٣٣].

• فقال سليمان عليه السلام ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألماه عن ذكره، وتقديم حب الله على حب غيره، ويستفاد من هذه الآيات، ما يدل على شخصية هذا النبي الكريم ألا وهي حرصه العظيم على طاعة ربه، واعتبار أمتع ما في الحياة رخيصاً بالقياس إلى متعة العبادة، فقد كانت لسليمان عليه السلام صلاة يحافظ عليها في المساء، وقيل بعد العصر، لا يكاد يتركها يوماً من حياته، وكان أيضاً مولعاً بالخيل كأداة حرب فعالة في قتال الشرك ورفع لواء التوحيد، وفي يوم عرضت على سليمان خيل رائعة المنظر والمخير من كل جواد متحفز، يقف على ثلاث لما يتدفق به من حيوية وتحفز وكانت كثيرة فلم يزل يستعرضها ويظهر ابتهاجه لها حتى حانت منه نظرة إلى الغرب وإذا الشمس قد احتجبت وراء الأفق، وإذا نسي عليه السلام جمال الصافنات الجياد، والصفان هو الجواد الأصيل القوي تلقى أكثر وقوفه على ثلاث لقوته واستعداده، ولم يعد للجياد في نظره أهمية بعد أن أنساه حبه لها ورده من الصلاة والذكر وحينئذ صاح «رُدُّوهَا عَلَيَّ» وأمر في الحال أن تذبح ويوزع لحمها على الفقراء تكفيراً عن نسيانه صلاته بسببها حيث انشغل بها.

• وقد أثنى الله على داود وسليمان بالعلم والحكم، وخص سليمان بزيادة الفهم فقال: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]. أي دخلت الغنم بستانهم ليلاً فرعت زرعاً وأشجاره، فحكم داود عليه السلام بحسب اجتهاده وتقديره أن الغنم تكون لصاحب الحرث، لظنه أن الذي تلف من

الحرث يقابل قيمتها، ثم رفعت القضية إلى سليمان، فحكم على صاحب الغنم أن يقوم على حرث صاحب البستان بالسقى والتعمير والملاحظة حتى يعود كما كان قبل نفثها، ويدفع له صاحب الغنم ينتفع بديرها ولبها ودهنها وصوفها ومغلها مقابلة ما كان يصدد أن ينتفع بحرثه في هذه المدة، فكان هذا الحكم من سليمان أقرب إلى الصواب وأنفع لصاحب الغنم والحرث. فلماذا قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]. ولا ريب أن استخراج الصواب في القضايا بالبينات والقرائن وشواهد الأحوال، من الفهم الذي يخص الله به من يشاء وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه.

• بالإضافة إلى هذا العطاء الذي أعطاه الله لسليمان عليه السلام من ملك لا ينبغي لأحد من بعده، فإن له في الآخرة منزلة عظيمة وهو من المقربين عند الله تعالى المكرمين.

قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٩-٤٠].



البحث الثالث: ذكر سليمان عليه السلام في السُّنة النبوية المُطهرة

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ان عفريتًا من الجن تفلت بالبرحة ليقطع على صلاتي، فأمكنني الله منه، فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان (رب هب لي ملكًا لا ينبغي لأحد من بعدي)»^(١). فرددته خاسئًا^(٢).

• وفي هذه إشارة إلى أنه تركه رعاية لسليمان عليه السلام، ويحتمل أن تكون خصوصية سليمان استخدام الجن في جميع ما يريده لا في هذا القدر فقط.

• قال ابن عبد البر: الجن على مراتب: فالأصل جن، فإن خالط الإنس قيل عامر، ومن تعرض منهم للصبيان قيل أرواح، ومن زاد في الخبث قيل شيطان، فإن زاد على ذلك قيل مارد، فن زاد على ذلك قيل عفريت^(٣).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسًا يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله. فلم يقل، ولم تحمل شيئًا إلا واحدًا ساقطًا أحد شقيه. فقال النبي ﷺ: لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»^(٤).

قوله: «على سبعين امرأة».

وفي بعض الروايات أكثر من ذلك وفي ذلك يقول الحافظ ابن حجر^(٥) — رحمه الله تعالى —:

فمحصل الروايات ستون وسبعون وتسعون، وتسع وتسعون، ومائة، والجمع بينها أن الستين كن حرائر وما زاد عليهن كن سراري أو بالعكس.

(١) سورة ص: ٣٥.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٣) وغيره.

(٣) فتح الباري (٥٣٠/٦).

(٤) رواه البخاري (٣٤٢٤) ومسلم (١٦٥٤).

(٥) فتح الباري (٥٣١/٦).

وقوله: (قال له صاحبه: إن شاء الله).

وفي بعض الروايات: (قال له صاحبه أو الملك).

قال النووي: قيل المراد بصاحبه الملك، وهو الظاهر من لفظه، وقيل القرين، وقيل صاحب له آدمي.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٣٢/٦-٥٣٣):

ليس بين قوله صاحبه والملك منافاة إلا أن لفظة «صاحبه» أعم، فمن نشأ لهم الاحتمال ولكن الشك لا يؤثر في الجزم، فمن جزم بأنه الملك حجة على من لم يجزم. وفي الحديث: فضل فعل الخير وتعاطى أسبابه، وأن كثيرًا من المباح والملاذ يصير مستحبًا بالنية والقصد، وفيه استحباب الاستثناء (أي: إن شاء الله) لمن قال سأفعل كذا، وفيه ما خص به الأنبياء من القوة على الجماع الدال على صحة البنية وكمال الرجولة على ما هم فيه من الاشتغال بالعبادة والعلوم، وفيه جواز السهو على الأنبياء، وأن ذلك لا يقدر في علو منصبهم.

• عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «(لما فرغ سليمان بن داود عليهما السلام من بناء بيت المقدس، سأل الله ثلاثًا: حُكْمًا يصادف حكمه، وملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، وألا يأتي هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)» فقال النبي ﷺ: أما اثنتان فقد أعطيهما، و أرجو أن يكون أعطى الثالثة^(١).

• عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة. ثم أينما أدركتكم الصلاة بعد فصله، فإن الفضل فيه»^(٢).

• قال القرطبي — رحمه الله —:

فيه إشكال وذلك أن المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام بنص القرآن، والمسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام كما أخرجه النسائي بسند صحيح، وبين إبراهيم وسليمان أيام طويلة، قال أهل التاريخ أكثر من ألف سنة، قال: ويرتفع الإشكال بأن يقال

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٤/٢) رقم ٦٩٢، وابن ماجه واللفظ له (١٤٠٨).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٦) ومسلم (٥٢٠) وغيرهما.

الآية والحديث لا يدلان على بناء إبراهيم وسليمان لما بينا ابتداء وضعهما لهما بل ذاك تجديد لما كان أسسه غيرهما وبدأه وقد روى أن أول من بنى البيت آدم وعلى هذا فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً. انتهى مختصراً^(١).

رجح ابن كثير^(٢):

أن الذي بنى المسجد الأقصى هو يعقوب عليه السلام، وأن الذي جدد بناءه هو سليمان عليه السلام.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت لصاحبتها إنما ذهب بابنك وقالت الأخرى إنما ذهب بابنك، فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان ابن داود عليهما السلام، فأخبرتا، فقال اتئوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى»^(٣).

قال ابن حجر: ودلت هذه القصة على أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر سن ولا صغره، وفيه أن الحق في جهة واحدة، وأن الأنبياء يسوغ لهم الحكم بالاجتهاد وإن كان وجود النص ممكناً لديهم بالوحي، لكن في ذلك زيادة في أجورهم، ولعصمتهم من الخطأ في ذلك إذ لا يقرون لعصمتهم على الباطل.

وقال النووي: إن سليمان فعل ذلك تحيلاً على إظهار الحق، فكان كما لو اعترف المحكوم له بعد الحكم أن الحق لخصمه. وفيه استعمال الحيل في الأحكام لاستخراج الحق، ولا يتأتى ذلك إلا بمزيد الفطنة وممارسة الأحوال.



(١) راجع تفسير القرطبي (١٣٧/٢-١٣٨)، وفتح الباري (٤٧٠-٤٧١).

(٢) قصص الأنبياء: ٥٦٢.

(٣) رواه البخاري (٦٧٦٩).

المبحث الرابع: فتنة سليمان بين الإسرائيليات والقول

الصحيح للسلف الصالح

• قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤].
• هذه الآية الكريمة هي كل ما أورده القرآن الكريم في فتنة سليمان عليه السلام، أما القصة الإسرائيلية فحاكت حول هذه الآية الكريمة قصة لا تطمئن إليها النفوس وخلاصتها: أن أحد الشياطين الذين كانوا في خدمة سليمان عليه السلام اختلس خاتم ملكه وأنه غير شكله فتمثل على صورة سليمان عليه السلام، وأنه احتل قصر سليمان ودخل على نساءه، وقال رواية القصة كذبا وزورا وبهتاناً، إن ذلك الشيطان كان يجتمع بنساء سليمان كما يجتمع الرجل بزوجه، وأن تلك الحال استمرت أربعين يوماً، ثم إن سليمان اشترى سمكة فوجد خاتم ملكه في جوفها وعاد إليه ملكه، وطرده الله الجسد الذي ألقى على كرسيه وهو في زعمهم جسد الشيطان الذي سرق الخاتم.

• قال الإمام ابن كثير^(١) - رحمه الله -:

عن هذه القصة وغيرها في معنى فتنة سليمان عليه السلام: ذكر ابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقة من الإسرائيليات وفي كثير منها نكارة شديدة.

• وذكر الرازي^(٢) - رحمه الله -:

أن القصص المروية هنا: هي لأهل الحشو فذكروا حكايات، ولأهل العلم والتحقيق قول آخر.

• وقال أبو حيان^(٣) - رحمه الله تعالى -:

نقل المفسرون في هذه الفتنة وإلقاء الجسد أقوالاً يجب براءة الأنبياء منها، يوقف عليها في كتبهم، وهي مما لا يحل نقلها، وهي إما من أوضاع اليهود أو الزنادقة، ولم يبين الله

(١) قصص الأنبياء (٥٦٢).

(٢) تفسير الرازي (٣٢٨/١٣).

(٣) البحر المحیط (سورة ص: الآية ٣٤).

الفتنة ما هي ولا الجسد الذي ألقاه على كرسي سليمان.

إلى أن قال: لم يكن ليذكر من يتأسى به ممن نسب المفسرون إليه ما يعظم أن يتفوه به، ويستحيل عقلا وجود بعض ما ذكره، كتمثل الشيطان بصورة نبي، حتى يلتبس أمره عند الناس، ويعتقدوا أن ذلك المتصور هو النبي ولو أمكن وجود هذا لم يوثق لإرسال نبي، وإنما هذه مقالة مستترقة من زنادقة السوفسطائية نسأل الله سلامة أذهاننا وعقولنا منها.

• وقال الألوسي^(١) - رحمه الله -:

إن أمر خاتم سليمان عليه السلام في غاية الشهرة بين الخواص والعوام ويستبعد جداً أن يكون الله تعالى قد ربط ما أعطى نبيه عليه السلام من الملك بذلك الخاتم وعندي أنه لو كان في ذلك الخاتم السر الذي يقولون لذكره الله عز وجل في كتابه والله تعالى أعلم بحقيقة الحال.

• وقال الشنقيطي^(٢) - رحمه الله -:

لا يخفى أنه باطل لا أصل له، وأنه لا يليق بمقام النبوة، فهو من الإسرائيليات التي لا تحفى أنها باطلة.

• وقال ابن حزم^(٣) - رحمه الله -:

إننا لا نشك ألبتة في بطلان قول من قال إنه كان جنياً تصور بصورته، بل نقطع أنه كذب، والله تعالى لا يهتك ستر رسوله ﷺ هذا المحتك.

تنبيه:

قد صحح بعض أهل العلم صحة السند في هذه القصة إلى ابن عباس - رضي الله عنهما -.

• وفي ذلك يقول الشيخ محمد أبو شهبه^(٤) - رحمه الله -:

إن قوة السند لا تنافي كونها مما أخذ به ابن عباس وغيره عن كعب الأحرار وأمثاله من

مسلمة أهل الكتاب، فثبوتها في نفسها لا ينافي كونها من إسرائيليات بني إسرائيل، وخرافاتهم، وافتراءاتهم على الأنبياء.

• ذكر بعض العلماء في رد هذا الغثاء:

• قال القاضي عياض^(١) - رحمه الله -:

ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلمه على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله.

• وقال ابن كثير^(٢) - رحمه الله -:

إسناده إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - قوي لكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس - إن صح عنه - من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوة سليمان عليه السلام، فالظاهر أنهم يكذبون عليه، ولهذا كان في هذا السياق منكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور أن ذلك الجني لم يسلط على نساء سليمان، بل عصمهن الله منه، تشريفاً وتكريماً لنبيه ﷺ وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف، كسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم، وجماعة آخرين، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب، والله أعلم بالصواب.

• وتعقب كلام ابن كثير هذا الشيخ محمد أبو شهبه^(٣) فقال:

كلها أكاذيب، وتلفيقات، ولكن بعض الكذبة من بني إسرائيل كان أحرص، وأبعد غوراً من البعض الآخر، فلم يتورط فيما تورط فيه البعض، من ذكر تسلط الشيطان على نساء داود عليه السلام، وذلك حتى يكون لما لفته وافتراه، بعض القبول عند الناس، أما البعض الآخر، فكان ساذجاً في كذبه، مغفلاً في تلفيقه، فترك آثار الجريمة بينة واضحة، وبذلك! اشتمل ما لفته على دليل كذبه. ومن العجيب: أن الإمام السيوطي نبه في كتابه «تخريج أحاديث الشفاء» أنها إسرائيليات، تلقاها ابن عباس عن أهل الكتاب، وليته نبه إلى ذلك في التفسير. والحق: أن نسج القصة مهلهل، عليه أثر الصنعة والاختلاق، ويصادم

(١) الشفاء (٢/٨٣٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٧/٦٠).

(٣) الإسرائيليات ص: ٢٧٣.

(١) روح المعاني (١٢/١٩١).

(٢) أضواء البيان (٤/٧٧).

(٣) تفسير القاسمي ص ٢٧٢.

(٤) الإسرائيليات ص ٢٧٢.

العقل السليم، والنقل الصحيح في هذا. وإذا جاز للشيطان أن يتمثل برسول الله سليمان عليه السلام فأى ثقة بالشرائع تبقى بعد هذا؟ وكيف يسلط الله الشيطان على نساء نبيه سليمان، وهو أكرم على الله من ذلك.

• وقال ابن حزم^(١) -رحمه الله:-

وهذه كلها خرافات موضوعة مكذوبة، لم يصح إسنادها قط.

• وقال الشيخ أحمد عقيلات^(٢) -رحمه الله:-

هى قصة لا سند لها من صحيح السنة، وعلى كل مسلم أن يبرأ منها ويعتقد أنها من افتراءات اليهود على ملك سليمان، وقد حبكها الواضعون حتى صارت تعجب محبي القصص.

• وقال القاشاني^(٣) -رحمه الله:-

إن حكاية الجنى والخاتم مع سليمان، هى من موضوعات حكماء اليهود.

• إلى غير ذلك من أقوال السلف الصالح في رد هذه القصص.

• ما الصحيح في تفسير الفتنة؟

• إن التفسير الوحيد الذي أطمئن إليه وذكره بعض المفسرين قديماً وحديثاً وأهل العلم: وهو أن فتنة سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]. قد بينت السنة هذه الفتنة في حديث أبي هريرة الذي سبق ذكره وهو: أن النبي ﷺ قال: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله فقال له صاحبه: إن شاء الله فلم يقل فلم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقيه» فقال النبي ﷺ: «لو قالها لجاهدوا في سبيل الله»^(٤).

• وعلى هذا يكون الجسد الذي ألقى على كرسي سليمان هو ذلك المولود المشوه

(١) تفسير القاسمي (٢٦٢/٨).

(٢) من لطائف التفسير (٢٥٣/٣).

(٣) تفسير القاسمي (٢٦٢/٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤).

الوحيد الذي أنجبه سليمان في تلك الليلة، وحين رأى سليمان ذلك المنظر المفزع تذكر ذنبه، وهو أنه لم يقل: إن شاء الله. ولم يربط الأمر بالمشيئة الإلهية إما غفلة أو سهواً أو ثقة بإنفاذ الإله لعزمته ما دام في الأمر جهاد في سبيل الله، وهذا هو التفسير الذي لا يمس عصمة الأنبياء، ويجنب سيرهم العطرة ذلك الافتراء، ويرى أزواجهم من إرجاف وبهتان الأدعياء. فهذا هو المتعين في تفسير الآية. والله أعلم.



البحث الخامس: فوائد من قصة سليمان عليه السلام

● منها: كثرة خير الله وفضله على عباده الأخيار بمن عليهم بالأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة ثم يثنى عليهم بها ويرتب عليها من الثواب أنواعاً متنوعة، وهو المتفضل بالأسباب ومسبباتها.

● ومنها: أن سليمان قدّم محبة الله على محبة كل شيء وأتلف الخيل التي آلهته عن ذكر ربه حتى توارت الشمس بالحجاب.

● ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن طاعة مولاه فهو مشؤوم فليفارقه وليقبل على ما هو أنفع له.

● ومنها: أنه يؤخذ من أن سليمان لما أتلف الخيل الجياد - التي آلهته عن طاعة الله سخر الله له الريح والشياطين: أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وهذا مصداقاً لقول رسول الله ﷺ: «(إنك لا تدع شيئاً اتقاء الله عز وجل إلا أعطاك الله خيراً منه)»^(١).

ففي هذا بشرى للمبتلين ببعض الكبائر كشرب الدخان والمخدرات ونحو ذلك على أن يتركوا هذه الأشياء طاعة لله واتقاء غضبه وعقابه وليتقنوا أن الله تعالى سوف يبيد لهم الخير الكثير وما عند الله خير وأبقى والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

● ومنها: أن تسخير الشياطين وتسخير الريح على الوجه الذي سخرت لسليمان لا تكون لأحد بعد سليمان، ولهذا «(لما رأى النبي ﷺ أن يأخذ الشيطان الذي تفلت عليه ليلة فربطه في سارية المسجد قال: ذكرت دعوة أخي سليمان فرددته خاسئاً)»^(٢).

● ومنها: أن سليمان كان ملكاً نبياً مباح له أن يفعل ما يريد، ولكنه لكماله لا يريد إلا الخير والعدل، وهذا بخلاف النبي العبد، فإنه لا يكون له إرادة مستقلة، بل إرادته تابعة لمراد الله منه فلا يفعل ولا يترك إلا تبعاً للأمر، كحال نبينا محمد ﷺ.

● ومنها: أن الله أعطى سليمان عليه السلام ملكاً عظيماً، فيه أمور لا يمكن أن تدرك بالأسباب، وإنما هي من تقدير الملك الوهاب، مثل تسخير الريح تبعاً لأمره، وتسخير

(١) صحيح: رواه أحمد (٧٨/٥، ٧٩، ٣٦٣) وغيره.

(٢) رواه البخاري (٤٦١) ومسلم (٥٤١) (٣٩) من حديث أبي هريرة.

الشياطين، وكون جنوده من الجن والإنس والطير وأن الطيور كانت تخدمه الخدمة العظيمة يرسلها للجهات توصل منه الأخبار وتأتيه بأخبار تلك الجهات، وقد أعطاها الله من الفهم ومعرفة أحوال الآدميين ما قص الله علينا نبأه في هذه القصة، وكذلك الذي عنده علم من الكتاب حين استعد أن يأتيه بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتد إليه طرفه، وهذه آيات أنبياء، فلماذا مهما بلغ الخلق في الترقى في علوم الطبيعة والمهارة بالمخترعات فلن يصلوا إلى ما أعطيه سليمان.

● ومنها: أنه ينبغي لكل مسؤول أن يتفقد رعيته ويسأل عنهم ولا يكتفى بتقارير الآخرين فسليمان عليه السلام تفقد الجنود وسأل عن الهدهد لغيابه.

● ومنها: أنه ينبغي للملوك والرؤساء أن يسألوا عن أحوال الأمراء والرؤساء والرجال المتميزين ولا يكتفوا بمجرد السؤال بل يختبرونهم، ويختبرون معرفتهم للأمور وعقولهم، كما فعل سليمان مع ملكة سبأ امتحنها ليستدل على كمال عقلها ورجاحتها ولم يكتف بالسؤال، وهذا فيه للملوك فوائد عظيمة، وهم محتاجون لهذا أشد الحاجة، وتامم الملك أن يدير دفته الرجال المتقون الصادقون.

● ومنها: أن من منن الله على العبد أن يهبه ولداً صالحاً قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

● ومنها: أن الذي يعطيه الله الإيمان خير له من الدنيا وما فيها ويكون الإيمان حاجزاً له عن المعاصي كقبول الرشوة والرضا بالدنية في دينه.

كما حكى الله عن وفد بلقيس إلى سليمان بهديتهم ﴿قَالَ أَتُمَدُّوْنَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ﴾ [النمل: ٣٦]. كلمة قالها سليمان عليه السلام تركز فيها القيم السامية والتمسك بالحق والترفع عن جميع إغراءات الدنيا من جاه ومال ومناصب عالية.

● ومنها: أن الصغير وطالب العلم يجوز له أن يتكلم في وجود الكبير، والعالم. فقد تحدث الهدهد في وجود سليمان عليه السلام.

● ومنها: أن العلم قد يكون مع الأصاغر دون الأكابر وذلك في بعض النواحي، وذلك يترأى لنا في قول الهدهد لسليمان بعد رجوعه من غيبته عنه:

﴿أَحْطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ نَبِيًّا يَقِينٌ﴾ [النمل: ٢٢].

فسليمان ذلك النبي الذي وهبه الله الحكمة وأعطاه العلوم الجمة خفى عليه ما علمه الهدهد.

● ومنها: أن في قصة سليمان مع بلقيس درس للعالم في التواضع فلا يأخذه العجب والكبر والغرور بما أوتيته من علم.

● ومنها: فضل العلم وشرف أهله وتنبيه للعلماء أن يحمدا الله تعالى على ما آتاهم من فضله وهذه الفائدة مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

● ومنها: أن المخلوقات تدين لله تعالى بالتوحيد إلا الكثير من الثقلين، ولذلك تعجب الملهد من بلقيس وقومها الذين يعبدون الشمس من دون الله وقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٥-٢٦].

● ومنها: عاد داود عليه السلام إلى حكم سليمان وهذا هو الأمثل بكل قاض أصدر حكماً ثم رأى السداد في غيره أن يرحب باستئناف الحكم للوصول إلى الحق، وهذا الأمر هو بعض مضمون الخطاب العظيم الذي كتبه عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري -رضي الله عنهما- حين كتب إليه: ولا يمنعك قضاء قضيتيه في أمسك ثم راجعت فيه نفسك فرأيت السداد في غيره أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قاسم، والرجوع إلى الحق خير من التماذي في الباطل.

● ومنها: أن المجتهد المخلص في اجتهاده المتطلع بكل علمه وجهده إلى الصواب مأجور على كل الأحوال. وهذا هو ما أخبر به رسول الله ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ، ثُمَّ أَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ»^(١).

وهذا ينطبق على القاضي العالم بالأحكام والاجتهاد، أما الذي يقضى بجهل فهو آثم وعليه وزر.

● ومنها: أن من أتلف شيئاً فعلياً إصلاحه، وعلى أصحاب الغنم وسائر الحيوانات التي تنطلق إلى زراعة الناس فترعاها وتفسدها يغرمون ما تفسده من الحرث سواء أكان إفسادها ليلاً أو نهاراً. وهذا مستفاد من قصة ﴿الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ [الأنبياء: ٧٨].

● ومنها: أن اجتهاد الأنبياء إن لم يكن وحياً ينزل به الملك يمكن أن يكون خلاف

الأول، كما اجتهد داود عليه السلام في قضية الحرث وغنم القوم فكانت خلاف الأولى، كما اجتهد رسول الله ﷺ في اختيار المكان الذي ينزل فيه الجنود يوم بدر، ثم عدل عنه نزولاً على رأى أحد أصحابه رضوان الله عليهم.

● ومنها: أن المستفتى عليه أن يسأل أكثر من عالم عن مسألة واحدة حتى يطمئن قلبه إلى الرأى السديد.

● ومنها: شرع من قبلنا شرع لنا إلا ما خطأه الدليل كتحریم الصور والتماثيل علينا ولم تحرم عندهم.

● ومنها: وجوب الشكر على النعم، وأهم ما يكون به الشكر الصلاة والإكثار منها.



(١) رواه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص.

المبحث السادس: وفاة سليمان عليه السلام

• قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبا: ١٤].

• أي: فلما قضينا على سليمان بالموت، وحكمنا عليه به، ما دلهم على موته إلا دابة الأرض وهي الأرضة التي أكلت عصاه فسقط على الأرض بعد موته بمدة من الزمن، وحينئذ تبينت الجن أمر موته، وتبين لهم وللناس أنهم لا يعلمون الغيب، ولو أنهم يعلمونه لعلموا بموته، ولما لبثوا في العذاب المهين الذي هم فيه، وهو عذاب التسخير في الخدمة والعمل الشاق.

• ومن هنا يمكننا أن نتبصر فيما يقال عن الجن وعلمهم الغيب حتى لا تكون فريسة لأوهام المضلين من الدجالين والمشعوذين والسحرة والكهان وقارئي الفنجان ونحو ذلك ممن يدعون علم الغيب ومن صدق هؤلاء جميعاً فقد كفر بما نزل على رسول الله ﷺ. وقيل إن سليمان عليه السلام دفن في بيت المقدس والعلم عند الله تعالى.



الفصل الثامن عشر: قصة سبا

• قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَآ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جِئَتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَازِي إِلَّا الْكُفُورُ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لِيَالِي وَيَأْمَأْمَنِ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيْقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبا: ١٥-٢١].

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبا، ما هو: أرجل أم امرأة أم أرض؟ فقال: ((بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة، وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون: فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير، عزباء كلها، وأما الشامية: فلخم وجذام وعاملة وغسان^(١))).

• كانت سبا ملوك اليمن وأهلها، وكانت بلقيس منهم، ومسكنهم بلدة يقال لها ((مأرب)).

• وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشتهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به.

• ومن هذه النعم ((جنتان عن يمين وشمال)).

كان لهم واد عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكمًا، يكون مجمعا للماء فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتُغَلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم،

(١) حسن: أخرجه أحمد (٣١٦/١) والحاكم (٤٢٣/٢) وغيرهما.

ويحصل لهم الغبطة والسرور فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليها من وجوه كثيرة:

• منها: أن الله جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وضئها، وحصول الرزق الرغد فيها.

• ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ((بدلة طيبة ورب غفور)).

• ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة، الظاهر أهما: قرى صنعاء، كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام، هباً لهم من الأسباب، ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة، يحمل الزاد والمزاد. ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

أي سيراً مقدراً يعرفونه: ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ((سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين)).

أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف.

• فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، ومَلَّوْها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً.

• ((وظلموا أنفسهم)) بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التي أظفقتهم، فأبأدها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي ضرب سدهم، وأتلف جناقهم، وخرّب بساتينهم.

• فتبدلت تلك الجنات ذات الحقائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها، أشجار لا نفع فيها ولهذا قال: ((وبدلناهم جنتين ذواتي أكل)) أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ((ذواتي أكل حُطّ وأثل وشيء من سدر قليل)).

والحُطّ: هو الثمر المر، وقيل: هو البشع الذي لا يؤكل، والأثل: شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له. والسدر: هو شجر النبق وكان أجود هذه الأشجار.

• فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعد ما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله

أحاديث يتحدث بهم، وأسماً للناس، وكان يضرب بهم المثل فيقال: ((تفرقوا أيدي سبأ)) فكل أحد يتحدث بما جرى بهم.

• ولكن لا ينتفع بالعبارة فيهم إلا من قال الله فيهم: ((إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور)) صبار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يُقرّبها، ويعترف، ويثني على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

• ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وهذا ظن من إبليس، لا يقين، لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأت خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين، إلا من استثنى.

• فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليهم إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم ((فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين)) ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

• فوائد مستنبطة من هذه القصة :

• منها: التحذير من الإعراض عن دين الله تعالى فإنه متى حصل لأمة نزلت بها النقم وسلبها الله النعم.

• ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، فتبدلت تلك الجنات ذات الحقائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها، أشجار لا نفع فيها.

ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].
أي: وهل نجازي جزاء العقوبة: إلا من كفر بالله وبطر النعمة.

• ومنها: التحذير من كفر النعم بالإسراف فيؤا وصرفها في غير مرضاة الله تعالى الذي وهب هذه النعم.

• ومنها: ما قاله ابن القيم^(١) - رحمه الله -: النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها، فإذا أراد الله إتمام نعمته

على عبده عرفه نعمته الحاضرة وأعطاه من شكره قيداً يقيدها به حتى لا تشرد، فإنها تشرد بالمعصية، وتقيد بالشكر. ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.

ومنها: أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ذكرها ويوزعك شكرها، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجَارُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]. وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا ينال إلا بتوفيقه^(١).

ومنها: فضيلة الصبر والشكر وعلو شأن الصبور الشكور.



الفصل التاسع عشر: قصة التابوت

• قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٧-٢٤٨].

• قال أحد أنبياء بني إسرائيل لهم: إن الله اختار لكم طالوت ملكاً وقائداً، انظر بماذا رد هؤلاء القوم على نبيهم قالوا معجبين لقصور عقولهم: كيف يكون ملكاً علينا؟ ونحن أحق بالملك والرياسة منه إذ فينا الملك قديماً وطالوت فقير ليس غنياً.

• كأهم فهموا أن الملك حق يورث وأن الغنى شرط أساسى فيه فقال لهم نبيهم: إن الله قد اختاره واصطفاه وما عليكم إلا الامتثال فالله لا يختار إلا ما فيه الخير لكم، وقد زاده الله: قوة في العلم بالسياسة وغيرها حتى يكون واسع الإدراك نافذ البصيرة، وقوة في الجسم حتى يقوى على القيادة وأعمال الحرب، وحتى يكون مهاباً يملأ العين والنظر. والله سبحانه يؤتى ملكه من يشاء فلا اعتراض عليه وهو أعلم بخلقه من يستحق ومن لا يستحق.

• لم يقتنع القوم بما ساق لهم نبيهم الكريم من الحكمة في اختيار طالوت ملكاً عليهم وظلوا معاندين فأوحى الله إليه أن يسوق دليلاً مادياً على صحة ملكه وقيادته، وآية ملكه أن يأتاكم التابوت - وقد كان له شأن في بني إسرائيل عظيم ولما فرطوا أخذ منهم زمناً ثم جعل لهم نبيهم عودته في بيت طالوت دليلاً من الله على صحة الملك وفيه سر تسكن إليه نفوسكم وتطمئن إليه ضمائركم خاصة عندما تحملونه في القتال وفيه بقية مما ترك موسى وهارون، وسيأتي محمولاً من الملائكة تشريفاً وتكريماً له، أفلا يدل كل هذا على أن الله اختار طالوت قائداً لكم؟ ولكنهم اليهود قديماً وحديثاً هكذا يفعلون إن في ذلك القصص لعبرة وعظة وأي عبرة وعظة.

• لقد جاء في التابوت وبقيته من الإسرائيليات الكثير، ولكن أعرضنا عنها وإليك الأقرب إلى الحق والصواب.

● التابوت: هو صندوق، لكن ما صفته؟ فلم أقف على تفصيلها في شيء من الكتاب والسنة.

● ما البقية التي جاءت في التابوت مما ترك آل موسى وآل هارون؟

● لم أقف على دليل ثابت عن رسول الله ﷺ يوضح تلك البقية، ومن العلماء من قال: إنها عصا موسى.

● ومنهم من قال إنها رفاض الألواح (أي فتات الألواح وما تهشم منها).

● ومنهم من قال: هي بعض ما تركه آل موسى وآل هارون من ثياب.

● وقال الطبري رحمه الله تعالى:-

بعد أن أورد جملة من آثار في هذا الباب:- وجائز أن تكون تلك البقية: العصا وكسر الألواح، والتوراة، أو بعضها، والنعلين، والثياب، والجهاد في سبيل الله، وجائز أن يكون بعض ذلك، وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم. ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا. وإذا كان كذلك، فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر غيره، إذ كان جائزاً فيه ما قلنا من القول^(١).

● ما المراد بالسكينة المذكورة في الآية؟

لأهل العلم في المراد بالسكينة أقوال:

● منها: أن السكينة روح، أو شيء له روح، وأنها تنزل مع الملائكة، وذلك لما أخرجه البخاري ومسلم من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنهما - قال: كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشططيه فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن» وفي رواية «للقرآن»^(٢).

● وفي رواية لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن أسيد بن حضير بينما هو ليلة يقرأ في مربده، إذ جالت فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضاً، قال أسيد: فخشيت أن تطأ يحيى فقممت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي فيها أمثال السرج عرجت

(١) تفسير الطبري (٦٢٩/٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١١) ومسلم (٧٩٥).

في الجو حتى ما أراها، قال: فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله....، فذكر الحديث، وفيه: أن النبي ﷺ قال له: «تلك الملائكة كانت تستمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم»^(١).

● فعلى هذا رأى فريق من أهل العلم أن رواية البراء فيها: «السكينة» ورواية أبي سعيد فيها «الملائكة» قالوا: فدل ذلك على أن السكينة تنزل مع الملائكة.

● ومن العلماء من قال: إن التابوت لما جاء سكنت نفوس القوم واطمأنت إلى ملك طالوت وذهب الشك الذي كان بأنفسهم.

● ورجح الطبري^(٢) - رحمه الله -:

أما (أي: السكينة) ما تسكن إليه النفوس من الآيات التي يعرفونها، فالله تعالى أعلم.

● وقال الشيخ محمد أبو شهبه^(٣) - رحمه الله -:

والذي نقطع به، ويجب الإيمان به: أنه كان في بني إسرائيل تابوت - أي صندوق - من غير بحث في حقيقته، وهيته، ومن أين جاء، إذ ليس في ذلك خير صحيح عن المعصوم، وأن هذا التابوت كان فيه مخلفات من مخلفات موسى، وهارون - عليهما السلام - وأن هذا التابوت كان مصدر سكينة، وطمأنينة لبني إسرائيل، ولا سيما عند قتال عدوهم، وأنه عاد إلى بني إسرائيل، تحمله الملائكة، من غير بحث في الطريق التي حملته بها الملائكة، وبذلك كان التابوت آية دالة على صدق طالوت في كونه ملكاً عليهم، وما وراء ذلك من الأخبار لم يقم عليها دليل.



(١) أخرجه مسلم (٧٩٦) وغيره.

(٢) تفسير الطبري (٦٢٦/٢).

(٣) الإسرائيليات ص: ١٧٣.

الفصل العشرون: قصة أصحاب السبت

• قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ. فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

• وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلُ أَن تَطْمَئِسَ وُجُوهٌ فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

• وقال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَمَنِ نَفَا أَن يَكْفُرْ بَاطِلًا لَّهُمْ إِنْ كَانُوا عَلِمُوا﴾ [النساء: ١٥٤].

• وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَائُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعْلَهُمْ يَنْتَقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦].

• ذهب جمهور المفسرين أن القرية المذكورة «أيلة» وهي التي على طريق الحاج الذهاب إلى مكة من مصر، وقالوا إن ذلك في زمن داود عليه السلام، و منهم من قال: كان ذلك في زمن موسى عليه السلام، والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان، والعبرة المقصودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات، فالحجة فيما ذكر قائمة على بني إسرائيل ومبينة أن مجاهدكم ومعاندتهم للنبي ﷺ ليست بدعا من أمرهم، ثم إنما عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ إلهه هواه ويعيش عيشة بهيمية.

• أباح الله تعالى لبني إسرائيل العمل في ستة أيام من الأسبوع، وحظر عليهم العمل في يوم واحد وهو يوم السبت، وفرض عليهم في هذا اليوم الاجتهاد في الأعمال الدينية، إحياءً للشعور الديني في قلوبهم، وإضعافاً لشهوتهم في جمع الحطام وحيهم للدنيا، فتجاوز طائفة منهم حدود الله يوم السبت واعتدوها، فكان جزاؤهم على ذلك جزاء من لم يرض

نفسه بأداب الدين وجزاء مثله هو الخروج من محيط الكمال الإنساني، والرتوع في مراتع البهيمية، كالقرود في نزواته، والخنزير في شهواته، وقد سجل الله تعالى عليهم ذلك بحكم سنة الفطرة، والنواميس التي أقام بها نظام الخليقة.

• يؤكد الله تعالى في الآيات السابقة من خطاب بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ أنهم قد علموا حال الذين اعتدوا منهم في السبت، وهو اليوم الذي كانوا يعظمونه، وكان الله سبحانه وتعالى قد حرم عليهم الصيد في هذا اليوم وابتلاهم، حيث كانت تأتيتهم الحيتان في هذا اليوم شرعاً طافية على ظهر الماء كثيرة يسهل أخذها، وفي غير هذا اليوم لا تأتيتهم الحيتان فطال عليهم الأمر وقالوا: لا يمكن أن ندع هذه الحيتان تأتي وترجع دون أن نصيدها فعملوا لذلك حيلة ووضعوا شبكا في يوم الجمعة فإذا جاءت الحيتان يوم السبت وقعت في هذه الشباك وإذا كان يوم الأحد أتوا إلى الشباك فأخذوا ما فيها من الحيتان، فعاقبهم الله تعالى بهذه العقوبة العظيمة أن جعلهم قردة خاسئين. بعد أن كانوا بشرا سويا ذا عتاد ورفعة. فجعل الله هذه العقوبة نكالا لما بين يديها للأمة المعاصرة لهم، وما خلف هذه الأمة الآتية بعدهم، وجعلها كذلك موعظة للمتقين.

• أخرج الطبري بسند حسن إلى قتادة: قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. أحلت لهم الحيتان وحرمت عليهم السبت بلاء من الله ليعلم من يطيعه ممن يعصيه فصار القوم ثلاثة أصناف: فأما صنف فأمسك ونهى عن المعصية، وأما صنف فأمسك عن حرمة الله وأما صنف فانتهك حرمة الله ومرد على المعصية فلما أبوا إلا الاعتداء إلى ما نهوا عنه قال الله لهم ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]. فصاروا قردة لها أذنان، تعاوى بعد ما كانوا رجالاً ونساءً^(١).

• ومن فوائد هذه القصة:

• منها: أن هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بعلم الفقه، وهو غير فقيه، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حرماته، والوقوف عندها، ليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه، وبهذا يكون المتحيل جامعاً بين فعل المعصية المنهي عنها وخيانة الله سبحانه وتعالى وخداعه قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

• ومنها: أن الجزء من جنس العمل، وذلك أن اليهود لما احتالوا كان ظاهره ظاهر الاتقاء، وباطنه باطن الاعتداء، ولهذا -والله أعلم- مسحوا قردة، لأن صورة القرده فيها شبه من صورة الإنسان، وفي بعض ما يذكر من أوصافه شبه منه، وهو مخالف له في الحد والحقيقة، فلما مسح أولئك المعتدون دين الله تعالى، بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين في بعض ظاهره دون حقيقته، مسحهم الله تعالى قردة يشبهوهم في بعض ظواهرهم، دون الحقيقة، جزاءً وفاقاً.

• ومنها: بيان قدرة الله عز وجل حيث انقلب هؤلاء البشر من الإنسانية إلى الحيوانية البهيمية.

• ويبقى سؤال يطرح نفسه وهو: هل هذه القردة الموجودة الآن من نسل بني إسرائيل أم هي جنس من المخلوقات منفرد؟.

• وجوابنا على هذا أن نقول: هذه القردة الموجودة الآن جنس منفرد من مخلوقات الله عز وجل، مستقل بنفسه، أما الذين قلبوا قردة من بني إسرائيل فإنه ليس لهم نسل، بل ماتوا وهلكوا وبادوا.

• ومن الفوائد أيضاً:

تكذيب من زعم أن البشر أصلهم قردة، ثم تطور حتى صار بشراً، لأن الله سبحانه وتعالى جعل الإنسان قرداً حينما أراد أن يعاقبه لمخالفة أمره. وللأسف هذه نظرية تدرس على الطلبة المسلمين وتسمى «نظرية التطور» وضعها أحد الكافرين فنقول له أبوك أنت قرد أما نحن أبونا آدم وآدم خلق من تراب ولم يختلف في ذلك اثنان ممن لم يطمس الله فطرهم.

• فمن اعتقد أن أصل بني آدم قردة فإنه مكذب بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين، فإن قاله عن جهل لكونه عاش في بيئة لا تعلم سوى ذلك فإنه يُعلم فإن أصر على ما كان عليه صار كافراً.

وإن لم يقله عن جهل، بأن كان عائشاً في بلاد المسلمين الذين يقرؤون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بأنه يكون كافراً بمجرد قوله: إن بني آدم أصلهم قردة، لأن هذا تكذيب صريح لما علم بالضرورة من دين الإسلام.

• ومنها: أن من رام المرتبة بغير استحقاق لها فإنه يعاقب بنقيض قصده، لأن هؤلاء الذين اعتدوا واستكبروا وتعالوا عوقبوا بنقيض قصدهم، عوقبوا بأن حولوا إلى قردة

خاسئة ذليلة. وهكذا كل من أراد علواً في الأرض أو فساداً فإن الله سبحانه وتعالى لا يصلح عمله، بل يحطه وينزله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]. ومن تواضع لله رفعه، ومن تعالى على الله وضعه، ولهذا فإن الإنسان كلما تواضع للحق وللخلق ازداد رفعة عند الله وعند الخلق أيضاً.

• ومنها: أن كل من اطلع على حال هؤلاء فلا بد أن يمتنع عما كان عليه من الإثم والعدوان سواء كان ذلك بترك الواجب، أو انتهاك المحرم.

• ومنها: أن الموعظة إنما ينتفع بها المتقون لقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦].

فمن ليس بمتقٍ فإنه لا ينتفع بالموعظة، وكلما كان الإنسان أتقى لله كان أوعى الموعظة وأكثر انتفاعاً بها، وشاهد هذا ظاهر في الحسوس، فإنك تجد الرجل المتماهى في المعاصي، المنهمك فيها لا ينتفع بالموعظة والإرشاد، وتجد الرجل المستقيم المتقٍ إذا وعظ انتفع، فإن كان في اتجاه إلى محرم عدل عنه، وإن كان متهاوئاً في مأمور اتجه إلى فعله واستبق إليه. والأمثلة كثيرة في الكتاب والسنة.

• ومنها: أن للتقوى فوائد منها: الاتعاظ بما يحصل من آيات الله الكونية والشرعية.

وللتقوى فوائد كثيرة ذكرها الله في كتابه العظيم منها: أنها سبب لتيسير الأمور كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

• ومنها: أنها سبب للهداية والنور كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]. فإن كانت التقوى بهذه المثابة كان لزماً على العاقل أن يلتزم تقوى الله تعالى حتى تحصل له هذه الفوائد العظيمة التي رتب عليها جعلني الله وإياكم من المتقين.

• ومنها: ما ذكره ابن القيم^(١) -رحمه الله- فقال: ما قصه الله تعالى علينا من قصة أصحاب السبت، حتى مسحهم قردة لما تخيلوا على استحلال محارم الله تعالى.

ومعلوم أنهم كانوا يعصون الله تعالى بأكل الحرام، واستباحة الفروج الحرام، والدم

(١) إغاثة اللفهان (٢/٤٣٦).

الحرام. وذلك أعظم إثماً من مجرد العمل يوم السبت. ولكن لما استحلوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه، وخادعوه بخادعة الصبيان، ومسحوا دينه بالاحتيال، مسحهم الله تعالى قردة. وكان الله تعالى قد أباح لهم الصيد في كل أيام الأسبوع إلا يوماً واحداً، فلم يدعهم حرصهم وجشعهم حتى تعدوا إله الصيد فيه، وساعد القدر بأن عوقبوا بإمساك الحيتان عنهم في غير يوم السبت وإرسالها عليهم يوم السبت وهكذا يفعل الله سبحانه بمن تعرض لمحارمه. فإنه يرسلها عليه بالقدر تردلف إليه بأيها يبدأ.

فإنظر ما فعل الحرص، وما أوجب من الحرمان بالكلية. ومن ههنا قيل: من طلبه كله فاته كله.



الفصل الحادي والعشرون: قصة هاروت وماروت

المبحث الأول: التفسير الصحيح لقصة هاروت وماروت:

• قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلَّمُوا لِمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢، ١٠٣].

• لقد ذكرت في قصة الملكين هاروت وماروت روايات كثيرة وقصصا عجيبة، وكلها من خرافات بني إسرائيل، وأكاذيبهم التي لا يشهد لها عقل، ولا نقل، ولا شرع.

• أما التفسير الصحيح فقد ذكره جماعة من العلماء منهم الشيخ ابن عثيمين^(١) - رحمه الله تعالى - فقال:

في هذه الآية يبين الله تعالى أن قوماً من بني إسرائيل اتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان، وكانت الشياطين تتلو ما تتلوه من أنواع السحر، بل ومن أنواع الكفر أيضاً، فتمليه على الناس بما تلقيه في قلوبهم من ذلك، وقوله: «(على ملك سليمان)» لأن سليمان عليه الصلاة والسلام قد آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسخر له الريح، وسخر له الشياطين كل بناء وغواص. وسليمان هو ابن داود، وهو من أفضل أنبياء بني إسرائيل، وهو من بعد موسى بأزمنة طويلة، يقول عز وجل: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾. ومن كفرهم أنهم يعلمون الناس السحر.

والسحر بالشعوذة ودعاء الشياطين والاستعانة بهم على إيذاء الخلق - نوع من الكفر، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ﴾. قال: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾. يعني أن ما أنزل على الملكين ببابل وبابل اسم

مكان، والملكان أحدهما هاروت، والثاني: ماروت، وهما ملكان من الملائكة أنزلهما الله عز وجل إلى الأرض لاختبار الناس يعلمان الناس السحر بأمر الله عز وجل ولكنهما كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فيتعلم الناس منهما على بصيرة، وعلى علم، يتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه من السحر، وهو ما يسمى بالعطف والصرف، وهو نوع خبيث من أنواع السحر، ومن أشد أنواع السحر ضرراً حيث يفرق به بين المرء وزوجه، ومن المعلوم أن الصلة بين المرء ونفسه أوثق من أقوى الصلات كما قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الرؤم: ٢١].

فهذان الملكان يعلمان الناس، ويقولان: إنما نحن فتنة فلا تكفر، ولكن بعض الناس يصمم على أن يتعلم وهذا من اختبار الله عز وجل لعباده: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾. يعني يتعلمون من السحر ما هو ضرر لهم في دينهم ودنياهم، ولا ينفعهم، وإن قدر أنهم انتفعوا به في الدنيا فإن ضرره أكبر من نفعه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾. يعني علم هؤلاء الذين أصروا على تعلم السحر أن من اشتراه أي تعلمه ما له في الآخرة من خلاق يعني ليس له في الآخرة نصيب، وذلك لأنه أتى الكفر، والكافر ليس له نصيب في الآخرة، إنما يتمتع في الدنيا كما تمتع الأنعام، والنار مثنى له، قال الله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. أي لبئس ما باعوا به أنفسهم، وهو هذا السحر الذي تعلموه، ثم قال: «لو كانوا يعلمون» يعني لو كانوا من ذوى العلم لعرفوا قبحه، وأبعدوا عنه، ولم يحاولوا تعلمه، هذا معنى الآية إجمالاً. انتهى.



المبحث الثاني: فوائد مستنبطة من قصة هاروت وماروت

● منها: أن الله سبحانه وتعالى سخر الشياطين لسليمان، وامتنح الناس بهم، لقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾.

● ومنها: أن سليمان عليه الصلاة والسلام لم يكفر بكفر هؤلاء الشياطين الذين تعلموا السحر، وصاروا يتلونه ويلقونه على الناس، وذلك لأن الأنبياء معصومون من الكفر والشرك.

● ومنها: أن العمل بالسحر كفر، لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ﴾.

● ومنها: أن السحر نوعان: النوع الأول سحر الشياطين الذي يكون بالاستعانة بهم، والتعوذ بهم، والاتجاء إليهم، وهذا كفر لا شك فيه.

والثاني: سحر بالأدوية والأوراق والأشجار وما أشبه ذلك مما لا علاقة للشياطين به، فهذا لا يصل إلى حد الكفر، لكنه محرم تحرماً شديداً لما يحصل فيه من الأذى والضرر على الغير.

وإذا ثبت السحر على شخص، فإن كان من النوع الأول فإنه يقتل كفراً وردة. وإن كان من النوع الثاني فإنه يقتل لاتقاء شره وأذيته على المسلمين.

ومنها: أن الحق ما أذن الله فيه وأمر به، ولو كان في نفسه باطلاً فهذان الملكان نزلا إلى الأرض، ليعلمنا الناس السحر، وتعليم السحر - كما سبق - كفر، لكن الله عز وجل أباح لذين الملكين أن يعلمنا الناس من أجل هذا الامتحان الذي حصل بتعليمهما، والشيء قد يكون كفراً، وقد يكون طاعة، ولو كان واحداً من نوعه، وأضرب لهذا مثلين:

المثل الأول: السجود لغير الله كفر وشرك، وإذا سجد الإنسان لغير الله بأمر الله كان عبادة، ألم تر قول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤].

فهنا نجد السجود لغير الله كان طاعة وعبادة، لأن الله أمر به، ويكون شركاً في الحالة التي لم يأمر الله به فيها.

والمثل الثاني: قتل النفس فإنه من كبائر الذنوب، ولا سيما إذا كان المقتول من أقارب

القاتل، ومع ذلك كان طاعة يمدح عليه وذلك في قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل، فإن إبراهيم رأى في المنام أنه يذبح ابنه إسماعيل، فقص الرؤيا على ابنه فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فأسلما أمرهما الله، واستسلما لقضاء الله وشرعه، فلما تل ابنه للحنين ليذبحه جاء الفرج من الله عز وجل: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٦].

فامتحن الله إبراهيم بأمره بقتل ابنه حتى أسلم لله، وانقاد، فصار ذبح ابنه طاعة لله، ولكن الله عز وجل تداركه بلطفه وإحسانه فكتب له أجر الممثل، وقال له: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فالملك كان اللذان نزلا يعلمان الناس السحر نزلا بأمر الله، ويأذن الله، فكان تعليمهما للسحر طاعة لله عز وجل لكنه باعتبار المعلم - كافر، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

● ومنها: أن الله تعالى قد يسر للإنسان أسباب المعصية، ليلوّه هل يعصى الله أم لا يعصى الله؟ فالله سبحانه وتعالى قد يسر للناس تعلم السحر بما أنزل على الملكين، وبما بذلاه من أنفسهما لتعليم الناس.

● ومنها: أنه يجب أن يبين الأمر لطالبه على وجه صريح، لا لیس فيه، فإن هذا من تمام النصيح والبيان، لأن الملكين لا يعلمان من أحد حتى يقولوا: إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ، فيبينان حالهما، وحال المتعلم منهما، يبينان حالهما أهما نزلا فتنة، ويبينان حال المتعلم منهما بأن تعلمه كفر.

● ومنها: أن من أعظم أنواع السحر التفريق بين الرجل وزوجته، لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ وهذا ما يسمى بالعطف والصراف، فإن من أنواع السحر ما إذا سحر به الإنسان انعطف على غيره انعطافاً بالغاً شديداً لا يملك أن يتصرف بنفسه معه حتى يكون وراء هذا الشخص الذي عطف عليه كما تكون الشاة وراء الراعي الذي يدعوها، ومن السحر ما يكون بالعكس، يوضع للشخص، ليفرق بينه وبين حبيبته، مثل أن يفرق بينه وبين زوجته فيصبح يرى زوجته وكأنها من أعدى أعدائه أو بالعكس، وهذا من أشد أنواع السحر إيذاء وضرراً.

● ومنها: أن ما يقع من تأثير السحر إنما يقع بأمر الله عز وجل وإرادته لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

● ومنها: أنه متى لجأ الإنسان إلى ربه، واستعاذ به، واستغاثه من الأمر الذي نزل به فإن الله سبحانه وتعالى، قادر على أن يصرفه عنه ولو كان قد نزل به الشر، لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

● ومنها: الإشارة إلى أنه ينبغي للمسحور أن يلجأ إلى الله تعالى، وأن يسأله رفع ما نزل به بصدق وإخلاص وضرورة، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

قد يكون لجوء الإنسان إلى الله في الحال التي يصاب فيها بالسحر وشدة تضرعه إليه قد يكون من أقوى الأدوية تأثيراً إن لم يكن أقوى الأدوية تأثيراً، ولهذا لما سحر النبي ﷺ بسحر عظيم أنزل الله عليه سورتي المعوذتين: قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس فرقا بهما الملك فشفاه الله تعالى من ذلك.

● ومنها: أن السحر ضرر على الساحر كما هو ضرر على غيره، وإن ظن الساحر أنه ينتفع بذلك، وأنه يكسب من ورائه، فإن هذا الكسب الذي حصده كسب خبيث لا يزيده من الله إلا بعداً، ولا يزيده إلا خساراً، ولهذا قال: ﴿يَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾.

● ومنها: أن الساحر كافر، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾. أي ماله من نصيب، ولا أحد لا نصيب له في الآخرة مطلقاً إلا الكافر، فإن الكافر لا نصيب له في الآخرة.

● ومنها: تنبيه ما حصل من هؤلاء من تعلم السحر، حيث قال: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾.

● ومنها: أن هؤلاء الذين اختاروا تعلم السحر وأهلكوا أنفسهم به كانوا من أجهل الناس سواء علموا ذلك أم لم يعلموه مع أن قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾. يدل على أنهم يعلمون أن الساحر ليس له نصيب في الآخرة، فيكونون قد خالفوا وعصوا على بصيرة والعياذ بالله.



الفصل الثاني والعشرون: قصة الرجل الذي مر على

قرية وهى خاوية على عروشها

• قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ^(١) عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ^(٢) قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّه^(٣) وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِتَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا^(٤) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٥) [البقرة: ٢٥٩].

• من الذي مر على القرية وهى خاوية على عروشها وما هذه القرية وما قصته؟

قال الشيخ مصطفى العدوي^(٥):

• لم أقف على تحديد اسم هذا الرجل ولا هذه القرية في الكتاب أو السنة، وقد روى الطبري بإسناد حسن عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أنه بيت المقدس أتى إليه عزير بعد ما خربه بُخْتَنَصْرُ الْبَابِلِيِّ. وهذا من قول قتادة - رحمه الله - ولا نلجئ إلى صحته. فإله أعلم.

• هذا وقد قال الطبري^(٦) - رحمه الله تعالى - قولاً جيداً في هذا المقام

فقال - رحمه الله -:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره عَجَبَ نَبِيِّهِ ﷺ من قال: إذ رأى قرية خاوية على عروشها: ﴿أَتَى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]. مع علمه أنه ابتداء خلقها من غير شيء، فلم يقنعه علمه بقدرته على ابتدائها حتى قال: أَتَى

(١) خاوية على عروشها: سقطت سقفوها ثم سقطت الحيطان على السقوف وخاوية معناها: خالية.

والعروش: السقوف.

(٢) بعثه: أحياه.

(٣) لم يتسنه: لم يتغير.

(٤) نشزها: نرفعها فيركب بعضها فوق بعض. وأصل النشز: الارتفاع. والمرأة الناشز: هى المرتفعة

عن طاعة زوجها.

(٥) التسهيل (٣/٤٧٠).

(٦) تفسير الطبري (٣/٣١) وعنه التسهيل (٣/٤٧٠).

يحييها الله بعد موتها، ولا بيان عندنا من الوجه الذي يصح من قبله البيان على اسم قائل ذلك. وجائز أن يكون ذلك عزيزاً، وجائز أن يكون أورمياً، ولا حاجة بنا إلى معرفة اسمه، إذ لم يكن المقصود بالآية تعريف الخلق اسم قائل ذلك، وإنما المقصود بها تعريف المنكرين قدرة الله على إحيائه خلقه بعد مماتهم، وإعادتهم بعد فنائهم، وأنه الذي بيده الحياة والموت من قريش ومن كان يكذب بذلك من سائر العرب - وثبتت الحجة بذلك على من كان بين ظهرائي مهاجر رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل، بإطلاعه نبيه محمداً ﷺ على ما يزيل شكهم في نبوته، ويقطع عذرهم في رسالته، إذ كانت هذه الأنبياء التي أوحاها إلى نبيه محمد ﷺ في كتابه، من الأنبياء التي لم يكن يعلمها محمد ﷺ وقومه، ولم يكن علم ذلك إلا عند أهل الكتاب، ولم يكن محمد ﷺ وقومه منهم، بل كان أمياً وقومه أميون. فكان معلوماً بذلك عند أهل الكتاب من اليهود الذين كانوا بين ظهرائي مهاجرة، أن محمداً ﷺ لم يعلم ذلك إلا بوحي من الله إليه. ولو كان المقصود بذلك الخبر عن اسم قائل ذلك، لكانت الدلالة منصوبة عليه نصّاً يقطع العذر ويزيل الشك، ولكن القصد كان إلى ذم قيله، فأبان تعالى ذكره ذلك لخلقه انتهى.

• فوائد مستنبطة من القصة:

• منها: جواز طرؤ استبعاد ما يؤمن به العبد أنه حق وكائن، كما استبعد هذا المؤمن المار بالقرية حياة القرية مرة أخرى بعد ما شاهد من خرابها وخوائها.

• ومنها: عظيم قدرة الله تعالى بحيث لا يعجزه تعالى شيء وهو على كل شيء قدير.

• ومنها: ثبوت البعث الآخر وتقريره.

• ومنها: ولاية الله تعالى للعبد المؤمن التقى تجلت إذهاب الظلمة التي ظهرت على قلب المؤمن في باستعباده قدرة الله على إحياء القرية، فأراه الله قوله: ((أعلم أن الله على كل شيء قدير)).



الفصل الثالث والعشرون: قصة زكريا ويحيى عليهما

الصلاة والسلام

المبحث الأول: نسبهما وذكرهما في القرآن:

● لم يذكر نسب زكريا في القرآن ولا في السنة.

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: (٥٤٠/٦)

زكريا هو ابن أدن ويقال ابن شوى ويقال ابن بارخيا ويقال ابن أبي ابن بارخيا من ذرية سليمان بن داود عليهما السلام.

● أما يحيى: فهو الذي سماه الله في القرآن ولم يجعل هذا الاسم لأحد من قبل، فهو يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام.

● وذكر زكريا في القرآن الكريم سبع مرات.

١- قوله تعالى عن مريم: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٢- وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٣- وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٣٨].

٤- وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

٥- وقال تعالى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢].

٦- وقال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٧].

٧- وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٨٩].

● أما يحيى ﷺ فقد ذكر في القرآن الكريم خمس مرات:

١- قال تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ يَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٩].

٢- وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٥].

٣- وقال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧].

٤- وقوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

المبحث الثاني: قصة زكريا ﷺ

المطلب الأول: زكريا عليه السلام يكفل مريم:

● قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٧].

● قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

● لما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحى من الله العزيز الحكيم، لا يتعلم من الناس.

● ويخاطب الله تعالى النبي ﷺ فيقول له: ما كنت حاضراً يا محمد عندما اختصم القوم في تربية مريم عليها السلام وكفالتها، فقد تنازع القوم كل يريد أن يكفلها ويضمها إليه، واختصموا في ذلك، فأتجهوا إلى القرعة فيما بينهم، فألقوا أقلامهم في اليوم.

● قال بعض العلماء: ألقوا جميعاً الأقلام في الماء، فمن ثبت قلمه كفّلها، ومن جرى قلمه مع الماء الجاري لم يكفلها فجرت أقلامهم جميعاً وثبت قلم زكريا عليه السلام، فكفلها زكريا عليه السلام.

● فكفلها أحسن كفالة، وأعانه الله على كفالتها بكرامة عظيمة منه فكانت قد نشأت نشأة الصالحات الصديقات، وعكفت على عبادة ربه ولزمت محرابها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، قال أنى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. أي رزقه تعالى يأتي بطرق معهودة بأسباب، وبغير أسباب والله على كل شيء قدير.

● فحين رأى هذه الحالة ذكره ذلك لطف ربه ورجاه إلى رحمته، فدعا الله أن يهب له ولدا يرثه علمه ونبوته ويقوم بعده في بني إسرائيل في تعليمهم وهدايتهم.

المطلب الثاني: سؤال زكريا ربه أن يرزقه الولد الصالح:

● قال تعالى: ﴿ذَكَرْ رَحْمَةً رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ * إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً

خَفِيَاً. قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيماً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سُرِيّاً * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً [مرم: ١١-١].

• وقال تعالى عن زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٣٨-٤١].

• وقال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

• هذه الآيات تبين قصة النبي الكريم زكريا ﷺ وهو أحد أنبياء بني إسرائيل، وفيها يذكر الله تعالى رحمته التي رحم بها عبده زكريا حين ناداه نداء خفياً أي دعاه في سر وخفية لأن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء.

• وبين الله تعالى مكان دعاء زكريا ووقته في قوله تعالى: ﴿كَلَمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ. هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٧-٣٨].

فقوله: «هنالك» أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم، وقال بعض أهل العلم «هنالك» أي في ذلك الوقت.

• قال زكريا: يا رب إني عظمى قد ضعف وبالتالي ضعف بدني كله، وانتشر شيب

رأسي بالبياض، والشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت، ورائده ونذيره.

• فتوسل زكريا عليه السلام بضعفه وعجزه وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

• وما زال زكريا يتوسل إلى ربه، فيعترف ويقول يا رب لم تكن تحيب دعائي إذا دعوتك، فأنت يا رب عودتي على الإجابة فيما مضى، فإجابتك يا رب من السعادة وعدم إجابتك من الشقاء، ولم تنزل ألطافك تتوالى عليّ، وإحسانك واصلاً إليّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتمم إحسانه لاحقاً.

• وإني خفت يا رب من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، فلا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك.

• وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحداً، فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام، ونصحه.

• وأنه طلب للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك.

• وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة، أي: ليست تلد أصلاً، وأنه قد بلغ من الكبر مبلغاً يندر معه وجود الشهوة والولد.

• فاستجاب الله تعالى لدعاء زكريا، وبشره الله تعالى على يد الملائكة بـ«(يحيى)» وسماه الله له «(يحيى)» وكان اسماً لم يسم من قبل.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَةً﴾ [الأنبياء: ٩٠].

• والعجيب أن زكريا عليه السلام بعد أن سأل الله الولد الصالح فأعطاه قال: «(رب أني يكون لي غلام)» والحال أن المانع من وجود المانع من وجود الولد، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع، لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد. وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾. أي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليفة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبل، ولم يكن شيئاً.

• ثم طلب زكريا من ربه آية يطمئن بها قلبه، وليس هذا شكاً في خبر الله، ولكنه طلب زيادة العلم والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله تعالى إلى ما طلب رحمة به.

• ﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مریم: ١٠].

وفي الآية الأخرى: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١].

والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سويًا، لا نقص فيه من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد - ومع هذا، ممنوع من الكلام، الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم.

• أما التسييح، والذكر، ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١]. فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتلأ لأمر الله له، بالشكر، بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، فخرج على قومه منه، فأوحى إليهم، أي بالإشارة والرمز «أن سبحوا بكرة وعشيا» لأن البشارة بـ «يحيى» في الحق الجميع مصلحة دينية.

• واستجاب الله له ووهبه يحيى النبي الكريم الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.



المبحث الثالث: قصة يحيى عليه السلام

المطلب الأول: جاء يحيى إلى الوجود ببركة دعاء زكريا عليه السلام:

• تبدأ قصته عليه السلام بهذا الدعاء المبارك الذي كان سبباً في وجوده، وذلك عندما توجه أبوه «زكريا» عليه الصلاة والسلام إلى ربه داعياً ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

وفي الآية الأخرى ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مریم: ٦-٥].

• وفي الآية الثالثة: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

• فما الذي كان من هذا الدعاء الخاشع الحار المنيب؟ كانت الاستجابة التي لا تتقيد بسنن، ولا تتقيد بمألوف الناس لأنها تنطلق من المشيئة المطلقة التي تفعل ما تريد ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

• وفي الآية الأخرى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مریم: ٧].

• لم تناد الملائكة زكريا عليه السلام وتبشره بيحيى في سوق من الأسواق، ولا في خلأ لقضاء الحاجات، ولا في ناد للعب واللهو، ولا في مسرح من مسارح الفجور والفسوق والعصيان، ولا في شارع من الشوارع، بل نادته وهو قائم يصلي في المحراب، ففيه فضل المسجد وأن الخير يتنزل فيه، وقد قال النبي ﷺ: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه الذي صلى فيه ما لم يحدث تقول اللهم اغفر له اللهم ارحمه»^(١).

• بعد أن بشره الله تعالى بالولد الصالح الذي سماه له «يحيى» وكان اسماً موافقاً لمسماه: يحيا حياة حسية، فتتم به المنة ويحيا حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين.

(١) رواه البخاري (٤٤٥) من حديث أبي هريرة ؓ.

- وكان من مواصفات هذا الغلام الذي بشر الله به زكريا وهو «يحيى» أنه يصدق بعيسى عليه السلام أي يؤمن به وبرسالته.
- ومن مواصفاته أيضًا: أنه «سيد»: والسيد من ساد قومه، وهو الذي يرجع إليه قومه، وينتهون إلى قوله.
- وقيل: السيد هو الكريم، وقيل: هو الفقيه العالم، وقيل: هو الشريف في العلم والعبادة.

- ووصفه الله بأنه كان «حضوراً» والحضور فيه أقوال:
- الحضور: الذي لا يأتي النساء (فهو ما معه إلا مثل الهدية) ^(١).
- وقيل: الحضور: الذي لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن.
- وقيل: الحضور المنوع من الفواحش والقاذورات، فأصل الإحصار المنع ^(٢).
- ووصفه أيضًا: بالنبوة والصلاح: والصلاح أعم من النبوة، فإذا انضم إلى الصلاح نبوة كان أعلى من الصلاح بلا نبوة.
- قال النبي ﷺ في شأن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «إن عبد الله رجل صالح» ^(٣). فالصلاح هنا بلا نبوة فهو فضل، ولكنه أقل من الصلاح مع النبوة ولا شك. والله تعالى أعلم.

انطلب الثاني: الله تعالى يأمر يحيى بأن يأخذ الكتاب بقوة:

- دل الكلام السابق، على ولادة يحيى وشبابه وتربيته، وصفاته بالصفات الحميدة.
- فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب، أمره الله تعالى أن يأخذ الكتاب بقوة فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا * وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا * وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ

(١) أخرج الطبري في التفسير بسند صحيح إلى سعيد بن المسيب أنه قال: ليس أحد إلا يلقي الله عز وجل يوم القيامة ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا كان حضوراً معه مثل الهدية.

(٢) وأخرج البزار بسنده (٢٣٦٠) عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يحيى بن زكريا ما هم بخيطينة ولا عملها» قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٠٨) رواه البزار ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه البخاري (٣٧٤٠، ٣٧٤١)، ومسلم (٢٤٧٨) من حديث حفصة - رضي الله عنها -.

وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُعْثَرُ حَيًّا [مرم: ١١-١٥].

- في هذه الآيات يأمر الله تعالى يحيى عليه السلام بأن يأخذ الكتاب بقوة، والكتاب هو التوراة، أي خذ التوراة بقوة، أي بجد واجتهاد، وذلك بتفهم المعنى أولاً حتى يفهمه على الوجه الصحيح، ثم يعمل به من جميع الجهات، فيعتقد عقائده، ويحل حلاله، ويحرم حرامه، ويتأدب بأدابه، ويتعظ بمواعظه، إلى غير ذلك من جهات العمل به.
- وأعطاه الله وهو في الصغر الحكم، وهو العلم النافع والعمل به، وذلك بفهم الكتاب السماوي فهما صحيحاً والعمل به حقاً.
- وآتاه الله الحنان، وهو ما جُبل عليه من الرحمة والعطف والشفقة، وأعطاه سبحانه زكاة، أي طهارة من أدران الذنوب والمعاصي بالطاعة، والتقرب إلى الله بما يرضيه.
- وكان يحيى ﷺ تقياً متجنباً المعاصي مطيعاً لله وكان باراً بوالديه محسناً لهما، ولم يكن في وقت من الأوقات متكبراً ولا عاصياً لوالديه أو لله.
- وسلام عليه وأمان يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يعث حياً، وهذه الأوقات الثلاث أوقات شديدة على الإنسان، ما أحوجه فيها إلى السلام والأمان من رب الأرباب.
- انظروا يا شباب إلى خلق شباب أهل النبوة، والبيوت الطاهرة، خذوا يحيى في شبابه مثلاً لكم تقتدون به، حكمة وعطفاً، وزكاة وطهراً وشفقة وتقوى، وبراً بالوالدين وإحساناً، وما كان جباراً في الأرض ولا مفسداً، وما كان عاصياً ولا مذنباً، فسلام عليه وعلى والديه، ورحمة الله وبركاته.



المبحث الرابع: ذكر زكريا ويحيى عليهما السلام في السُّنَّة النَّبَوِيَّة الْمُطَهَّرَة

المطلب الأول: زكريا عليه السلام كان نجاراً:

- عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان زكريا نجاراً»^(١).
- قال النووي^(٢) — رحمه الله —

فيه: جواز الصنائع، وأن النجارة لا تسقط المروءة وأنها صنعة فاضلة.
وفيه: فضيلة لزكريا عليه السلام، فإنه كان صانعاً يأكل من كسبه.

المطلب الثاني: يحيى عليه السلام خلق مؤمناً لم يعص الله:

- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً»^(٣).
- عن عبد الله بن عمر — رضي الله عنهما — قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يحيى بن زكريا ما هم بخطيئة ولا عملها»^(٤).

المطلب الثالث: يحيى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى التوحيد أولاً، ثم الصلاة والصيام والصدقة والذكر.

- عن الحارث الأشعري رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يطيء بها، فقال عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب،

(١) رواه مسلم (٢٣٧٩)، وابن ماجه (٢١٥٠) وغيرهما.

(٢) شرح صحيح مسلم (٣٦٦/٧).

(٣) إسناده جيد: رواه الطبراني (١٠٥٤٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/٧) إسناده جيد،

وذكره الشيخ الألباني في الصحيحة (١٨٣١).

(٤) أخرجه البزار (٢٣٦٠) وقال الهيثمي في المجمع (٢٠٨/٨) رجاله ثقات.

فجمع الناس في بيت المقدس، فامتألاً المسجد وقعد على الشرف، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وأمركم أن تعملوا بهن.

أولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل، ويؤدى غلته إلى غير سيده، فأيكف يرضى أن يكون عبده كذلك، وإن الله عز وجل خلقكم ورزقكم، فاعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

وأمركم بالصلاة، فإن الله عز وجل ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا. وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثّل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم عند الله أطيب من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثّل رجل أسره العدو، فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: هل لكم أن أفتدى نفسي منكم؟ فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وأمركم بذكر الله عز وجل كثيراً، وإن مثل ذلك كمثّل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصن فيه: (فأحرز نفسه منهم) وإن العبد أحصن ما يكون «لا يحرز نفسه» من الشيطان إلا بذكر الله «(إذا كان في ذكر الله عز وجل)».

قال النبي ﷺ: وأنا أمركم بخمس أموري بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية، فهو من جثا جهنم».

قالوا «(فقال رجل): يا رسول الله، وإن صام، وإن صلى؟ قال: (وإن صام وإن صلى، وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل»^(١).

• قال ابن القيم — رحمه الله تعالى —:

تعليقاً على هذا الحديث: في هذا الحديث العظيم الشأن الذي ينبغي لكل مسلم حفظه وتعلّقه ما ينجي من الشيطان وما يحصل للعبد به الفوز والنجاة في دنياه وأخراه... إلى آخر كلامه في شرح هذا الحديث فليراجع في كتابه «الوابل الصيب من الكلم الطيب».

(١) صحيح: رواه أحمد (١٣٠/٤، ٢٠٢) والترمذي (٢٨٦٣) وأبو يعلى (١٥٧١) وابن حبان (٦٢٣٣) وغيرهم.

البحث الخامس: وفاة زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام

- كثرت الإسرائيليات في خبر وفاة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام.
- فمنها: ما ذكره الحافظ في الفتح^(١) عن ابن إسحاق قوله: أراد بنو إسرائيل قتل زكريا ففر منهم، فمر بشجرة فانفلقت له فدخل فيها فالتأمت عليه، فأخذ الشيطان بهدبة ثوبه فأروها فوضعوا المنشار على الشجرة فنشروها حتى قطعوه من وسطه في جوفها.

● وقد ذكر ابن كثير^(٢) - رحمه الله -:

حديثاً طويلاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ يوضح نفس القصة السابقة وقال في آخره: هذا سياق غريب جداً وحديث عجيب ورفع منكر.

● الخلاصة: أنه لا يثبت حديث صحيح في كيفية موت زكريا عليه السلام. والله أعلم.

● وقال الحافظ في الفتح أيضاً^(٣):

عن قصة قتل يحيى عليه السلام عن ابن إسحاق قوله: وأما يحيى فقتل بسبب امرأة أراد ملكهم أن يتزوجها فقال له يحيى: إنما لا تحل لك لكونها كانت بنت امرأته، فتوصلت إلى الملك حتى قتل يحيى.

● وقال الحافظ^(٤):

وروى أصل هذه القصة الحاكم في المستدرک.

● قلت: رواية الحاكم هي:

● عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: ((بعث عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا في اثني عشر رجلاً من الحواريين يعلمون الناس، وكان فيما ينهونهم عنه نكاح ابنة الأخ، وكانت للملك ابنة أخ تعجبه يريد أن يتزوجها فكانت لها كل يوم حاجة يقضيها فلما بلغ ذلك أمها قالت لها: إذا دخلت على الملك فأسألك حاجتك فقولي:

(١) فتح الباري (٥٤٠/٦).

(٢) قصص الأنبياء ص: ٦٠٨.

(٣)، (٤) فتح الباري (٥٤٠/٦).

حاجتي أن تذيب لي يحيى بن زكريا فلما دخلت عليه سألتها فقالت: حاجتي أن تذيب يحيى بن زكريا. فقال: سليني غير هذا. فقالت: ما أسألك إلا هذا. فلما أبت عليه دعا يحيى بن زكريا ودعا بطشت فذبحه فبدرت قطرة من دمه على الأرض فلم تنزل تغلي، حتى بعث الله بختنصر عليهم فجاءته عجوز من بني إسرائيل فدلته على ذلك الدم فألقى الله في قلبه أن يقتل على ذلك الدم منهم حتى يسكن فقتل سبعين ألفاً منهم من سن واحدة حتى سكن^(١).

● وذكر ابن كثير^(٢) - رحمه الله -:

رواية عن سعيد بن المسيب قال: قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألف فسكن.

وتعقب ابن كثير هذا الأمر فقال: إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب وأنه قتل بدمشق وأن قصة بختنصر كانت بعد المسيح كما قاله عطاء والحسن البصري - فالله أعلم.

● وقال الشيخ محمد رشيد رضا^(٣) - رحمه الله - عند قوله تعالى:

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٢١]: فاليهود هم الذين جروا على الكفر بآيات الله من عهد موسى إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام، وبذلك تشهد عليهم كتبهم قبل القرآن، وعلى قتل النبيين كزكريا ويحيى عليهما السلام.

● وقال القاسمي^(٤) عند الآية السابقة:

هم اليهود: قتلوا زكريا وابنه يحيى عليهما السلام.



(١) أخرجه الحاكم (٢٩٠/٢، ٥٩٢) وصححه ووافقه الذهبي، وذكره الحافظ في الفتح وسكت عنه، وصحح إسناده صديق خان في تفسيره فتح البيان (٢٠٩/٢).

(٢) قصص الأنبياء ص: ٦٠٩.

(٣) تفسير المنار (٢١٥/٣).

(٤) تفسير القاسمي (٢٩٩/٢).

البحث السادس: الفوائد المستنبطة من قصة زكريا

ويحيى عليهما السلام

• منها: أن من نعمة الله على العبد أن يكون في كفالة الصالحين الأخيار، فإن المربي والكافل له الأثر الأعظم في حياة المكفول وأخلاقه وآدابه، ولهذا أمر الله المربين بالتربية الطيبة المشتملة على الحث على الأخلاق الجميلة، والترهيب من مساوئ الأخلاق. وقد منَّ الله على مريم عليها السلام لما كفَّلها زكريا عليه السلام فترت في بيت نبوة ونشأت فيه، فاقبست من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

• ومنها: فضل مجالسة الصالحين، لما منَّ الله عز وجل على مريم بالرزق ورأى ذلك زكريا عليه السلام استفاد هو الآخر من ذلك فدعا ربه أن يهبه الذرية الطيبة فاستجاب الله له، فاستفاد كل منهما من الآخر.

ومجالسة الصالحين يرزق الله العبد محبتهم، ومن أحب قوماً حشر معهم، ومجالستهم تسمع آذاننا الخير، وترى أبصارنا المعروف، وتخطو أرجلنا إلى الإحسان.

• ومنها: جواز القرعة في المشكلات، فقد تنازع القوم في كفالة مريم فاتجهوا إلى القرعة فيما بينهم فوقعت على زكريا فكفلها.

وقد فعل القرعة ثلاثة أنبياء (يونس وزكريا ومحمد عليهم الصلاة والسلام) أما الأدلة على ذلك فمنها:

١- قول الله تبارك وتعالى عن يونس: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾

[آل عمران: ٤٤].

٣- كون النبي ﷺ كان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فأتيتهن خرج سهمها خرج بها معه (١).

٤- قوله ﷺ: «(لو تعلمون ما في النداء والصف الأول لاستهتم عليه وفي رواية:

لكانت قرعة)» (١). إلى غير ذلك من الأحاديث.

• قال ابن العربي -رحمه الله-: في عارضة الأحوزي:

القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح، فأما ما يخرج التراضي فيه فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجرى مع موضع التراضي فإنها لا تكون أبداً مع التراضي، وإنما تكون فيما يتشاح الناس فيه ويضنُّ به. انتهى.

• ومنها: استحباب طلب الولد الصالح والذرية الطيبة وهذا مستفاد من قول زكريا عليه السلام ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٨].

• ومنها: فضل المسجد وأن الخير يتنزل فيه، حيث إن الملائكة بشرت زكريا بالولد الصالح وهو قائم يصلي.

• ومنها: أن الله يرزق بالأسباب وبغير الأسباب وهو على كل شيء قدير.

• ومنها: التخلق بأخلاق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. كالصبر وبر الوالدين ونحو ذلك من أعمال الخير.

• ومنها: فضل ذكر الله تعالى وأهميته الكبرى وفضائله العظمى، ولا يكاد يرخص لأحد في تركه، إما بالقلب أو باللسان، ولو رخص لأحد في تركه لرخص لزكريا عليه السلام (لما مُنع من الكلام) ولكن الله عز وجل قال له ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: ٤١].

وكذلك لو رخص لأحد في تركه لرخص للرجل يكون في الحرب، ولكن الله عز وجل قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

• وبالذكر تغفر الذنوب وتخط الخطايا، وترفع الدرجات، وتقال العثرات وبملاؤ الميزان، وبملاؤ ما بين السموات والأرض، ويثقل الميزان، وتدخر الكنوز في الجنان، وتخس الشياطين، ويرد كيد السحرة والحاسدين، وتوسع الأرزاق، وتدفع البليات، ويذكر الله العبد ويحمله رضوانه، ويسكنه فسيح جناته.



(١) أخرجه البخاري وهو موجود في ثابيا حديث الإفك (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠).

(١) أخرجه البخاري (٦١٥) ومسلم (٤٣٧-٤٣٩) عن أبي هريرة.

الفصل الرابع والعشرون: قصة مريم وعيسى عليهما السلام

المبحث الأول: ولادة مريم وكفالتها:

• قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٧].

• كانت زوجة (١) عمران - وهو من أكابر بني إسرائيل ورؤسائهم وذوى المقامات العالية عندهم - نذرت حين ظهر حملها أن تحرر ما في بطنها لبيت المقدس، يكون خادماً لبيت الله معداً لعبادة الله ظناً أن الذي في بطنها ذكر، فلما وضعتها قالت معتذرة إلى الله شاكية إليه الحال ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَئِنْ سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي: أن الذكر الذي له القوة والقدرة على ما يراد منه من القيام بخدمة بيت المقدس.

• ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهُمَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. فحصنتها بالله من عدوها هي وذريتها.

• وكان هذا أول حفظ وحماية من الله لها ولهذا استجاب الله لها في هذه الدنيا ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

• فجمع الله لها بين التربية الجسدية والتربية الروحية، حيث قدر أن يكون كافلها أعظم أنبياء بني إسرائيل في ذلك الوقت فإن أمها لما جاءت بها لأهل بيت المقدس تنازعوا أيهم يكفلها لأنها ابنة رئيسهم، فافترعوا وألقوا أقلامهم، فأصاب القرعة زكريا رحمة به وبمريم، فكفلها أحسن كفالة، وأعانه على كفالتها بكرامة عظيمة منه فكانت قد نشأت ونشأة الصالحات الصديقات، وعكفت على عبادة ربها ولزمت محرابها، فكان زكريا كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، قال أنى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا.

دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا، قال أنى لك هذا؟ فإنه ليس لها كافل غير زكريا.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

أي أن الله تعالى يرزق بأسباب وبغير أسباب والله على كل شيء قدير.

(١) أهل التفسير ذكروا أن اسمها «حَنَّة بنت فافوذ» والله أعلم.

المبحث الثاني: قصة ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام:

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ١٦-٢١].

• ومعنى هذه الآيات: واذكر يا محمد في القرآن مريم البتول وخبرها الصحيح الذي يتضمن ولادتها لعيسى ابنها عبد الله ورسوله إلى بني إسرائيل ونفى الولد عن الله سبحانه وتعالى.

• نشأت مريم ابنة عمران في بيت كريم ونسب شريف، نشأت عفيفة طاهرة، فلما شبت وترعرعت تحت عناية الله ورعايته، وبلغت مبلغ النساء كان منها أن انتبذت أهلها، وجست بعيدا عنهم في خلوة وحدها لعبادة ربها وكان ذلك في مكان جهة الشرق (ومن هنا اتخذ النصارى قبلتهم ناحية الشرق).

• وبينما هي في خلوتها إذ يجربيل روح القدس يتمثل لها بشرا سويا تام الخلقة مستوي الخلق لم ينقص منه شيء في رجولته.

• فلما رآته على هذا الوضع قد احترق عليها حجابها. ظنت به سوءاً وأنه يريد بها شراً فقالت له: إني أعوذ بالرحمن منك وألتجئ إلى الله أن يقبني شرّك، وإن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخوفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهى في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه.

• وكانت المفاجأة عندما قال لها جبريل: إنما أنا رسول ربك الذي تستعيذين به، جئت لأهب لك غلاماً زكياً طاهراً.

• قالت مريم: أنى يكون لي غلام؟ والحال أنى لم يمسنني بشر في زواج شرعي ولم أك بغيا من البغايا.

• وسؤالها هذا لم يكن عن استبعاد لقدرة الله، ولكن أرادت متعجبة كيف يكون هذا ولداً؟ هل هو من قبل زوج تتزوجه في المستقبل أم يخلقه الله ابتداءً؟

• قال الملك: الأمر كذلك (والمشار إليه أي يكون غلام؟) قال الله: هو عليّ هين وقد خلقناه على هذا الوضع لنجعله آية للناس حيث يستدلون بخلقه على كمال القدرة، ونعام العظمة لله سبحانه وتعالى. وكان رحمة منا للخلق، وهكذا كل نبي يهدي الناس إلى الخير، يرشدهم إلى الصراط المستقيم، وكان ذلك المذكور أمراً مقضياً ومقدراً من الله، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فهو واقع لا محالة.

• اطمأنت مريم إلى كلامه فدنا منها، ونفخ في جيب درعها أي نفخ في فتحة قميصها من أعلى، ووصلت النفخة إلى فرجها فحملت بإذن الله تعالى، والله على كل شيء قدير.

• قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

والضمير في قوله «(فيه)» راجع إلى فرجها.
ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. لأن النفخ وصل إلى الفرج فكان منه حمل عيسى بإذن الله تعالى.

• فماذا بعد الحمل؟ وماذا فعلت مريم عندما رأت الحمل؟ هذا كله يقصه الله علينا في الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا * فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا * فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا * وَهْزَيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا. فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٢-٢٦].

• لما حملت مريم بعيسى عليه السلام، خافت الفضيحة فتحنّت به وبعدت معتزلة عن قومها قاصدة مكاناً بعيداً، وقيل: إن هذا المكان هو بيت لحم بفلسطين.

• فألجأها المخاض، والمخاض هو الطلق، وهو وجع الولادة، وسمى مخاضاً من المحض، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج، فألجأها هذا الطلق إلى جذع نخلة في ذلك المكان لتستتر به، وتعتمد عليه عند الولادة.

• وعندئذ عمت أن تكون قد ماتت قبل ذلك ولم تكن شيئاً يذكر. وذلك لخوفها من أن يتهموا بالزنا، وأن هذا الغلام جاءت به من زنا وقعت فيه.

• فنادها جبريل من تحتها إذا كانت هي على مكان مرتفع، وقيل الذي ناداها هو

عيسى الوليد، ناداها بأن لا تحزني ولا تتألمي، وهذا هو الأرجح.

• فهذه آية الله الدالة على أن الأمر خارق للعادة، وأن الله في خلقه شؤوفاً فيها هو ذا قد جعل لك ربك تحتك نحرًا يفيض بالماء بعد أن كان جافاً، أو حركي جذع النخلة اليابسة تساقط عليك رطباً جنيّاً شهياً، أليست هذه أمارات الرضا؟ ودليلاً على أن الله معك ولن ينسأك يا مريم، فكلّي من الرطب، واشربي من النهر، وقرّي عينا، واهدئي بالاً، واطمئني نفساً فالله معك، وحافظك، ولن يضيعك.

• والذي يفهم من سياق القرآن: أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة، ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك، سواء قلنا إن الجذع كان يابساً أو نخلة غير مثمرة، إلا أن الله أنبت فيه الثمر وجعله رطباً جنيّاً.

• ووجه دلالة السياق على ذلك أن قوله تعالى: ﴿فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦].

يدل على أن عيناها إنما تقر في ذلك الوقت بالأمر الخارق للعادة لأنها هي التي تبين براءتها مما اتهموها به. فوجود هذه الخوارق من تفجير النهر، وإنبات الرطب، وكلام المولود تطمئن إليه نفسها وتزول به عنها الريبة، وبذلك يكون قرة عين لها، لأن مجرد الأكل والشرب مع بقاء التهمة التي تمت بسببها أن تكون قد ماتت من قبل وكانت نسياً منسياً لم يكن قرة لعينها في ذلك الوقت كما هو ظاهر.

• ثم تأتي بعد ذلك مرحلة المواجهة مع الناس وماذا تقول لهم وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا * فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتُ هَازُونِ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَرَجَعَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٢٦-٣٤].

فما زال الكلام متصلاً فالذي ناداها من تحتها ألا تحزني يقول لها إن رأيت من الناس أحداً فيه أمانة الاعتراض عليك فلا تكلمي، وقولي: إني نذرت للرحمن صوماً

وسكوئاً عن الكلام فلم أكلم اليوم إنساناً، وأناجي ربي سبحانه وتعالى.

• ولما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات، وفرغت من نفاسها أتت بعيسى تحمله إلى أهل بيتها وقومها غير مكترثة بما يقولون.

• فقالوا لها ((يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً)) أي منكراً عظيماً، ويعنون به الزنا، لأن ولد الزنا كالشيء المفترى المخلوق، لأن الزانية تدعى إلحاقه بمن ليس أباه، ويدل على أن مرادهم بقولهم ((فرياً)) الزنا قوله تعالى: ﴿وَبِكْفَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

لأن ذلك البهتان العظيم الذي هو ادعائهم أنها زنت، وجاءت بعيسى من ذلك الزنا (حاشاها وحاشاه من ذلك) هو المراد بقولهم لها: ((لقد جئت شيئاً فرياً)) ويدل لذلك قوله تعالى بعده ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨]. والبغي: الزانية يعنون كان أبوك عفيفين لا يفعلان الفاحشة فما لك أن ترتكبيها!

• فأشارت إلى الوليد الصغير أن يكلموه فيخبرهم. قالوا متعجبين منكبين ذلك كيف نكلم من يكون في المهد صبياً؟ اعتبروا هذا استهزاء بهم، وجناية زيادة على جنايتها الأولى.

• ولكن الوليد الصغير لم يكن كأمثاله نشأ من أب وأم بل خلقه الله آية عجيبة، وخلقته غريبة يؤمن بسببه أناس، ويكفر آخرون.

• قال: إني عبد الله - ولست ولداً لله ولا جزءاً منه بل أنا بشر وعبد له، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم أنه الله، أو ابنه، أو إله معه، وهذه الكلمة التي نطق بها عيسى في أول خطابه لهم وهو صبي في مهده ذكرها الله جل وعلا عنه في مواضع أخر بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١].

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٤].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

• ثم عبر عيسى بالماضي عما يقع في المستقبل تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع

فقال: إن الله آتاني الكتاب وهو الإنجيل، وجعلني إليكم نبياً، وجعلني مباركاً لي في كل شيء، وثابتاً على دين الحق، وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وجعلني باراً بوالدي فقط حيث لم يكن له أب، ولم يجعلني ربي جباراً عنيداً وشقياً مطروداً، والسلام من الله العلي القدير علىّ يوم ولدت من غير أب، ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

هذا هو القول الحق، والحكم العدل، والقول الصدق الذي فيه يمترون ويختلفون ويتشككون نعم هو القول الفاصل الذي أطاح بأقوال اليهود في عيسى وأمه، وأطاح بأقوال النصارى الذين قالوا: ابن الله أو ثالث ثلاثة، أو هو الله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١].



المبحث الثالث: فضائل ومناقب مريم وعيسى عليهما السلام في الكتاب والسنة

• قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

• وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَلْبَسَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٦-٣٧].

• وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢].

• وقال تعالى: ﴿وَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

• وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

• وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبَشِّرُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمِمَّا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨-٤٩].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى.

• وأما من السنة النبوية المطهرة:

• عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: «خير نسائها مريم ابنة عمران، وخير نسائها خديجة» ^(١).

• عن أبي موسى عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كامل من الرجال كثير، ولم

(١) رواه البخاري (٣٤٣٢) ومسلم (٢٤٣٠).

يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» ^(١).

• عن ابن عباس -رضي الله عنهما-، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» ^(٢).

• قال ابن كثير ^(٣) -رحمه الله تعالى:-

في تعليقه على هذه الأحاديث ما نصه: يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلا منهما كفلت نبياً في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد الله ورسوله، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة، فخديجة خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها، -رضي الله عنها وأرضاها-.

وأما فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله صلى الله عليه وآله وبقيت أخواتها متن في حياة النبي .

وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله إليه ولم يتزوج بكراً غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار الله لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله قريبا من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين. انتهى.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «ما من بني آدم مولود يولد إلا نخسه (يمسه) الشيطان فيستهل صارخا من نخسة (مس) الشيطان إلا ابن مريم وأمه» ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦] ^(٤).

(١) رواه البخاري (٣٤١١) ومسلم (٢٤٣١).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢٩٣/٣، ٣١٦، ٣٢٢) وأبو يعلى (٢٧٢٢) وغيرهما.

(٣) البداية والنهاية (٥٦/٢) وقصص الأنبياء ص: ٦٢١.

(٤) رواه البخاري (٣٤٣١، ٤٥٤٨) ومسلم (٢٣٦٦).

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أنا أولى الناس بابن مريم، الأنبياء أولاد علات وليس بيني وبينه نبي»^(١)

• ومعنى أولاد علات أنهم الإخوة لأب من أمهات شتى.
قال جمهور العلماء: معنى الحديث أصل إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف.

• عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»^(٢)

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «رأى عيسى ابن مريم رجلا يسرق فقال له أسرفت؟ قال: كلا والله الذي لا إله إلا هو. فقال عيسى: آمنت بالله، وكذبت عيني»^(٣)

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال، حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»^(٤)

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: الأنبياء إخوة لعلات دينهم واحد وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط^(٥)، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، بين مُمَصَّرَتَيْنِ^(٦)، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه الملل كلها غير الإسلام. ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الأمانة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأسد جميعاً، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان والغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً، فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يتوفى، فيصلى عليه المسلمون ويدفنونه»^(٧)

(١) رواه البخاري (٣٤٤٢) ومسلم (٢٣٦٥).

(٢) رواه البخاري (٣٤٣٥).

(٣) رواه البخاري (٣٤٤٤) ومسلم (٢٣٦٨).

(٤) رواه البخاري (٣٤٤٨).

(٥) سبط: هو الشعر المسترسل، وهو نقبض الجعد.

(٦) مُمَصَّرَتَيْنِ: ثوبان فيهما صفرة.

(٧) صحيح: رواه أحمد (٤٠٦/٢)، والحاكم (٥٩٥/٢) وأبو داود (٤٣٢٤) وابن حبان.

(٦٨٢١) وغيرهم.

البحث الرابع: قصة المائدة

• قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا لَرُبُّكَ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

• قد اختلف العلماء في المائدة:

أنزلت أم لا؟ وجهور العلماء سلفاً وخلفاً على نزولها، وهذا هو ظاهر القرآن فقد وعد الله، ووعدته محقق لا محالة.

• وقد أحيطت المائدة بأخبار كثيرة، أغلب الظن أنها من الإسرائيليات ولذلك أعرضت عنها.

• وإليك التفسير الصحيح لآيات قصة المائدة كما ذكرها الشيخ محمد أبو شهبه^(١) — رحمه الله تعالى —:

• قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

إذ: ظرف لما مضى من الزمان، وهو مفعول لفعل محذوف، والتقدير: اذكر يا محمد ما حدث في هذا الزمن البعيد ليكون دليلاً على صدق نبوتك، فما كنت معهم، ولا صاحبت أهل الكتاب، ولم تكن قارئاً، ولا كاتباً.

• الحواريون: جمع حواري: وهم المخلصون الأصفياء من أتباع عيسى عليه السلام ويطلق أيضاً على الأصحاب المخلصين من أتباع الأنبياء، وفي الحديث الصحيح: «إن لكل نبي حوارياً وحواري الزبير (يعني ابن العوام)»^(٢).

(١) الإسرائيليات ص: ١٩٦.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٦) وغيره.

- المائدة: الخوان الذي عليه الطعام، فإن لم يكن عليها طعام فهو خوان.
- السماء: إما المعروفة أو المراد بها جهة العلو، فإنها قد تطلق ويراد بها كل ما علا.
- وليس المراد بالاستفهام هو أصل الاستطاعة، وأهم ما كانوا يعلمون هذا، لأن السائلين كانوا مؤمنين، عارفين، عالمين بالله وصفاته، بل في أعلى درجات هذه الصفات.
- وإنما المراد بالسؤال: الإنزال بالفعل، من قبيل إطلاق السبب وإرادة المسبب، والمعنى: هل يجيبنا ربك - يا نبينا عيسى - إلى ذلك أم لا؟.
- وقال بعض العلماء: ليس ذلك بشك في الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى بهذه الصيغة المهذبة كقول الرجل لآخر: هل تستطيع أن تعتني على كذا، وهو يعلم أنه لا يستطيع.
- وأما قول من قال: إنه من قول من كان مع الحوارين، فبعد لخروجه عن ظاهر الآية، ولا سيما أن تفسير الآية مستقيم غاية الاستقامة على ما ذكرنا.
- وهذا السؤال إما لفقرهم وحاجتهم، وإما لتعرف فضل نبيهم عيسى، وفضلهم وكرامتهم عند ربهم.
- وأما ما روى: أن عيسى أمرهم بصيام ثلاثين يوماً: ثم ليسألوا ربهم ما يشاءون، فصاموا وسألوا، فليست منه على تلج^(١).
- وقوله: (قال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) ليس هذا شكاً في إيمانهم، وإنما هو أسلوب معهود، حملاً على التقوى، كما قال تعالى في حق المؤمنين الصادقين من هذه الأمة الحمدية ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].
- والمعنى: اتقوا الله ولا تسألوه، فعسى أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق، أو اتقوا الله ودعوا كثرة السؤال فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات، لأن الله سبحانه إنما يفعل الأصلح لعباده (إن كنتم مؤمنين) من أهل الإيمان بالله، ورسله، ولا سيما أنه سبحانه آتاكم من الآيات ما فيه غنية عن غيره.
- (قالوا نريد أن نأكل منها) بدأوا بالغذاء المادي، ثم ثنوا بالغذاء الروحي، فقالوا: (وتطمئن قلوبنا) وهو مثل قول الخليل إبراهيم - عليه السلام - ﴿وَلَكِنْ لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

(١) تلج الصدر: رضى واطمأن.

- (ونعلم أن قد صدقتنا) أي: نزداد علماً، و يقيناً بصدقك، وحقيقة رسالتك (ونكون عليها من الشاهدين) أي: المقرين المعترفين لله بالوحدانية، ولك بالنبوة، والرسالة، أو: من الشاهدين عليها لمن لم يرها ويعاينها.
- قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا.
- العيد: يوم الفرح والسرور، (لأولنا): لأول أمتنا.
- (وآخرنا): لآخر أمتنا، أو لنا، ولمن بعدنا.
- (وآية منك) أي: دليلاً، وحجة على قدرتك، على كل شيء، وعلى إجابتك لدعوتي، فيصدقوني فيما أبلغه عنك.
- (وارزقنا) أي: من عندك رزقاً هنيئاً لا كلفة فيه، ولا تعب.
- (وأنت خير الرازقين) أي: خير من أعطى ورزق، لأنك الغني الحميد.
- ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].
- أي: فمن يكفر أي: يكذب بها من أمتك يا عيسى، وعاندها، فإنني أعذبه عذاباً، لا أعذبه أحداً من عالمي زمانكم، وهذا على سبيل الوعيد لهم، والتهديد. وليس في الآية ما يدل على أنهم كفروا، ولا على أن غيرهم قد كفر بها، ولا على أنهم استغفوا من نزول المائدة، وإنما الذي دعا بعض المفسرين إلى هذه الأقوال: ما سمعت من الروايات الإسرائيلية، وها نحن قد فسرنا الآيات تفسيراً علمياً صحيحاً من غير حاجة ما إلى ما روى، مما يدل دلالة قاطعة على أن مفسر القرآن في غنية عن الإسرائيليات التي شوهت جمال القرآن وجلاله. انتهى.



المبحث الخامس: قصة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهل رُفِعَ حيا أم ميتا؟

● قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَؤُلَاءِ وَارْتَمِكْ بِهِمْ فَإِذَا حَمَلَ صَلَافَهُمْ فَذَرَهُمْ وَاصْلَعْ لَهُمْ الْأَبْصَارَ فَخُذْ الرُّسُلَ فَاصْلَعْهَا﴾ [آل عمران: ٥٥].

• وقوله تعالى عن اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا* بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا* وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٩].

عمر ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج على أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا، ورأسه يقطر ماء، فقال: أيكم يلقي شبيهي عليه فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنا، فقال: أنا. فقال: اجلس. ثم أعاد عليهم. فقام الشاب فقال: أنا. فقال عيسى عليه السلام: نعم أنت، فألقى عليه شبه عيسى عليه السلام، ثم رفع عيسى من روضته^(١) كانت في البيت إلى السماء، وجاء النُبل من اليهود فأخذوا الشاب للشبه فقتلوه ثم صلبوه. فتفرقوا ثلاث فرق. فقالت فرقة: كان فينا الله عز وجل ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية. وقالت طائفة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله فهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوهما، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤].

يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى، -عليه السلام-، والطائفة التي آمنت في زمان عيسى ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عُدُوهُمْ﴾ [الصف: ١٤].
ياظهار محمد ﷺ

(١) روزنة: هو الخرق في السقف.

دينهم على دين الكفار. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(١) [الصف: ١٤].

• اختلف أهل العلم على رفع عيسى عليه السلام إلى السماء حيًّا أم ميِّتًا. على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه رفع إلى السماء حيناً بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع، وهذا هو الظاهر.

الثاني: أن الله تعالى قبض روحه وأماته ثم رفعه.

الثالث: التوقف.

● وإليك أقوال طائفة من العلماء في هذه المسألة.

• قال الطبري^(٢) - رحمه الله تعالى:-

وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا: قول من قال: «معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعتك إلي» تتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلى عليه المسلمون ويدفونوه.

• وقال القرطبي^(٣) - رحمه الله تعالى:-

قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

على التقدم والتأخير، لأن الواو لا توجب الرتبة. والمعنى: إني رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء، كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرِزَامٍ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]. والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما. ثم ذكر بعض الأقوال وختم بقوله: والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو

(١) إسناده حسن: إلى ابن عباس. رواه النسائي في الكبرى (١١٥٩٠) كتاب التفسير (٤٨٩/٦) وغيره. قال ابن كثير رحمه الله: وهذا الحديث

غير واحد من السلف.

(٢) تفسير الطبري (٣/٢٨٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩٩/٤ - ١٠٠).

الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك.

• وقال ابن عطية^(١) - رحمه الله تعالى - في المحرر الوجيز:

وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد ﷺ ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة، وقيل أربعين سنة ثم يميت الله تعالى.

• وقال ابن كثير^(٢) - رحمه الله تعالى -:

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعد ما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود.

• وقال ابن حجر في الفتح (٤٣٣/٦).

إن عيسى قد رفع وهو حي على الصحيح.

وقال صديق خان^(٣) - رحمه الله في فتح البيان:

الصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة كما روجه كثير من المفسرين.

وقال العلامة الشنقيطي^٤ - رحمه الله تعالى -:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ خُذْ هَذَا الصَّلَافَ فِي يَمِينِكَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال: بعض العلماء: أي مُنِمْكَ ورافعك إلى أي في تلك النومة ويستأنس لهذا التفسير بالآيات التي جاء فيها إطلاق الوفاة على النوم كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

• وسئلت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية: هل

عيسى ابن مريم حي أو ميت؟

(١) المحرر الوجيز (٤٤٤/١).

(٢) البداية والنهاية (٨٥/٢) وقصص الأنبياء ص: ٦٧٤.

(٣) فتح البيان (٢٤٦/٢).

(٤) أضواء البيان (٣٤٢/١).

فاجابت: عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام حي لم يمض حتى الآن ولم يقتله اليهود ولم يصلبوه ولكن شبه لهم، بل رفعه الله إلى السماء بيدنه وروحه وهو الآن في السماء. (فتوى رقم ١٦٢١).

• أما القول الثاني: وهو أن الله قبض روحه وأماته ثم رفعه قال به البعض ومنهم الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله -

قال: إن الآية على ظاهرها، وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر وهو الإمامة العادية، وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح^(١).

• وأما القول الثالث: وهو التوقف، فقد توقف في المسألة صاحب الظلال^(٢) - رحمه الله تعالى - فقال: «فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه، فهي أمور غيبية تدخل في التشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله. ولا طائل وراء البحث فيها لا في عقيدة ولا في شريعة. والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، تنتهي بهم الحال إلى المراءى وإلى التخليط، وإلى التعقيد دون جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكل إلى علم الله».

• والراجح عندي القول الأول وهو ما عليه جمهور العلماء من السلف والخلف، لظاهر الآيات والأحاديث.

وهناك دليل آخر لم أقف عليه لأحد من العلماء، وهو قول الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَتَيْنَتْ وَأَحْيَيْنَا أَتَيْنَتْ﴾ [غافر: ١١].

وهذا عام لكل الإنس والجن والمعنى: أي أمتنا مرتين: الأولى عندما كنا عدماً فخلقنا، والثانية عندما أمتنا في الدنيا بقبض أرواحنا، وأحييتنا مرتين الأولى لما أخرجنا من بطون أمهاتنا أحياء فهذه مرة والثانية هذه بعد أن بعثنا من قبورنا أحياء.

وعلى هذا لو قلنا بالقول الثاني أن عيسى - عليه السلام - أماته الله ثم رفعه فيكون عيسى أماته الله ثلاث مرات وأحياء ثلاث مرات. وهذا مخالف للآية السابقة. والله أعلم.

• أما عن كيفية حياته في السماء: فإنها حياة خاصة كما قال الله عن الشهداء ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

فهذه من الأمور الغيبية نؤمن بها ولا نسأل عن كيفيةها.

(١) تفسير المنار (٢٦٠/٣).

(٢) في ظلال القرآن: (٤٠٣/١).

البحث السادس: المسيحية^(١) بعد رفع المسيح عليه

السلام

• وقد تعرض أتباع المسيح -عليه السلام- لاضطهاد الرومان وعذابهم وراحت السلطات الرومانية تلاحقهم بقسوة، ولقد أسر الآلاف وعذبوا ثم صلبوا أو قتلوا في الملاعب الشعبية، أو قدموا طعاماً للحيوانات المفترسة أو صرعوا على أيدي المصارعين. وأشد ما نزل بهم من أذى كان في عهد نيرون (٦٤م) وتراجان (١٠٦م) وديسيوس (٢٥٠م) ودقلديانوس (٣٨٠م).

• وقد استمر البلاء ينزل من قياصرة الروم حتى جاء عهد قسطنطين الأكبر في بداية القرن الميلادي الرابع وكان عدد المسيحيين قد تضاعف كثيراً فمنحهم عطفه واعتزم بعد ذلك الدخول في الدين.

• وكان من نتيجة الاضطهاد الذي تعرض له أتباع المسيح -عليه السلام- خلال القرون الثلاثة الأولى من رفعه أن ضاعت معظم المراجع الأساسية وعلى رأسها الإنجيل نفسه وضعف الدين الصحيح كثيراً ونذر العلماء وفُسح المجال لإدخال البدع في الدين الصحيح.

(١) المسيحية: تطلق على أتباع المسيح عليه السلام فقط أما الذين بدلوا وغيروا فيطلق عليهم اسم النصارى. فالصحيح في هذه الأيام أن تقول: على أحدهم نصراي، ومن الخطأ أن تقول على واحد منهم مسيحي. ومن معتقدات النصرانية بعد التحريف: أ- عقيدة التثليث وهي يزعمهم أن الله له ثلاث حالات تسمى «الأقانيم» فالله عندكم ثلاثة: الأول: الإله الأب وهو الله وله خصائص اللاهوتية. الثاني: الإله الابن وله خصائص الناسوتية وهو عيسى. الثالث: الإله الروح القدس وله خصائص الازدواجية بين الإلهية والبشرية وهو الروح التي حلت في مريم.

ب- تقدس الرهبان ورجال الكنيسة والثقة العمياء بهم: فهم يزعمون أنهم يتكلمون نيابة عن الله ولهم السلطة المطلقة في الدين فيحلون ويحرمون، ويغفرون للمذنب والفاجر.

ج- الصلب والفداء وتقدس الصليب: يزعمون أن المسيح عيسى ابن مريم أراد أن يصلب وأن يقتل تكفيراً لخطايا البشر وهم يعتقدون أنه صلب، والصحيح أنه شبه لهم.

البحث السابع: الفوائد المستنبطة من قصة مريم وعيسى

-عليهما السلام-

• منها: أن النذر ما زال مشروعاً في الأمم السابقة، والنبي ﷺ قال فيه كلمة جامعة للصحيح النافذ منه وللباطل فقال: «(من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه)»^(١).

• ومنها: إثبات كرامات الأولياء فإن الله كرم مريم بأمر: يسر لها أن تكون في كفالة زكريا بعدما حصل الخصام في شأنها.

• وأكرمها بأن كان رزقها يأتيها من الله بلا سبب.

• وأكرمها بوجود عيسى وولادتها إياه ثم بكلامه في المهد فهذه الأخيرة جمعت كرامة ولي ومعجزة نبي.

• ومنها: أن الله أثنى على مريم بالكمال بالصدقية، وأنها صدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، وهذا وصف لها بالعلم الراسخ والعبادة الدائمة والخشوع لله تعالى، وأنه اصطفأها وفضلها على نساء العالمين.

• ومنها: أن عيسى -عليه السلام- عبد الله ورسوله، أرسله الله سبحانه وتعالى إلى بني إسرائيل ليقمهم على الدين الصحيح، بعد أن فسدت أحوالهم.

• ومنها: أن الله تعالى آيد عيسى عليه السلام بكثير من المعجزات لتكون دليلاً على صدقه ورسالته، ومن ذلك إحياء الموتى، وإرجاع البصر إلى عيون العمى، والسمع إلى الصم، وإبراء المشلولين، ومن بهم عاهات تستعصى على علاج البشر، كشفاء الأبرص، وكذلك إخبار الناس بما يدخرون في بيوتهم، وما سيأكلونه في الغد، وتكثير الطعام القليل ليشبع العدد الكبير من الناس وجعل عيسى -عليه السلام- مباركاً في أي مكان يكون فيه.

• ومنها: اعتقاد أهل الإسلام أن عيسى -عليه السلام- حي موجود في السماء،

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٨) واللفظ له، والبخاري (٦٦٩٦) من حديث عائشة -رضي الله عنها-.

وأنه سينزل في آخر الزمان في شرقي دمشق، فيصلى مع المسلمين من أمة محمد ﷺ، ويقود أهل الإيمان منهم في فترة عصيبة، بما فتن عظيمة، ومنها المسيح الدجال الذي يزعم أنه هو الله، فيقتله المسيح ابن مريم ويظهر الأرض من شره وكفره.

● ومنها: اعتقاد أهل الإسلام أن النصارى القائلين: إن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته، والذين شهدوا في عيسى بما شهد به الإنجيل أنه عبد رسول، وأنه جاء مبشراً بمحمد ﷺ فهؤلاء مسلمون مؤمنون.

وأما من اعتقد من النصارى أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله ذاته، أو أنه ثالث ثلاثة («أقنوم الرب، وأقنوم عيسى، وأقنوم روح القدس») أو أن عيسى إله كامل، وإنسان كامل، فهؤلاء جميعاً عند المسلمين كافرون بالله.

ومنها: أن الإنجيل الموجود في أيدي النصارى ليس هو المنزل على عيسى -عليه السلام-.

وفي ذلك يقول ابن حزم^(١) -رحمه الله تعالى- عن مؤلفي الأناجيل التي يتداولها النصارى ما نصه:

«(ليعلم كل مسلم أن هؤلاء الذين يسموهم النصارى ويزعمون أنهم كانوا حوارين للمسيح -عليه السلام- كباطرة (بطرس) ومتى الشرطي، ويوحنا ويعقوب ويهوذا الأخساء لم يكونوا مؤمنين بل كانوا كذابين مستخفين بالله تعالى إما مقرين بالوهية المسيح -عليه السلام- معتقدين لذلك غالين فيه... وإما مدسوسية من قبل اليهود... إلا أننا نبت ونوقن ونقطع بأن (باطرة) الكذاب ومتى الشرطي ويوحنا المستخف ويهوذا ويعقوب النذلين ومارفش (مرقس) الفاسق ولوقا الفاجر وبولس الجاهل ما كانوا قط حوارين ولكن من الطائفة التي قال الله فيها «وكفرت طائفة» [النص: ١٤]».

● ومنها: أن إخباره ﷺ بهذه القصة وغيرها مفصلة مطابقة للحقيقة من أدلة رسالته وآيات نبوته لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].



الفصل الخامس والعشرون: قصة أهل الكهف

المبحث الأول: فتية أهل الكهف آية من آيات الله العجيبة:

● قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ^(١) وَالرَّقِيمِ^(٢) كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا. إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا. فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا. ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ٩-١٢].

● والمعنى: لا تظن يا محمد وكذلك أمتك أن أصحاب الكهف وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة، ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف، أعظم منها، فلم يزل الله يُرى عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل والهدى من الضلال، وليس المراد بالاستفهام الذي بمعنى النفي أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد أن جنسها كثير جداً فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل. بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله: التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان.

● فإن من يقدر على جعل كل ما على الأرض زينة لهم ينتفعون به ثم يجعله تراباً بين عشية أو ضحاها، كأن لم تغن بالأمس.

قادر على كل شيء كالبعث وغيره لا تستبعد أن يحفظ بقدرته طائفة من الناس زمناً

(١) الكهف: هو المغارة في جبل، واختلف العلماء في مكانه: فقيل هو بأرض أيلة وهي مدينة على البحر الأحمر بين الشام والحجاز، وقيل بأرض نينوى بالعراق، وقيل بالبلقاء، وقيل ببلاد الروم ورجح ذلك ابن كثير. ولكن لا يوجد دليل على مكانه، ولو كان تعيينه خيراً لذكره الله تعالى.

(٢) اختلف العلماء في معنى الرقيم على أقول: ١- قيل: هو لوح من رصاص فيه أسماء الفتية.

٢- وقيل: صخرة عليها أسماء الفتية. ٣- وقيل: اسم القرية.

٤- وقيل: اسم الكلب. ٥- وقيل: الدواة بلسان الروم.

٦- وقيل اسم الجبل. ٧- وقيل: اسم الوادي.

٨- وقيل: الكتاب الذي رقت فيه أسماؤهم وقصتهم.

معلوماً، وإن كانت قصتهم خارقة للعادة. فإن آيات الله سبحانه دائماً كذلك.

● واذكر وقت أن صار الفتية إلى الكهف وجعلوه مأوى لهم: فقالوا متجهين إلى الله وحده: ربنا آتانا من عندك رحمة واسعة، وانشر علينا من ظلال فضلك ما تغمرنا، وهبنا لنا ويسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم وعدم اتكالمهم على أنفسهم، وعلى الخلق.

● وهكذا حال المؤمنين الموقنين حينما تشتد عليهم الأمور وتتحزب يكون الله هو الملجأ الوحيد يطلبون منه العون والممدد، ويسألونه الهدى والرشd.

● فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، فأنا مهم الله نوماً ثقيلاً ثلثمائة سنة، وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، كأنهم وراء حجاب مضروب لا يسمع منه صوت.

● ثم بعثهم الله، وأيقظهم من النوم ليظهر معلومه سبحانه عن أي الحزبين أحصى للبهتم أمداً وغاية، وقد جعل علمه أي الحزبين أحصى^(١)؟ غاية وعلة للبعث إذ سيظهر عجزهم، ويفضون أمرهم، ويحاولون أن يتعرفوا حالهم فيزدادوا يقيناً على يقينهم، وهذا لطف بالمؤمنين في زمانهم، وآية بينة للكافرين.



(١) قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله تعالى-: وأكثر المفسرين على أن أحد الحزبين هم أصحاب الكهف. و الحرب الثاني: هم أهل المدينة الذين بعث على عهدهم حين كان عندهم التاريخ بأمر الفتية... ثم ذكر أقوال أخرى، وعقب على ذلك فقال: والذي يدل عليه القرآن أن الحزبين كليهما من أصحاب الكهف، وخير ما يفسر به القرآن القرآن، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. وكان الذين قالوا: «ربكم أعلم بما لبيتم» هم الذين علموا أن لبيتم قد تطاول. ولقاتل أن يقول: قوله عنهم «ربكم أعلم بما لبيتم» يدل على أنهم لم يحصوا مدة لبيتم -والله تعالى أعلم-. وقد يجاب من ذلك بأن رد العلم إلى الله لا ينافي العلم، بدليل أن الله أعلم بنبيه بمدة لبيتم في قوله: «وليثوا في كهفهم» الآية. ثم أمره برد العلم إليه في قوله «قل الله أعلم بما لبيتم» الآية.

المبحث الثاني: إعلان الفتية البراءة من الشرك وأهله

والفرار بدينهم

● قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٣-١٦].

● إنهم فتية وفقهم الله وألهمهم الإيمان وعرفوا ربهم وأنكروا ما عليه قومهم من عبادة الأوثان وقاموا بين أظهرهم معلنين فيما بينهم عقيدتهم خائفين من سطوة قومهم فقالوا: ربنا رب السموات والأرض وما فيهن، لن نعبد من دونه إلهاً إننا إن عبدنا غيره، وقلنا به لقد قلنا قولاً ذا شطط، متجاوزين حدود العقل والدين والحق والصواب.

● فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق، وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم برهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

● لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم بل هم في غاية الجهل والضلال فليس لديهم الحجة والبرهان على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، إنما ذلك، افتراء منهم على الله، وكذب، وهذا أعظم الظلم.

● فلا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً وزوراً بتخاذ الشركاء والآلهة.

● قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أحسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا إلى بقائهم بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، فهداهم الله إلى الكهف.

● وإذ اعتزلتموهم يا أهل الكهف، وفارقتهم في الاعتقاد، واعتزلتم عبادتهم وما عبدتم إلا الله الواحد القهار فأووا إلى الكهف لتعتزلوهم جسمياً بعد فراقهم روحياً، إن تأووا إليه ينشر لكم ربكم من رحمته في الدارين ويهيئ لكم ويصلح من أمركم الذي أنتم بصدد من الفرار بالدين مرفقاً ترفقون به، وتنتفعون.

المبحث الثالث: الفتية وكلبهم بعد دخول الكهف ونومهم

ورعاية الله لهم

● قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لِيَهْدِيَ اللَّهُ الْفَهْمَ الْمُتَهْتِدَ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ تُجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتْ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتُ مِنْهُمْ رُغْبًا﴾ [الكهف: ١٧-١٨].

● بعد أن يسر الله للفتية الكهف، فناموا في كهفهم بحفظ الله ورعايته ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

● كان أصحاب الكهف في فجوة من الكهف على سمت تصيبه الشمس وتقابله، إلا أن الله منع ضوء الشمس من الوقوع عليهم على وجه خرق العادة، كرامة لهؤلاء القوم الصالحين، الذين فروا بدينهم طاعة لربهم جل وعلا.

فمعنى تزاور الشمس عن كهفهم ذات اليمين عند طلوعها، وقرضها إياهم ذات الشمال عند غروبها، هو أن الله يقلص ضوءها عنهم، ويبعده إلى جهة اليمين عند الطلوع، وإلى جهة الشمال عند الغروب، والله جل وعلا قادر على كل شيء يفعل ما يشاء ولذلك قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾.

● لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ومن يضلله الله فلن تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

● ومن حفظ الله لهم ورعايته، أن الناظر إليهم يحسبهم كأفهم أيقاظ، وذلك لأن أعينهم مفتحة، والحال أهم نيام.

● ومن حفظه تعالى لهم: «وتقلبهم ذات اليمين وذات الشمال» لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم، يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى، قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى، حكيم، أراد أن تجرى سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

● والكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالباب، هذا حفظهم من الأرض.

● وأما ما حفظهم من الآدميين فأخبر سبحانه أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، فسبحان الحفيظ الذي لا يعلم جنوده إلا هو سبحانه وتعالى.



البحث الرابع: الله سبحانه يوقظ أهل الكهف من نومهم الطويل

• قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا * وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الكهف: ١٩-٢١].

• بعد آية الله تعالى في نوم أصحاب الكهف النوم الطويل، وحفظ أجسادهم من البلى، أتبع ذلك سبحانه بآية أخرى وهى بعثهم من نومهم الطويل ليسأل بعضهم بعضا فيترتب عليه ظهور الحكم الجليلة التي من أجلها أنامهم الله هذه المدة، ولهذا جعل التساؤل علة للبعث.

• قال قائل منهم: كم لبثتم في نومكم؟ قال بعضهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم، وهذا مبنى على ظن القائل، وكأنهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم.

• وقال بعض منهم لما رأوا أن حالتهم العامة متغيرة، «(ربكم أعلم بما مكنتم)». فردوا العلم إلى الله الذي أحاط بكل شيء علما.

• ثم شعروا بالجوع، فوكلوا أحدهم أن يذهب ومعه نقود فضية، وأوصوه أن يختار أطهر الطعام وأجله وأزكاه، وأن يكون ذكيا ويسير بلطف وهدوء حتى لا يشعر الطاغية وقومه ويكتشفوهم، وإذا ذاك يقتلوهم رجما أو يردوهم إلى ملة الكفر وفي هذا خسران ما بعده فلاح.

• ونزل صاحبهم إلى السوق ومعه العملة الفضية ووافق يبحث عن طعام حتى وجده، فدهش بائع الطعام حين رأى العملة مسكوكة منذ أكثر من ثلاثمائة عام ومن هنا اكتشف أمرهم للناس، وهذا معنى قوله تعالى: «(وكذلك أعثرنا عليهم)».

• وقيل إن الناس اجتمعوا على هذا الفتى، الذي ظن البائع وصاح أن هذا الرجل عثر على كنز عظيم، وجاءت الشرطة، وعلم ملك المدينة بالخبر، وقيل إنه كان مؤمنا نشر في المدينة توحيد الله وأخلاق المؤمنين، وهنا قص الفتى على الملك قصته فسر به سرورا عظيما ورافقه هو والجنود إلى الكهف حيث رأى زملاءه وكلبهم، وشاء الله للفتيان، أن يضيفوا

إلى إيمانهم الفطرى العقلي إيمانا من تعليم الأنبياء وكتب الله السماوية.

• فآمنوا وعلموا، وعلم أهل المدينة مما رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق، وأنه يحيى الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور.

• فجعل الله قصتهم، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين للبعث والنشور.



المبحث الخامس: اختلاف الناس حول أصحاب الكهف بعد موتهم

• قال تعالى: ﴿إِذِ يَنْتَازِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا * سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامَنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢١-٢٢].

• تنازع أهل زمانهم في أمرهم بعد موتهم، فقال بعضهم ابنوا عليهم بنيانا يمنع الناس عنهم، رجمهم أعلم بشأهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر كالملك وأعداؤه لتتخذ عليهم مسجدا للصلاة، ولعلمهم كانوا أهل بدع وضلالات وغلو في الصالحين، لأن هذا الفعل فعل الملحونين الذين اتبعوا سنن اليهود والنصارى.

• عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال في مرض موته: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره ﷺ غير أنه خشى أن يتخذ مسجداً^(١).

• والنبي ﷺ لا يعلن إلا على فعل حرام شديد الحرمة.

• وقال ﷺ: «(إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد أني أنهاكم عن ذلك)»^(٢).

• ثم اختلفوا في عددهم، فمنهم من يقول: ثلاثة رابعهم كلبهم، ومنهم من يقول خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب أي قولاً بلا علم.

ومنهم من يقول: سبعة وثمانهم كلبهم، وهذا والله أعلم الصواب.

لأنه لم يعقب بعده. أن ذلك رجم بالغيب.

• ثم لماذا هذا الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم.

مصلحة للناس، دينية، ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. وفي ذلك تعليم للناس أن يردوا علم الأشياء إلى خالقها جل وعلا

(١) رواه البخاري (١٣٩٠) ومسلم (٥٢٩).

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

وإن علموا بها، كما أعلم نبيه ﷺ. مدة لبثهم في قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]. ثم أمره مع ذلك برد العلم إليه جل وعلا في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦].

• ثم أمر الله نبيه ﷺ أن لا يجادل أهل الكتاب في أهل الكهف وعددهم إلا جدالاً سهلاً هيناً، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة، ونهاه أن يستفتيهم في أمرهم، فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال.



المبحث السادس: فوائد مستنبطة من قصة أهل الكهف

- منها: أن قصة أصحاب الكهف وإن كانت عجيبة فليست من أعجب آيات الله، فإن لله آيات عجيبة وقصصا فيها عبرة للمعتبرين.
- ومنها: أن من فر بدينه من الفتن سلمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله وجعله هداية لغيره، فإن الله لطف بهم في هذه النومة الطويلة إبقاء على إيمانهم وأبدانهم من فتنة قومهم وقتلهم.
- ومنها: أن الله جعل هذه القومة بعد النوم الطويل من آياته التي يستدل بها على كمال قدرته وتنوع إحسانه، وليعلم العباد أن وعد الله حق.
- ومنها: الحث على تحصيل العلوم النافعة والمباحثة فيها، لأن الله بعثهم لأجل ذلك، وبيحثهم ثم بعلم الناس بحالهم حصل البرهان والعلم بأن وعد الله حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها.
- ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم أن يرده إلى علمه، وأن يقف عند ما يعرف.
- ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشراكة في ذلك لقولهم ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾.
- ومنها: جواز أكل الطيبات والتخير من الأطعمة ما يلائم الإنسان ويوافقه، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهى عنه، لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ [الكهف: ١٩].
- ومنها: الحث والتحرز والاستخفاء والبعد عن مواقع الفتن في الدين واستعمال الكتمان الذي يدرأ عن الإنسان الشر.
- ومنها: بيان رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة في دينهم، وتركهم لأوطانهم وعوائلهم في الله.
- ومنها: تقرير التوحيد وأنه لا إله إلا الله على لسان أصحاب الكهف.
- ومنها: بطلان عبادة غير الله لعدم وجود دليل عقلي أو نقلي عليها.
- ومنها: أن الشرك ظلم وكذب والمشرک ظالم مفتر كاذب.
- ومنها: المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه،



- أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس عنده ورع يحجزه.
- ومنها: أن الشخص قد يكون منهياً عن استفتاءه في شيء، دون آخر، فيستفتى فيما هو أهل له بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتاءهم مطلقاً، إنما نهى عن استفتاءهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.
- ومنها: بيان اختلاف أهل الكتاب وعدم ضبطهم للأحداث التاريخية.
- ومنها: أن كثرة البحث وطوله في المسائل التي لا أهمية لها لا ينبغي الاهتمام به لقوله ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ [الكهف: ٢٢].
- ومنها: أن الهجرة من أجل الفرار بالدين خشية الفتنة من سنن الأنبياء والمرسلين، فقد هاجر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وقد هاجر خاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد ﷺ، وغيرهما من الأنبياء.
- ومنها: النهي عن بناء المساجد على القبور، أو إدخال القبور في المساجد التي تنسب إلى الأولياء والصالحين، وما أكثر الأضرحة في مساجد المسلمين وذلك بعد القرون المفضلة، حيث انتشرت البدع والضلالات والشركيات، وأصبح يطاف بهذه الأضرحة كما يطاف حول الكعبة ويستغاث بصاحب القبر، وينذر له ويدعى من دون الله وغير ذلك من العبادات التي لا تكون إلا لله وحده لا شريك له. ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الفصل السادس والعشرون: قصة صاحب الجنتين

• قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا * كُنْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا * وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا * فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِيَّهُ عَلَىٰ مَا انْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِتْنَةً يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

المبحث الأول: مثل للمعتز بالدنيا المغرور بها:

• هذه القصة: تضرب مثلاً للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينه الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس.

• صاحب الجنتين: نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس، ويفتن بهذه الدنيا ويغتر بزخارفها وزينتها الزائلة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفتنى.

• وصاحبه: نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلاً على المنعم، موجهة لحمده وذكره، لا لبحوده وكفره.

• وتبدأ القصة بقول الله تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك، من العقاب العاجل، والآجل، والثواب ليعتبرا بمآلهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما، فيه فائدة أو نتيجة فالنتيجة

تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف.

• فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين أي بستانين حسنين، من أعناب متنوعة، فالأعناب في الوسط، والنخل، قد حف بذلك، ودار به فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل لها الثمار، وتنضج، ومع ذلك، جعل بين تلك الأشجار زرعاً. فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟

• فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت ثمرها وزرعها ضعفين ولم تنقص من أكلها أدنى شيء. ومع ذلك، فالأثمار في جوانبهما سارحة، كثيرة غزيرة.

• وكان لهذا الغني الكافر ثمر ومال، إذا كان من الأثرياء الكبار، وعنده من زينة الحياة الدنيا الكثير ولهذا اغتر هذا الرجل، وتبجح وافتخر، ونسى آخرته.

• فقال يوماً لصاحبه: وهو يحاوره ويجادله شأن كل غني مغرور مع مؤمن فقير صالح. يا صاحبي: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً وأكثر خدماً وولداً ودخل مع صاحبه جنته الواسعة العريضة، دخلها وهو ظالم لنفسه معجب بما أوتى، مفتخر به كافر بالنعمة، معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش أنواع الظلم، وماذا قال: قال لطول أمله وشدة حرصه، وتمام عقله، وكثرة غروره بها قال: ما أظن أن تبدي وتفتني هذه الجنة أبداً، وما أظن الساعة قائمة فيما سيأتي، وأقسم لن رجعت إلى ربي على سبيل الفرض، أو كما يزعم صاحبنا المؤمن لأجذن جنة خيراً من هذه الجنة مرجعاً وعافية.

• وللأسف لقد سمعنا من جهلنا المنتسبين للإسلام مثل هذا القول ((غنى الدنيا غنى الآخرة)) فهم لسوء فهمهم يظنون أن اليسار والغنى إنما يعطى في الدنيا لاستحقاقه ذلك، وظنهم أن الآخرة كالدنيا ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد، كما أنعم عليهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مِّسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْخُسْبَى﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مرم: ٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبا: ٣٥].

وقوله في هذه السورة الكريمة سورة الكهف التي فيها هذه القصة ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

• ويُنَّ جل وعلا كذبهم واغترارهم فيما ادعوه: من أنهم يجدون نعمة الله في الآخرة

كما أنعم عليهم بها في الدنيا في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى﴾ [سبا: ٣٧].

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

• ثم نعود إلى هذا الكافر المغرور الذي ما علم أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة وإلا لما سقى الكافر منها جرعة ماء، وإن الإنسان قد يعطى استدراجاً.

• وماذا قال له صاحبه المؤمن؟ قال وهو يحاوره: يا أيها الإنسان أكفرت بالذي خلق أباك الأول من تراب ثم خلقتك أنت من نطفة ثم سواك فعذلك رجلاً سوياً؟ أبعد هذا تقول، ما أظن الساعة قائمة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرِّرَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَلَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَلَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٥-٧].

• ولكن أنا لا أقول ما تقول بل هو الله ربي وحده لا شريك له، له الحكم وإليه ترجعون.

• يا صاحبي: هلا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، الأمر ما شاء الله لا غير - فهو سبحانه يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير. فبدل أن تقول: ما أظن أن تبدي هذه أبداً، وهذه المقالة لا تصدر إلى من شخص مغرور لا يؤمن بيوم الحساب يظن أن له قوة وحولاً، وأن الأمر بيده لا بيد الله، وأنه الزارع الذي أعطى هذا الزرع عن علم وتجربة، وأن سواده

ونظامه هما اللذان أنتجا! ألا بئس ما يفهم الناس في دنياهم!!

• ثم قال له صاحبه المؤمن: أنت وإن فخرت على بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالا وولداً، فإن ما عند الله، خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه، أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

• وأما جنتك فيرسل عليها عذاباً مقدراً في حسابه فتصبح أرضاً قاحلة ملساء لا شيء فيها أو يصبح ماؤها غائراً لا تدركه الأيدي بأي شكل ولا تستطيع له طلباً فضلاً عن إدراكه، وقد كان، فأحيط بثمره، فلا ثمر ولا شجر ولا زرع، وهلك كل ما له فأصبح يقلب كفيه ندماً وأسفاً على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، ويعض بنان الندم على ما فرط منه.

• ويقول نادماً: يا ليتني لم أشرك بربي أحداً، ولم تكن له فئة تنصره من دون الله إذ هو القادر وحده على دفع العذاب، وما كان هو في حد ذاته منتصراً بنفسه.

• وكيف يكون له انتصار، على قضاء الله وقدره، الذي إذا أمضاه وقدره، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدرُوا؟!!!

• ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة، التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإنابة إليه، وراجع رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أراد الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

• في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا، والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره، لذلك تبين أن الولاية الحق، لله وحده.

• فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له وليا، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه، ولم يتولاه، خسر دينه ودنياه، فثوابه الدنيوي والأخروي، خير ثواب يرجي ويؤمل.



المبحث الثاني: فوائد مستنبطة من قصة صاحب الجنتين

- منها: استحسان ضرب الأمثال للوصول بالمعاني الخفية إلى الأذهان.
- ومنها: بيان صورة مثالية لغرس بساتين النخل والعنب.
- ومنها: الاعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن مآله الانقطاع والاضمحلال، وأنه إن تمتع بها قليلاً، فإنه يحرمها طويلاً.
- ومنها: أن العبد ينبغي له إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكرًا متسببًا لبقاء نعمته عليه لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾.
- ومنها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها بما عند الله من الخير. لقوله: ﴿إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا. فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾.
- ومنها: أن المال والولد لا ينفعان، إن لم يعينا على طاعة الله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبا: ٣٧].
- ومنها: جواز الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضل نفسه بسببه، على المؤمنين، وفخر عليهم.
- ومنها: أن الله يمهّل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.
- ومنها: تقرير عقيدة التوحيد والبعث والجزاء.
- ومنها: أن الله الثواب الرحيم يقبل توبة العبد ما لم يغرر.
- ومنها: التنديد بالكبر والغرور حيث يفضيان بصاحبهما إلى الشرك والكفر.
- ومنها: أن ولاية الله وعدمها، إنما تتضح نتيجتها، إذا انجلي الغبار وحق الجزاء ووجد العاملون أجرهم.
- ومنها: الرضا بما قسم الله لك.
- ومنها: أن الواجب قبول نصيحة الأخ المشفق وأن مخالفته وبال ودمار على من رد النصيحة الصحيحة.
- ومنها: أن من قدم شيئًا على طاعة الله والإنفاق في سبيله عذب، وربما سلب منه معاملة منه بنقيض قصده.
- ومنها: أن الندامة لا تنفع إذا حان القدر ونفذ الأمر الحتم.

الفصل السابع والعشرون: قصة ذي القرنين

• قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلِمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا * كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا * ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا * حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا * قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَاجُوجَ مَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا * آتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا * فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٨٣-٩٨].

المبحث الأول: اسمه وسبب تسميته بذي القرنين:

• اختلف المؤرخون في اسمه على أقوال:

- ١- قيل اسمه: عبد الله بن الضحاك.
 - ٢- وقيل: مصعب بن عبد الله.
 - ٣- وقيل: مرزبان بن مرزبة من ولد يونان بن يافث بن نوح.
 - ٤- وقيل: هرمس (هرويس) بن قيطون.
 - ٥- وقيل: الإسكندر المقدوني اليوناني المصري باني الإسكندرية وقيل غير ذلك.
- وليس على هذه الأقوال خير صحيح عن المعصوم عليه السلام.
- واختلفوا في سبب تسميته بـ «ذي القرنين».
- قيل: لأنه بلغ قرني الشمس مشرقها ومغربها.

● وقيل: لأنه ملك الروم وفارس.

● وقيل: لأنه دخل النور والظلمة.

● وقيل: لأنه رأى في المنام كأنه أخذ بقربي الشمس.

● وقيل: لأنه كان له ذؤابتان حسنتان.

● وقيل: لأنه كان له قرنان تواريهما العمامة.

● وقيل: لأنه كان له غدירתان من شعر.

● وقيل: لأنه انقرض في زمانه قرنان من الناس.

● إلى غير ذلك من الأقوال، وأقرب الأقوال إلى الصحة القول الأول وهو أشبه من غيره ويدل عليه ظاهر القرآن. والله أعلم.



المبحث الثاني: سيرة ذي القرنين

● كان ذو القرنين ملكاً صالحاً، وقد أعطاه الله من القوة أسباب الملك والفتوح ما لم يكن لغيره.

● فذكر الله من حسن سيرته ورحمته وقوة ملكه وتوسعه في المشرق والمغرب ما يحصل به المقصود التام من سيرته ومعرفة أحواله ولهذا قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. أي بعض أخباره.

● وكان قد سأل اليهود بتحريض من المشركين النبي ﷺ: عن قصة ذي القرنين فأمره الله أن يتلو عليهم من أحواله ما يتذكر فيه، ويكون عبرة.

● ومن المعلوم أن ما قصه الله في كتابه هو أحسن وأنفع ما يقص على العباد، فأخبر أنه أعطاه من كل شيء سبباً يحصل به قوة الملك وعلم السياسة وحسن التدبير والسلاح المخضع للأمم وكثرة الجنود وتسهيل المواصلات، وجميع ما يحتاجه، ومع ذلك فقد عمل بالأسباب التي أعطيتها، فما كل أحد يعطى الأسباب النافعة، ولا كل من أعطيتها يتبعها ويعمل بها.

● أما ذو القرنين، فإنه تم له الأمران أعطى سبباً فاتبع سبباً، فغزا بجيوشه الجارة أدنى إفريقية وأقصاها حتى بلغ البحر المحيط الغربي فوصل إلى محل إذا غربت الشمس ((وجدتها تغرب في عين حمئة)) أي رآها رؤية العين كأنها تغرب في البحر، والبحر لونه أسود كالحمئة.

● والقصد: أنه وصل إلى حيث منتهى الخف والحافر من بلاد إفريقية ووجد في ذلك الحبل وتلك الأقطار قوماً منهم المسلم والكافر، والبر والفاجر، وكبر عليه بغيهم وظلمهم قد عاثوا في الأرض الفساد وسفكوا الدماء، وأطاعوا أنفسهم وشياطينهم.

● فاستخار ذو القرنين الله في أمرهم فخيره ربه بين أمرين ((قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً)) إما أن تختار القتل والإبادة لهم جزاء كفرهم وطغيانهم، وإما أن تمهلهم وتدعهم بالحسن.

● فاختار ذو القرنين الإمهال والدعوة وقال ((أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى)).

والمعنى: أنه أقام فيهم مدة ضرب فيها على يد الظالم، ونصر المظلوم، وأقام العدل،

ودعا إلى الله. وهذا يدل على عدله وأنه ملك صالح وعلى حسن تدبيره.

● «ثم أتبع سبياً» أي ثم عمل بالأسباب التي أوتيتها بعدما أخضع أهل المغارب رجوع بفتح الأرض قَطْرًا قَطْرًا حتى وصل إلى مطلع الشمس من بلاد الصين وشواطئ البحر «الخيطة الهادي» وهذا منتهى ما وصل إليه الفاتحون «وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً» أي لا ستر لهم عن الشمس، لا ثياب ينسجوها ويلبسونها، ولا بيوت يبنونها ويأوون إليها، ولا جبال ولا شجر، وهذا يتصور في البلاد الصحراوية.

● وجد هؤلاء القوم الذين في أقصى المشرق بهذه الصفة والوحشية بمنزلة الوحوش التي تأوى إلى الفياض والغيران والأسراب منقطعين عن الناس، وكانوا في ذلك الوقت على هذه الحالة التي وصف الله.

● والمقصود من هذا: أنه وصل إلى ما لم يصل إليه أحد، وقد أحاط الله بما لديه من الجند وأسباب الظفر والملك خيراً، وهذا يفيد كثرة ما لديه.

● ثم بدا له أن يتجه إلى الشمال فاتبع سبياً لذلك حتى بلغ محلاً متوسطاً بين السدين الموجودين منذ خلق الله الأرض وهما سلاسل جبال عظيمة شاهقة متواصلة من تلك الفجوة بمنة ويسرة حتى تتصل بالبحار الشرقية والغربية وهي في بلاد الترك، وعلى هذا اتفق المفسرون والمؤرخون وإنما اختلفوا هل هي سلاسل جبال القفقاس أم دون ذلك في أذربيجان أو أرمينيا، أم سلاسل جبال التاي أم الجبال المتصلة بالسور الصيني في بلاد منغوليا.

● وعلى الأقوال كلها، فرجد عند تلك الفجوة التي بين سلاسل هذه الجبال قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، من بعد لغتهم وثقل فهمهم للغات الأمم، وقد جاوروا يأجوج ومأجوج.

● وبعد جهد من ذي القرنين ومن معه فهموا منهم أن قوماً يقال لهم يأجوج ومأجوج وهم من الهمج المفسدين في الأرض وأنهم يهاجمون منطقة ما بين السدين، ويروعون الأمنين، ولهذا عرضوا على ذي القرنين أن يدفعوا له مقابل هذا العمل خراجاً أي جعلاً يقدره هو وهذا العمل هو أن يبني لهم سداً عالياً بينهم وبين تلك القبائل المتوحشة. ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾

● ولكن ذا القرنين رجل مطبوع على حب الخير ومفطور على الصالح من الأعمال

ومع هذا قد مكنته الله في الأرض، وأعطاه الكثير من المال والثروة وقد أجاهم إلى سؤالهم ورد عطاءهم قائلاً: «ما مكني فيه ربي خير» ثم طلب إليهم أن يعينوه بالرجال والعمال.

● فحثدوا له الحديد والنحاس والخشب والوقود حتى وضعوه مكان السد حتى كان الحديد تلوأً عظيمة موازنة للجبال. ولهذا قال: ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي الجبلين المكتنفين لذلك الردم.

● ثم أمر بالنحاس فأذيب بالنيران وجعل يسيل بين قطع الحديد فالتحم بعضها ببعض وصارت جبلاً هائلاً متصلاً بالسدين. فحصل بذلك المقصود. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾

● فما استطاع يأجوج ومأجوج وقبيلهما أن يعلوا هذا الردم ويظهروا عليه لارتفاعه وملاسته وما استطاعوا له نقباً لقوته وسمكه، وأراح الله منهم شعوباً ومن شرهم ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

● أما ذو القرنين فإنه إن رأى الردم منيعاً حصيناً حتى هتف قائلاً «هذا رحمة من ربي» أي الذي وفقني لهذا العمل الجليل والأثر الجميل، فرجهم إذ منعكم من ضرر يأجوج ومأجوج بهذا السبب الذي لا قدرة لكم عليه.

● ثم قال لهم: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ أي: هذا العمل والحيلولة بينكم وبين يأجوج ومأجوج مؤقت إلى أجل، فإذا جاء ذلك الأجل قدر الله للخلق من أسباب القوة والقدرة ما يمكن يأجوج ومأجوج من وطء بلادكم أيها المجاورون، بل من وطء مشارق الأرض ومغاربها وأقطارها، كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦].

أي: من كل مكان مرتفع، سواء مثل هذه السدود والبحار وجو السماء «ينسلون» أي يسرعون فيها غير مكترئين ولا حاجز يحجزهم، فلنظه من كل حدب يشمل جميع المواضع والأقطار، سهلها وصعبها، منخفضها ومرتفعها، وإنما نص الله على المرتفعات لأن السهول والأماكن المنخفضة من باب أولى وأحرى.



البحث الثالث: فوائد مستنبطة من قصة ذي القرنين

● منها: تقرير نبوة النبي محمد ﷺ حيث أخبر عن هذه القرون السابقة.

● ومنها: اتباع السبب يصل به ذو الرأي والإرادة إلى تحقيق ما هو كالمعجزات.

● ومنها: قول: ذي القرنين ((أما من ظلم فسوف نعذبه.... الآيات)) يجب أن يكون مادة دستورية يحكم به الأفراد والجماعات لصدقها وإجابتها وموافقها لحكم الله تعالى ورضاه، ومن الأسف أن يعكس هذا القول السديد والحكم الرشيد فيصبح أهل الظلم المكرمين لدى الحكومات، وأهل الإيمان والاستقامة مهانين.

● ومنها: بيان وجود أمة بدائية إلى عهد ما بعد ذي القرنين لا يلبسون ثياباً ولا يسكنون سوى الكهوف والمغارات ويوجد في البلاد الكينية إلى الآن قبائل لا يرتدون الثياب، وإنما يضعون على فروجهم خيوط وسيور لا غير.

● ومنها: تقرير أن هذا الملك الصالح قد ملك الأرض فهو أحد أربعة حكموا الناس شرقاً وغرباً، وهم: كما قال مجاهد: مؤمنان وكافران، فالمؤمنان: سليمان بن داود وذو القرنين، والكافران: النمرود، وبختنصر.

● ومنها: اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها كما فعل ذو القرنين مع يأجوج ومأجوج.

● ومنها: مساعدة المظلوم وهذا عام على مستوى الأفراد والجماعات والدول، فلو أن دولة اغتصبت دولة وجب على الجيران نصرتها وخاصة إذا استغاثت بهم كما استغاث جيران ذي القرنين أن يحميهم من يأجوج ومأجوج وقد فعل.

● ومنها: أن من علامات الساعة الكبرى خروج يأجوج ومأجوج^(١).

● ومنها: أن ذا القرنين كان عمرانياً عظيماً.

● ومنها: إذا وفقك الله للخير فانسب الفضل لله ورحمته.



(١) انظر كتاب أشراط الساعة الصغرى والكبرى (للمؤلف) طبعة «دار المعلم».

الفصل الثامن والعشرون: قصة أصحاب الأخدود

البحث الأول: ذكر القصة في الكتاب والسنة:

● قال تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ * النَّارَ ذَاتَ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١-٤].

● كان أصحاب الأخدود ((وهو الشق في الأرض)) قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم على الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدوداً في الأرض، فأججوا فيه نارا، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها. فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم. لأنه ما كان لهم عندهم من ذنب إلا لإيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذبجنا به المنيع، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، وإن كان قدر على عباده هؤلاء الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس.

● عن صهيب^(١) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مراً بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه فشكى ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس

(١) هو صهيب بن سنان بن مالك يعرف بالرومي لأنه أقام بالروم مدة وهو من أهل الجزيرة سبي من قرية نينوى من أعمال الموصل، وقد كان أبوه أو عمه عاملاً لكسرى ثم إنه جلب إلى مكة فاشترته عبد الله بن جدعان القرشي، ويقال بل هرب فأتى مكة وحالف ابن جدعان، وكان من كبار السابقين البدرين، ولما طعن عمر استنابه على الصلاة بالمسلمين إلى أن يتفق أهل الشورى على إمام، وكان موصوفاً بالكرم والسماحة ﷺ.

فقال اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل، فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس فرماها فقتلها، ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني قد بلغ من أمرك ما أرى وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على وكان الغلام يبرئ الأكمة والأبرص ويدأوى الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى فأتاه بهدايا كثيرة، فقال ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجاءه بالغلام فقال له الملك أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمة والأبرص وتفعل وتفعل فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجاءه بالراهب فقبل له ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه ثم جاءه بالغلام فقبل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل. فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور (سفينة) فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقتلوه، فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، ففرقوا وجاء يمشي إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ فقال كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس (وسطه) ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوق السهم في صدغه فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتى الملك فقبل له: أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذر، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فحذت وأضرم النيران، وقال: من لم

يرجع عن دينه فأفحموه فيها أو قيل له: اقتحم ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق^(١).

وزاد الترمذي وغيره (يقول تعالى: قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود...) حتى بلغ (العزير الحميد) قال: فأما الغلام فإنه دفن، فيذكر أنه أخرج في زمن عمر بن الخطاب وأصبه على صدغه كما وضعها حين قتل.

● هذا الحديث قصة يقصها النبي ﷺ عن الأمم السابقة، وفي القصص عبرة لأولى الألباب اعتبار بحال الظالمين أن لا نكون مثلهم، وحال المؤمنين الصابرين أن نفتقوا آثارهم، وفي هذه القصة يخبرنا ﷺ أن أحد الملوك اتخذ له ساحرا، والساحر هو الذي يزيّف الحقائق، فيظهر الحق باطلاً والباطل حقا، غشا وخداعاً وتزييئاً لسيده، ثم إن هذا الساحر لما كبرت سنّه طلب من الملك طلباً يدل على حرصه على بقاء مذهبه قائماً بعد موته طلب غلاماً لكي يعلمه السحر ليقوم بأمره من بعده، ولكن مشيئة الله هي النافذة ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥-١٦].

● يريدون الغلام ساحرا، ويريده الله مؤمنا داعيا لتوحيده وعبادته وحده، فنفذت مشيئة الله، ووقع قضاؤه وقدره الذي قضاه للغلام من الإيمان والدعوة إليه، فلذلك قيد له الراهب العابد في طريقه إلى الساحر فلما جلس الغلام إلى الراهب أعجبه كلامه وأمره فاتبعه على دينه الحق، وجعل يجلس إليه ويتأخر على الساحر، وجعل الساحر يضربه - انظر إلى مدى حرص هذا الساحر الكافر على تعليم تلميذه دعوته - فشكا الغلام حاله للراهب، لأنه معلمه الذي يرشده ويدله على الخير فاحتال له حيلة يسلم بها من أذى الساحر، وهو كذب على الساحر لكنه لمصلحة دين هذا الغلام، وحفاظا على دمه الزكي، وبينما هو على حاله أراد الله عز وجل له كرامة وتثبيتاً على دينه عندما مر على سبع قطع على الناس طريقهم فأراد الغلام أن يستوثق من مذهبه وأراد الله له الكرامة، فقال الغلام: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة فرماها بحجر، وهذا الحجر عادة لا يقتل، ولكن الله أرادها كرامة فقتل السبع بالحجر، وصار الغلام من أولياء الله تعالى الذين: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ * الَّذِينَ

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥) والترمذي (٣٣٤٠) والنسائي في الكبرى (١١٦٦١) وأحمد (١٦/٦) وعبد الرزاق (٩٧٥١) والطبراني في الكبير (٧٣١٩-٧٣٢٠).

آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ. لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ [يونس: ٦٣-٦٤].
الذين إذا سألوا الله أعطاهم، وإن استعاذوا بالله أعادهم، والذين يسخر جوارحهم في مرضاته، فصار الغلام صاحب كرامات يرد على الأعمى الذي وَلِدَ أعمى بصره بإذن الله، ويعالج المرضى من جميع الأمراض كرامة، فقال له الراهب: أنت اليوم أفضل مني فاصبر لأنك ستبتلى، وهذه هي سنة الله في خلقه وعباده لا بد من الابتلاء والاختبار. ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣].

ويقول النبي ﷺ: ((أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاءه، وإن كان في دينه رقة ابتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة))^(١).
• ولكن طلب الراهب من الغلام أن لا يدل عليه ليس خوفاً على نفسه، ولكن خوفاً على الدعوة أن تموت، ولكن الله يحفظ دينه فلا عليك أيها الراهب، فبلغ أمر الغلام وخبره لأحد جلساء ووزراء الملك. كان قد أصابه العمى، فأتى الغلام بهدايا كثيرة ليغيره بها حتى يعالجه، ويشفيه كما زعم هذا الجليس، فقال الغلام الذي استخدم مهمته ومكانته في الدعوة إلى الله وتوحيده وعبادته فقال للأعمى إن الذي يشفى هو الله الذي خلق ودبر كل المخلوقات الذي بيده ملكوت كل شيء فاعبده أيها الوزير لأدعو الله لك فيشفيك فاستجاب الوزير، ودخل في الدين فشفاه الله ورد عليه بصره، ثم رجع يجلس عند الملك الذي كان يدعو الناس لعبادته، ويقول لهم ما علمت لكم من إله غيري، صار الجليس أيضاً داعية إلى الله عندما استنكره الملك وسأله عن رد عليه بصره، فقال الرجل بشجاعة: الله هو الذي رد عليّ بصري فاستنكر الملك أن يكون له رب غيره فازداد الرجل تحدياً للملك وقال: ربي وربك الله.

• هنا أدرك الملك الخطورة وعلم أنه لا بد من استئصال جذور هذه الدعوة التي ترفضه وتبذ عبادته، فأراد أن يعرف من أين تَبَعَتْ وأين تَبَتَتْ، فعذب الجليس ليدل على أصل هذه الدعوة فما زال به حتى دل على الغلام.

• فحجىء بالغلام، فدعاه الغلام وأخبره بأنه لا يشفى إنما الشفاء بيد الله، وهو الرب

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) وغيرهما من حديث سعد بن أبي وقاص

المدير غيرك أيها الملك.

• فعذبه الملك حتى أخبر أنه تعلم هذا الدين من الراهب.

• فحجىء بالراهب، وأراد منه أن يترك هذا الدين الذي أسسه، فهو صاحب الدعوة الحقيقي فأبى الراهب فأراد الملك أن يجعله عبرة لمن اتبعه، ولمن تسول له نفسه باتباعه فشقه نصفين من مفرق رأسه بالمنشار، وهو ثابت على دينه لم يتزعزع، ثم فعل كذلك مع الجليس الذي كان قد عُيِي وهو ثابت.

• نعم إنه الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يزيله أي شيء في الوجود.

• ثم انتقل إلى الغلام وتعامل معه بالتهديد لعله يرجع، فخوفه بالصعود إلى أعلى قمة جبل حتى يرجع عن دينه لكنه كان واثقاً بنصر الله، فدعا على من ذهب به ليقذفه من أعلى الجبل اللهم اكفنيهم بما شئت فيهتز الجبل ليتساقط أعداؤه.

• ثم يرجع إلى الملك - هذا هو الإيمان واليقين بنصر الله، والثبات على سبيل الدعوة والتخدي لهذا الملك الظالم، لأنه يشعر بالعزة والقوة المستمدة من الله، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

• لم يهرب هذا الغلام بنفسه، ولكنه صاحب دعوة يريد أن يبلغها، ثم إن الملك يهدده مرة ثانية بطريقة أخرى بتهديده بالغرق إن لم يرجع عن دينه فبينما هو في منتصف البحر في قارب صغير مع جماعة من أعدائه يلجأ إلى الله الذي يقول: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

فيقول: اللهم اكفنيهم بما شئت فتقلب بهم السفينة وينجو الغلام.

• ويرجع الغلام في عز وثبات وتحذ للملك ليخبره بنصره، وخذلان وغرق من كان معه، ثم إنه يخاطب الملك بشجاعة وعزة المؤمن: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، سبحان الله الغلام الصغير الضعيف يأمر الملك القوي الظالم، ويستجيب له الملك ويخضع لأوامره.

• لكن الغلام صاحب دعوة يريد أن تصل لأكثر عدد من الناس فأمر الملك بأن يجمع له الناس وليشاهدوا نصره واعتراف الملك بربه الذي لا يسلطه عليه إلا إذا اعترف باسمه.

• نفذ الملك أوامر الغلام حرفياً جمع الناس في مكان واسع، وصلب الغلام على جذع، وأخذ سهماً من أسهم الغلام، ثم يقول على مرأى ومسمع من الجميع: باسم الله

رب الغلام فيرميه فيقع السهم في صدغ الغلام ويموت.

● وهناك تقع المعجزة والكرامة للغلام الذي ضحى بنفسه في سبيل الدعوة إلى الله، يؤمن الناس جميعاً برب الغلام، ولا يهتمهم شأن الملك وما ينتظرهم من العذاب، فأتى خبر إيمانهم الملك وهو الذي كان يفعل كل ما يفعل حتى لا يدخل الناس في هذا الدين ويتركوا عبادته.

● فلما بلغه إيمانهم، لا يهتمه شأنهم إنه يريد البقاء على الملك، وإن كان لا يحكم أحداً، فأمر بالحفر فحفرت وأشعلت فيها النيران ليهدد بها المؤمنين، فمن رجع عن دينه نجا، ومن أبى وثبت على دينه فإنه يُلقى في تلك النار.

● فجعل الناس يقتحمون تلك النار ولا يرجعون عن دينهم، حتى جاءت امرأة معها طفل صغير تحمله، فكأنها ترددت في الاقتحام فجعل الله لها آية تكلم طفلها الصغير، وشهد بالحق. يا أمه اصبري فإنك على الحق.

● وأولئك هم أصحاب الأعدود الذين ذكرهم الله في كتابه والرسول ﷺ في سنته.

● لم ينتقموا منهم وبحرقوهم إلا لأنهم آمنوا بالله، وهذه هي سنة الله في خلقه المؤمنين الموحدين، ولا تزال الحرب بين الإيمان وأهله والكفر وأهله حتى يرث الله الأرض ومن عليها. نسأل الله أن يثبتنا على ديننا حتى نلقى نبينا ﷺ على حوضه يوم القيامة.



المبحث الثاني: فوائد مستنبطة من قصة أصحاب الأعدود

- منها: أن القصص في القرآن والسنة تفيد السامعين، ويعتبر بها المؤمنون.
- ومنها: أن السحر من كبائر الذنوب، ومن أهل العلم من ذهب إلى أن السحر كفر، لأن السحر لا يتم إلا مع الكفر والاستكبار أو تعظيم الشيطان.
- وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢].
- ومنها: إثبات كرامة الأولياء.
- ومنها: جواز الكذب في الحرب وإنقاذ النفس من الهلاك.
- ومنها: أهمية الدعوة إلى الله في السر والخفاء خاصة إذا كانت الدعوة في مهدها.
- ومنها: المؤمن يثبت على الحق، وإن قُتل أو حُرِّق.
- ومنها: أن الملوك الظلمة لا يدرون أن الإيمان إذا خالط قلب المؤمن، لا يستطيع أحد أن ينزعه منهم مهما كان من الوعيد.
- ومنها: أن الحرب بين الإيمان والكفر والباطل لا تنقطع.
- ومنها: يجب على طالب العلم أن يتيقن من عقيدة ومنهج معلمه حتى يكون على بصيرة من بداية الطريق.
- ومنها: إذا استشكل على الإنسان شيء أن يدعو ربه ويستخيره حتى يتبين له الحق.
- ومنها: حرص الداعية والعالم على أن يتحمل عنه العلم جيل يقوم به.
- ومنها: أن الله سبحانه قادر على الانتقام ممن ظلم أوليائه المؤمنين إذ هو عزيز لا يغالب، وإنما أمهل الله سبحانه أهل الظلم استدراجاً لهم من حيث لا يعلمون واتخاذ شهداء من عباده المؤمنين.
- ومنها: أفضل الجهاد كلمة الحق عند السلطان الجائر.
- ومنها: فضل الشهادة في سبيل الله تعالى. اللهم ارزقنا شهادة في سبيلك.
- ومنها: أن السحر بالتعلم كما جاء في قصة الملكين ببال، هاروت وماروت يعلمان الناس السحر.

- ومنها: إمكان اجتماع الخير مع الشر: إذا كان الشخص جاهلاً بحال الشر كاجتماع الإيمان مع الراهب مع تعلم السحر من الساحر فاجتمع مع الغلام إيمان وسحر.
- ومنها: إجراء خوارق العادات على أيدي دعاة الخير لبيان الحق والتثبيت في الأمر، كما قال الغلام: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟
- ومنها: أن الغلام كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب، إذ قال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك، فسأل عن أمر الراهب ولم يسأل عن أمر الساحر؟
- ومنها: اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه، كاعتراف الراهب للغلام.
- ومنها: ابتلاء الدعاة إلى الله ووجوب الصبر على ذلك، وتفاوت درجات الناس في ذلك.

- ومنها: إسناد الفعل كله لله، لقول الغلام «إنما يشفى الله».
- ومنها: رفض الداعي إلى الله الأجر على عمله وهدايته ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠].
- ومنها: بيان ركن أصيل في قضية التوسل، وهو أن مبناه على الإيمان بالله ثم الدعاء وسؤال الله تعالى.
- ومنها: غباوة الملك المشرك المغلق قلبه بظلام الشرك حيث ظن في نفسه أنه الذي شفى جليسه، وهو لم يفعل له شيئاً، وكيف يكون وهو لا يعلم.
- ومنها: اللجوء إلى العنف والبطش عند العجز عن الإقناع والإفهام، أسلوب الجهلة والجبابة.

- ومنها: منتهى القسوة والغلظة في نشر الإنسان، بدون هوادة.
- ومنها: منتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين، وهكذا كان في الأمم السابقة، وبيان فضل الله على هذه الأمة، إذ جاز لها التلطف بما يخالف عقيدتها وقلوبها مطمئن بالإيمان.

- ومنها: إجابة دعوة الغلام ونصرة الله لعباده المؤمنين. اللهم اكفنيهم بما شئت.
- ومنها: التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة، حيث دل الغلام الملك على الطريقة التي يتمكن الغلام بها من إقناع الناس بالإيمان بالله، ولو كان الوصول لذلك على حياته هو.

- ومنها: إبقاء جسم الغلام حتى زمن عمر رضي الله عنه إكراماً لأولياء الله، والدعاة من أن تأكل الأرض أجسامهم.
- ومنها: إثبات دلالة القدرة على البعث.
- ومنها: حياة الشهداء.
- ومنها: معرفة تلك القصة عند أهل مكة حيث حدثوا بها تحويلاً من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين.
- ومنها: نطق الصبي الرضيع بالحق.



الفصل التاسع والعشرون: قصة أصحاب الجنة

• قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَشْنُونَ * فطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادُوا مُصْبِحِينَ * أَنْ اغْدُوا عَلَيَّ حَرْثَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ * أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ * وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ * كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ١٧-٣٣].

• المبحث الأول: حول قصة أصحاب الجنة ومغزاها:

• قال الحافظ في الفتح: (٥٢٩/٨):

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: كانت الجنة لشيخ، وكان يمسك قوته سنة ويتصدق بالفضل، وكان بنوه يبهونه عن الصدقة، فلما مات أبوهم غدوا عليها فقالوا لا يدخلها اليوم عليكم مسكين ((وغدوا على حرد قادرين)) يقول: على جد من أمرهم، وقال معمر وقال الحسن: على فاقة.

وأخرج سعيد بن منصور بإسناد صحيح عن عكرمة قال: هم ناس من الحبشة كانت لأبيهم جنة، فذكر نحوه إلى أن قال: ((وغدوا على حرد قادرين)) قال: أمر مجتمع. وقد قيل في حرد إنما اسم الجنة، وقيل اسم قريتهم، وحكى أبو عبيدة فيه أقوالاً أخرى: القصد والمنع والغضب والحقد. انتهى.

• وليس من ضرورة الاعتبار بالمثل والعظة به، تعيين أهله، لولا محبة المأثور.

• والمعنى: إنا بلونا أهل مكة بالنعم ثم بإرسال إمام الرسل فكفروا واستحقوا من الله عظيم النقم، حيث اغتروا بالمال والأهل والولد، ولم يراعوا حق الله فيهم، كما بلونا أصحاب البستان كثير الخير والبركات عظيم الثمر ملتف الأغصان، ولكنهم ما عرفوا حق الله وكفروا بالمساكين وحقوقهم، ثم بعد ذلك ندموا، ولات ساعة الندم.

• ولأصحاب البستان قصة كما سبق ذكره في الأثر: خلاصتها أن هناك رجل صالح يخاف الله، ويعطى حقوق المساكين، ويعلن عن يوم الجني ليحضر كل مستحق فيأخذ من

خير الله ما يستحق، ثم توفي هذا الرجل وخلفه أولاده على البستان وكانوا كثرة، ثم لما قارب جنى الثمار تذاكروا فيما بينهم ماذا يفعلون؟ أيفعلون كما كان أبوهم يفعل؟ لا. إنه كان رجلاً طيباً، وكان فرداً واحداً تبعاته قليلة، أما نحن فجماعة ولنا أولاد، وبأى شيء يستحق المسكين في البستان؟ ونحن الذين قمنا بالحرث والزرع والتسميد. لا. لا.

لن نعطي أحداً، قالوا هذا إلا واحداً منهم وعظهم فلم يتعظوا وأمرهم فلم يأثموا، وكان واحداً وهم جماعة فنزل على إرادتهم مكرهاً، ولا تنس قول الله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

• عقدوا أمرهم عشاء على أن يذهبوا مبكرين في الصباح ليصرموا الجنة وحدهم بدون أن يعلم المساكين، ولم يقولوا إن شاء الله، وظنوا أنهم قادرون على منعهم حقوقهم.

• وبيناهم كذلك إذ طاف عليها طائف من ربك، وطرقها بلاء عظيم لم يكن للإنسان فيه أي مدخل، فأصبحت كالبستان الجني ثمره، أصبحت كقطعة الليل ظلاماً، أرأيت إلى حقل القطن بعد الجني؟ إنه كالليل الأسود.

• فلما رأوها هكذا، بعد أن ساروا ليلاً، في السر وكنتموا أنفاسهم حتى لا يعلم مسكين قصدهم، لما رأوها قالوا: يا ويلنا إنا لضالون حيث منعنا حقوق المساكين، وغفلنا عن قدرة الله الكبير، ثم بعد ذلك ذهبوا إلى أبعد من هذا قائلين: لا تظنوا أنا حرمانا المساكين بفعلنا هذا. لا. ليسوا محرومين أبداً فإن الله هو الرزاق ذو القوة المتين وهو الحي الذي لا يموت، ولكن نحن المحرومون من التوفيق والهداية، حيث خرجنا عن أمره، وقسونا على عباده وخلقه.

• قال أوسطهم عقلاً. وأرجحهم رأياً، ألم أقل لكم عندما عزمتم على منع المساكين، هلا تسبحون الله؟ هلا تنزهون الله فتطيعون أمره! ولا تظنون فيه العجز على الرزق والإعطاء ومعاقبة العصاة المتكبر قالوا إزاء هذا. سبحان ربنا وتنزيها له إنا كنا ظالمين، ندموا على ما فات وهل ندمهم كان صحيحاً أم لا؟ والظاهر أنهم صادقون.

• فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، قالوا: يا ويلنا، إنا كنا طاغين وخارجين عن حدود العقل والشرع والسنن الإلهية ندموا وقالوا: عسى ربنا أن يبدلنا خيراً من تلك الجنة التي أبيدت، إنا إلى الله وحده راغبون ومتجهون.

• أيها الناس. العذاب العاجل الذي يرسله الله على الطغاة المتحجرين والكفار المشركين مثل هذا العذاب الذي أرسل في لحظة واحدة فأهلك الحرث والنسل، فإياكم والغرور وإياكم ومخالفة أمر الله، ولعذاب الآخرة أكبر وأشد لو كان الناس يعلمون.

البحث الثاني: الفوائد المستنبطة من قصة أصحاب الجنة

- منها: الابتلاء يكون بالسراء والضراء أي بالخير والشر وأسعد الناس الشاكرون عند السراء الصابرون على طاعة الله ورسوله عند الضراء.
- ومنها: الجزاء من جنس العمل، فقد نوا على منع المساكين، فمنع الله عنهم ثمارهم.
- ومنها: أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعصية، دمر الله جنتهم، فكيف يكون الحال في حق من عاند الرسول ﷺ وأصر على الكفر والمعصية، ومنع الزكاة طول عمره، وغيرها من الفرائض.
- ومنها: مشروعية التذكير بأحوال المبتلين والمعافين ليتخذ من ذلك طريق إلى الشكر والصبر.
- إن مواساة الفقير وإعطاء المسكين، من مال الله الذي عندك، حصن حصين، ودرع واقية من الآفات والبلاء.
- ومنها: لا يحيق المكر السيء إلا بأهله.
- ومنها: صلاح الآباء ينفع أبناء المؤمنين فقد انتفع أصحاب الجنة بصلاح أبيهم الذي كان يتصدق على المساكين من غلة بستانه وعلامة انتفاعهم توبتهم ورجوعهم إلى الله تعالى.
- ومنها: مشروعية الاستثناء في اليمين وأنه تسبيح لله تعالى، وإن تركه يوقع في الإثم ولذا إذا حنث الحالف الذي لم يستثن ثلوث نفسه بإثم كبير لا يمحى إلا بالكفارة الشرعية التي حددها الشارع وهي إطعام أو كسوة عشرة مساكين أو عتق رقبة فإن لم يقدر على واحدة من هذه الأنواع صام ثلاثة أيام ليمحي ذلك الذنب من نفسه.
- ومنها: استدلال بعض العلماء من هذه القصة، أن من فر من الزكاة قبل الحول بتبديل أو خلط فإن ذلك لا يسقطها، ووجه ذلك: أنهم قصدوا بقطع الثمار إسقاط حق المساكين، فعاقبهم الله بإتلاف ثمارهم.



الفصل الثلاثون: قصة أصحاب الفيل

البحث الأول: القصة كما ذكرها أهل السير وكثير من المفسرين:

• قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١-٥].

• لقد ذكرت قصة الفيل في كتب السيرة والتفاسير وإن كانت أسانيدنا منقطعة إلا أن أهل السير تلقفوها ونقلوها في كتبهم وكذلك كثير من المفسرين، وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة.

حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث. فيقولون: ولد عام الفيل وحدث كذا لستين بعد عام الفيل ونحو ذلك.

• وتفصيل نبئها على ما أثره ابن هشام^(١): أن أبرهة الحبشي كان أمير صنعاء للنجاشي وكان ذا دين في النصرانية، فبنى بصنعاء كنيسة ((القليس))^(٢) لم ير مثلها في زمانها. ثم كتب للنجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك. ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعدها فيها ((أي أحدث فيها)) ثم خرج فلحق بأرضه فأخبر بذلك أبرهة فقال: من صنع هذا؟ فقيل صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تجحج العرب إليه بمكة، لما سمع قولك: ((أصرف إليها حج العرب)) غضب فجاء فقعدها فيها. أي أنها ليست لذلك بأهل.

• فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت. ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام. فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر. فدعا قومه ومن أجابه من

(١) سيرة ابن هشام (٤٣/١) وما بعدها.

(٢) القليس: اسم الكنيسة وسميت بذلك لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس، لأنها في أعلى الرؤوس.

سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخراجه. فأجابه إلى ذلك من أجابه. ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأتى به أسيراً. فلما أراد قتله قال له ذو نفر: أيها الملك، لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي. فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق. وكان أبرهة رجلاً حليماً.

● ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له. حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب. فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً. فأتى به. فلما هم بقتله قال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فإنني دليلك بأرض العرب. وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس، بالسماح والطاعة. فخلّى سبيله وخرج به معه يدله. حتى إذا مر بالطائف خرج له مسعد بن معتب الثقفي في رجال ثقيف. فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد — يعنون اللات — واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة.

● فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس^(١) فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك: فرجعت قبره العرب. فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس. فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مفضود على خيل له حتى انتهى إلى مكة. فساق إليه أموال أهل قحافة من قريش وغيرهم. وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها.

● فهيمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، ثم قل له: إن الملك يقول لك: إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا لنا. دونه بحرب، فلا حاجة لي في دمائكم. فإن هو لم يرد حربي فأنتي به.

● فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها. فقليل له عبد المطلب بن هاشم. فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة. هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام (أو كما قال) فإن يمنعه منه

(١) المغمس: موضع بطريق الطائف على ثلثي فرسخ من مكة.

فهو بيته وحرمة. وأن يخل بينه وبينه فوالله، ما عندنا دفع عنه.

● فقال له حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك. فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيته حتى أتى العسكر. فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له: يا ذا نفر، هل عندك من غناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً أو عشياً ما عندنا غناء في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي، وسأرسل إليه فأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، واسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك، فقال: حسبي.

● فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقال له: إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين (غير) مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وانفعه عنده بما استطعت. فقال: أفعّل.

● فكلم أنيس (أبرهة)، فقال له: أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عين (غير) مكة، وهو يطعم الناس في السهل، والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له عليك فيكلمك في حاجته (وأحسن إليه) قال: فأذن له أبرهة.

● قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه، فنزل أبرهة عن سريرته، فجلس على بساطه، وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي.

● فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنت أعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أنكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه.

● قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه، قال: ما كان ليمنع مني، قال: أنت وذاك.

● وكان فيما يزعم بعض أهل العلم، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة (يعمر بن نفثة سيد بني بكر)، وخويلد بن وائلة سيد هذيل، فعرضوا على أبرهة ثلث أموال قحافة، على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم.

والله أعلم أكان ذلك أم لا. فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له.

● فلما انصرفوا عنه، انصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرز (التمنع) في شعف (رؤوس) الجبال، والشعاب (بين الجبال) تخوفاً عليهم من معرة (شدّة) الجيش، ثم قام عبد المطلب، فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُـمَّ ^(١) إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك ^(٢)
لا يغلبن صـالـيـهـم ومحـالـهـم عـلـوا محـالـك
إن كنتم تـارـكـهـم وقـلـتـنـا فأمر ما بدا لك
وانصر على الصليب وعابديه اليوم آلك ^(٣)

● ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها.

● فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وعباً جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهة يجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه، فقال: ابرك محمود، أو ارجع راشد من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا رأسه بالطبرزين ^(٤). ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن ^(٥) لهم في مراقه ^(٦) فبزغوه بها ^(٧) ليقوم فأبى، فوجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك

(١) لا هم: أصلها اللهم.

(٢) الحلال: جمع حلة، وهي جماعة البيوت، ويريد هنا: القوم الحلول.

(٣) والبيت الأخير: ذكره السهيلي في الروض الأنف، وانظر الطبري.

(٤) الطبرزين: آلة معققة من حديد، وطير بالفارسية: معناها الفأس.

(٥) الخاجن: جمع محجن، وهي عصا معوجة.

(٦) مراقه: أسفل بطنه.

(٧) فبزغوه بها: أي أدموه.

ووجهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف ^(١) والبلسان، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعذس، لاتصيب منهم أحد إلا هلك، وليس كلهم أصابت.

● وخرجوا هارين يتدرون الطريق الذي منه جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نعمته.

أيـن المـفـر والإله الطالـب والأشـرم المـغـلـوب لـيـس الغالـب

● فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم تسقط (أنامله) أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعها منه مدّة تمث (ترشح) قيحا ودمًا، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، فيما يزعمون.



(١) الخطاطيف: جمع خطاف: وهو طائر أسود يقال له زوار الهند، وهو الذي تدعوه العامة عصفور الجنة.

البحث الثاني: مناسبة ذكر رسول الله ﷺ حابس الفيل

● عن المسور بن مخرمة ومروان يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه قالوا: «خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين. فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش. فانطلق يركض نذيراً لقريش وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته فقال الناس: حل حل^(١) فألحت^(٢). فقالوا: خلأت القصواء^(٣). فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق^(٤) ولكن حبسها حابس الفيل^(٥)».

● قوله: «حبسها حابس الفيل».

قال ابن حجر^(٦) - رحمه الله -:

أي حبسها الله عز وجل من دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها، ومناسبة ذكرها أن الصحابة لو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدّهم قريش عن ذلك لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء ونهب الأموال كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه مكة، لكن سبق في علم الله تعالى في الموضعين أنه سيدخل في الإسلام خلق منهم، ويستخرج من أصلابهم ناس يسلمون ويجاهدون.

وفي هذه القصة جواز التشبيه من الجهة العامة وإن اختلفت الجهة الخاصة، لأن أصحاب الفيل كانوا على باطل محض وأصحاب هذه الناقة كانوا على حق محض، لكن جاء التشبيه من جهة إرادة الله منع الحرم مطلقاً، أما من أهل الباطل فواضح وأما من أهل الحق فللمعنى الذي تقدم ذكره. وفيه ضرب المثل واعتبار من بقي بمن مضى. انتهى.

● عن أبي هريرة رضي الله عنه أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام فتح مكة بقتيل منهم

(١) حل . حل: كلمة تقال للناقة إذا تركت السير.

(٢) فألحت: أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح.

(٣) خلأت القصواء: امتنعت الناقة من دخول مكة.

(٤) خلق: عادة.

(٥) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٦) فتح الباري (٣٩٥/٥).

قتلوه، فأخبر بذلك النبي ﷺ فركب راحلته فخطب فقال: «إن الله حبس عن مكة الفيل. وسلط عليهم رسوله ﷺ والمؤمنين... الحديث^(١)».

● قال ابن حجر^(٢) - رحمه الله -:

المراد بحبس الفيل: أهل الفيل. وأشار بذلك إلى القصة المشهورة للحيشة في غزوهم مكة ومعهم الفيل فمنعها الله منهم وسلط عليهم الطير الأبايل مع كون أهل مكة إذ ذاك كانوا كفاراً، فحرمة أهلها بعد الإسلام أكثر لكن غزو النبي ﷺ إياها مخصوص به على ظاهر هذا الحديث وغيره.



(١) رواه البخاري (١١٢-٢٤٣٤-٦٨٨٠) ومسلم (١٣٥٥) وغيرهما.
(٢) فتح الباري (٢٤٨/١).

المبحث الثالث: فوائد مستنبطة من قصة أصحاب الفيل

● منها: أن الحادثة من إرهابات النبوة، فقد كانت هذه القصة دالة على شرف نبينا محمد ﷺ وتأسيساً لنبوته، وإرهاصاً لها، وإعزازاً لقومه بما ظهر عليهم من الاعتناء حتى دانت لهم العرب، واعتقدت شرفهم وفضلهم على سائر الناس، بحماية الله عز وجل لهم، ودفعه عنهم مكر أبرهة، الذي لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة، وكان ذلك كله إرهاباً لنبوته عليه الصلاة والسلام.

● عن قيس بن مخزومة قال: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل فنحن لدان^(١) ولدنا مولداً واحداً^(٢).

● ومنها: تسلية رسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.

● ومنها: تذكير قريش بفعل الله عز وجل تخويفاً لهم وترهيباً.

● ومنها: مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه وبطشه بأعدائه.

● ومنها: الرد على بعض الملحدين في سؤا لهم: لم كان حبس الفيل في زمان الجاهلية عنها ومنعه منها ومن الإفساد والإلحاد فيها، ولم يمنع الحجاج بن يوسف في زمان الإسلام عنها، وقد نصب المنجنيق على الكعبة وأضرمها بالنار وسفك فيها الدم الحرام وقتل عبد الله بن الزبير وأصحابه في المسجد، وكيف لم يحبس عنها القرامطة وقد سلبوا الكعبة ونزعوا حليتها وقلعوا الحجر وقتلوا العالم من الحجاج وخيار المسلمين بحضرة الكعبة؟

● فأجاب عن هذا السؤال بعض العلماء:

بأن حبس الفيل عنها في الجاهلية كان علماً لنبوة رسول الله ﷺ وتنويفاً بذكر آبائه، إذ كانوا عمّار البيت وسكان الوادي فكان ذلك الصنيع إرهاباً للنبوة وحجة عليهم في إثباتها، فلو لم يقع الحبس عنها والذب عن حريمها لكان في ذلك أمران: أحدهما: فناء أهل الحرم وهم الآباء والأسلاف لعامة المسلمين ولكافة من قام به الدين.

(١) لدان: اللذان ولدا معاً.

(٢) حسن: رواه أحمد (٢١٥/٤)، والبخاري في التاريخ الكبير (٢٩٦/١) والترمذي (٣٦١٩) وابن

سعد في الطبقات (١٠١/١) وغيرهم.

والآخر: أن الله سبحانه أراد أن يقيم به الحجة عليهم في إثبات نبوة رسوله ﷺ وأن يجعله مقدمة لكونها وظهورها فيهم، فكان مولد رسول الله ﷺ عامئذ، وكانوا قومًا عربا أهل جاهلية ليست لهم بصيرة في العلم ولا تقدم في الحكمة، وإنما كانوا يعرفون من الأمور ما كان دركه من جهة الحس والمشاهدة، فلو لم يجر الأمر في ذلك على الوجه الذي جرى لم يكن يبقى في أيديهم شيء من دلائل النبوة تقوم به الحجة عليهم في ذلك الزمان، فأما وقد أظهر الله الدين ورفع أعلامه وشرح أدلته وأكثر أنصاره، فلم يكن ما حدث عليها من ذلك الصنيع أمراً يضر بالدين أو يقدر في بصائر المسلمين. وإنما كان ما حدث منه امتحاناً من الله سبحانه لعباده ليبلى في ذلك صبرهم واجتهادهم، ولينبلهم من كرامته ومغفرته ما هو أهل التفضيل به والله يفعل ما يشاء، وله الخلق والأمر، هذا بالإضافة إلى إنذار النبي ﷺ بهدمها وتخريبها فصار الهدم آية بعد أن كان المنع آية فلذلك اختلف حكمهما في الحالين والله تعالى أعلم.



الفصل الحادي والثلاثون: قصة الإسراء والمعراج

المبحث الأول: قبيل الإسراء والمعراج

• ها هي قريش وقفت عقبة كؤوداً في سبيل الدعوة الإسلامية، ولحّت في العداوة لرسول الله ﷺ وأصحابه، وتجاوزت الحد في الإيذاء والطغيان فقاطعت كل من يتصور للنبي ﷺ ولو حمية بمن كان على دينهم كما حدث في مسألة الصحيفة التي آلوا فيها على أنفسهم بمقاطعة بني هاشم والمطلب حتى بلغ الجهد منهم مبلغه.

• وها هي الأحداث المخزية تتوالى، فأبو طالب شيخ قريش ومانع رسول الله ﷺ من أذى قريش وناصره تنزل به المنية ويزيد من هول الفجيعة موت السيدة المهية في قومها خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - وزوج النبي ﷺ التي واسته بنفسها ومالها والتي كانت له وزيرة صدق تعيينه عند الشدائد، وتسرى عن نفسه عند البلاء، بما عهد عنها من عقل حصيف، وقلب رحيم، وصدر حنون، وعبارات تغسل أثر الألم.

• وتزداد إساءات قريش للنبي ﷺ وصحبه، وتقف من الدعوة المحمدية موقف العناد، والإباء، والتمنع، فيبدوا للنبي أن ييمم وجهه شطر الطائف.

• وهناك اتصل برؤساء ثقيف عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمرو الثقفي، فعرض عليهم الإسلام ونصرتهم حتى يبلغ رسالة ربه، فردوا عليه ردّاً قبيحاً، وكانوا أسوأ حالاً من أهل مكة، فرجاً منهم أن يكتموا أمره معهم على قريش حتى لا يشتد إيذاؤهم له، فما وجد منهم مروءة ولا عهداً، وأغروا به سفهاءهم وصبيانهم يرمونه بالحجارة حتى سال الدم الذكي من عقيقه وزيد بن حارثة ﷺ يدرأ عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

• بعد هذا الإيذاء الشديد انصرف عنهم رسول الله ﷺ راجعاً إلى مكة.

• وفي طريقه لقي عداساً النصراني، فأمن به وصدقه، وفي طريقه أيضاً بنخلة صُرف إليه نفر من الجن سبعة من أهل نصيبين، فاستمعوا القرآن وأسلموا^(١).

• وفي طريقه تلك أرسل الله إليه ملك الجبال يأمره بطاعته، وأن يطبق على قومه أخشى مكة، وهما جبلاها إن أراد، فقال ﷺ: «(بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٣١٣١١) وسنده حسن.

يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئاً»^(١).

• وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلمي إلى عدو بعيد يتجهمني^(٢) أم إلى صديق قريب ملكته أمري إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أضاءت له السماوات، وأشرقت له الظلمات وصالح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك، ولك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

• ثم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي، ثم أسرى بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى فوق السماوات بجسده وروحه إلى الله عز وجل.



المبحث الثاني: في الإسراء والمعراج تسرية عن رسول الله ﷺ

• وفي هذه الغمرة من المآسى والأحزان، وصدود القوم عن الإيمان، ومحاربة الدعوة بكل الطرق والوسائل، وبعد هذه الشدائد المتلاحقة كان من رحمة الله بعبده وحببيه محمد ﷺ أن يُسرّى عن نفسه الجريحة، وفؤاده المحزون، فكان «الإسراء» و «المعراج» حيث شاهد من آيات ربه ما شاهد، وعاین من أمارات العناية الإلهية به وبدعوته ما زاده يقيناً إلى يقين بنجاح دعوته، وتبليغ رسالة ربه، والنصر على أعدائه، وأطلعه الله من ملكوته العظيم على ما أطلعه عليه مما ملأ النفس رضى، والقلب نوراً، والصدر طمأنينة.



(١) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) عن عائشة - رضي الله عنها.

(٢) يتجهمني: يلقي بالغلظة والوجه الكريه.

(٣) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥/٦) رواه الطبراني وفيه: ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات.

المبحث الثالث: تعريف الإسراء والمعراج:

- الإسراء في اللغة: مصدر أسرى وهو سير عامة الليل، ويقال: أسراه وأسرى به، وعلى الثانية جاء القرآن الكريم. وجمهور اللغويين على أن سرى وأسرى بمعنى واحد وبعضهم يفرق بينهما فيقول: أسرى: سار من أول الليل، وسرى: سار من آخره.
- وفي الشرع: هو ذهاب الله بنبيه محمد ﷺ من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بإيلياء (مدينة القدس) في جزء من الليل ثم رجوعه في ليلته.
- المعراج: في اللغة: قال ابن الأثير: المعراج بالكسر شبه السلم مفعال من العروج أي الصعود كأنه آلة له مأخوذ من عرج يعرج عروجاً إذا صعد والمراد به المصدر أي العروج.
- وفي الشرع: هو صعوده ﷺ من بيت المقدس إلى السموات السبع، وما فوق السبع ثم رجوعه إلى بيت المقدس في جزء من الليل.



المبحث الرابع: معجزة الإسراء والمعراج كانت بالروح

والجسد معاً في اليقظة

- قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].
- إن معجزة الإسراء والمعراج كانت مظهرًا من مظاهر التكريم الإلهي لخاتم الأنبياء والمرسلين وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب، ولذلك بدأ الله جل وعلا سورة الإسراء بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ﴾ يمجّد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره.
- قال العلامة الشنقيطي -رحمه الله تعالى- في تفسيره (٣/٣٩١):

قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك: أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول. فإننا نبين ذلك. فإذا علمت ذلك.

- فاعلم أن هذا الإسراء به ﷺ المذكور في هذه الآية الكريمة، زعم بعض أهل العلم أنه بروحه ﷺ دون جسده زاعماً أنه في المنام لا اليقظة، لأن رؤيا الأنبياء وحى.
- وزعم بعضهم: أن الإسراء بالجسد، والمعراج بالروح دون الجسد.
- ولكن ظاهر القرآن يدل على أنه بروحه وجسده ﷺ يقظة لا مناماً، لأنه قال: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ والعبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، ولأنه قال ﴿سُبْحَانَ﴾ والتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام. فلو كان مناماً لم يكن له كبير شأن حتى يتعجب منه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. لأن البصر من آلات الذات لا الروح. وقوله هنا ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾.

- ومن أوضح الأدلة القرآنية على ذلك قوله جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. فإنها رؤيا عين يقظة لا رؤيا منام، كما صح^(١) عن ابن عباس وغيره.

(١) رواه البخاري (٣٨٨٨) وغيره.

• ومن الأدلة الواضحة على ذلك - أنها لو كانت رؤيا منام لما كانت فتنة، ولا سبباً لتكذيب قريش، لأن رؤيا المنام ليست محل إنكار، لأن المنام قد يرى فيه ما لا يصح. فالذي جعله الله فتنة هو ما رآه بعينه من الغرائب والعجائب، فزعم المشركون أن من ادعى رؤية ذلك بعينه فهو كاذب لا محالة، فصار فتنة لهم.

• ويؤيد ما ذكرنا من كونها رؤيا عين يقظة قوله تعالى هنا: «لنريه من آياتنا» وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [الحج: ١٧-١٨].

• وركوبه ﷺ على البراق يدل على أن الإسراء بجسمه، لأن الروح ليس من شأنه الركوب على الدواب كما هو معروف.

• وعلى كل حال: فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه: أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السموات السبع. وقد دلت الأحاديث المذكورة على أن الإسراء والمعراج كليهما بجسمه وروحه، يقظة لا مناماً، كما دلت على ذلك أيضاً الآيات التي ذكرنا.

وعلى ذلك من يعتد به من أهل السنة والجماعة، فلا عبرة بمن أنكر ذلك من الملحدين. انتهى.

• وقال ابن حبان^(١) - رحمه الله -:

وجملة هذه الأشياء في الإسراء رآها رسول الله ﷺ بجسمه عياناً دون أن يكون ذلك رؤيا أو تصويراً صور له، إذ لو كان ليلة الإسراء وما رأى فيه نوماً دون اليقظة، لاستحال ذلك، لأن البشر قد يرون في المنام السماوات والملائكة والأنبياء والجنة والنار وما أشبه هذه الأشياء فلو كان رؤية المصطفى ﷺ ما وصف في ليلة الإسراء في النوم دون اليقظة، لكانت هذه حالة يستوى فيها معه البشر، إذ هم يرون في منامهم مثلها، واستحال فضله، ولم تكن تلك حالة معجزة يفضل بها على غيره، ضد قول من أبطل هذه الأخبار وأنكر قدرة الله جلّ وعلا وإمضاء حكمه لما يحب كما يحب. جل ربنا وتعالى عن مثل هذا وأشباهه.



المبحث الخامس: قصة بدء الإسراء وشق صدر النبي ﷺ

المطلب الأول: من أين بدأ الإسراء:

• تعددت الروايات من أين بدأ الإسراء.

• ففي رواية قال النبي ﷺ: «بيننا أنا عند البيت بين النائم واليقظان... الحديث»^(١).

• وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل... الحديث»^(٢).

• وفي رواية قال ﷺ: «بينما أنا في الحطيم - وربما قال في الحجر - مضطجعا إذ أتاني آت... الحديث»^(٣).

• وفي رواية عند الطبراني: عن أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها - قالت: بات رسول الله ﷺ ليلة أسرى به في بيتي ففقدته من الليل... الحديث^(٤).

• وفي رواية الواقدي بأسانيده «أنه أسري به من شعب أبي طالب».

• وفي رواية: «وهو نائم في المسجد الحرام»^(٥).

• وجمع بين هذه الأقوال كلها الحافظ ابن حجر في الفتح فقال: إنه ﷺ نام في بيت أم هانئ، وبيتها عند شعب أبي طالب، ففرج سقف بيته - وأضاف البيت إليه لكونه كان يسكنه - فنزل منه الملك فأخرجه من البيت إلى المسجد فكان به مضطجعاً وبه أثر النعاس، ثم أخرجه الملك إلى باب المسجد فأركبه البراق. وقد وقع في مرسل الحسن عند ابن إسحاق أن جبريل أتاه فأخرجه إلى المسجد فأركبه البراق. وهو يؤيد هذا الجمع. انتهى.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) ومسلم (١٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧).

(٤) الطبراني في الكبير (٤٣٢/٢٤).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٧٠) ومسلم (١٦٢).

المطلب الثاني: عملية شق صدر النبي ﷺ :

● اختلف أهل السير في عدد مرات شق صدره ﷺ : والراجح أنها ثلاث مرات:

● الأولى: وهو صغير. والدليل على ذلك:

● عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة. فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه ^(١) ثم أعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ^(٢) فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون.

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ^(٣).

● المرة الثانية: عند بعثته ﷺ ، والدليل على ذلك.

● ما رواه أبو داود الطيالسي، والحاثر بن أبي أسامة في مسنديهما وأبو نعيم في الدلائل: من حديث عائشة - رضي الله عنها -.... وفيه «فأخذني جبريل فألقاني، ثم شق عن قلبي فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج، ثم غسله في طست من ماء زمزم، ثم أعاده مكانه، ثم لأمه، ثم أكفاني، كما يكفأ الإناء، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم في قلبي» ^(٤).

● المرة الثالثة: في الإسراء والمعراج والدليل على ذلك.

● في رواية أنس عن أبي ذر - رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها في صدري ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فخرج بي إلى السماء... ثم ذكر حديث الإسراء» ^(٥).

(١) لأمه: جمعه وضم بعضه إلى بعض.

(٢) ظنوه: مرضعته.

(٣) أخرجه مسلم (٤٠٦) نووي. قلعي.

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (١٥٣٩) وفيه راوٍ لم يُسمَّ وانظر المطالب العالية (٣٦٨/٤-٣٦٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٩) ومسلم (١٦٣).

● قال الحافظ ابن حجر ^(١) في الفتح:

وقد استنكر بعضهم وقوع شق الصدر ليلة الإسراء وقال: إنما كان ذلك وهو صغير في بني سعد، ولا إنكار في ذلك، فقد تواردت الروايات به. وثبت شق الصدر أيضاً عند البعثة كما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» ولكل منهما حكمة، فالأول وقع فيه من الزيادة كما عند مسلم من حديث أنس «فأخرج علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك» وكان هذا في زمن الطفولية فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما تقرر في شرعه ﷺ. ويحتمل أن تكون الحكمة في انفراج سقف بيته الإشارة إلى ما سيقع من شق صدره وأنه سيلتئم بغير معالجة يتضرر بها. وجميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحيته القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك.

● وقال ابن حبان ^(٢) - رحمه الله -:

حول معجزة شق صدر النبي ﷺ : ذلك فضيلة فضل بها على غيره، وأنه من معجزات النبوة، إذ البشر إذا شق عن موضع القلب منهم، ثم استخرج قلوبهم، ماتوا.



(١) فتح الباري (٢٤٤/٧).

(٢) صحيح ابن حبان (٢٤٤/١).

المبحث السادس: البراق وسيلة الإسراء بين مكة والقدس

• عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به ملجماً مسرجاً فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أبحمده تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه، قال: غارفض عرقاً^(١).

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: أتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس قال: فربطه بالحلقة التي يربط به الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام يأتاء من حمر وإتاء من لبن. فاخترت اللبن فقال جبريل عليه السلام: اخترت الفطرة^(٢).

• قال النووي^(٣): قال ابن دريد:

اشتقاق البراق من البرق إن شاء الله تعالى يعني لسرعته، وقيل سمي بذلك لشدة صفائه وتلألؤه وبريقه، وقيل لكونه أبيض.

• وفي ربط البراق الأخذ بالاحتياط في الأمور وتعاطي الأسباب وأن ذلك لا يقدر في التوكل إذا كان الاعتماد على الله تعالى. والله أعلم.

• ولم يكن الصعود على البراق كما قد يتوهم بعض الناس بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة وكان الصعود على المعراج الذي نصب له وهو السلم فصعد فيه إلى السماء.



(١) صحيح الإسناد: أخرجه الترمذي (٣١٣١) وأحمد (١٦٤/٣) وابن حبان (٤٦) وغيرهم.

(٢) رواه مسلم (١٦٢).

(٣) انظر شرح صحيح مسلم (٩٠٦/١).

المبحث السابع: أحداث ومشاهد في رحلة الإسراء والمعراج

المطلب الأول: رؤية النبي ﷺ لموسى عليه السلام في قبره يصلي:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال: ((مررت على موسى ليلة أسري بي عند الكتيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره))^(١).

• وللعلماء أقوال في هذا الحديث:

• قال ابن حبان^(٢) - رحمه الله تعالى -: الله جل وعلا قادر على ما يشاء، ربما يعد الشيء لوقت معلوم، ثم يقضى كون بعض ذلك الشيء قبل مجيء ذلك الوقت، كوعده إحياء الموتي يوم القيامة وجعله محدوداً، ثم قضى كون مثله في بعض الأحوال، مثل من ذكره الله وجعله الله جل وعلا في كتابه حيث يقول: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ٢٥٩].

وكإحياء الله جل وعلا لعيسى ابن مريم صلوات الله عليه بعض الأموات.

فلما صح وجود كون هذه الحالة في البشر، إذا أَرَادَهُ اللهُ جل وعلا قبل يوم القيامة، لم ينكر أن الله جل وعلا أحيا موسى في قبره حتى مر عليه المصطفى ﷺ ليلة أسرى به، وذاك أن قبر موسى بمدين بين المدينة وبين بيت المقدس، فرآه ﷺ : يدعو في قبره - إذ الصلاة دعاء- فلما دخل ﷺ بيت المقدس وأسرى به، أسرى بموسى حتى رآه في السماء السادسة، وجرى بينه وبينه من الكلام، وكذلك رؤيته سائر الأنبياء. انتهى.

• وقال السويدي^(٣) - رحمه الله - في العقد الثمين:

• أخرج أبو يعلى والبيهقي عن أنس أن النبي ﷺ قال: ((الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون))^(٤).

(١) رواه مسلم (٢٣٧٥) وغيره.

(٢) صحيح ابن حبان (٢٤٣/١).

(٣) العقد الثمين ص ١٦٣.

(٤) صحيح: أخرجه أبو يعلى (٣٤٢٥) وغيره. وانظر الصحيحة (٦٢١).

ثم ذكر حديث موسى السابق وهو قائم يصلي في قبره.

وقال: قال المناوي: وهو يصلي في قبره أي يدعو ويثني عليه ويذكره فالمراد الصلاة اللغوية وقيل المراد الشرعية وعليه القرطبي فقال الحديث بظاهره يدل على أنه رآه رؤية حقيقية في اليقظة وأنه حي في قبره يصلي الصلاة التي كان يصليها في الحياة وذلك ممكن ولا مانع من ذلك لأنه إلى الآن في الدنيا وهي دار تعبد فإن قيل كيف يصلون بعد الموت وليس تلك حالة تكليف قلنا: ذلك ليس بحكم التكليف بل بحكم الإكرام لهم والتشريف لأنهم حبيب لهم في الدنيا الصلاة فلزموها ثم توفوا وهم على ذلك فشرفوا بإبقاء ما كانوا يحبونه عليهم فتكون عبادتهم إلهامية كعبادة الملائكة لا تكليفية ويدل عليه خبر «يموت المؤمن على ما عاش عليه ويحشر على ما مات عليه»^(١).

ولا تدافع بين هذا وبين رؤيته إياه تلك الليلة في السماء لأن للأنبياء مراتع ومسارح يتصرفون فيما شاءوا ثم يرجعون أو لأن أرواح الأنبياء بعد مفارقة البدن في الرفيق الأعلى ولها إشراف على البدن وتعلق به يتمكنون من التصرف والتقرب بحيث يرد السلام على المسلم وبهذا التعلق رآه يصلي في قبره ورآه في السماء فلا يلزم كون موسى عرج به من قبره ثم رد إليه بل ذلك مقام روحه واستقراره إلى يوم معاد الأرواح كما أن نبينا بالرفيق الأعلى وبدنه في ضريحه يرد السلام على من يسلم عليه. انتهى مختصراً.

• وقال الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى -: (الصحيحة: ١٩٠/٢)

عن حياة الأنبياء في قبورهم إنما هي حياة برزخية، ليست من حياة الدنيا في شيء، ولذلك وجب الإيمان بها، دون ضرب الأمثال لها ومحاولة تكييفها وتشبيهها بما هو المعروف عندنا في حياة الدنيا. هذا هو الموقف الذي يجب أن يتخذه المؤمن في هذا الصدد: الإيمان بما جاء في الحديث دون الزيادة عليه بالأقيسة والآراء كما يفعل أهل البدع الذين وصل الأمر ببعضهم، إلى ادعاء أن حياته ﷺ في قبره حياة حقيقية. قال: يأكل ويشرب ويجماع نساءه. وإنما هي حياة برزخية لا يعلم حقيقتها إلا الله سبحانه وتعالى. انتهى.

المطلب الثاني: جبريل عليه السلام يعرض على النبي ﷺ إنائين من لبن وخمر فاختر اللب:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ ليلة أسرى به بقدرين من خمر ولبن، فنظر إليهما، ثم أخذ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: هديت الفطرة ولو

(١) أخرج نحوه مسلم (٢٨٧٨) وأحمد (٣٣١/٣-٣٤٦-٣٦٦) وغيرهما.

أخذت الخمر غوت أمتك^(١).

• قال الحافظ في الفتح^(٢):

قال ابن عبد البر: يحتمل أن يكون ﷺ نفر من الخمر لأنه تفرس أنها ستحرم لأنها كانت حينئذ مباحة، ولا مانع من افتراق مباهين مشتركين في أصل الإباحة في أن أحدهما سيحرم والآخر تستمر إباحته. قلت: ويحتمل أن يكون نفر منها لكونه لم يعتد شرها فوافق بطبعه ما سيقع من تحريمها بعد، حفظاً من الله تعالى له ورعاية، واختار اللبن لكونه مألوفاً له، سهلاً طيباً طاهراً، سائغاً للشاربين، سليم العاقبة، بخلاف الخمر في جميع ذلك. والمراد بالفطرة هنا الاستقامة على الدين الحق. وفي الحديث مشروعية الحمد عند حصول ما يحمد ودفع ما يحذر. انتهى.

• وقال النووي^(٣) - رحمه الله -:

وقوله (اخترت الفطرة) فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة ومعناه والله أعلم اخترت علامة الإسلام والاستقامة وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة وأما الخمر فلها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل. والله أعلم. انتهى.

المطلب الثالث: رؤية النبي ﷺ لعدد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والبيت المعمور، وسدرة المنتهى:

• جاء في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - رضي الله عنهما - وفيه قول النبي ﷺ: «فانطلقت مع جبريل، حتى أتينا السماء الدنيا، وقيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم الحجيء جاء. فأتيت على آدم فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن نبي وفي رواية: «فلما علونا السماء إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح.

(١) رواه البخاري (٥٥٧٦) وابن حبان (٥٢) وهو عند مسلم ضمن حديث الإسراء (١٦٢) (١٦٨) وغيرهم.

(٢) فتح الباري (٣٦/١٠).

(٣) شرح صحيح مسلم (٩٠٧/١).

قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسود عن يمينه وعن شماله نسمة بينه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى».

فأتينا السماء الثانية. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك. قال: محمد ﷺ، قيل: أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم الحجيء جاء فأتيت على عيسى، ويحيى، فقالا: مرحباً بك من أخ وني.

فأتينا السماء الثالثة. قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم الحجيء جاء. فأتيت على يوسف فسلمت، فقال: مرحباً بك من أخ وني.

فأتينا السماء الرابعة، قيل من هذا؟ قال: جبريل. قيل من معك؟ قيل محمد ﷺ. قيل وقد أرسل إليه؟ قال نعم قيل: مرحباً به ولنعم الحجيء جاء. فأتيت على إدريس فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من أخ وني.

فأتينا السماء الخامسة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل. قيل ومن معك؟ قيل: محمد. قيل وقد أرسل إليه؟ قال نعم. قيل مرحباً به ولنعم الحجيء جاء. فأتينا على هارون، فسلمت عليه. فقال: مرحباً بك من أخ وني.

فأتينا على السماء السادسة، قيل من هذا؟ قيل جبريل. قيل من معك؟ قيل محمد ﷺ. قيل: وقد أرسل إليه؟ مرحباً به، نعم الحجيء جاء. فأتيت على موسى فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من أخ وني. فلما تجاوزت بكى، فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي.

فأتينا السماء السابعة، قيل من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد قيل وقد أرسل إليه؟ مرحباً به ولنعم الحجيء جاء فأتيت على إبراهيم فسلمت عليه فقال: مرحباً بك من ابن وني. فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور، يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ذلك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم. ورفعت لي سدرة المنتهى، فإذا نبقتها كأنه فلال هجر، وورقها كأنه آذان الفيل، في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران فسألت جبريل فقال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران النيل والفرات....»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧-٣٣٤٢) ومسلم (١٦٤) وغيرهما.

• قال ابن حبان^(١) - رحمه الله -:

قوله: «وقد أرسل إليه؟» يريد به: وقد أرسل إليه ليُسرَى به إلى السماء. لا أنهم لم يعلموا برسالته إلى ذلك الوقت، لأن الإسراء كان بعد نزول الوحي بسبع سنين. ثم تكلم عن رؤيته للأنبياء فقال: إذ جاز أن الله جل وعلا أحياهم لأن يراهم المصطفى ﷺ تلك الليلة، فيكون ذلك آية معجزة يستدل بها على نبوته.

المطلب الرابع: رؤيته ﷺ مالك خازن النار والدجال:

• عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «رأيت ليلة أسرى بي موسى رجلاً طويلاً جعداً كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى رجلاً مربوعاً، مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس، ورأيت مالكا خازن النار، والدجال في آيات أراهن الله إياه، فلا تكن في مرية من لقائه، قال أنس وأبو بكر عن النبي ﷺ: تحرس الملائكة المدينة من الدجال»^(٢).

• عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما أسرى بالنبي ﷺ ... الحديث وفيه «ورأى الدجال في صورته رؤيا عين ليس رؤيا منام، وعيسى، وموسى، وإبراهيم، صنوات الله عليهم، فسل النبي ﷺ عن الدجال؟ فقال: أقمر^(٣) هيجان^(٤)، رأيت فيلانيا^(٥) أحر هجانا إحدى عينيه قائمة، كأنها كوكب دري كأن شعر رأسه أغصان شجرة، ورأيت عيسى شاباً أبيض. جعد الرأس، حديد البصر، مبطن^(٦) الخلق، ورأيت موسى أسحج^(٧) آدم، كثير الشعر، ونظرت إلى إبراهيم فلا أنظر إلى إرب^(٨) من آرابه، إلا نظرت إليه منى، كأنه صاحبكم، فقال جبريل عليه السلام: سلم على مالك، فسلمت عليه»^(٩).

(١) صحيح ابن حبان (٢٤٥/١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٩) ومسلم (١٦٥).

(٣) الأقمر: الشديد البياض.

(٤) الهجان: الأبيض.

(٥) الفيلاني: عظيم الجنة.

(٦) المطن: الضامر البطن.

(٧) الأسحج: الأسود وهو الآدم أيضاً.

(٨) إرب: عضو.

(٩) صحيح: رواه أحمد (٣٧٤/١) وأبو يعلى (٢٧٢٠) وغيرهما.

• قوله: «(آدم طوال كأنه من رجال شنوءة)» الأدمة يسير سواد يضرب إلى الحمرة وهو غالب ألوان العرب. وأزد شنوءة: حي من اليمن سموا شنوءة لشنوءتهم أي لتقرزهم وبعدهم عن الأقدار. يقال فيه شنوءة أي تقرز وبعد عن الأقدار. وقال ابن قتبية: سموا بذلك لأنهم تشانؤوا أي تباغضوا، وشبه بهم موسى عليه السلام - في كيفية الخلق.

• ووصف عيسى عليه السلام بالرجل المربع: هو الرجل ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقيق.

• وأما مالك خازن النار، فلقد رآه النبي ﷺ كما في حديث الرؤيا الذي في الصحيح^(١) وفيه «فأتينا على رجل كرية المراءى كأكره ما أنت راء رجلاً مرآة، وإذا عندها نار يحشها ويسعى حولها» فسأل عنه النبي ﷺ ف قيل له: إنه مالك خازن جهنم.

• قال الحافظ ابن حجر^(٢):

إنما كان كرية الرؤية لأنه في ذلك زيادة في عذاب أهل النار.

• قال السهيلي: إن رسول الله ﷺ لم ير مالك خازن النار على صورته التي يراه عليها المعذبون في الآخرة ولو رآه عليها لم يستطع أن ينظر إليه.

• أما الدجال فهو من علامات الساعة الكبرى حيث يخرج من جهة المشرق، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلداً إلا دخله، إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما، لأن الملائكة تحرسهما.

وفتنة الدجال أعظم الفتن منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة، وذلك بسبب ما يخلق الله معه من الخوارق العظيمة التي تبهر العقول، وتحير الألباب.

فقد ورد أن معه جنة ونار، وجنته نار، وناره جنة، وأن معه أنهار الماء، وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وهو أعور العين اليسرى، ويطوف الأرض في أربعين يوماً يوماً كسنة ويوم كشهر ويوم كأسبوع وباقي أيامه كأيامنا هذه، ويُعطيه الله من الخوارق العظيمة ما شاء ومكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤه كل مؤمن، إلى غير ذلك من صفاته، ويكون هلاك الدجال على يدي المسيح عيسى ابن

(١) أخرجه البخاري (٧٠٤٧).

(٢) فتح الباري (٤٦٥/١٢).

مريم عليه السلام. (وللمزيد راجع كتاب أشراف الساعة. للمؤلف).

المطلب الخامس: رؤية النبي ﷺ للذين يفتابون الناس:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(لما عرج بي ربي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم)»^(١).

وفي الحديث: سوء منظر الذين يفتابون الناس في الدنيا، وأنهم يعذبون أنفسهم يوم القيامة وفيه حرمة أعراض المسلمين.

المطلب السادس: رؤية النبي ﷺ صورة خطباء الأمة الذين يقولون ما لا

يفعلون:

• عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «(مررت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار. قال: قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون)»^(٢).

• اعلم أن التحقيق في هذا الوعيد الشديد: ليس على الأمر بالمعروف وإنما هو على ارتكابه المنكر علماً بذلك، فالحق أن الأمر بالمعروف غير ساقط عن صالح ولا طالح والوعيد على المعصية لا على الأمر بالمعروف، لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير ولقد أجاد من قال:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم
وقال آخر:

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طيب يداوى الناس وهو مريض

• وقال بعض السلف: إذا أردت أن يقبل منك الأمر والنهي: فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له المؤتمرين به، وإذا نهيت عن شيء فكن أول المنتهين عنه.

• ولأن الخطباء هم القدوة والأسوة، يأمرون الناس بالمعروف، وينهونهم عن المنكر،

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٢٤/٣) وأبو داد (٤٨٧٨-٤٨٧٩) وغيرهما، وانظر الصحيحة (٥٣٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٢٠/٣) وأبو يعلى (٣٩٩٢-٣٩٩٦-٤٠٦٩-٤١٦٠) وغيرهما.

وهم في أعين معظم الناس مقياس الفضائل والالتزام بالأخلاق، فإذا ما انفصلت كلماتهم عن مواقفهم سقطت هيبتهم، وأصبحوا شماعيات يعلق عليها المفسدون إفسادهم، ويررون بها سلوكهم.

المطلب السابع: مروره ﷺ على رائحة طيبة رائحة ماشطة ابنة فرعون:

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كانت الليلة التي أسرى بي فيها، أتت عليَّ رائحة طيبة فقال: هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها. قال: قلت وما شأنها؟ قال: بينا هي تمشط ابنة فرعون ذات يوم، إذ سقطت المذرى من يدها، فقالت: بسم الله: فقالت لها ابنة فرعون: أي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك الله. قالت أخبره بذلك، قالت: نعم. فأخبرته فدعاها، فقال: يا فلانة، وإن لك رباً غيبي؟ قالت: نعم، ربي وربك الله. فأمر ببقرة من نحاس فأحيت، ثم أمر بها أن تلقى هي وأولادها فيها، قالت له: إن لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد، وتدفنا قال: ذلك لك علينا من الحق، قال: فأمر بأولادها فألقوا بين يديها، واحداً واحداً إلى أن انتهى ذلك إلى صبي لها مرضع، كأنها تقاعست من أجله، قال: يا أمه، اقتحمي، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فافتحمت»^(١).

المطلب الثامن: دخوله ﷺ الجنة فسمع صوت بلال ﷺ ونظر إلى النار فرأى عاقر الناقة وصلى بالأنبياء في المسجد الأقصى:

عن ابن عباس رضي الله عنهما - قال: ليلة أسرى برسول الله ﷺ دخل الجنة، فسمع في جانبها وجساً (الوجس: الصوت الخفى) فقال: «يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا بلال المؤذن، فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا.... ونظر في النار فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحم الناس، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: من هذا يا جبريل؟ قال هذا عاقر الناقة. قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلي فالتفت ثم التفت فإذا النبيون أجمعون يصلون معه... الحديث»^(٢).

(١) حسن: رواه أحمد (٣٠٩/١).

(٢) الحديث بتمامه أخرجه أحمد (٢٥٧/١) وصححه إسناده ابن كثير في التفسير، والسيوطي في الدر المنثور.

وفي حديث أبي ذر عن الإسراء وفيه قوله ﷺ: «ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا تراها المسك»^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قد رأيته في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي، فإذا رجل ضرب جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم عليه السلام قائم يصلي أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي، أشبه الناس به صاحبكم (يعني نفسه) فحانت الصلاة فأمتهم»^(٢).

• قال النووي - رحمه الله تعالى -: في شرح صحيح مسلم (٩٤٦/١):

يحمل أنه ﷺ رأى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وصلى بهم على تلك الحال لأول ما رآهم ثم سألوهم ورحبوا به أو يكون اجتماعهم بهم وصلاته ورؤيته موسى بعد انصرافه ورجوعه عن سدره المنتهى. والله أعلم.

المطلب التاسع: فرضية الصلاة ليلة الإسراء والمعراج:

جاء في حديث الإسراء عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة - رضي الله عنهما - وفيه قوله ﷺ: «ثم فرضت على خمسون، فأقبلت حتى جئت موسى فقال: ما صنعت؟ قلت فرضت على خمسون صلاة قال: أنا أعلم بالناس منك، عاجلت بني إسرائيل أشد المعالجة، وإن أمتك لا تطيق، فارجع إلى ربك فسله. فرجعت فسألته، فجعلها أربعين، ثم مثله ثم ثلاثين، ثم مثله فجعل عشرين ثم مثله فجعل عشرة، فأتيته موسى فقال: ما صنعت؟ قلت جعلها خمسا. فقال: «أي إن أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى عليه السلام حتى قال: يا محمد، إنهن خمس كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا فإن عملها كتبت سيئة واحدة» (وفي رواية: فأعطى رسول الله ﷺ ثلاثاً: أعطى الصلوات الخمس، وأعطى خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً).

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢) ومسلم (١٦٣).

(٢) الحديث بتمامه: أخرجه مسلم (١٧٢).

المقحمات»^(١) قال: فنزلت حتى انتهيت إلى موسى ﷺ فأخبرته: فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه، لكنني أَرْضَى وأَسْلَم، فلما جاوزت، ناداني مناد: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»^(٢).

• قال الحافظ ابن حجر^(٣) - رحمه الله -:

والحكمة في وقوع فرض الصلاة ليلة المعراج أنه لما قدس ظاهرًا وباطنًا حين غسل بماء زمزم بالإيمان والحكمة، ومن شأن الصلاة أن يتقدمها الطهور ناسب ذلك أن تفرض الصلاة في تلك الحالة، وليظهر شرفه في الملأ الأعلى، ويصلى بمن سكنه من الأنبياء وبالملائكة، وليناجي ربه، ومن ثم كان المصلي يناجي ربه جلا وعلا.

• وقال ابن حبان^(٤) - رحمه الله -:

ثم فرض عليه خمسون صلاة، وهذا أمر ابتلاء أراد الله جل وعلا ابتلاء صفية محمد ﷺ حيث فرض عليه خمسين صلاة، إذ كان في علم الله السابق أنه لا يفرض على أمته إلا خمس صلوات فقط، فأمره بخمسين صلاة أمر ابتلاء، وهذا كما نقول: إن الله جل وعلا قد يأمر بالأمر يريد أن يأتي المأمور به إلى أمره من غير أن يريد وجود كونه، كما أمر الله جل وعلا خليله إبراهيم بذبح ابنه، أمره بهذا الأمر، أراد به الانتهاء إلى أمره دون وجود كونه، فلما أسلما، وتله للجبين، فداه بالذبح العظيم، إذ لو أراد الله جل وعلا كون ما أمر، لوجد ابنه مذبحًا، فكذلك فرض الصلاة خمسين أراد به الانتهاء إلى أمره دون وجود كونه، فلما رجع إلى موسى أخبره أنه أمر بخمسين صلاة كل يوم، ألهم الله موسى أن يسأل محمدًا صلى الله عليه وسلم بسؤال ربه التخفيف لأتمته، فجعل جل وعلا قول موسى عليه السلام له سببًا لبيان الوجود لصحة ما قلنا: إن الفرض من الله على عباده أراد إتيانه خمسًا لا خمسين، فرجع إلى الله جل وعلا، فسأله، فوضع عنه عشرًا، وهذا أيضًا أمر ابتلاء أريد به الانتهاء إليه دون وجود كونه، ثم جعل سؤال موسى عليه السلام إياه سببًا

(١) المقحمات: هي الذنوب العظام الكبائر التي تمكك أصحابها وتوردهم النار، والمعنى أنه لا يخلد في النار بخلاف المشركين.

(٢) رواه البخاري (٣٢٠٧-٣٣٤٢) ومسلم (١٦٢-١٧٣) وابن حبان (٤٨) وغيرهم.

(٣) فتح الباري (١/٥٤٨).

(٤) صحيح ابن حبان (١/٢٤٥).

لنفاذ قضاء الله جل وعلا في سابق علمه، أن الصلاة تفرض على هذه الأمة خمسًا لا خمسين حتى رجع في التخفيف إلى خمس صلوات. ثم ألهم الله جل وعلا صفية ﷺ حينئذ حتى قال لموسى: قد سألت ربي حتى استحييت، لكنني أَرْضَى وأَسْلَم، فلما جاوز ناداه مناد: أمضيت فريضتي، أراد به الخمس صلوات، وخففت عن عبادي، يريد: عن عبادي من أمر الابتلاء الذي أمرهم به من خمسين صلاة التي ذكرناها. انتهى.



البحث الثامن: تكذيب كفار قريش للإسراء والعراج

● عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى بي، وأصبحت بمكة، فظعت بأمرى، وعرفت أن الناس مكذبي» فقعد معتزلاً حزناً، قال: فمر به عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» قال: ما هو؟ قال: «إنه أسرى بي الليلة» قال: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: «نعم» قال: فلم يره أنه يكذبه، مخافة إن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه، قال: أرأيت إن دعوت قومك يحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤى. حتى قال: فانتفضت إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما، قال: حَدَّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: «إني أسرى بي الليلة» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرائنا؟ قال: «نعم» قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه، متعجباً للكذب زعماء! قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟ وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد، ورأى المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «فذهبت أنعت فما زلت أنعت حتى التبس على بعض النعت» قال: «فجئىء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقيل - أو عقيل - فنتعته، وأنا أنظر إليه» قال: «وكان مع هذا نعت لم أحفظه» قال: «فقال القوم: أما النعت، فوالله لقد أصاب»^(١).

● عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «لما كذبتني قريش قمت في الحجر فجلأ الله لي بيت المقدس فطفت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»^(٢).

● عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما أسرى بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته، فحدثهم بمسيره، وبعلامة بيت المقدس، وبغيرهم، فقال ناس: نحن نصدق محمداً بما يقول؟ فارتدوا كفاراً، فضرب الله أعناقهم مع أبي جهل، وقال أبو جهل: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم! هاتوا تمرًا وزبدا فتزقموا^(٣).

(١) صحيح: رواه أحمد (٣٠٩/١).

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٦-٤٧١٠) ومسلم (١٧٠) وغيرهما.

(٣) إسناده صحيح: رواه أحمد (٣٧٤/١) وغيره.

● وفي حديث شداد بن أوس في الإسراء وفي آخره فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبي كبشة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! قال: «نعم وقد مررت على بعير لكم بمكان كذا قد أضلوا بعيراً لهم بمكان كذا وكذا وأنا مسيرهم لكم ينزلون بكذا ثم يأتونكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل آدم عليه مسح أسود وغرارتان سوداوتان» فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون حتى كان قريباً من نصف النهار أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل كالذي وصف رسول الله ﷺ^(١).



(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣٥٥-٣٥٧) والبخاري في مسنده (٣٤٨٤/٨) والطبراني في الكبير (٧١٤٢/٧)، قال البيهقي: وهذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقا في أحاديث غيره.

وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٣/١) رواه البخاري والطبراني في الكبير، وفيه إسحاق بن إبراهيم ابن العلاء وثقه يحيى بن معين وضعفه النسائي.

وقال ابن كثير عن الحديث بتمامه: مشتمل على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقي ومنها ما هو منكر.

المبحث التاسع: هل رأى النبي ﷺ ربه بعينه ليلة

الإسراء والمعراج؟

- لقد اختلف بعض السلف في هذه الرؤية فمنهم من قال رآه بعين رأسه ومنهم من قال لم يره ومنهم من توقف في المسألة.
- والأصح أنه لم يره بعين رأسه، ولكن رآه بفؤاده مرتين كما في صحيح مسلم^(١) عن ابن عباس.
- وقالت عائشة - رضي الله عنها -: «من حدث أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد كذب» (وفي رواية: من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية)^(٢).
- وقوله ﷺ لما سأله أبو ذر هل رأيت ربك: فقال ﷺ «نور أئني أراه» (وفي رواية: «رأيت نوراً»)^(٣).

● قال الإمام أبو عبد الله المازري - رحمه الله:

الضمير في «أراه» عائد على الله سبحانه وتعالى ومعناه أن النور منيعني من الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعه من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه^(٤).

● والمعنى حجاب النور فكيف أراه. والتحقيق الذي لا شك فيه هو أن معنى الحديث: هو ما ذكر من كونه لا يتمكن أحد من رؤيته لقوة النور الذي هو حجاب ومن أصرح الأدلة على ذلك حديث أبي موسى وفيه: «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٥) وهذا هو معنى قوله ﷺ «نور أئني أراه».

● واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينه. فهي ممتنعة شرعاً في الدنيا.

قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(١) مسلم (١٧٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧٥٥) ومسلم (١٧٧).

(٣) رواه مسلم (١٧٨).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٩٦٣/١).

(٥) رواه مسلم (١٧٩).

فماذا كان الجواب ﴿قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعْقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

● وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا لا لامتناع الرؤية، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقوا رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبيل «خر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين» بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده^(١).

● ومن أصرح الأدلة على ذلك الحديث صحيح.

﴿إِنكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا﴾^(٢).

● وقال الحافظ في الفتح (٤٧٤/٨):

يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفى عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب. ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم، لأنه ﷺ كان عالماً بالله على الدوام. بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق الرؤية بالعين لغيره، والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلا، ولو جرت العادة بخلقها في العين.



(١) راجع شرح العقيدة الطحاوية (٢٢٠/١).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٣٢٤/٥) وابن أبي عاصم في السنة (٤٢٨-٤٣٠) وقال الشيخ الألباني «إسناده صحيح».

البحث العاشر: كلمة جامعة حول الإسراء والمعراج

• قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره^(١):

والحق أنه - عليه الصلاة والسلام - أسرى به يقظة لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق، فلما انتهى إلى (بيت المقدس) باب المسجد ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى المعراج - وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها - فصعد فيه إلى السماء الدنيا ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقيه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء الذين في السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة، وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز فنزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدره المنتهى، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، له ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور، وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسنداً ظهره إليه، لأن الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس، رحمة منه ولطفاً بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم أنه أمهم في السماء، والذي تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن في بعضها أنه كان أول دخوله إليه، والظاهر أنه بعد رجوعه إليه، لأنه لما مر بهم في منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً، وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق، لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوي، ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء الله تعالى، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، والله سبحانه وتعالى. أعلم.



الفصل الثاني والثلاثون: قصة حادثة الإفك

البحث الأول: ذكر الحادثة في الكتاب والسنة

• قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ * لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ١١-٢٠].

أخرج البخاري ومسلم^(١) من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سرفراً، أقرع بين نسائه، فأتيهن خرج سهمها، خرج بها رسول الله ﷺ معه.

قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي، وأنزل فيه، مسيرنا، حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوه، وقفل، ودنونا من المدينة، أذن ليلة بالرحيل^(٢)، فقامت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار^(٣) قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه،

(١) البخاري (حديث ٤٧٥٠) ومسلم (حديث ٢٧٧٠) واللفظ له.

ذكر النووي رحمه الله من حاشية مسلم بترتيب محمد فؤاد، معاني هذه المفردات.

(٢) (آذن ليلة بالرحيل) روى بالمد وتخفيف الذال، وبالقصر وتشديدها، أي أعلم.

(٣) (عقدي من جزع ظفار) العقد نحو القلادة، والجزع خرز يمانى وظفار، مبنية على الكسر، تقول:

وأقبل الرهط^(١) الذين كانوا يرحلون لي^(٢) فحملوا هودجي^(٣)، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أنني فيه.

قالت: وكانت النساء إذ ذاك خفافاً، لم يَهْلُن^(٤) ولم يَعْشَهَنَّ اللحم، إنما يأكلن العُلُقَةَ^(٥) من الطعام، فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجننت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيمنت منزلي^(٦) الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة، في منزلي غلبتني عيني فمتمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي، ثم الذكواني، قد عرس^(٧) من وراء الجيش فأدلى^(٨). فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان^(٩) نائم فأتاني فعرفني حين رأيته، وقد كان يراني قبل أن يضرب الحجاب على، فاستيقظت باسترجاعه^(١٠) حين عرفني، فخمرت وجهي^(١١) بجلبابي، ووالله ما يكلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش، بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة^(١٢)، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره^(١٣) عبد الله بن أبي بن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكت، حين قدمنا المدينة، شهراً،

هذه ظفار ودخلت ظفار وإلى ظفار، بكسر الراء بلا تنوين في الأحوال كلها، وهي قرية باليمن.

- (١) الرهط: هم جماعة دون العشرة.
- (٢) يرحلون لي: هكذا وقع في أكثر النسخ: يرحلون لي، باللام، وفي بعض النسخ: بي، بالباء. واللام أجود، ويرحلون أي يجعلون الرحل على البعير، وهو معنى قولها فرحلوه.
- (٣) هودجي: الهودج مركب من مراكب النساء.
- (٤) لم يَهْلُن: ضبطوه على أوجه: أشهرها ضم الياء وفتح الهاء والياء المشددة، أي يتقلن باللحم والشحم. قال أهل اللغة: يقال هبله اللحم وأهبله إذا أثقله وكثر لحمه وشحمه.
- (٥) العُلُقَة: أي القليل، ويقال لها أيضاً: البلغة.
- (٦) فتيمنت منزلي: أي قصدته.
- (٧) قد عرس: التعريس نزول آخر الليل في السفر لنوم أو استراحة، وقال أبو زيد: هو النزول أي وقت كان، والمشهور الأول.
- (٨) فادلى: الإدلاج هو السير آخر الليل.
- (٩) فرأى سواد إنسان: أي شخصه.
- (١٠) فاستيقظت باسترجاعه: أي انتبهت من نومي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.
- (١١) فخمرت وجهي: أي غطيته.
- (١٢) موغرين في نحر الظهيرة: الوغر النازل في وقت الوغرة، وهي شدة الحر، ونحر الظهيرة وقت القائلة وشدة الحر.
- (١٣) تولى كبره: أي معظمه.

والناس فيفيضون في قول أهل الإفك^(١)، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني^(٢)، في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف^(٣) الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: «كيف تيكَم^(٤)؟» فذاك يرييني، ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت^(٥) وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع^(٦)، وهو متبرزنا، ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف^(٧) قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول^(٨) في التنزه^(٩)، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر، خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثانة بن عباد بن المطلب، فأقبلت أنا وبنت أبي رهم قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها^(١٠)، فقالت: تعس^(١١) مسطح، فقلت لها: بشس ما قلت، أتسبين رجلاً قد شهد بدرًا، قالت: أي هنتاه^(١٢) أو لم تسمعي ما قال؟ قلت: وماذا قال؟ قالت:

- (١) فيفيضون في قول أهل الإفك: أي يخوضون فيه، والإفك، بكسر الهمزة وإسكان الفاء، هذا هو المشهور، وحكى القاضي فتحتها جميعاً، قال: هما لغتان كنجس ونجس، وهو الكذب.
- (٢) يرييني: بفتح أوله وضمه، يقال: رابه وأرابه، إذا أوهمه وشككه.
- (٣) اللطف: بضم اللام وإسكان الطاء، ويقال بفتحهما معاً، لغتان. وهو البر والرفق.
- (٤) كيف تيكَم: هي إشارة إلى المؤنثة، كذلككم، في المذكر.
- (٥) نقهت: بفتح القاف وكسرها، لغتان، حكاها الجوهري في الصحاح، وغيره، والفتح أشهر، واقتصر عليه جماعة، يقال: نقه ينقه نقوها فهو ناقه، ككلج يكلج كلوحا فهو كالح، ونقه ينقه نقها فهو ناقه كفرح يفرح فرحاً، والجمع نُقه، والناقه هو الذي أفاق من المرض وبرأ منه، وهو قريب عهد به، لم يتراجع إليه كمال صحته.
- (٦) المناصع: هي مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها.
- (٧) الكنف: هي جمع كنيف، قال أهل اللغة: الكنيف السائر مطلقاً.
- (٨) الأول: ضبطوا الأول بوجهين: أحدهما: ضم الهمزة وتخفيف الواو، والثاني: الأول، بفتح الهمزة وتشديد الواو، وكلاهما صحيح.
- (٩) التنزه: هو طلب النزاهة بالخروج إلى الصحراء.
- (١٠) في مرطها: المرط كساء من صوف، وقد يكون من غيره.
- (١١) تعس: بفتح العين وكسرها، لغتان مشهورتان، واقتصر الجوهري على الفتح، والقاضي على الكسر، ورجح بعضهم الكسر، وبعضهم الفتح، ومعناه عثر، وقيل: هلك، وقيل: لزمه الشر، وقيل: بعد، وقيل: سقط بوجهه خاصة.
- (١٢) أي هنتاه: قال صاحب نهاية الغريب: وتضم الهاء الأخيرة وتسكن، ويقال في التثنية: هنتان، وفي الجمع: هنات وهنات، وفي المذكر: هن وهنان وهنون، ولك أن تلحقها الهاء لبيان الحركة، تقول ياهنة، وأن تشيع حركة النون فتصير ألفا فتقول: يا هناه، ولك ضم الهاء فتقول: يا هنأه أقبل، قالوا:

فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضى، فلما رجعت إلى بيتي، فدخل علي رسول الله ﷺ، فسلم ثم قال: «كيف تيكمن؟» قلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ما يتحدث الناس؟ فقالت: يا بنية! هوني عليك فوالله! لقلما كانت امرأة قط وضيئة^(١) عند رجل يحبها، ولها ضرائر^(٢)، إلا كثرن عليها^(٣)، قالت قلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ^(٤) لي دمع ولا أكتحل بنوم^(٥)، ثم أصبحت أبكي، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحي^(٦)، يستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار علي رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيّق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «(أي بريرة) هل رأيت من شيء - يريك من عائشة؟ قالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه^(٧) عليها، أكثر من أنما جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن^(٨) فتأكله، قالت فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فاستعذر^(٩) من عبد الله بن أبي بن سلول، قالت فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «(يا معشر المسلمين! من يعذري من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله! ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما

= وهذه اللفظة تختص بالنداء، ومعناه يا هذه. وقيل: يا امرأة، وقيل: يا بلهاء، كأنما نسبت إلى قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم.

- (١) وضيئة: هي الجميلة الحسنة، والوضاءة الحسن.
- (٢) ضرائر: جمع ضرة، وزوجات الرجل ضرائر، لأن كل واحدة تنضرر بالأخرى، بالغيرة والقسم وغيره، والاسم منه الضّر، بكسر الضاد، وحكي ضمها.
- (٣) كثرن عليها: أي أكثرن القول في عيبها ونقصها.
- (٤) لا يرقأ: أي لا ينقطع.
- (٥) ولا أكتحل بنوم: أي لا أنام.
- (٦) استلبت الوحي: أي أبطأ ولبث ولم ينزل.
- (٧) أغمصه: أي أعيبها به.
- (٨) الداجن: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعى، ومعنى هذا الكلام أنه ليس فيها شيء مما تسألون عنه أصلاً ولا فيها شيء من غيره، إلا نومها عن العجين.
- (٩) استعذر: معناه أنه قال: من يعذري فيمن آذاني في أهلي، كما بينه في هذا الحديث، ومعنى من يعذري: من يقوم بعذري إن كافأته على قبيح فعاله ولا يلمني، وقيل معناه من ينصري، والعذير الناصر.

علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي» فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: أنا أعذكرك منه^(١)، يا رسول الله! إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عباد، وهو سيد الخزرج، وكان رجلاً صالحاً، ولكن اجتهلته الحمية^(٢)، فقال لسعد بن معاذ: كذبت. لعمر الله! لا تقتله ولا تقدر على قتله. فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عباد: كذبت، لعمر الله! لنقتله، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فثار الحيان الأوس والخزرج^(٣)، حتى هوا أن يقتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يحفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: وبكيت يومي ذلك، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم بكيت ليلتي المقبلة. لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. وأبوي يظنان أن البكاء فالتق كيدي، فبينما هما جالسان عندي، وأنا أبكي، استأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ، فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل لي ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأن بشيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال: «(أما بعد يا عائشة! فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك

(١) أنا أعذكرك منه: قال القاضي عياض: هذا مشكل لم يتكلم فيه أحد، وهو قولها: فقام سعد بن معاذ فقال: أنا أعذكرك منه، وكانت هذه القصة في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق، سنة ست. فيما ذكره ابن إسحاق.

ومعلوم أن سعد بن معاذ مات إثر غزوة الخندق، من الرمية التي أصابته، وذلك سنة أربع بإجماع أصحاب السير، إلا شيئاً قاله الواقدي وحده.

قال القاضي: قال بعض شيوخنا: ذكر سعد بن معاذ، في هذا، وهم، والأشبه أنه غيره، ولهذا لم يذكره ابن إسحاق في السير، وإنما قال: إن المتكلم أولاً وآخرأ أسيد بن حضير، قال القاضي: وقد ذكر موسى بن عقبة أن غزوة المريسيع كانت سنة أربع، وهي سنة الخندق، وقد ذكر البخاري اختلاف ابن إسحاق وابن عقبة.

قال القاضي: فيحتمل أن غزوة المريسيع وحديث الإفك كانا في سنة أربع قبل قصة الخندق. قال القاضي: وقد ذكر الطبري عن الواقدي أن المريسيع كانت سنة خمس، قال: وكانت الخندق وقرينة بعدها. وذكر القاضي إسماعيل الخلاف في ذلك، وقال: الأولى أن يكون المريسيع قبل الخندق.

قال القاضي: وهذا لذكر سعد في قصة الإفك، وكانت في المريسيع، فعلى هذا يستقيم فيه ذكر سعد ابن معاذ، وهو الذي في الصحيحين، وقول غير ابن إسحاق، في غير وقت المريسيع، أصح. هذا كلام القاضي، وهو صحيح.

(٢) اجتهلته الحمية: هكذا هو هنا لمعظم رواة «صحيح مسلم»، «اجتهلته»، بالجيم والهاء، أي خفته وأغصته وحمته على الجهل.

(٣) فثار الحيان الأوس والخزرج: أي تناهضوا للنزاع والعصية.

الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله^(١) وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه» قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي^(٢) حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال، فقال: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجبني عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله! ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني، والله! لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا حتى استقرت في نفوسكم وصدقتكم به، فإن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أي بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أي بريئة، لتصدقوني، وإني، والله! ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون).

قالت: ثم تحولت فاضجعت على فراشي، قالت: وأنا، والله حينئذ أعلم أي بريئة، وأن الله مبرئي براءتي، ولكن، والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحى يتلى، ولشأنى كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله عز وجل في بأمر يتلى، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، قالت: فوالله ما رام^(٣) رسول الله ﷺ مجلسه، ولا خرج من أهل البيت أحد، حتى أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء^(٤) عند الوحي، حتى إنه ليتحدر^(٥) منه مثل الجمان^(٦) من العرق، في اليوم الشات، من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سرى^(٧) عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة! أما الله فقد برأك»، فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله! لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي، قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: ١١]. عشر آيات، فأنزل الله عز وجل هؤلاء الآيات براءتي، قالت: فقال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ﴾^(٨)

(١) وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله: معناه إن كنت فعلت ذنباً، وليس ذلك لك بعادة، وهذا أصل اللطم.

(٢) قلص دمعي: أي ارتفع لاستعظام ما يعينني من الكلام.

(٣) ما رام: أي ما فارق.

(٤) البرحاء: هي الشدة.

(٥) ليتحدر: أي ليتصب.

(٦) الجمان: الدر، شبهت قطرات عرقه ﷺ بحبات اللؤلؤ، في الصفاء والحسن.

(٧) فلما سرى: أي كشف وأزيل.

(٨) ولا يأتل أولو الفضل: أي لا يخلفوا، والآلية اليمين.

مِّنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢-٢٣].

قال حبان بن موسى: قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله.

فقال أبو بكر: والله! إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش، زوج النبي ﷺ عن أمري: «ما علمت؟ أو ما رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري^(١). والله ما علمت إلا خيراً.

قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني^(٢) من أزواج النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع. وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها^(٣). فهلكت فيمن هلك.

● **الإفك:** أشد الكذب - أسوأ الكذب - الكذب والافتراء والبهتان والمراد به هنا الفرية التي رُميت بها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - . وقيل أيضاً في تعريف الإفك: الكذب الذي يتحير الشخص من شدته، والبهتان الذي لا تشعر به حتى يفجأك.

هذا الإفك هو رمي أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بالفاحشة، والذي، تولى كبره هو عبد الله بن أبي بن سلول، وذلك لما ورد في الصحيحين^(٤) من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: وكان الذي تولى كبره (أي بدأ بالخوض فيه ونشره) عبد الله بن أبي بن سلول. وهذا هو رأى أكثر أهل العلم.

ومن العلماء من ذهب إلى أن الذي تولى كبره هو حسان بن ثابت رضي الله عنه، وهذا قول ضعيف، لكن من حجج قائله ما أخرجه البخاري^(٥) في صحيحه من طريق مسروق قال: دخل حسان بن ثابت على عائشة فشَبَّ وقال: حصان^(٦) رزان^(٧) ما تُزْنُ^(٨) بريئة وتصبح

(١) أحمي سمعي وبصري: أي أصون سمعي وبصري من أن أقول سمعت ولم أسمع، وأبصرت ولم أبصر.

(٢) وهي التي كانت تساميني: أي تفاخرن وتضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي ﷺ، وهي مفاعلة من السمو، وهو الارتفاع.

(٣) وطفقت أختها تحارب لها: أي جعلت تتعصب لها فتحكى ما يقوله أهل الإفك.

(٤) سبق قريباً.

(٥) البخاري (حديث ٤٧٥٦).

(٦) حصان أي عفيفة ممتعة من الرجال.

(٧) رزان أي رزينة.

(٨) تُزْنُ: تُرْمَى.

غرثي^(١) من لحوم الغوافل^(٢) قالت عائشة: لست كذاك، قلت: تدعين مثل هذا يدخل عليك وقد أنزل الله: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١]. فقالت: وأي عذاب أشد من العمى، وقالت: وقد كَانَ يُرَدُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ولكن ما ذكر عن عائشة أن الذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول أصرح مما ذكر في رواية مسروق من أن الذي تولى كبره هو حسان بن ثابت.

ولعل مسروقاً يريد الآية بتمامها، وأن حسان من الذين جاءوا بالإفك وشاركوا في نشره. أو يقال إن مسروقاً لم يشهد الذي حدث إذ هو تابعي لم يشهد القصة وإنما أقرته عائشة على أن حسان شارك في نشر الإفك ولم ترد أنه هو الذي تولى كبره.

قال الطبري^(٣) رحمه الله تعالى:

وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: الذي تولى كبره من عصبة الإفك كان عبد الله بن أبي، وذلك أنه لا خلاف بين أهل العلم بالسير أنه الذي بدأ بذكر الإفك، وكان يجمع أهله ويحدثهم عبد الله ابن أبي بن سلول، وفعله ذلك على ما وصفت كان توليه كبر ذلك الأمر. والله أعلم.

● ومن ساهم في نشر هذا الإفك وبثه، عبد الله بن أبي بن سلول، وهو الذي تولى كبره كما قدمنا، ومنهم حسان بن ثابت ومسطح بن أثانة وحمنة بنت جحش، كما ورد في حديث عائشة - رضي الله عنها - في قصة الإفك وثم آخرون فقد ذكر الله سبحانه وتعالى أنهم عصبة. ● قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١].

الخطاب لرسول الله ﷺ ولآل أبي بكر الصديق ولكل المؤمنين الذين ساءهم هذا التصرف وفائدته أنه يحمل معنى التسلية والتصبير للمؤمن، بل وزيادة تكرمهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. ومن وجوه الخير في هذا الإفك ما يلي:

أولاً: أن من رُمي بهذا الإفك قد اكتسب ثواباً عظيماً لكونه ابتلى وظلم فصير وعفا، ومن صبر على البلاء فهو مأجور ومن عفا فهو من الحسنين الذين ادخرت أجورهم عند الله ثم هذا الذي رُمي بهذا الإفك، وهو عائشة وصفوان - رضي الله عنهما - يأخذان من أجور

(١) جائعة فارغة البطن لكونها لم تأكل لحم إخوانها الأموات باغتيالهم.

(٢) الغوافل: جمع غافلة وهي الغففة الغافلة عن الشر.

(٣) تفسير الطبري (٢٧٨/٩).

وحسان من رماهما وقذفهما وطعن في عرضهما، فالمظلوم يأخذ من حسنات ظالمه كما في حديث المفلس الذي يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام وحج ويأتي قد شتم هذا وضرب هذا وأكل مال هذا.. فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار^(١).

وأيضاً فخطايا من رُمي ومن ابتلي فصير تُكفر ويغفرها الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: كل من أهما أمر رسول الله ﷺ وأمر نساءه وأمر المؤمنين وأحزنه فإنه مأجور فالهم الذي يصيب المؤمن يؤثر عليه المؤمن.

ثالثاً: في الحن يظهر الحب من المبغض والصديق من العدو فيعرف المؤمنون الحب لهم والمبغض والصديق والعدو.

رابعاً: إظهار عفة أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - وبيان فضلها وبيان براءة حرم النبي ﷺ، وذلك في قرآن يتلى في المحارب، ويحفظ في الصدور، وتعمر به قلوب أهل الإيمان.

خامساً: تأديب المؤمنين وتعليمهم إذا حدثت لهم مثل هذه الأحداث، وبيان كيفية التصرف في مثل هذه المواطن.



وعلمنا نحن البشر قاصراً؛ فقد نرى الخير في شيء ويكون هذا الشيء يحمل كل الشر، وقد نرى في شيء ما شراً ويكون فيه كل خير، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقوله تعالى في شأن النساء: ﴿فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَظْمُونَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرَكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ قال: «تدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: «إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرح عليه. ثم طرح في النار».

خَيْرٌ لَّكُمْ» [النور: ١١].

وها هو الخضر يخرق السفينة، ويقتل الغلام، ويقيم الجدار في قرية البخلاء، وهذا شيء مستنكر في الظاهر ولكنه كله خير، ويقول الخضر لموسى وهو يعلمه: (ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفورة بمنقاره من البحر)^(١).

وأخيراً أذكر بهذا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «(لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة...)» فذكر الحديث وفيه: «(وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة^(٣) وشارة^(٤) حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه، فقال: اللهم! لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع»).

قال: فكأنني انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يعصها قال: «(ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلاً، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلاً، فهناك تراجعاً الحديث^(٥) فقالت: حلقي^(٦)! مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم: اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلاً، فقلت: اللهم اجعلني مثلاً^(٧)»).

قال: إن ذاك الرجل كان جباراً، فقلت: اللهم! لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم ترن، وسرقت، ولم تسرق. فقلت: اللهم اجعلني مثلاً.



(١) البخاري (حديث ٣٤٠١) ومسلم (حديث ٢٣٨٠) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعاً.

(٢) والبخاري (حديث ٣٤٦٦). مسلم (حديث ٢٥٥٠).

(٣) فارهة: الفارعة النشيطة الحادة القوة، وقد فرهت فراهة وفراهمية.

(٤) وشارة: الشارة الهيئة واللباس.

(٥) تراجعاً الحديث: معناه أقبلت على الرضيع تحذره، وكانت أولاً لا تراه أهلاً للكلام، فلما تكرر منه

الكلام، علمت أنه أهل له فسألته وراجعته.

(٦) حلقي: أي أصابه الله تعالى بوجع في حلقي.

(٧) مثلاً: أي سألنا من المعاصي كما هي سالمة.

المبحث الثاني: الفوائد المستنبطة من حادثة الإفك

• أورد النووي^(١) رحمه الله طرفاً من ذلك فقال رحمه الله:

واعلم أن في حديث الإفك فوائد كثيرة:

إحداها: جواز رواية الحديث الواحد عن جماعة عن كل واحد قطعة مبهمة منه، وهذا وإن كان فعل الزهري وحده، فقد أجمع المسلمون على قبوله منه والاحتجاج به.

الثانية: صحة القرعة بين النساء وفي العتق وغيره مما ذكرناه في أول الحديث مع خلاف العلماء.

الثالثة: وجوب الإقراع بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن.

الرابعة: أنه لا يجب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمت، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلاً، وحكم القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح، وخالف فيه بعض أصحابنا.

الخامسة: جواز سفر الرجل بزوجه.

السادسة: جواز غزوهن.

السابعة: جواز ركوب النساء في الهودج.

الثامنة: جواز خدمة الرجال لمن في تلك الأسفار.

التاسعة: أن ارتحال العسكر يتوقف على أمر الأمير.

العاشرة: جواز خروج المرأة لحاجة الإنسان بغير إذن الزوج، وهذا من الأمور المستثناة.

الحادية عشرة: جواز لبس النساء القلادة في السفر كالخضر.

الثانية عشرة: أن من يركب المرأة البعير وغيره لا يكلمها إذا لم يكن محرماً إلا الحاجة، لأنهم حملوا الهودج ولم يكلموا من يظنونها فيه.

الثالثة عشرة: فضيلة الاقتصاد في الأكل للنساء وغيرهن وألا يكثرن منه بحيث يهبله اللحم لأن هذا كان حالهن في زمن النبي ﷺ، وما كان في زمانه ﷺ فهو الكامل الفاضل المختار.

الرابعة عشرة: جواز تأخر بعض الجيش ساعة ونحوه لحاجة تعرض له عن الجيش، إذا لم يكن ضرورة إلى الاجتماع.

(١) شرح صحيح مسلم (١٦٠/٨) وما بعدها.

الخامسة عشرة: إعانة الملهوف وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوي الأقدار كما فعل صفوان رضي الله عنه في هذا كله.

السادسة عشرة: حسن الأدب مع الأجنيب لا سيما في الخلوة بمن عند الضرورة في برية أو غيرها كما فعل صفوان من إبرائه الجمل من غير كلام ولا سؤال، وإنه ينبغي أنه يمشي قدأماها لا يجنبها ولا وراءها.

السابعة عشرة: استحباب الإيثار بالركوب ونحوه كما فعل صفوان.

الثامنة عشرة: استحباب الاسترجاع عند المصائب سواء كانت في الدين أو الدنيا، وسواء كانت في نفسه أو من يعز عليه.

التاسعة عشر: تغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي، سواء كان صالحاً أو غيره.

العشرون: جواز الحلف من غير استحلاف.

الحادية والعشرون: أنه يستحب أن يستر عن الإنسان ما يقال فيه إذا لم يكن في ذكره فائدة كما كتبوا عن عائشة رضي الله عنها - هذا الأمر شهراً، ولم تسمع بعد ذلك إلا بعارض عرض، وهو قول أم مسطح: تعس مسطح.

الثانية والعشرون: استحباب ملاطفة الرجل زوجته، وحسن المعاشرة.

الثالثة والعشرون: أنه إذا عرض عارض بأن سمع عنها شيئاً أو نحو ذلك يقلل من اللطف ونحوه لتفطن هي أن ذلك لعارض، فتسأل عن سببه فتزيله.

الرابعة والعشرون: استحباب السؤال عن المريض.

الخامسة والعشرون: أنه يستحب للمرأة إذا أرادت الخروج لحاجة أن تكون معها رفيقة تستأنس بها، ولا يتعرض لها أحد.

السادسة والعشرون: كراهة الإنسان صاحبه وقريبه إذا أذى أهل الفضل أو فعل غير ذلك من القبائح، كما فعلت أم مسطح في دعائها عليه.

السابعة والعشرون: فضيلة أهل بدر، والذب عنهم، كما فعلت عائشة في ذهابها عن مسطح.

الثامنة والعشرون: أن الزوجة لا تذهب إلى بيت أبيها إلا بإذن زوجها.

التاسعة والعشرون: جواز التعجب بلفظ التسييح، وقد تكرر في هذا الحديث وغيره.

الثلاثون: استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقائه فيما ينوبه من الأمور.

الحادية والثلاثون: جواز البحث والسؤال عن الأمور المسموعة عمن له به تعلق، أما غيره فهو منهي عنه، وهو تجسس وفضول.

الثانية والثلاثون: خطبة الإمام الناس عند نزول أمر مهم.

الثالثة والثلاثون: اشتكاء ولي الأمر إلى المسلمين من تعرض له بأذى في نفسه أو أهله أو غيره، واعتذاره فيما يريد أن يؤذيه به.

الرابعة والثلاثون: فضائل ظاهرة لصفوان بن المعطل رضي الله عنه بشهادة النبي ﷺ له بما شهد، وبفعله الجميل في إركاب عائشة رضي الله عنها، وحسن أدبه في جملة القضية.

الخامسة والثلاثون: فضيلة لسعد بن معاذ وأسيد بن حضير رضي الله عنهما.

السادسة والثلاثون: المبادرة إلى قطع الفتن والخصومات والمنازعات، وتسكين الغضب.

السابعة والثلاثون: قبول التوبة والحث عليها.

الثامنة والثلاثون: تفويض الكلام إلى الكبار دون الصغار، لأهم أعرف.

التاسعة والثلاثون: جواز الاستشهاد بآيات القرآن العزيز، ولا خلاف أنه جائز.

الأربعون: استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه بلية ظاهرة.

الحادية والأربعون: براءة عائشة رضي الله عنها - من الإفك وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسان والعياذ بالله صار كافراً مرتدّاً بإجماع المسلمين، قال ابن عباس وغيره: لم ترن امرأة نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا إكرام من الله تعالى لهم.

الثانية والأربعون: تحديد شكر الله تعالى عند تجدد النعم.

الثالثة والأربعون: فضائل لأبي بكر رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِلِ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ...﴾ [النور: ٢٢].

الرابعة والأربعون: استحباب صلة الأرحام وإن كانوا مسيئين.

الخامسة والأربعون: العفو والصفح عن المسيء.

السادسة والأربعون: استحباب الصدقة والإنفاق في سبيل الخيرات.

السابعة والأربعون: أنه يستحب لمن حلف على يمين ورأى خيراً منها أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه.

الثامنة والأربعون: فضيلة زينب أم المؤمنين رضي الله عنها.

التاسعة والأربعون: التثبيت في الشهادة.

الخمسون: إكرام المحبوب بمراعاة أصحابه، ومن خدمه أو أطاعه كما فعلت عائشة - رضي الله عنها - بمراعاة حسان وإكرامه إكراماً للنبي ﷺ.

الحادية والخمسون: أن الخطبة تبدأ بحمد الله تعالى، والثناء عليه بما هو أهله.

الثانية والخمسون: أنه يستحب في الخطب أن يقول بعد الحمد والثناء والصلاة على النبي ﷺ والشهادتين: أما بعد، وقد كثرت فيه الأحاديث الصحيحة.

الثالثة والخمسون: غضب المسلمين عند انتهاك حرمة أميرهم، واهتمامهم بدفع ذلك.

الرابعة والخمسون: جواز سب المتعصب لمبطل كما سب أسيد بن حضير سعد بن عبادة لتعصبه للمنافق، وقال: إنك منافق تجادل عن المنافقين، وأراد أنك تفعل فعل المنافقين، ولم يرد النفاق الحقيقي.

• وذكر ابن حجر^(١) - رحمه الله - عدة فوائد في هذا الحديث فقال:

فيه: مشروعية القرعة حتى بين النساء وفي المسافرة بمن والسفر بالنساء حتى في الغزو، وجواز حكاية ما وقع للمرء من الفضل ولو كان فيه مدح ناس وذم ناس إذا تضمن بذلك إزالة توهم النقص عن الحاكي إذا كان بريئاً عند قصد نصح من يبلغه ذلك لئلا يقع فيما وقع فيه من سبق وأن الاعتناء بالسلامة من وقوع الغير في الإثم أولى من تركه يقع في الإثم وتحصيل الأجر للموقع فيه. وفيه استعمال التوطئة فيما يحتاج إليه من الكلام، وأن الهودج يقوم مقام البيت في حجب المرأة، وجواز ركوب المرأة الهودج على ظهر البعير ولو كان ذلك مما يشق عليه حيث يكون مطيقاً لذلك، وفيه خدمة الأجانب للمرأة من وراء الحجاب، وجواز تستر المرأة بالشيء المنفصل عن البدن، وتوجه المرأة لقضاء حاجتها وحدها وبغير إذن خاص من زوجها بل اعتماداً على الإذن العام المستند إلى العرف العام، وجواز تحلي المرأة في السفر بالقلادة ونحوها، وصيانة المال ولو قل للنهي عن إضاعة المال، فإن عقد عائشة لم يكن من ذهب ولا جواهر، وفيه شؤم الحرص على المال لأنها لو لم تطل في التفتيش لرجعت بسرعة فلما زاد على قدر الحاجة أثر ما جرى. وقريب منه قصة المتخاصمين حيث رفع علم ليلة القدر بسببهما فإنهما لم يقتصرا على ما لا بد منه بل زادا في الخصام حتى ارتفعت أصواتهما فأثر ذلك بالرفع المذكور، وتوقف رحيل العسكر على إذن الأمير، واستعمال بعض الجيش

(١) فتح الباري (٣٣٧/٨).

ساقية يكون أميناً ليحمل الضعيف ويحفظ ما يسقط وغير ذلك من المصالح، والاسترجاع عند المصيبة، وتغطية المرأة وجهها عن نظر الأجنبي وإطلاق الظن على العلم، كذا قيل وفيه نظر قدمته. وإغاثة الملهوف، وعون المنقطع، وإنقاذ الضائع، وإكرام ذوى القدر وإيثارهم بالركوب وتجشم المشقة لأجل ذلك، وحسن الأدب مع الأجانب خصوصاً النساء لاسيما في الخلوة، والمشي أمام المرأة ليستقر خاطرهما وتأمين مما يتوهم من نظره لما عساه ينكشف منها في حركة المشي، وفيه ملاطفة الزوجة وحسن معاشرتها والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضى النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك أن تنفطن لتغيير الحال فتعذر أو تعترف، وأنه لا ينبغي لأهل المريض أن يعلموه بما يؤذى باطنه لئلا يزيد ذلك في مرضه، وفيه السؤال عن المريض وإشارة إلى مراتب المجران بالكلام والملاطفة، فإذا كان السبب محققاً فترك أصلاً، وإن كان مظنوناً فيخفف، وإن كان مشكوكاً فيه أو محتملاً فيحسن التقليل منه لا للعمل بما قيل بل لئلا يظن بصاحبه عدم المبالاة بما قيل في حقه، لأن ذلك من خوارم المروءة. وفيه أن المرأة إذا خرجت لحاجة تستصحب من يؤنسها أو يخدمها ممن يؤمن عليها. وفيه ذب المسلم عن المسلم خصوصاً من كان من أهل الفضل، وزدع من يؤذيهم ولو كان منهم بسبيل، وبيان مزيد فضيلة أهل بدر وإطلاق السب على لفظ الدعاء بالسوء على الشخص. وفيه البحث عن الأمر القبيح إذا أشيع وتعرف صحته وفساده بالتنقيب على من قيل فيه هل وقع منه قبل ذلك ما يشبهه أو يقرب منه واستصحاب حال من اتهم بسوء إذا كان قبل ذلك معروفاً بالخير إذا لم يظهر عنه بالبحث ما يخالف ذلك وفيه فضيلة قوية لأمر مسطح لأنها لم تحاب ولدها في وقوعه في حق عائشة بل تعمدت سبه على ذلك وفيه تقوية لأحد الاحتمالين في قوله ﷺ عن أهل بدر «إن الله قال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم». وأن الراجح أن المراد بذلك أن الذنوب تقع منهم لكنها مقرونة بالمغفرة تفضيلاً لهم على غيرهم بسبب ذلك المشهد العظيم ومرجوحية القول الآخر أن المراد أن الله تعالى عصمهم فلا يقع منهم ذنب نبه على ذلك الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة نفع الله به وفيه مشروعية التسبيح عند سماع ما يعتقد السامع أنه كذب وتوجيهه هنا أنه سبحانه وتعالى ينزه أن يحصل لقراءة رسول الله ﷺ تدنيس فيشرع شكره بالتزنية في مثل هذا نبه عليه أبو بكر بن العربي وفيه توقف خروج المرأة من بيتها على إذن زوجها ولو كانت إلى بيت أبيها وفيه البحث عن الأمر المقول ممن يدل عليه القول فيه والتوقف في خبر الواجد ولو كان صادقاً وطلب الارتقاء من مرتبة الظن إلى مرتبة اليقين وأن خبر الواحد إذا جاء شيئاً بعد شيء أفاد القطع لقول عائشة «لأستيقن الخبر من قبلهما» وأن ذلك لا يتوقف على عدد معين. وفيه استشارة المرء أهل بطائه ممن يلوذ به بقراءة وغيرها،

وتخصيص من جربت صحة رأيه منهم بذلك ولو كان غيره أقرب، والبحث عن حال من اقم بشيء، وحكاية ذلك للكشف عن أمره ولا يعد ذلك غيبة. وفيه استعمال «لا نعلم إلا خيرا» في التزكية، وأن ذلك كاف في حق من سبقت عدالته من يطلع على خفي أمره، وفيه التثبت في الشهادة، وفطنة الإمام عند الحادث المهم، والاستنبصار بالأخصاء على الأجانب، وتوطئة العذر لمن يراد إيقاع العقاب به أو العتاب له، واستشارة الأعلى لمن هو دونه، واستخدام من ليس في الرق، وأن من استفسر عن حال شخص فأراد بيان ما فيه من عيب فليقدم ذكر عذره في ذلك إن كان يعلمه كما قالت بريرة في عائشة حيث عابتها بالنوم عن العجين فقدمت قبل ذلك أنها جارية حديثة السن وفيه أن النبي ﷺ كان لا يحكم لنفسه إلا بعد نزول الوحي لأنه ﷺ لم يجزم في القصة بشيء قبل نزول الوحي، نبه عليه الشيخ أبو محمد ابن أبي جمر نفع الله به. وأن الحمية لله ورسوله لا تدم. وفيه فضائل جمعة لعائشة ولأبويها ولصفوان ولعلي بن أبي طالب وأسامة وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير. وفيه أن التعصب لأهل الباطل يخرج عن اسم الصلاح، وجواز سب من يتعرض للباطل ونسبته إلى ما يسوء وإن لم يكن ذلك في الحقيقة فيه، لكن إذا وقع منه ما يشبه ذلك جاز إطلاق ذلك عليه تغليظا له، وإطلاق الكذب على الخطأ، والقسم بلفظ لعمر الله. وفيه النذب إلى قطع الخصومة؛ وتسكين ثائرة الفتنة، وسد ذريعة ذلك، واحتمال أخف الضررين بزوال أغلظهما، وفضل احتمال الأذى. وفيه مباحة من خالف الرسول ولو كان قريباً حميماً. وفيه أن آذى النبي ﷺ يقول أو فعل يقتل لأن سعد بن معاذ أطلق ذلك ولم ينكره النبي ﷺ. وفيه مساعدة من نزلت فيه بلية بالتوَجُّع والبكاء والحزن. وفيه تنبُّت أبي بكر الصديق في الأمور لأنه لم ينقل عنه في هذه القصة مع تمادي الحال فيها شهرا كلمة فما فوقها، إلا ما ورد عنه في بعض طرق الحديث أنه قال: «والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية، فكيف بعد أن أعزنا الله بالإسلام» وقع ذلك في حديث ابن عمر عن الطبراني. وفيه ابتداء الكلام في الأمر المهم بالشهد والحمد والثناء وقول أما بعد، وتوقيف من نقل عنه ذنب على ما قيل فيه بعد البحث عنه، وأن قول كذا وكذا يكتفي بما عن الأحوال كما يكتفي بما عن الأعداد ولا تختص بالأعداد، وفيه مشروعية التوبة وأنها تقبل من المعترف المقلع المخلص، وأن مجرد الاعتراف لا يجزئ فيها، وأن الاعتراف بما لم يقع لا يجوز ولو عرف أنه يصدق في ذلك، ولا يؤاخذ على ما يترتب على اعترافه، بل عليه أن يقول الحق أو يسكت، وأن الصبر تحمد عاقبته ويغبط صاحبه. وفيه تقديم الكبير في الكلام وتوقف من اشتبه عليه الأمر في الكلام. وفيه تبشير من تجددت له نعمة أو اندفعت عنه نقمة. وفيه الضحك والفرح والاستبشار عند ذلك، ومعدرة من انزعج عند



وقوع الشدة لصغر سن ونحوه، وإدلال المرأة على زوجها وأبويها، وتدرج من وقع في مصيبة فزالته عنه لئلا يهجم على قلبه الفرح من أول وهلة فيهلكه، يؤخذ ذلك من ابتداء النبي ﷺ بعد نزول الوحي براءة عائشة بالضحك ثم تبشيرها ثم إعلامها ببراءتها بمحملة ثم تلاوته الآيات على وجهها. وقد نص الحكماء على أن من اشتد عليه العطش لا يمكن من المبالغة في الرى في الماء لئلا يفضي به ذلك إلى الهلكة بل يجرع قليلاً قليلاً. وفيه أن الشدة إذا اشتدت أعقبها الفرج، وفضل من يفوض الأمر لربه، وأن من قوى على ذلك خف عنه الهم والغم كما وقع في حالي عائشة قبل استفسارها عن حالها وبعد جوابها بقولها: والله المستعان. وفيه الحث على الإنفاق في سبيل الخير خصوصاً في صلة الرحم، ووقوع المغفرة لمن أحسن إلى من أساء إليه أو صفح عنه، وأن من حلف أن لا يفعل شيئاً من الخير استحسب له الحنث، وجواز الاستشهاد بأي القرآن في التوازل. والتأسي بما وقع للأكابر من الأنبياء وغيرهم، وفيه التسييح عند التعجب واستعظام الأمر، وذم الغيبة وذم سماعها وزجر من يتعاطاها لاسيما إن تضمنت قمة المؤمن. بما لم يقع منه، وذم إشاعة الفاحشة، وتحريم الشك في براءة عائشة، وفيه تأخير الحد عمن يخشى من إيقاعه به الفتنة، نبه على ذلك ابن بطال مستنداً إلى أن عبد الله بن أبي كان ممن قذف عائشة ولم يقع في الحديث أنه ممن حد، وتعقبه عياض بأنه لم يثبت أنه قذف بل الذي ثبت أنه كان يستخرجه ويستوشيه.

الفصل الثالث والثلاثون: قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا عن

غزوة تبوك

المبحث الأول: ذكر القصة في الكتاب والسنة:

• قال تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

• عن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حينَ عَمَى - قال سمعتُ كعبَ بن مالك يحدث حينَ تخلفَ عن قصة تبوك (قال كعب لم تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غيرَ أني كنت تخلفُ في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلفَ عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريدُ غيرَ قريش حتى جمعَ الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد. ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حينَ ثَوَّقْنَا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها. كان من خبري أني لم أكن قطُ أقوى ولا أيسرَ حينَ تخلفْتُ عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعتُ عندي قبلةَ راحلتان قطُ حتى جمعتُهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورىَ بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبلَ سفرًا بعيدًا ومفازًا، وعدوا كثيرًا، فجلي للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبةَ غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظ - يريد الديوان - قال كعب: فما رجلٌ يريدُ أن يتغيبَ إلا ظنَّ أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحى الله. وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معهم، فأرجعُ ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادرٌ عليه. فلم يزلَ يَمَادِي بي حتى اشتدَّ بالناس الجُدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا. فقلتُ أتجهَّزُ بعده يوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهَّز، فرجعت ولم أقض شيئًا. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا. فلم يزلَ بي حتى أسرعوا وتفارطَ الغزو، وحممتُ أن أرتحلَ فأدركهم، ولتني فعلتُ، فلم يُقدَّر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ فطفقتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر

الله من الضُعفاء، ولم يذكُرني رسول الله ﷺ حتى بلغَ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجلٌ من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه بُراة، ونظره في عطفه. فقال مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بئسَ ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله ﷺ. قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّهَ قافلًا حَضَرَنِي همي، وطفقتُ أتذكرُ الكذبَ وأقول: بماذا أُخْرِجُ من سَخَطه غدا؟ واستعنتُ على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أَظَلَّ قَادِمًا زاح عني الباطل، وعرفتُ أني لن أُخْرِجَ منه أبدا بشيءٍ فيه كذب، فأجمعتُ صدقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد فإرْكع فيه ركعتين ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويخلفون له - وكانوا بضعةً وثمانين رجلًا فقيلَ منهم رسول الله ﷺ عَلَانِيَتَهُمْ وبِأَعْيُنِهِمْ واستغفَرَ لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. فحجته، فلما سلَّمْتُ عليه تبسَّم تبسَّم المغضب ثم قال: تعال، فحجَّتْ أُمُشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فقال لي: ما خلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟ فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرجُ من سَخَطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلًا، ولكني والله لقد علمتُ لئن حدثتُك اليومَ حديثَ كذبٍ تَرْضَى به عني ليوشكنَّ الله أن يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ ولئن حدثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عَلَيَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قطُ أقوى ولا أيسرَ مني حينَ تخلفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدَّق، فقم حتى يقضى الله فيك. فقمْتُ. وثارَ رجالٌ من بني سلمة فاتَّبَعُونِي فقالوا لي: والله ما علمناكَ كنت أذنبت ذنبًا قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ أن لا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ. بما اعتذرَ إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارَ رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يُؤَيِّنُونِي حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسي. ثم قلت لهم: هل لقيَ هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلانَ فالأمثل ما قلت، فقيلَ لهما مثلُ ما قيلَ لك. فقلت من هما؟ قالوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمَرِيُّ وهَالَلُ بْنُ أُمِيَّةِ الْوَاقِفِيُّ، فذكروا لي رجلينَ قد شهدا بدرًا فيهما أسوة، فمضيت حينَ ذكروهما لي. ونهى رسول الله ﷺ المسلمينَ عن كلامنا أيُّهَا الثَلَاثَةُ من بين مَنْ تخلفَ عنه، فاجتَنَبْنَا النَّاسَ، وتغيَّروا لنا، حتى تَنَكَّرْتُ في نفسي الأرضَ فما هي التي أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بُيُوتِهما يَبْكِيَانِ، وأما أنا فكنتُ أشبُّ القوم وأجلَدُهم، فكنتُ أُخْرِجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يُكَلِّمُنِي أحد، وأتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّكَ شَفَتَيْهِ برَدَّ السلام عَلَيَّ أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسأِرُقُهُ النَّظْرَ، فإذا أَقْبَلْتُ على صلاتي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وإذا التفتُ نحوه

أعرض عني. حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام. فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت. فعدت له فنشدته فسكت. فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار. قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام من قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له: حتى إذا جاءني دفع إلى كتابا من ملك غسان فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيق، فالحق بنا نواسك. فقلت لما قرأتها: وهذا أيضا من البلاء. فتيمنت بها التثور فسجرت بها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرُك أن تعتزل امرأتك. فقلت: أطلعها أم ماذا أفعل؟ قال: لا. بل اعتزلها ولا تقر بها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك. فقلت لامرأتي الحق بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضى الله في هذا الأمر. قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع. ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الأجر أصبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله: قد ضاقت على نفسي، وضاقت على الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر. قال فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج. وأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يشيروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلى رجل فرسا، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الذي سمعت صوته يشيرونني نزعته له ثوبي، فكسوته إياهما ببشراه. والله ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فلتقاني الناس فوجا فوجا يهتفون بالتوبة يقولون: لتنهك توبة الله عليك. قال كعب حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهباني، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها

لطلحة. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قال قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله. وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله إن من توبي أن أخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك. قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير. فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصديق، وإن من توبي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث - منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت. وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ - إِلَى قَوْلِهِ: - وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧] فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط - بعد أن هداني للإسلام - أعظم، في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبت فاهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرا ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى ﴿سَيَخْلُقُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ - إِلَى قَوْلِهِ: - فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. [التوبة: ٩٥]. قال كعب: وكنا نخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ [التوبة: ١١٨]. وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجأه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه. فقبل منه^(١).



المبحث الثاني: فوائد مستنبطة من قصة الثلاثة الذين خلفوا

• قال الحافظ ابن حجر^(١) - رحمه الله تعالى -:

وفي قصة كعب من الفوائد: جواز طلب أموال الكفار من ذوي الحرب، وجواز الغزو في الشهر الحرام، والتصريح بجهة الغزو إذا لم تقتض المصلحة ستره، وأن الإمام إذا استنفر الجيش عموماً لزمهم النفير ولحق اللوم بكل فرد فرد أن لو تخلف. وقال السهيلي: إنما اشتد الغضب على من تخلف وإن كان الجهاد فرض كفاية لكنه في حق الأنصار خاصة فرض عين لأنهم بايعوا على ذلك، ومصدق ذلك قولهم وهم يحفرون الخندق:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

فكان تخلفهم عن هذه الغزوة كبيرة لأنها كالنكت لبيعتهم، كذا قال ابن بطال. قال السهيلي: ولا أعرف له وجهاً غير الذي قال. قلت: وقد ذكرت وجهاً غير الذي ذكره ولعله أقعد، ويؤيده قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾^(٢) الآية. وعند الشافعية وجه أن الجهاد كان فرض عين في زمن النبي ﷺ، فعلى هذا فيتوجه العتاب على من تخلف مطلقاً. وفيها أن العاجز عن الخروج بنفسه أو بماله لا لوم عليه، واستخلاف من يقوم مقام الإمام على أهله والضعفة، وفيها ترك قتل المنافقين، ويستنبط منه ترك قتل الزنديق إذا أظهر التوبة. وأجاب من أجازه بأن الترك كان في زمن النبي ﷺ لمصلحة التأليف على الإسلام. وفيها عظم أمر المعصية، وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حراماً ولا سفكوا دماً حراماً ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟ وفيها أن القوى في الدين يؤاخذ بأشد مما يؤاخذ الضعيف في الدين، وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيراً ونصيحة لغيره، وجواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة، وتسلية نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره، وفضل أهل بدر والعقبة، والحلف للتأكيد من غير استحلاف، والتورية عن المقصد، ورد الغيبة، وجواز ترك وطء الزوجة مدة. وفيه أن المرء إذا لاحت له فرصة في

الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولا يسوف بها لئلا يجرمها كما قال تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^(١). ومثله قوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْئِدَتُهُمْ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾^(٢). ونسأل الله تعالى أن يلهمنا المبادرة إلى طاعته، وأن لا يسلبنا ما حولنا من نعمته. وفيها جواز تمنى ما فات من الخير: وأن الإمام لا يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور بل يذكره ليراجع التوبة. وجواز الطعن في الرجل بما يغلب على اجتهاد الطاعن عن حمية الله ورسوله. وفيها جواز الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الراد وهم الطاعن أو غلظه. وفيها أن المستحب للقدام أن يكون على وضوء، وأن يبدأ بالمسجد قبل بيته فيصلى ثم يجلس لمن يسلم عليه، ومشروعية السلام على القادم وتلقيه، والحكم بالظاهر، وقبول المعاذير واستحباب بكاء العاصي أسفاً على ما فات من الخير. وفيها إجراء الأحكام على الظاهر ووكول السرائر إلى الله تعالى وفيها ترك السلام على من أذنب، وجواز هجره أكثر من ثلاث. وأما النهي عن الحجر فوق الثلاث فمحمول على من لم يكن هجرانه شرعياً، وأن التبسم قد يكون عن غضب كما يكون عن تعجب ولا يختص بالسرور. ومعاتبه الكبير أصحابه ومن يعز عليه دون غيره. وفيها فائدة الصدق وشؤم عاقبة الكذب. وفيها العمل بمفهوم القلب إذا حفته قرينة، لقوله ﷺ لما حدثه كعب ((أما هذا فقد صدق)) فإنه يشعر بأن من سواه كذب، لكن ليس على عمومته في حق كل أحد سواه، لأن مراة وهالاً أيضاً قد صدقا، فيختص الكذب بمن حلف واعتذر، لا بمن اعترف، ولهذا عاقب من صدق بالتأديب الذي ظهرت فائدته عن قرب، وآخر من كذب للعقاب الطويل، وفي الحديث الصحيح ((إذا أراد الله بعد خيراً عاجل له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد به شراً أمسك عنه عقوبته فيرد القيامة بذنوبه))^(٣) قيل وإنما غلظ في حق هؤلاء الثلاثة لأنهم تركوا الواجب عليهم من غير عذر، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾^(٤). وقول الأنصار.

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

وفيها تبريد حر المصيبة بالتأسي بالنظير، وفيها عظم مقدار الصدق في القول والفعل،

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) سورة الأنعام: ١١٠.

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٦) وغيره. انظر الصحيحة رقم (١٢٢٠).

(٤) سورة التوبة: ١٢٠.

(١) فتح الباري (٧/٧٢٩) وما بعدها.

(٢) سورة التوبة: ١٢٠.

وتعليق سعادة الدنيا والآخرة والنجاة من شرهما به، وأن من عوقب بالمحجر يعذر في التخلف عن صلاة الجماعة لأن مرارة وهلالا لم يخرجنا من بيوتكما تلك المدة. وفيها سقوط رد السلام على المهجور عمن سلم عليه إذ لو كان واجبا لم يقل كعب: هل حرك شفتيه برد السلام. وفيها جواز دخول المرء دار جاره وصديقه بغير إذنه ومن غير الباب إذا علم رضاه. وفيها أن قول المرء «الله ورسوله أعلم» ليس بخطاب ولا كلام ولا يحث به من حلف أن لا يكلم الآخر إذا لم ينو به مكالمته وإنما قال أبو قتادة ذلك لما ألح عليه كعب، وإلا فقد تقدم أن رسول ملك غسان لما سأل عن كعب جعل الناس يشيرون له إلى كعب ولا يتكلمون بقولهم مثلاً هذا كعب مبالغ في هجره والإعراض عنه، وفيها أن مسارقة النظر في الصلاة لا تقدر في صحتها، وإثارة طاعة الرسول على مودة القريب، وخدمة المرأة زوجها، والاحتياط لمجانبة ما يخشى الوقوع فيه، وجواز تحريق ما فيه اسم الله للمصلحة. وفيها مشروعية سجود الشكر والاستباق إلى البشارة بالخير وإعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة، وتهنئة من تجددت له نعمة، والقيام إليه إذا أقبل، واجتماع الناس عند الإمام في الأمور المهمة، وسروره بما يسر أتباعه، ومشروعية العارية، ومصافحة القادم والقيام له، والتزام المداومة على الخير الذي ينتفع به، واستحباب الصدقة عند التوبة، وأن من نذر الصدقة بكل ماله لم يلزمه إخراج جميعه.



الخاتمة أسأل الله تعالى حسنها

هذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب من قصص القرآن العديدة، فما وفقت فيه فمن الله وحده، وما زلت فيه فهو من نفسي ومن الشيطان، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]. وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب كل من قرأه وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة يوم القيام لرب العالمين. وأن يكون هذا الكتاب خالصاً لوجه الله تعالى ليس به شائبة الرياء والسمعة، وأشكر كل من قام على طبع ونشر هذا الكتاب. والحمد لله تعالى الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.
وسبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك.

وكان الفراغ منه وكتبه الراجي عفو الله ورحمته التي وسعت كل شيء
صبيحة يوم الأحد
فؤاد بن سراج عبد الغفار أبو عبد الرحمن
السابع من الحرم ١٤٢٢ هـ
مصر - الدقهلية - أجا - فيشا بنا
الموافق ١/٤/٢٠٠١ م

محتويات الكتاب

الإهداء	٥
تقريب	٧
المقدمة	٩
الفصل الأول: معنى القصص ومنافعها	١١
المبحث الأول: معنى القصص	١١
المبحث الثاني: منافع القصص القرآنية	١١
الفصل الثاني: قصة آدم عليه الصلاة والسلام	١٤
المبحث الأول: معنى قول الله تعالى «إني جاعل في الأرض خليفة»	١٤
المبحث الثاني: مم خلق آدم عليه الصلاة والسلام؟	١٨
المبحث الثالث: صفة خلق آدم عليه الصلاة والسلام	٢٠
المبحث الرابع: تكريم آدم عليه الصلاة والسلام بسجود الملائكة له	٢٢
المبحث الخامس: الله تبارك وتعالى يعلم آدم عليه الصلاة والسلام الأسماء كلها	٢٣
المبحث السادس: إبليس يمتنع عن السجود لآدم ويعلل ذلك بالقياس	٢٥
المبحث السابع: مم خلقت حواء أم البشر عليها السلام؟	٣١
المبحث الثامن: إسكان آدم وحواء الجنة ووسوسة الشيطان لهما	٣٣
المبحث التاسع: هبوط آدم وحواء وإبليس من الجنة بسبب المعصية	٣٧
المبحث العاشر: الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس	٤٠
المبحث الحادي عشر: مم خلقت ذرية آدم؟	٤٣
المبحث الثاني عشر: أخذ العهد على ذرية آدم بتوحيد الربوبية قبل خلق أجسادهم بالمسح على ظهر آدم	٤٦

- المبحث الثالث عشر: خطئ آدم فخطئت ذريته، ولولا حواء ما خانت بناتها ٤٨
- المبحث الرابع عشر: آدم كان نبياً ٤٩
- المبحث الخامس عشر: آدم على فراش الموت ٥٠
- المبحث السادس عشر: حجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام ٥١
- المبحث السابع عشر: التقاء النبي ﷺ بآدم في ليلة الإسراء والمعراج في السماء ٥٤
- المبحث الثامن عشر: آدم يخرج بعث النار من ذريته ٥٥
- المبحث التاسع عشر: دخول الناس الجنة على هيئة آدم إكراماً له ٥٦
- المبحث العشرون: فوائد مستنبطة من قصة آدم عليه الصلاة والسلام ٥٧
- الفصل الثالث: قصة ابني آدم قابيل وهابيل ٥٩
- المبحث الأول: من هما ابنا آدم؟ ٥٩
- المبحث الثاني: ابنا آدم وأول جريمة قتل في الحياة ٦٠
- المطلب الأول: بداية القصة ٦٠
- المطلب الثاني: القربان وعلامة قبوله ٦٠
- المبحث الثالث: فوائد وعبر من قصة ابني آدم ٦٣
- الفصل الرابع: قصة نوح عليه الصلاة والسلام ٦٦
- المبحث الأول: ما بين آدم ونوح عليهما السلام من القرون ٦٦
- المبحث الثاني: نوح عليه السلام أول رسول للبشرية ٦٧
- المطلب الأول: الشيطان يزين للناس الغلو في الصالحين ٦٧
- المطلب الثاني: نوح عليه الصلاة والسلام يدعو قومه لتوحيد الله ٦٨
- المطلب الثالث: نوح عليه الصلاة والسلام يدعو على قومه بالهلاك بعد اليأس من إيمانهم فاستجاب الله له وأمره بصنع السفينة ٦٨
- المطلب الرابع: نوح عليه الصلاة والسلام وابنه والطوفان ٦٩
- المبحث الثالث: نوح عليه الصلاة والسلام ينذر قومه المسيح الدجال ٧٢
- المبحث الرابع: وصية نوح عليه الصلاة والسلام قبل موته لابنه وموضع دفنه ٧٣

- المبحث الخامس: شهادة النبي ﷺ وأمرته يوم القيامة بأن نوحاً عليه الصلاة والسلام بلغ الرسالة ٧٥
- المبحث السادس: فوائد وعبر مستفادة من قصة نوح عليه الصلاة والسلام ٧٦
- الفصل الخامس: قصة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام ٨٠
- المبحث الأول: من إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٨٠
- المبحث الثاني: دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أباه وقومه بالحكمة والموعظة الحسنة ٨١
- المطلب الأول: أدب إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه ٨١
- المطلب الثاني: غلظة الكفر وقسوته كانت رد الفعل من آزر لابنه إبراهيم عليه السلام ٨٢
- المطلب الثالث: دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ٨٣
- المطلب الرابع: إبراهيم يحطم الأصنام التي كان يعبدونها قومه ٨٥
- المطلب الخامس: محاكمة إبراهيم عليه السلام أمام قومه ٨٥
- المبحث الثالث: مناظرات إبراهيم عليه السلام ٨٨
- المطلب الأول: مناظرته لأبيه وقومه من أهل بابل بالعراق وهم عبدة الأوثان والأصنام ٨٨
- المطلب الثاني: مناظرته لقومه من أهل حران بالعراق وهم عبدة النجوم والكواكب ٨٩
- المطلب الثالث: مناظرة إبراهيم عليه السلام مع ملك زمانه ٩١
- المبحث الرابع: الابتلاء في حياة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ٩٤
- المطلب الأول: ابتلاء إبراهيم عليه السلام في أبيه ٩٤
- المطلب الثاني: ابتلاء إبراهيم عليه السلام بقومه ٩٥
- المطلب الثالث: ابتلاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بشدة العيش في الشام ٩٥
- المطلب الرابع: الابتلاء في الأهل ٩٦

- المطلب الخامس: الابتلاء بتأخر الإنجاب ٩٦
- المطلب السادس: الابتلاء بالابتعاد عن الأهل ٩٦
- المطلب السابع: الابتلاء بذبح إسماعيل عليه السلام ٩٩
- المبحث الخامس: حقيقة كذبات إبراهيم عليه الصلاة والسلام ١٠١
- المبحث السادس: خصائص ومناقب وفضائل إبراهيم عليه السلام ١٠٤
- المبحث السابع: فوائد مستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام ١٠٩
- الفصل السادس: قصة لوط عليه السلام ١١٣
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ١١٣
- المبحث الثاني: من قوم لوط؟ ١١٣
- المبحث الثالث: رسالة لوط عليه السلام ودعوته لقومه ١١٣
- المطلب الأول: دعوته لهم إلى التوحيد وترك الفواحش التي ابتدعوها ١١٣
- المطلب الثاني: مقابلة دعوة لوط عليه السلام بالتمرد والاستكبار ١١٤
- والتهديد بالإخراج من البلاد ١١٤
- المبحث الرابع: الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام ١١٦
- المبحث الخامس: عقاب الله تعالى لقوم لوط ١١٨
- المبحث السادس: فوائد مستفادة من قصة لوط عليه السلام ١٢٠
- الفصل السابع: قصة إسماعيل عليه السلام ١٢٣
- المبحث الأول: اسمه وقصة مولده ١٢٣
- المبحث الثاني: فضائله ومناقبه عليه السلام ١٢٣
- المبحث الثالث: وفاته عليه السلام ١٢٥
- الفصل الثامن: قصة إسحاق ويعقوب عليهما السلام ١٢٦
- المبحث الأول: نسب إسحاق عليه السلام ومولده ١٢٦
- المبحث الثاني: نسب يعقوب عليه السلام ومولده ١٢٧
- المبحث الثالث: ذكرهما في القرآن وثناء الله عليهما ومناقبهما ١٢٨
- المبحث الرابع: وفاتهما عليهما السلام ١٣٢
- الفصل التاسع: قصة يوسف عليه السلام ١٣٣

- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ١٣٣
- المبحث الثاني: بين يدي قصة يوسف عليه السلام وتسميتها أحسن القصص ١٣٣
- المبحث الثالث: سورة يوسف وما فيها نزلت على النبي ﷺ في وقت عصيب فهانت عليه المحن ١٣٥
- المبحث الرابع: رؤيا يوسف عليه السلام وتأويله للرؤى والأحلام ١٣٦
- المطلب الأول: رؤيا يوسف في صباه ١٣٦
- المطلب الثاني: تأويل يوسف عليه السلام لرؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك ١٣٦
- المبحث الخامس: يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر ١٣٩
- المطلب الأول: يوسف في مصر ١٣٩
- المطلب الثاني: يوسف ومحبته مع امرأة العزيز ١٣٩
- المطلب الثالث: الأدلة على براءة يوسف عليه السلام ١٤٣
- المطلب الرابع: كيد النساء ومكرهن وانتشار الخبر في المدينة ١٤٤
- المبحث السادس: المكائد التي تعرض لها يوسف عليه السلام ومقابلة الله لها بكيد من عنده ١٤٧
- المبحث السابع: ذكر يوسف عليه السلام في السنة النبوية المطهرة ١٤٩
- المبحث الثامن: وفاة يوسف عليه السلام ١٥١
- المبحث التاسع: الفوائد المستنبطة من قصة يوسف عليه السلام ١٥٢
- الفصل العاشر: قصة هود عليه السلام ١٥٨
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ١٥٩
- المبحث الثاني: من قوم عاد؟ ١٥٩
- المبحث الثالث: بعث الله هودًا إلى قومه عادًا الأولى ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى ١٦٠
- المطلب الأول: دعوتهم إلى التوحيد ١٦٠

- المطلب الثاني: هود عليه الصلاة والسلام يدعو قومه بكل الوسائل ويحاورهم ويجادلهم بالتي هي أحسن فاتهموه بالسفاهة والكذب ١٦١
- المبحث الرابع: من آيات هود عليه السلام الخاصة وجزاء من كذب رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ١٦٦
- المبحث الخامس: فوائد من قصة هود عليه السلام ١٦٨
- المبحث السادس: وفاة هود عليه السلام ١٦٩
- الفصل الحادي عشر: قصة صالح عليه السلام : ١٧٠
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ١٧٠
- المبحث الثاني: من قوم ثمود؟ ١٧١
- المبحث الثالث: بعث الله صالحاً عليه السلام إلى قومه ثمود ليدعوهم إلى توحيد الله تعالى ١٧٢
- المطلب الأول: دعوتهم للتوحيد ١٧٢
- المطلب الثاني: صالح عليه السلام يذكرهم بنعم الله عليهم لعلهم يذكرون ١٧٢
- المطلب الثالث: تल्प صالح عليه السلام في دعوته لقومه ١٧٣
- المبحث الرابع: قصة الناقة ١٧٥
- المطلب الأول: ثمود تطلب من صالح عليه السلام معجزة حسية ١٧٥
- المطلب الثاني: الناقة كانت وبلاً عليهم وفتنة لهم ١٧٥
- المطلب الثالث: الملاء من قومه يأتمرون على عقري الناقة وقتل صالح عليه السلام ١٧٦
- المبحث الخامس: عاقبة مكر ثمود قوم صالح عليه السلام ١٧٩
- المبحث السادس: صالح عليه السلام يخاطب قومه بعد هلاكهم ١٨٢
- المبحث السابع: وفاة صالح عليه السلام وموضع قبره ١٨٣
- المبحث الثامن: رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على ديار ثمود ١٨٤
- المبحث التاسع: فوائد مستفادة من قصة صالح عليه السلام ١٨٥
- الفصل الثاني عشر: قصة شعيب عليه السلام ١٨٦
- المبحث الأول: اسمه ونسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ١٨٦

- المبحث الثاني: من أهل مدين الذين أرسل إليهم نبي الله شعيب عليه السلام ١٨٦
- المبحث الثالث: شعيب عليه السلام يدعو أهله إلى التوحيد والعدل في المعاملات فسخروا منه وتوعدوه بالإخراج ١٨٦
- المبحث الرابع: هلاك أهل مدين ١٩١
- المبحث الخامس: الفوائد المستفادة من قصة شعيب عليه السلام ١٩٣
- المبحث السادس: وفاة شعيب عليه السلام ١٩٧
- الفصل الثالث عشر: قصة موسى عليه السلام : ١٩٨
- المبحث الأول: نسبه وذكره في القرآن ١٩٨
- المبحث الثاني: الفترة ما بين يوسف وموسى عليهما السلام ١٩٨
- المبحث الثالث: تكرار قصة موسى عليه السلام في القرآن ٢٠٠
- المبحث الرابع: سيرة موسى عليه السلام قبل الرسالة ٢٠٣
- المطلب الأول: ولادة موسى وإرضاعه ٢٠٣
- المطلب الثاني: موسى الرضيع في طريقه إلى قصر فرعون ٢٠٣
- المطلب الثالث: أم موسى في حزن شديد على فراق ابنها فرده الله إليها ٢٠٥
- المطلب الرابع: سبب خروج موسى من مصر بعد أن بلغ أشده ٢٠٦
- المطلب الخامس: خروج موسى من مصر متجهاً إلى مدين ٢٠٨
- المطلب السادس: زواج موسى ورعيه للغنم ٢١٠
- المبحث الخامس: سيرة موسى عليه السلام بعد الرسالة ٢١٢
- المطلب الأول: بدء رسالة موسى عليه السلام ٢١٢
- المطلب الثاني: الله سبحانه وتعالى يمنح موسى عليه السلام المعجزات التي تؤيد رسالته ٢١٧
- المطلب الثالث: الأمر من الله إلى موسى بالذهاب إلى فرعون مصر لدعوته للإسلام، وما طلبه موسى من ربه ٢١٨
- المطلب الرابع: توجيهات ربانية إلى موسى وهارون عليهما السلام قبل توجههما إلى فرعون ٢٢٠

- المطلب الخامس: موسى وهارون عليهما السلام في مواجهة فرعون ٢٢١
- المطلب السادس: مناظرة ومحاوراة بين فرعون وموسى عليه السلام ٢٢٢
- المبحث السادس: موسى عليه السلام بعد هلاك فرعون وجنوده ٢٢٥
- المطلب الأول: فضل الله على موسى وبني إسرائيل ٢٢٥
- المطلب الثاني: روايب الشرك في بني إسرائيل ٢٢٥
- المطلب الثالث: من نعم الله على بني إسرائيل ٢٢٦
- المطلب الرابع: طلب رؤية الله ونزول التوراة ٢٢٧
- المطلب الخامس: قصة عبادة بني إسرائيل للعجل ٢٢٩
- المطلب السادس: عناد بني إسرائيل وإحسان الله إليهم ٢٣٢
- المطلب السابع: معجزات موسى وإيمان السحرة ٢٣٤
- المطلب الثامن: بطانة فرعون تحرضه على إعلان الحرب على موسى وأتباعه ٢٣٩
- المطلب التاسع: تكذيب فرعون وقومه بآيات الله كلها ٢٤٣
- المطلب العاشر: نهاية فرعون وجنوده ٢٤٤
- المبحث السابع: قصص وقعت في عهد موسى عليه السلام ٢٤٨
- المطلب الأول: قصة التيه ٢٤٨
- المطلب الثاني: قصة البقرة ٢٥٠
- المطلب الثالث: قصة أحد علماء بني إسرائيل الذي انسلخ من آيات الله واتبع هواه ٢٥٥
- المطلب الرابع: قصة قارون ٢٥٧
- المطلب الخامس: قصة الخضر مع موسى عليهما السلام ٢٥٩
- المبحث الثامن: طرف من فضائل موسى عليه السلام من الكتاب والسنة ٢٦٥
- المطلب الأول: طرف من فضائله من القرآن الكريم ٢٦٥
- المطلب الثاني: طرف من فضائله من السنة النبوية المطهرة ٢٦٥
- المبحث التاسع: وفاة هارون وموسى عليهما السلام ٢٦٧
- المبحث العاشر: فوائد مستنبطة من قصة موسى عليه السلام ٢٦٨

- الفصل الرابع عشر: قصة يونس عليه السلام ٢٦٩
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ٢٦٩
- المبحث الثاني: رسالته عليه السلام ٢٧٠
- المطلب الأول: يونس يدعو قومه ٢٧٠
- المطلب الثاني: يونس في السفينة ومنها إلى بطن الحوت ٢٧٠
- المطلب الثالث: يونس يخرج من بطن الحوت ويذهب إلى قومه لدعوتهم مرة ثانية ٢٧١
- المبحث الثالث: ذكر يونس عليه السلام في السنة ٢٧٢
- المبحث الرابع: وفاته والفوائد المستنبطة من قصته عليه السلام ٢٧٣
- الفصل الخامس عشر: قصة أيوب عليه السلام ٢٧٤
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ٢٧٤
- المبحث الثاني: رسالته وابتلاء الله له ٢٧٥
- المبحث الثالث: وفاته والفوائد المستنبطة من قصته ٢٧٧
- الفصل السادس عشر: قصة داود عليه الصلاة والسلام ٢٧٩
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ٢٧٩
- المبحث الثاني: مناقبه وفضائله عليه السلام ٢٧٩
- المبحث الثالث: فتنة داود عليه السلام بين الحقيقة والإسرائيليات ٢٨٢
- المبحث الرابع: من أقوال ومواظ داود عليه السلام ٢٨٦
- المبحث الخامس: الله يأمر داود عليه السلام بالحكم بين الناس بالحق ٢٨٧
- المبحث السادس: بعض الفوائد المستنبطة من قصة داود عليه السلام ٢٨٨
- المبحث السابع: وفاة داود عليه السلام ٢٩٠
- الفصل السابع عشر: قصة سليمان عليه الصلاة والسلام ٢٩١
- المبحث الأول: نسبه وعدد مرات ذكره في القرآن ٢٩١
- المبحث الثاني: مناقبه وفضائله عليه السلام ٢٩١
- المبحث الثالث: ذكر سليمان عليه السلام في السنة النبوية المطهرة ٣٠٠

المبحث الرابع: فتنة سليمان بين الإسرائيليات والقول الصحيح للسلف	
الصالح	٣٠٣
المبحث الخامس: فوائد من قصة سليمان عليه السلام	٣٠٨
المبحث السادس: وفاة سليمان عليه السلام	٣١٢
الفصل الثامن عشر: قصة سبأ	٣١٣
الفصل التاسع: قصة التابوت	٣١٧
الفصل العشرون عشر: قصة أصحاب السبت	٣٢٠
الفصل الحادي والعشرون: قصة هاروت وماروت	٣٢٥
المبحث الأول: التفسير الصحيح لقصة هاروت وماروت	٣٢٥
المبحث الثاني: فوائد مستنبطة من قصة هاروت وماروت	٣٢٧
الفصل الثاني والعشرون: قصة الرجل الذي مر على قرية وهي خاوية والفوائد المستنبطة منها	٣٣٠
الفصل الثالث والعشرون: قصة زكريا ويحيى عليهما السلام	٣٣٢
المبحث الأول: نسبهما وذكرهما في القرآن	٣٣٢
المبحث الثاني: قصة زكريا ﷺ	٣٣٣
المطلب الأول: زكريا عليه السلام يكفل مريم	٣٣٣
المطلب الثاني: سؤال زكريا ربه أن يرزقه الولد الصالح	٣٣٣
المبحث الثالث: قصة يحيى ﷺ	٣٣٧
المطلب الأول: جاء يحيى إلى الوجود ببركة دعاء زكريا عليه السلام	٣٣٧
المطلب الثاني: الله تعالى يأمر يحيى بأن يأخذ الكتاب بقوة	٣٣٨
المبحث الرابع: ذكر زكريا ويحيى عليهما السلام في السنة النبوية المطهرة	٣٤٠
المطلب الأول: زكريا عليه السلام كان نجاراً	٣٤٠
المطلب الثاني: يحيى عليه السلام خلق مؤمناً لم يعص الله	٣٤٠
المطلب الثالث: يحيى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى التوحيد أولاً ثم الصلاة والصيام والصدقة والذكر	٣٤٠
المبحث الخامس: وفاة زكريا ويحيى عليهما السلام	٣٤٢

المبحث السادس: الفوائد المستنبطة من قصة زكريا ويحيى عليهما السلام	٣٤٤
الفصل الرابع والعشرون: قصة مريم وعيسى عليهما السلام	٣٤٦
المبحث الأول: ولادة مريم وكفالتها	٣٤٦
المبحث الثاني: قصة ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام	٣٤٧
المبحث الثالث: فضائل ومناقب مريم وعيسى عليهما السلام في الكتاب والسنة	٣٥٢
المبحث الرابع: قصة المائدة	٣٥٥
المبحث الخامس: قصة رفع عيسى عليه السلام إلى السماء وهل رُفِعَ حياً أم ميتاً؟	٣٥٨
المبحث السادس: المسيحية بعد رفع المسيح عليه السلام	٣٦٢
المبحث السابع: الفوائد المستنبطة من قصة مريم وعيسى عليهما السلام	٣٦٣
الفصل الخامس والعشرون: قصة أهل الكهف	٣٦٥
المبحث الأول: فتية أهل الكهف آية من آيات الله العجيبة	٣٦٥
المبحث الثاني: إعلان الفتية البراءة من الشرك وأهله والفراد بدنيهم	٣٦٧
المبحث الثالث: الفتية وكلبهم بعد دخول الكهف ونومهم ورعاية الله لهم	٣٦٨
المبحث الرابع: الله سبحانه يوقظ أهل الكهف من نومهم الطويل	٣٧٠
المبحث الخامس: اختلاف الناس حول أصحاب الكهف بعد موته	٣٧٢
المبحث السادس: فوائد مستنبطة من قصة أهل الكهف	٣٧٤
الفصل السادس والعشرون: قصة صاحب الجنتين	٣٧٦
المبحث الأول: مثل للمعتز بالدنيا المغرور بها	٣٧٦
المبحث الثاني: فوائد مستنبطة من قصة صاحب الجنتين	٣٨٠
الفصل السابع والعشرون: قصة ذي القرنين	٣٨١
المبحث الأول: اسمه وسبب تسميته بذي القرنين	٣٨١
المبحث الثاني: سيرة ذي القرنين	٣٨٣
المبحث الثالث: فوائد مستنبطة من قصة ذي القرنين	٣٨٦
الفصل الثامن والعشرون: قصة أصحاب الأخدود	٣٨٧



امام الباب الاخير - سيدنا الحسين

٥٩٠٤١٧٥ . ٥٩٢٢٤١٠